

فيودور دوستويفسكي

الرَّسائِل II

ترجمة: خيري الضامن

دار سؤال

رسائل دوستويفسكي

الجزء الثاني

ترجمة

خيري الضامن

دار سؤال ؟

رسائل دوستويفسكي

رسائل دوستويفسكي

Федор Михайлович Достоевский
Том 15. Письма 1834-1881

تنشر في مجلدين بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية

ИНСТИТУТ ПЕРЕВОДА

الطبعة الأولى، 2017

عدد الصفحات: 576

القياس: 14.5 × 21.5

دار سؤال للنشر

لبنان - بيروت

الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس

ص.ب: 58-360-11

هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com @darsouall2014

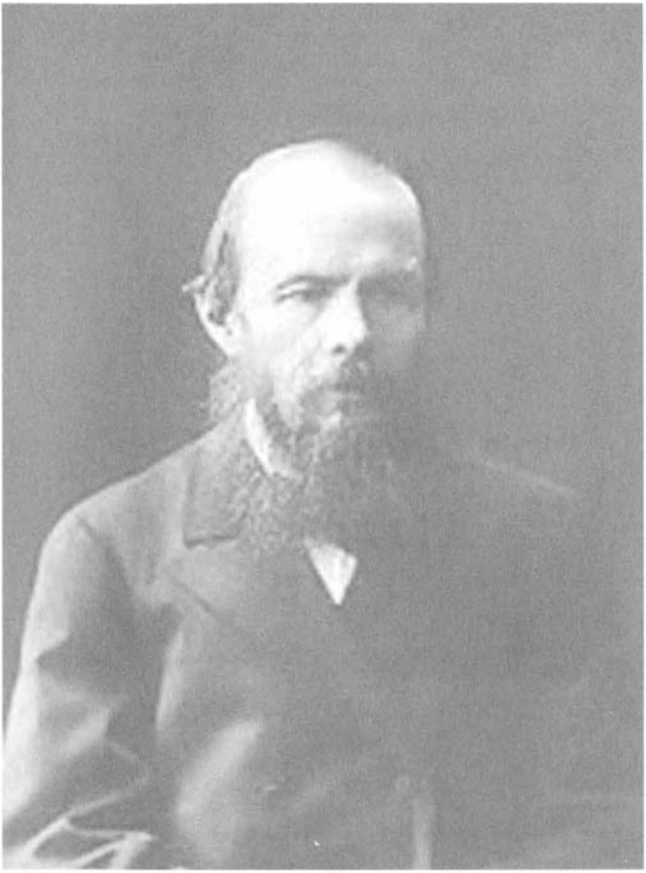
dar_souaal@outlook.com Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-36-0

تصميم الغلاف: محمد النبهان

زيتية الغلاف للرسام الروسي فاسيلي بيروف (1834-1882)

رابعاً:
ما قبل «الشياطين»
(1872-1871)



100. إلى ألكسندر فرانغيل

بطرسبورغ، 18 فبراير 1866

صديقي الطيب القديم ألكسندر يغوروفيتش، أنا مذنب بحقك لصمتي الطويل، لكنني مذنب من دون جريرة. من الصعب عليَّ الآن أن أصف لك حياتي الراهنة كلها وكل ظروفي لتمكينك بوضوح من فهم جميع أسباب صمتي الطويل. الأسباب معقدة ومتعددة. ولذا لا أصفها لك كلها بل أذكر بعضاً منها. أولا- أنا أعكف على الكتابة كالمحكوم بالأشغال الشاقة، وأعني نفس الرواية لأجل «البشير الروسي»[1]. الرواية مطولة في 6 أجزاء. في أواخر نوفمبر أنجزت الكثير وبات جاهزاً، لكنني أحرقته كله[2]. الآن يمكنني أن أعترف بذلك. لم يعجبني أنا نفسي. فقد أغواني الشكل الجديد والمخطط المستحدث، وها أنا أكتب الرواية من جديد. أعمل ليل نهار. ورغم ذلك عملي قليل. الحسابات تفيد بأنني ينبغي أن أسلم «البشير الروسي» 6 ملازم طباعية كل شهر. وهذا شيء فظيع، قد أكون حققته لو توفرت حرية الروح. الرواية مسألة شاعرية يتطلب أداؤها استقراراً نفسياً وتصورات طليقة، فيما يلاحقني الدائنون مهددين بزجي في غياهب السجن. لحد

الآن لم أسوِّ الأمر معهم، وربما لا أعرف هل أسوّيه أم لا؟ رغم أن الكثيرين منهم عقلاء يتقبلون اقتراحي بتقسيط التسديد لهم على خمسة أعوام. ولكنني لم أتمكن حتى الآن من التفاهم مع بعضهم. ولك أن تفهم مدى قلقي. وهو يثقل على النفس والفؤاد ويعكر المزاج لعدة أيام، بينما أنا مضطر للكتابة. وهي تتعذر أحياناً. ولذا يصعب، واللّه، العثور على لحظة هدوء يمكنني فيها أن أتحدث إلى صديقي القديم. يضاف إلى ذلك مرضي. في البداية، حالما عدت، عذبتني النوبات بشكل فظيع. بدا الأمر وكأن الصرع أراد أن يعوض عن الأشهر الثلاثة التي قضيتها من دونه في الغرب. وإلى ذلك يعذبني التهاب البواسير منذ شهر. ولعلك لا تعرف شيئاً عن هذا المرض ونوباته. فللعام الثالث على التوالي يداهمني شهرين في السنة، فبراير ومارس. وبأي حال: عليَّ أن ألازم الأريكة منبطحاً طوال خمسة عشر يوماً. ولا أستطيع أن أستخدم ريشة الكتابة 15 يوماً. وفي الـ 15 يوماً المتبقية يجب أن أكتب 5 ملازم. وعليَّ أن أرقد صحيح الجسم تماماً، لمجرد أنني لا أستطيع الوقوف والجلوس بسبب التشنجات التي تبدأ حالما أنهض من الأريكة. الآن، ولليوم الثالث، حالتي أهون. عالجني (الدكتور) بيسر. أتصيد لحظات الفراغ لأتحدث إلى الأصدقاء. وكنت متألماً جداً لأنني لم أرد عليك. ليس عليك وحدك، بل لم أرد أيضاً على الآخرين الذين يمتلكون حقاً في فؤادي. عندما ذكرت لك إشكالاتي المزعجة لم أحدثك عن المشاكل العائلية، وعن المشاغل المتواصلة بخصوص أمور المرحوم أخي وأسرته وأمور مجلتنا المتوفاة. لقد أصبحت عصبياً منفعلاً، وفسدت طباعي. ولا أدري إلى أين سيصل بي هذا الوضع. طول الشتاء لم أزر أي مكان، ولم أر أحداً أو شيئاً. ذهبت إلى المسرح مرة واحدة لمشاهدة العرض الأول

(لأوبرا) «روغنيدا»[3]. وسيستمر الحال على هذا المنوال حتى الفراغ من كتابة الرواية، إذا لم يزجوني في سجن الديون.

والآن أرد على كلماتك. كتبت تقول إن الأفضل لي أن أعمل في «خدمة التاج» (أي في دوائر الدولة). لا أعتقد. الأنفع لي أن أعمل حيث يمكن استحصال نقود أكثر. لدي في مضمار الأدب اسم يوفر لي لقمة العيش دوماً، لولا الديون، بل وكذلك لقمة دسمة لذيذة كما كان الحال حتى السنة الأخيرة. بالمناسبة أحدثك عن أشغالي الأدبية الراهنة. وستعرف حقيقة الأمر من هذا الحديث. أرسلت من الخارج، بسبب ضيق الحال، عرضاً إلى كاتكوف بأرخص أجر بالنسبة لي هو 125 روبلاً للملزمة عندهم، ما يعادل 150 روبلاً للملزمة في «المعاصر». فوافقوا. ثم عرفت أنهم وافقوا بسرور، لأنه لم يكن لديهم من الأدب الروائي شيء لهذا العام. تورغينيف لا يكتب[4]. وحصل خلاف بينهم وبين ليف تولستوي[5]. فكان أن جئت أنا لهم بسفينة النجاة. أعرف ذلك من مصادر موثوقة. إلا أنهم كانوا حذرين جداً مني واعتمدوا أساليب السياسة في التعامل معي. فهم من أشد البخلاء. ولذا بدت الرواية في نظرهم ضخمة. فكانوا يخشون الدفع على 25 ملزمة، وربما 30، مبلغ 125 روبلاً للملزمة الواحدة. باختصار، كانت سياستهم تتلخص في تقليل أجر الملزمة،(. . .) بينما تتلخص سياستي في زيادته. وهكذا يجري بيننا صراع صامت. ويبدو أنهم يريدون أن آتي إلى موسكو، لكنني أنتظر، وهدفي هو الآتي: الرواية ستكون رائعة للغاية إن شاء اللّه. وأريد أن يصدر منها ما لا يقل عن ثلاثة أجزاء؛ أي نصفها، ليكون لها تأثير على الجمهور، وعندها أسافر إلى موسكو وأرى كيف يستطيعون أن يقللوا الأجر؟ لربما، بالعكس، يزيدونه. وسيكون ذلك عند حلول عيد المرافع.

وإلى ذلك سأحاول أن لا آخذ النقود هناك مقدماً. ولذا أبخل على نفسي وأقتر وأعيش في فقر مدقع. فما هو لي سيبقى لي. أما إذا أخذته مقدماً فلن أكون حراً من الناحية الأخلاقية عندما أتحدث معهم نهائياً فيما بعد عن الأجر. قبيل أسبوعين نشر الجزء الأول من روايتي في عدد يناير، الأول، من «البشير الروسي» تحت عنوان «الجريمة والعقاب». وقد سمعت الكثير من الإطراء والإعجاب، فهناك أمور جريئة وجديدة. ويؤسفني أنني لا أستطيع أن أرسله إليكم. هل يعقل أنه لا يوجد عندكم مشترك في «البشير الروسي»؟

والآن اسمع ما يلي: لنفترض أنني سأوفق في إنهاء الرواية بشكل جيد. بالشكل الذي أتمناه. فأنا أحلم ببيعها لأحد الناشرين في طبعة ثانية هذا العام. فأستلم ألفين وربما ثلاثة آلاف إضافية. فهل تعطي الخدمة في دوائر الدولة ريعاً كهذا؟ أكيد أنني سأبيعها في طبعة ثانية. لأن كل مؤلفاتي نشرت بهذه الطريقة. إلا أن المشكلة هي أنني لا أستطيع أن أفسد الرواية. وهذا ما أتوجسه. فإذا سجنوني بسبب الديون فسأفسد الرواية على الأغلب، بل ولا أنهيها، وعندئذٍ ينهار كل شيء.

ها أنا قد كتبت الكثير من الهذر عن نفسي. فلا تعتبر ذلك أنانية مني. إنه يحصل لجميع الذين يقبعون طويلاً في جحورهم صامتين.

تقول إنك وعائلتك استبردتم ومرضتم جميعاً، هذا شيء مؤسف صعب. حياة الخارج ينبغي أن تكافئكم بالصحة على الأقل. فماذا كان سيحصل لك ولعائلتك هذا الشتاء لو كنتم في بطرسبورغ؟ ما حدث عندنا فظيع. وفي الصيف ربما تزورنا الكوليرا. بلّغ زوجتك احتراماتي الصادقة وتمنياتي لها بموفور السعادة، والأهم أن تبدأ بالصحة. صديقي الطيب، أنت، على الأقل، سعيد في أسرتك، بينما

حرمني المصير من هذه السعادة العظيمة، السعادة البشرية الوحيدة. صحيح أنك ملزم بالكثير للعائلة. كتبت لي عن اقتراح والدك ورفضك له. لا يحق لي أن أنصحك بشيء في هذا الخصوص، لأنني في الواقع لا أعرف المشكلة بكاملها. ولكن خذ بنصيحة صديقك في ما يلي: لا تستعجل في القرار، لا تقل كلمتك الأخيرة، واترك البتّ النهائي في المسألة إلى الصيف عندما تعود بنفسك. فهذه القرارات تتخذ لمدى الحياة. إنه انعطاف في الحياة بمجملها. حتى إذا قررت في الصيف أن تواصل الخدمة فلا تقل مع ذلك كلمتك الأخيرة واترك الأمر للملابسات.

في الصيف أظن أني سأكون في بطرسبورغ، وبالتالي سنلتقي. عندها سنتحدث عن الكثير من الأمور. على فكرة، أنا مسرور جداً لأنك مهتم لهذا الحد بحياتنا الروسية الداخلية، الفكرية والمدنية. ويسرني جداً كصديق أنك بهذه الخصال على الرغم من أنني لا أوافقك في جميع الأمور. فلك نظرة استثنائية إلى الكثير منها. هل تغترف المعلومات من الصحف الأجنبية؟ فهي دأبت على تشويه كل ما يتعلق بالشأن الروسي. إلا أن تلك مسألة واسعة. وأعتقد أن من يعيش في الخارج لا بد أن يتأثر بالصحافة الأجنبية. وقد جربت ذلك بنفسي. لكنني أشعر بأني أوافقك في الكثير، بل والكثير جداً.

«الخبر» تصدر من قبل اثنين من الناشرين والمحررين هما سكارياتين ويوماتوف.

وداعاً يا صديقي الطيب، إلى اللقاء. آمل أن أبادلك في رسالة لاحقة أخباراً أكثر مسرة. إن شاء الله. أما الآن فاسلم لصديقك

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: قبّل نيابة عني (بناتك) الجميلات.

حاجياتك المتبقية عندي سالمة ومحفوظة في الخوان. أنا مدين لك يا صديقي. انتظر بعض الوقت، وسأفي بديني. حالياً أنا أستبخل وأقتر. يا ليتك تعلم كم عليَّ أن أنفق هنا من النقود.

لا أعرف الآن ماذا سأفعل بعد أن أنهي الرواية. المهم أن يتجدد اسمي الأدبي آنذاك.

ويمكنني أن أشرع بكتابة شيء ما في الخريف. لدي خطة، لكن التعقل أو الاعتدال ضروري.

وإليك واقعة أخرى: تتزايد بشكل غير مسبوق الاشتراكات في جميع المجلات وتنتعش تجارة الكتب. هذه آخر المعلومات من الناشرين وتجار الكتب، بل ومن معلوماتي أيضاً.

---

(1) «الجريمة والعقاب».

(2) لا أحد يعرف أي الأجزاء من مخطوطة الرواية أحرقها الكاتب.

(3) للملحن ألكسندر سيروف (1820-1871)، والد الرسام الروسي الشهير فالنتين سيروف (1865-1911).

(4) لعل دوستويفسكي يعرف من إحدى رسائل تورغينيف إليه أنه ملَّ من الأدب ولن يكتب فيه بعد الآن.

(5) الخلافات بين تولستوي وكاتكوف تكررت عدة مرات. ولم ينشر تولستوي «الحرب والسلام» في «البشير الروسي».

101. إلى ميخائيل كاتكوف

بطرسبورغ، 25 أبريل 1866

السيد الكريم ميخائيل نيكيفوروفيتش.

أشكرك من صميم القلب على المساعدة التي قدمتها لي بإرسال الـ 1000 روبل، وأعتذر صادقاً لأني تأخرت كثيراً في تقديم الشكر لك. بعثت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» ثلاثة فصول قبل أسبوع. وسأحاول عدم التباطؤ في الإرسال لاحقاً. العمل صعب جداً عليَّ هنا. بسبب التوعك والمشاغل البيتية. لكنني أسابق الزمن على أية حال. وقد تأخر سفري إلى الخارج للظروف الحالية[1]، لأنني لا أزال تحت الرقابة منذ عودتي من المنفى. ثم الحرب في أوروبا[2]. ولذا لا أعرف إطلاقاً أين سأقضي الصيف.

قد لا تصدق بمدى إعجابي «بالوقائع الموسكوبية» حالياً. فقد رأى الجميع وعرفوا أنها كانت دوماً جريدة مستقلة من دون أية توجيهات ومعونات، ومن المهم جداً أن يعرف الجميع ذلك في الأخير. فهي منطلق. ولا مؤاخذة على كلمتي الصريحة. فالجمهور، الجموع على الأقل، كانت حتى الآن واثقة من العكس. ومن حسن

الحظ أن الجميع عرفوا. وما أخس الدور الذي تولاه طفيليونا الذين دأبوا على تلقّي المعونات مهما كانت ومن أية جهة جاءت. (. . .) فعمّن يدافعون؟

أقول بصراحة إنني كنت وسأبقى إلى الأبد، على ما يبدو، من دعاة السلافية الثابتين، ما عدا بعض الخلافات الطفيفة، وبالتالي لا أستطيع أن أوافق «الوقائع الموسكوبية» في نقاط مغايرة. وأنا أدرك تماماً، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر، أنني لن أخيفك كثيراً بهذا الكلام. والغرض من كتابتي هذه أنني أردت من كل بد أن أعبّر لك عن أصدق الامتنان وأعمق الاحترام على الحقيقة وعلى نشاطك الرائع، وخصوصاً في هذه الآونة. ولكي أعبّر عن ذلك، ولا أدري لماذا، خيل إليَّ أنني يجب أن أعرض عليك مسبقاً معتقداتي الحقيقية. وقد يكون ذلك من السذاجة بمكان. ولمَ لا أكون ساذجاً مرة واحدة على الأقل؟

المراسلات الواردة إلى «الوقائع الموسكوبية» من بطرسبورغ كلها صحيحة. إلا أن الكثيرين جداً هنا يؤمنون بأن القضية ستنتهي إلى العدمية وحدها، فيما يظهر تأثير جذر الشرور بعد عدة سنوات بالطريق التاريخي طبعاً. وقد صادف وسمعت رأياً يقول إن «الوقائع الموسكوبية» قلّما تبدي اهتماماً بالنهلستية، العدمية، وإن مصدر الشرور وبداياته ليست في هذه النزعة، وإن العدميين بحد ذاتهم ليسوا قادرين على كل شيء. وإن علم نفض «أطراف السُفرة الأربعة[3] وصولاً إلى الخشبة النظيفة لممارسة العمل»[4] لا يتعمق إلى الجذور. كل العدميين هم نفس الاشتراكيين. والاشتراكية، وخصوصاً في صيغتها الروسية المحوّرة، تتطلب تحديداً بتر جميع الروابط. فهم واثقون تماماً بأنهم سيبنون الجنة رأساً على «الخشبة النظيفة». وفي

رأي فوريه ما إنْ يتم بناء «قصر الكتائب» حتى يمتلأ العالم بالقصور. هكذا يقول. أما صاحبنا تشيرنيشيفسكي فيؤكد أن ربع ساعة من الكلام مع الشعب تكفيه ليقنعه بتبني الاشتراكية. ولدى فتياتنا وفتياننا الروس المساكين الذين لا حامي لهم نقطة أساسية دائمية ستظل الاشتراكية قائمة عليها لأمد طويل، وأعني التحمس للخير ونقاوة الأفئدة. المحتالون والمفسدون بينهم كثيرون. إلا أن جميع هؤلاء التلاميذ والطلبة الذين رأيتهم بكثرة توجهوا بنزاهة وتفانٍ صوب العدمية من أجل الكرامة والحقيقة والمنفعة الخالصة. فهم عرضة لهذه الترهات ويتقبلونها على أنها هي الكمال بعينه. بديهي أن العلم السليم سيقتلع تلك الترهات من الجذور. ولكن متى؟ وكم من الضحايا ستبتلعهم الاشتراكية حتى ذلك الحين؟ ثم إن العلم السليم، رغم تسارعه، لن يقضي على هذه الشوائب الضارة قريباً، لأن هذا العلم لا يزال مجرد علم وليس نوعاً مباشراً من النشاط المدني والاجتماعي. في حين أن المساكين واثقون بأن العدمية تمكنهم بأكمل صورة من إظهار حريتهم ونشاطهم المدني والاجتماعي.

أخباركم عن النشاطات في أوقات الفراغ صحيحة بالكامل أيضاً[5]. الجميع خائفون وواضح أن بداية هذا الخوف قائمة على الدسائس. فهل تعرف ماذا يقول البعض؟ يقولون إن الرابع من أبريل دلل بالحسابات الرياضية على الوحدة الاستثنائية المقدسة الجبارة بين القيصر والشعب. وفي ظل هذه الوحدة يمكن أن تزداد ثقة بعض المسؤولين الحكوميين بالشعب وبالمجتمع. إلا أن الناس يتوقعون، بفزع الآن، التضييق على حرية الرأي والتعبير. وينتظرون فرض وصاية البلاط. فكيف يمكن مكافحة العدمية من دون حرية التعبير؟ لو تمتع حتى العدميون بحرية الرأي لكان الموقف أنفع. عندذاك سيثيرون

سخرية روسيا كلها بتوضيحاتهم البائسة لإيجابية تعاليمهم. أما الآن فقد ألبسوهم لبوس الغموض، لبوس الألغاز والحكمة والغيبيات. وهذا يستهوي السذج من الناس. ويقول البعض الآخر لمَ لا نجعل التحقيقات علنية؟ فلربما لا يوجد لديهم في ديوان البلاط شخص يجيد الكلام مع العدميين. أما إذا كانت التحقيقات علنية فالمجتمع كله سيساعد، ولن تبتلع أسرار الديوان حماسة الشعب كما هو الحال الآن. ويرى هذا البعض في ذلك تردد الإجراءات الحكومية وتهيبها والتقيد بالأشكال القديمة. إنهم لا يثقون بالناس، ويخشون ردة فعلهم.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

المعذرة على بعض التصحيحات في الرسالة. لا تعتبر ذلك من قبيل الإهمال. فأنا لا أجيد الكتابة بشكل آخر حتى أثناء تبييض المسودات.

---

(1) يقصد «بالظروف الحالية» تشديد الرقابة بعد محاولة اغتيال القيصر ألكسندر الثاني.

(2) كانت الحرب بين النمسا وبروسيا على الأبواب.

(3) في الأصل بالفرنسية.

(4) باللاتينية.

(5) يرى بعض النقاد أن موافقة دوستويفسكي على آراء كاتكوف المناوئة للفعاليات الاجتماعية ليست صادقة تماماً.

102. إلى آنّا كورفين- كروكوفسكايا

موسكو، 17 يونيو 1866

آنّا فاسيليفنا المحترمة

لا تزعلي مني لأنني لم أجب كل هذه الفترة. كنت متردداً طول هذا الوقت ولا أعرف كيف سيكون حالي في الصيف. لم أرد على رسالتك لأنني فكرت أن أراك قريباً في طريقي إلى الخارج. إلا أن الأعمال باتت تحول دون سفري، الآن على الأقل، رغم حصولي على التأشيرة. ينبغي أن أنهي شغلة[1] في موسكو من كل بد. باختصار، لم أتمكن أن أكتب لك شيئاً واضحاً ودقيقاً، ولذا لم أرد. أنا في موسكو منذ أربعة أيام، ولا أعرف إطلاقاً متى أتفرغ. والأهم أن لدي الآن، فضلاً عن إنهاء الرواية التي مللت منها، أشغالاً كثيرة تجعلني لا أفهم كيف سأكملها. وهي أمور هامة بالنسبة لي، وعليها يتوقف مستقبلي. تصوري، والحال هذه، ما حصل لي من حادثة لافتة ومميزة. في العام الماضي كانت أحوالي المالية متدهورة لدرجة اضطررت معها إلى بيع حقوق إصدار كل ما كتبته قبل ذلك في طبعة واحدة فقط إلى أحد المضاربين، وهو ستيلوفسكي، الإنسان السيّئ

الصيت والناشر الذي لا يفقه شيئاً في مهنته. إلا أن العقد بيننا تضمن فقرة تنص على التزامي بكتابة رواية له لا تقل عن 12 ملزمة طباعية، وإذا لم أسلمها في الأول من نوفمبر 1866، كموعد أخير، يحق له، هو ستيلوفسكي، أن يصدر كما يحلو له طوال تسعة أعوام كل ما أكتبه في هذه الفترة من دون أي مكافأة. باختصار، هذه الفقرة في العقد تشبه تماماً فقرات عقود الإيجار في بطرسبورغ، حيث يطالب صاحب البيت نزيله بدفع تكاليف الإطفاء والأضرار إذا حصل حريق في البيت، بل ويبنيه من جديد إذا اقتضى الأمر. الجميع يوقّعون ضاحكين عقوداً من هذا النوع. على هذه الشاكلة وقّعت أنا العقد مع الناشر. الأول من نوفمبر يحل بعد أربعة أشهر، كنت أفكر في أني سأتخلص من ستيلوفسكي بدفع غرامة نقدية. لكنه يرفض. طلبت منه تأجيلاً لثلاثة أشهر، فرفض، وقال لي بصراحة: بما أنه على يقين بأنني لن أتمكن أبداً من كتابة رواية في 12 ملزمة، لا سيما وأنني لم أؤلف لأجل «البشير الروسي» سوى نصف المطلوب، فالأنفع له رفض التأجيل والغرامة، لأن كل ما سأكتبه فيما بعد يغدو ملكاً له.

أنا أريد أن أقوم بشيء غير مسبوق وغير مألوف. أريد أن أكتب 30 ملزمة طباعية في 4 أشهر ضمن روايتين مختلفتين، إحداهما أؤلفها صباحاً والأخرى مساءً. وأنهيهما في الموعد[2]. هل تعلمين، يا عزيزتي الطيبة آنّا فاسيليفنا، أن مثل هذه الحوادث الطارئة وغير المألوفة لا تزال تعجبني حتى الآن. أنا لا أصلح لأن أكون من البشر الذين يعيشون برصانة ورزانة. لا مؤاخذة على هذا التباهي. ولكن ماذا بقي لي غير التباهي؟ ما بقي لا يثير الاهتمام أبداً. فكيف يبدو الأدب والحال هذه؟ أنا واثق بأنه ما من أحد من أدبائنا السابقين والحاليين كتب في ظروف تشبه الظروف التي أكتب فيها دوماً.

تورغينيف كان سيموت بفعل فكرة واحدة. ويا ليتك تعرفين مدى الألم الذي يخلفه إتلاف الفكرة التي يتمخض عنها الذهن وتثير الحماسة في النفس، الفكرة التي يعرف الشخص أنها جيدة لكنه مضطر إلى إتلافها عمداً. أنت تريدين السفر إلى بافلوفسك. اكتبي لي متى تسافرين تحديداً. فأنا أود جداً أن أحل ضيفاً عليكم في (ضيعة) باليبينو. ولكن هل أستطيع أن أعمل هناك كما تعودت؟ هذه مسألة هامة بالنسبة لي. ثم ليس لائقاً من جانبي أن آتي إليكم وأنشغل في الكتابة طول الوقت.

اكتبي لي عن كل شيء. ولا تتركيني رجاءً.

تحياتي لكم جميعاً. وإلى اللقاء.

المخلص فيودور دوستويفسكي

إذا أجبتني الآن إليك عنواني: في موسكو إلى ألكسندر بافلوفيتش إيفانوف في معهد قسطنطينوفسكي للمساحة على شارع ستارايا باسمانيا، جنب القديس نيكيتا، ليد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

معذرة على الشطب والتصحيح في الرسالة، فلا تعتبريهما من الإهمال.

(1) المقصود الخلاف الشديد الذي حصل بين دوستويفسكي وهيئة تحرير «البشير الروسي» في صيف تلك السنة.

(2) خلال عام 1866 أنهى دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» وكتب «المقامر» وسلمها إلى الناشر ستيلوفسكي بموجب العقد غير المألوف.

103. إلى نيكولاي لوبيموف

لوبلينو (موسكو) 8 يوليو 1866

تأخرت عليك، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم، ليوم واحد، لكنني عدلت (النص)، فبات في اعتقادي مقبولاً[1].

الخير والشر منفصلان تماماً، ولم يعد بالإمكان أبداً الخلط بينهما وتأويلهما بالمقلوب. وبالقدر نفسه عالجت باقي التصحيحات التي أشرتَ إليها، بل وأكثر، على ما أظن. وإلى ذلك أعبّر لك عن شكري على توفيرك الفرصة لي لأعيد النظر مرة أخرى في المخطوطة قبل الطبع. وأقول جازماً إنني ما كنت سأتركها من دون تصحيحات.

والآن عندي إليك رجاء كبير: اترك الباقي على حاله الراهن، لوجه المسيح. كل ما تحدثتَ عنه نفذته. كل شيء محدد منفصل وواضح. تلاوة الإنجيل اتخذت تلويناً آخر. باختصار: اسمح لي أن أعتمد عليك يا نيكولاي ألكسييفيتش الطيب، حافظ على روايتي المسكينة.



نيكولاي لوبيموف

سأوافيكم بالفصل الرابع في أسرع وقت، ولكن ليس قبل يوم الأربعاء. أو ربما الثلاثاء.

المخلص ف. دوستويفسكي.

(1) نيكولاي لوبيموف المحرر التنفيذي لمجلة «البشير الروسي». في هذه االرسالة صدى للخلاف بين دوستويفسكي والمجلة بشأن «الجريمة والعقاب».

104. إلى ألكسندر ميلوكوف

لوبلينو، 10 - 15 يوليو 1866

الصديق العزيز ألكسندر بيتروفيتش المحترم. مر أكثر من شهر على مغادرتي بافلوفسك حيث بقيت أنت هناك. والآن فقط تهيأت للكتابة إليك على الرغم من تفكيري المتواصل في ذلك. أنا لن أتحجج بالأشغال والهموم. كل ما في الأمر أنني غارق دوماً بتلك الهموم، ولذا أرجأت الكتابة رغم توفر الوقت، إلى أن نكون أكثر تفرغاً من الناحية الأخلاقية.

ولكن يكفينا الاعتذار. فهو لا يسوّي الأمور أبداً. والأفضل أن ندخل رأساً في صلب الموضوع. أقول عن نفسي إنني أقمت في موسكو بادئ ذي بدء في (فندق) ديوسو(. . .) وأمضيت أسبوعاً أتناول طعام الغداء في «المقصف الموسكوبي» (لصاحبه بيتشكين) وأتجول يومياً في حديقة الكرملين وأحتسي شراب الكفاس في مقهى «سوندوشني». إلا أن الحر الذي لا يطاق والجو الخانق، والأدهى من ذلك رياح السموم مع سحب الغبار الصخري الأبيض المتراكم من عهد يوحنا كاليتا[1]، من حيث الكم على الأقل- كل ذلك أرغمني

على الفرار من هذه المدينة. فلم يكن العمل هناك ممكناً على الإطلاق. كانت غرفتي في الفندق، رغم جودتها، أشبه بالفرن الروسي عندما ينظفون وجاقه ويدسون في باطنه العجين. ولن يجدي نفعاً شراب الكفاس أو (عصير) الكرز والكمثرى. فعزمت على الفرار. وإلى ذلك شعرت بكآبة قاتلة. فما عدا فيليبوف لم يكن في المدينة أحد أعرفه. الجميع في منازلهم الصيفية. ذهبت إلى بليشييف، ولم أجده في البيت، فهو يقيم في الريف. عائلة أكساكوف غير موجودة، وكذلك يانوفسكي. لا أحد إطلاقاً. أقربائي يقيمون جميعاً في البيت الصيفي (بضاحية) لوبلينو (. . .) على مسافة 8 فراسخ من موسكو(2). الذهاب إليهم مكلف من حيث الوقت والنقود، على الرغم من أنه بات ضرورة أخلاقية بسبب وحدتي. فكرت طويلاً حتى قررت أن أنتقل بنفسي إلى منزل ريفي في لوبلينو كان فارغاً بالصدفة في أواخر يونيو. وقد استأجرته بنصف الثمن المعتاد لمعرفتي بأصحابه.

وتطلب ذلك نفقات كبيرة: كنت مضطراً لشراء سماور وأكواب ودلة للقهوة، بل وحتى بطانية. كما استأجرت أثاثاً، وسددت قسماً من الإيجار، واستدعيت بافل تخلصاً من الكوليرا (في بطرسبورغ)، وما إلى ذلك. عموماً كل التنقلات كالتي أقوم بها من بطرسبورغ إلى موسكو، رغم فائدتها من الناحية الصحية وتوفير الاستقرار النفساني بالنسبة لي، إنما تتطلب دوماً نفقات مادية هائلة ووقتاً طويلاً. وهكذا ورغم استقراري نهائياً أكثر من أسبوعين في لوبلينو التي هي من أروع الأماكن في العالم، وفي وسط اجتماعي مريح للغاية، إلا أنني لم أنجز الكثير عموماً، ولا أزال أفكر في بدء العمل فعلاً مع أنني كنت منشغلاً جداً فيه خلال الأسبوعين المنصرمين. والفرصة متوفرة

لمضاعفة العمل مرتين تقريباً. وأنا أحتفظ بقواي للفترة الأخيرة، أي لشهر أغسطس.

كاتكوف في المنزل الريفي بمنطقة بستان بتروفسكي، وكذلك لوبيموف، المحرر التنفيذي «للبشير الروسي». ولا تجد في هيئة التحرير سوى السكرتير الذي يقتله الملل ولن تعرف منه شيئاً. إلا أنني وجدت لوبيموف على أية حال في الأيام الأولى. كانت عنده ثلاثة فصول لي في طور التنضيد. واقترحت عليه أن أكتب الفصل الرابع بسرعة، في أربع ملازم، حتى يكتمل نصف نهاية الجزء الثاني من الرواية، ويبقى للعدد التالي من المجلة 4 فصول، أي النهاية الكاملة لذلك الجزء. إلا أن لوبيموف قال لي منذ الكلمات الأولى: «كنت أنتظرك لأخبرك بأننا في يونيو ويوليو ينبغي أن ننشر القليل، بل وينبغي أن نفوت شهراً، فتلك أشهر الصيف، والأفضل أن نرتب الأمر بحيث ننشر النصف الثاني من الرواية بكامله في فصل الخريف، لتأتي السطور الأخيرة في ديسمبر[3]، لأن تأثيرها سيساعد على تفعيل الاشتراكات السنوية.» ولهذا الغرض تقرر تفويت شهر آخر. وهكذا تنشر الفصول الأربعة، بأربع ملازم، في العدد الذي يصدر في يوليو، وقد سلمت إلى التنضيد.

إلا أن حسابات لوبيموف، كما اتضح فيما بعد، تنطوي على فكرة أخرى، غادرة تماماً بالنسبة لي. وهي أن أحد هذه الفصول الأربعة التي سلمتها لا ينبغي أن ينشر. هذا ما قرره لوبيموف ووافق عليه كاتكوف. وقد تجادلت معهما مصراً على رأيي. ليس لدي شك في جودة الفصل المذكور. فقد كتبته في حالة من الإلهام الحقيقي. وحتى لو كان رديئاً، إلا أن المسألة بالنسبة لهم ليست في المزايا الأدبية، بل في المخاوف على الأخلاق. وكنت محقاً من هذه الناحية. فليس في

الفصل ما يتعارض مع الأخلاق، بل هو على العكس تماماً، بيد أن لهما رؤية أخرى. وإلى ذلك يريان فيه أثراً للعدمية. ولذا أعلن لوبيموف بحزم عن ضرورة إعادة كتابة هذا الفصل. أخذته وصرفت على إعادة كتابته، وهو فصل كبير، وقتاً كالذي أحتاج إليه لكتابة 3 فصول أخرى، في أقل تقدير، إذا أخذنا في الاعتبار المجهود والاكتئاب الملازم لي، لكنني صححته وسلمته. والمشكلة أنني لم أرَ لوبيموف بعد ذلك. ولا أدري هل يرضيهما التعديل، وهل سيعدلان الفصل أكثر؟ كما حصل الشيء ذاته مع فصل آخر من هذه الفصول الأربعة، حيث قال لي لوبيموف إنه اختصره في مواضع كثيرة. وأنا لست مهتماً جداً بهذه المسألة، لأن الاختصار شمل أموراً ليست ذات شأن.

ولا أدري ماذا سيحصل لاحقاً. إلا أنني قلق جداً لتقاطع الآراء مع هيئة التحرير في سياق نشر الرواية.

أنا لم أشرع بتأليف رواية (للناشر) ستيلوفسكي، ولكنني سأبدأ بها.[4] فقد وضعت خطة رواية مقبولة، تتضمن مؤشرات على طباع قوية. إلا أن ستيلوفسكي يلاحقنى لحد الأذى، حتى صرت أراه في المنام.

عموماً أكتب لك بصورة سطحية وباستعجال، مع كثرة ما كتبت. باللّه عليك أجبني. اكتبْ لي عن حياتك ومزاجك وصحتك. واكتبْ لي عن أهلنا في بافلوفسك.[5] ثم هل سمعت شيئاً؟ احتراماتي الصادقة إلى لودميلا ألكساندروفنا، ذكّر أولادك بي. وبلّغ تحياتي إلى معارفنا. إلى اللقاء يا صديقي الطيب، أعانقك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

لم تحصل لي نوبات صرع بعد. أنا أشرب الفودكا.[6]
ما أخبار الكوليرا؟

---

(1) في عهد الأمير إيفان الأول كاليتا (1283-1340) شيدت أغلب كنائس موسكو من الحجر الأبيض المتوفر بكثرة في ضواحي المدينة.

(2) لوبلينو حالياً من حارات العاصمة الروسية.

(3) بالفعل فرغت «البشير الروسي» من نشر «الجريمة والعقاب» في ديسمبر 1866.

(4) المقصود رواية «المقامر».

(5) يقصد إميليا دوستويفسكايا وأولادها.

(6) يُقبِل الناس في روسيا على الفودكا في زمن الكوليرا.



105. إلى ميخائيل كاتكوف

لوبلينو، 19 يوليو 1866

ميخائيل نيكيفوروفيتش المحترم

راجعت البروفة[1] وأعدت كلمتين أو ثلاثاً لم تكن واضحة في المخطوطة. وفيما يخص الشطب والتعديلات التي أجريتموها فإن بعضها، كما هو واضح الآن، ضروري بالطبع. إلا أن بعض مواضع الشطب في الأخير تحز في نفسي. على أية حال، فليكن كما تشاؤون. أنا أثق بك تماماً كمحكم أدبي. لا سيما وأن لدي خاصية غريبة حيث أفقد القدرة على انتقاد ما أكتب، لبعض الوقت على الأقل. ولكن بودّي أن أطلب منكم أن تعيدوا ما شطبتموه في الصفحة 786. وقد علّمت هذا الموضع بالقلم الرصاص. فمن الواضح للقارئ أن البطل عندما يقول إنه سعيد فذلك بالطبع ليس لأنه يتباهى بتصرفاته. على أية حال إذا كنتم لا تستطيعون إعادة المشطوب فليكن. لا حيلة في الأمر.

وتقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: أنا آسف ليس على جميع مواضع الشطب في الأخير. بعضها أدى بالفعل إلى تحسين النص. أنا أتحسس بألم كبير من عشرين عاماً، وأرى بأوضح من الجميع، العيب الأدبي عندي وهو الإسهاب. لا أستطيع التخلص منه بأية حال.

(1) الحديث عن «الجريمة والعقاب».



106. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 2 نوفمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

في 31 أكتوبر أنهيت رواية بـ 10 ملازم وسلمتها أمس بموجب عقد مع ستيلوفسكي. وقد أخبرتك بالعقد، كما أخبرت ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف) عندما طلبت منه تسهيلاً لمدة شهر. هذه الملازم الطباعية العشر بدأتها وأنهيتها في شهر واحد. والآن أعكف على خاتمة «الجريمة والعقاب». سأعمل بلا كلل وأنوي أن أنتهي حتماً في 20 ديسمبر وأسلم، على الأقل، ما ليس أسوأ مما نشر.

يمكنني طبعاً أن أبدأ بإرسال الرواية قريباً، ولكن ليس قبل 15 نوفمبر فصلاً فصلاً، ولذا يمكن أن تظهر عدة فصول في عدد «البشير الروسي» العاشر القادم. أنا مسؤول عما أقول. ولكن، أليس من الأفضل، يا نيكولاي أليكسييفيتش الموقر، أن ينشر الجزء الثالث من الرواية بكامله في العددين 11 و12، بمعنى عدم نشر شيء في العدد العاشر، إن أمكن، وإعلام الجمهور بالمناسبة أن المجلة ستفرغ حتماً من نشر «الجريمة والعقاب» في العددين القادمين، أي هذا العام؟

إذا تم الأمر على هذا النحو ستكون خاتمة الرواية أكثر تأثيراً في اعتقادي. وأنا شخصياً أرغب في ذلك.

إلا أن القرار، بالمناسبة، متروك لهيئة التحرير. ولذا أرجوك كل الرجاء، يا نيكولاي ألكسييفيتش، إبلاغي بقرار هيئة التحرير. لأنني لن أضيع دقيقة واحدة هنا، وسأكون مستعداً لقبول أي قرار تتخذونه.

ولدي رجاء ملحّ آخر. في الحال الحاضر أنفقت كل نقودي. صرفت ثلاثة أرباع المبلغ الذي استلمته من هيئة التحرير على تسديد مستحقات الدائنين. ومع ذلك لا يزالون يلاحقونني. ثم إنني لا أملك ما أعتاش عليه. فأرجوك أن تعرض حالي على ميخائيل نيكيفوروفيتش وتنقل إليه رجائي الملحّ. أليس بإمكانه أن يساعدني مرة أخرى؟ حالياً أنا بحاجة إلى 500، خمسمئة روبل. ووفقاً لحساباتي يبلغ ديني لهيئة التحرير الآن 600، ستمئة روبل. فكن على ثقة وبلّغ ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر بأنني لم أتجرأ على إقلاقه مرة أخرى إلا بعد أن استنفدت كل السبل وأنفقت آخر روبل. ويشهد اللّه أن ذلك محرج جداً بالنسبة لي، لا سيما وأنني استفدت مراراً من تسهيلات هيئة التحرير.

قال لي ألكسندر فيودوروفيتش بازونوف الذي ذكرتُ أمامه بالصدفة أنني أنوي الكتابة إليك إنه مستعد لتسليمي نصف المبلغ المذكور، أي 250 روبلاً، بتحويل من هيئة التحرير.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع

فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: أنا أستأجر الآن كاتبة اختزال[1]. ومع أنني كالسابق أراجع ما أمليه عليها وأعدله ثلاث مرات فإن الاختزال يكاد يقلص جهودي إلى النصف. بهذا الأسلوب وحده تمكنت أن أنهي، في شهر واحد، 10 ملازم طباعية لأجل ستيلوفسكي، وإلا لما استطعت أن أكتب حتى خمس ملازم.

(1) المقصود آنّا غريغوريفنا سنيتكينا التي تزوجها دوستويفسكي بعد أشهر. .



107. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 16 نوفمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسييفيتش المحترم.

أحيطكم بامتنان أنني استلمت ببالغ الارتياح رسالتيك المفعمتين بالثناء الذي يجعلني أتقيد بالالتزامات. كنت قد كتبت لك آنذاك للمرة الثانية لأنني، بعد رسالتي الأولى التي تضمنت رجائي (الشخصي)، استلمت من هيئة التحرير استفساراً بشأن موافاتكم بالرواية.

أنا أعمل بلا كلل، وسأوافيكم بالمادة، بناءً على أمركم، كلما كانت جاهزة.

ولا يسعني إلا أن أكتب لك عن أحد الأخبار الأدبية حتى ولو اعتبرتني نمّاماً. مايكوف ألّف مسرحية درامية شعرية في ملزمة طباعية ونصف أو يزيد. ويمكن توصيفها من دون تردد تحفة بين كل ما كتب. عنوانها «الجوال». شخوصها ثلاثة. ثلاثتهم منشقون فارون (من وجه العدالة). ولأول مرة يغترف الشعر عندنا من مواضيع الانشقاق. هذا من المستجدات المؤثرة جداً والتي تدلل على قوة الشعر الفائقة. وقد أصغيت إلى المسرحية أكثر من مرة بمختلف التلاوات في المنازل.

وكل مرة أجد فيها جوانب من المستحدث الجديد. الجميع معجبون بها. وسيتلوها مايكوف هنا في يوبيل كارامزين الذي ينظمه الصندوق الأدبي. دراسة معيشة المنشقين وحقيقة تعاليمهم عميقة وثرية. وفيها الكثير من الجدة. قال لي شخصياً إنه سيسافر هذا الأسبوع إلى موسكو ليعرض المسرحية على هيئة تحرير «البشير الروسي». ولا يريد أن يسلمها لغيرها. على أية حال هذا مكسب ثمين لشعرنا.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع فيودور دوستويفسكي



108. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 9 ديسمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

استبردتُ ولازمت السرير يومين وتأخرت من جديد. لكني أسارع في إرسال الفصل الخامس وأخشى أن يكون تأخري المتواصل سبباً لخروجك عن طورك في الأخير. حجم الفصل الخامس ما بين 50 إلى 63 صفحة. والفصل السادس قصير وهو ختامي لعدد نوفمبر، وجاهز تقريباً، ما عدا بعض الاستنساخ والتعديل. يمكن أن يكون جاهزاً نهائياً في يومين إذا لم يكن هناك عائق ما. وسأحاول جهدي أن أرسله لكم عاجلاً. على أية حال أحيطكم بأنه إذا لم تكونوا قادرين على الانتظار أكثر، وأنا آمل بأنكم لن تصدروا عدد نوفمبر قبل العيد، فإن الفصل الخامس، الذي أوافيكم به، يمكن أن يغدو ختامياً في عدد نوفمبر، لأن هذا الفصل ينتهي بموضع مؤثر جداً. اعذرني، لوجه المسيح، على هذه الملاحظات ولا تعتبرها بأية حال رغبة من جانبي للتدخل في تعليماتك. أنا أكتب ذلك تفادياً لسوء المصادفات وسعياً مني لتصحيح هفواتي وأخطائي.

ومع ذلك سأبذل قصارى الجهود لإرسال الفصل السادس بأسرع ما يمكن. وهو من حيث جوهره يختتم قسماً ويشكل على وجه التقريب ضرورة للفصول الخمسة الأولى.

أما الفصول الباقية لعدد ديسمبر، وهي خاتمة الرواية، فسأوافيكم بها متى ما كانت جاهزة. أنا مستعجل، ولكني لن أتلفها بالاستعجال مهما كلف الثمن، على قدر المستطاع طبعاً. إلا أن ما يثير دهشتي أن فصول ديسمبر لن تكون كثيرة. إنها أربعة فقط، في كل منها ما بين 3 و4 ملازم. وبذلك تكتمل الرواية[1]. كنت أعتقد وآمل في السابق أن يكون الحجم أكبر. إلا أن الضرورة تقتضي تحريك الحدث بسرعة كيلا يتبدد التأثير النهائي للرواية بسبب الإطناب في السرد. وإذا وهبني اللّه الصحة فلعلي أؤدي كل ما وعدت به في المرة الأخيرة، على اعتبار أن عدد ديسمبر سيصدر في منتصف يناير، كما هو الحال في الأعوام السابقة. وعلى أية حال سأسرع لأوافيكم بالفصول باطراد. أكتب إليكم وأنا لا أزال ضعيفاً بسبب المرض، أستخدم الأدوية ولا أخرج إلى الشارع.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع فيودور دوستويفسكي

هل تأخر وصول الفصول الأربعة السابقة؟ البريد أحياناً لا يعمل بانتظام إطلاقاً.

---

(1) تضمّن عدد ديسمبر 1866 من «البشير الروسي» الفصلين الأخيرين من «الجريمة والعقاب» بالإضافة إلى الخاتمة المكونة من جزءين.

109. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 13 ديسمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسييفيتش المحترم.

يتعين عليَّ أن أعتذر منك مرة أخرى لأنني أشغلك برسائلي طول الوقت.

اليوم الـ 13 من ديسمبر أبعث إليك من خلال بازونوف فصلاً آخر، هو الفصل السادس، الذي كتبت لك كثيراً عنه في رسالتي الأخيرة منذ وقت غير بعيد. إلا أن ما يجعلني أزعجك مرة ثانية بآرائي هو التالي:

بعد الفصل السادس، كما يتجلى أمام أنظاري الآن العمل اللاحق لإنهاء الرواية، وقد شرعت بذلك العمل، أرى بوضوح أن النهاية ستكون أقصر مما كنت أتوقع. هذا ما حصل وهو أفضل وأشد وقعاً من الناحية الأدبية. وبالتالي يمكن أن يقع من حصة عدد ديسمبر القليل جداً، بما في ذلك الفصل الختامي أو الخاتمة، ما يقارب ثلاث ملازم. وفي هذه الحالة أليس من الأفضل تأجيل الفصل السادس الذي أوافيكم به حتى عدد ديسمبر؟ هذا الفصل بالطبع

سيختتم بشكل أكمل ما ينشر في عدد نوفمبر، إلا أنه من ناحية أخرى لن يضر كثيراً فيما لو أرجئ إلى ديسمبر للاعتبارات الآنفة الذكر. على أية حال الرأي لك. والقرار بيدك.

الفصول التالية ستأتيكم تباعاً. وآمل تماماً أن أنتهي وأبعث لكم مخطوطة الرواية كاملة قبيل أعياد الميلاد.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع فيودور دوستويفسكي



110. إلى آنّا سنيتكينا

موسكو، 2 يناير 1867

أمس استلمتُ رسالتك الغالية يا صديقتي آنّا العزيزة دائماً وأبداً. وكنت في غاية الفرح والسرور. ولعلكِ أنت أيضاً استلمت رسالتي في اليوم نفسه الذي بعثتِ فيه رسالتك إليّ، أو في اليوم التالي. وأسارع الآن لأطلعك على سير الأعمال، وهي الأهم. تمكنت من حل قضيتي، أي البدء بها، بأسرع مما كنت أظن. وهي الآن محلولة تقريباً في أهم جوانبها. كنت أفكر أن أبدأ من خلال لوبيموف، محرر «البشير الروسي». فذهبت إليه في اليوم الثاني من وصولي، ومن حسن الحظ أنني لم أجده في البيت. فتوجهت إلى هيئة تحرير المجلة، ومن حسن الحظ أيضاً دخلت على كاتكوف الذي لم أكن أفكر بادئ ذي بدء في الذهاب إليه الآن، حيث قررت الاستعانة بلوبيموف أولاً. كان كاتكوف مشغولاً جداً. فأمضيت عنده في الانتظار 10 دقائق بعد أن استقبلني بكل بشاشة وترحاب. ثم نهضت بعد تلك الدقائق العشر وقلت له، وأنا أراه مشغولاً جداً، إن لدي مسألة شخصية، وطالما هو مشغول لهذا الحد فأرجو منه أن يحدد لي موعداً، متى أستطيع أن

أراجعه لعرض جوهر المسألة؟ فطلب مني على غير المتوقع وبإصرار أن أطرح الموضوع الآن. فأوضحت له القضية في ثلاث دقائق، وبدأت بأنني مقبل على الزواج. هنأني بود صادق. فبادرته: «في هذه الحال أقول لك صراحة إن سعادتي كلها تتوقف عليك. إذا كنت بحاجة إلى التعاون معي، - وعلق قائلاً: «وتسألني؟! كيف لا؟»-، سلمني إذن 2000 مقدماً». وعرضت عليه التفاصيل. وختمت كلامي بالقول إن الأدباء دوماً يتقاضون الأجر مقدماً. ولكنْ طالما المبلغ كبير ولا أحد يعطي مثله مقدماً فكل شيء يتوقف على حسن نيتك. فرد قائلاً: «سأتشاور مع ليونتيف، ولا أدري هل لدينا مبلغ طليق كهذا؟ تفضل إليَّ بعد يومين، وسأحاول جهدي». وبعد يومين أبلغني بالقرار النهائي: 1000 روبل الآن والألف الثانية تؤجل لشهرين. فتقبلت العرض وشكرته.

والآن، يا آنّا الغالية، القضية كالآتي: مصيرنا تقرر. النقود متوفرة. وسنعقد القران بأسرع ما يمكن. إلا أن هناك صعوبة فظيعة. فالألف الثانية أُرجئت إلى أمد طويل، في حين أننا بحاجة الآن إلى ألفين بالتمام والكمال. وقد حسبنا الاحتياجات إذا كنت تتذكرين. فكيف تحل هذه المعضلة؟ لا أدري بعد. ومع ذلك، ومهما يكن من أمر، يمكن تنظيم زفافنا.

والحمد للّه، والشكر له وحده. أعانقك وأقبلك مئة مرة دفعة واحدة.

ثم أنا أعتقد بأنني سأستلم مبلغاً بعد أيام، ربما غداً أو بعد غد، إما نقداً أو بحوالة. لكن الأعياد هي العائق. وفي الحال أتوجه إليك في بطرسبورغ. فأنا في أشد الحزن من دونك، مع أن الجميع هنا يحبونني كثيراً. ولعلي أقول إنني سأكون في بطرسبورغ في السادس أو

السابع من الشهر الحالي. لا أقول ذلك بيقين تام لأن استلام النقود يتوقف عليهم. والإحتمال الوارد بنسبة 90% أنني في 6 أو 7 من الشهر سأعانقك وأقبّلك، أقبّل يديك الرقيقتين وقدميك اللتين لا تسمحين لي بتقبيلهما. وعندها تحل المرحلة الثالثة من حياتنا.

والآن إليك بضع كلمات عن الحياة هنا. آه يا آنّا، ما أشد كرهي للرسائل. كنت أبغضها دوماً فماذا يمكن أن نكتب فيها عن الأمور؟ لذا أكتب لك وقائع جافة وعارية لا غير. أولاً: سبق أن كتبت لك أن سونيا مسرورة لما بعثتِه لها، ولم أنس تبليغها بسلامك. وهي تحبك كثيراً. فمن خلال أحاديثي باتت تعرفك جزئياً، وأعجبها الكثير من أحاديثي عنك. في اليوم التالي بعد جواب كاتكوف أخبرت أختي فكانت مسرورة جداً. وأخبرت ألكسندر بافلوفيتيش في اليوم الثالث. فهنأني وأبدى ملاحظة أصيلة سأخبرك بها فيما بعد. ثم حل وقت بهيج تماماً. واستقبلنا رأس السنة بفرح ومرح للعائلة كلها. وكانت حاضرة يلينا بافلوفنا، وكذلك ماريا سيرغييفنا المنكتة المدهشة. وفي تمام الثانية عشرة نهض ألكسندر بافلوفيتش ورفع نخب الشامبانيا على شرف (العريسين) فيودور ميخائيلوفيتش وآنّا غريغوريفنا. وقد دهشت ماشا ويوليا لأنهما ما كانتا تعرفان (بنبأ خطوبتنا). باختصار، الجميع مسرورون ويهنئوننا.

لم أر حتى الآن إلا القليلين. رأيت يانوفسكي، وهو من أصدقائي، وأكساكوف المشغول جداً. مايكوف عندما كان في موسكو قال ليانوفسكي عنك إنه «رآك ولذا يتوقع السعادة التامة لفيودور ميخائلوفيتش» (أي لي). وقد سررت جداً لقول مايكوف هذا. كما تساءل يانوفسكي عنك كثيراً، وهو أيضاً مسرور جداً ويهنئنا.

تحدث معي أكساكوف عن التعاون[1].



آنّا غريغوريفنا

تصوري، لم يتسع لي الوقت حتى الآن لمراجعة الفصلين الأخيرين. وقد صدر هنا عدد نوفمبر.

يوم أمس، في عيد رأس السنة، دعت يلينا بافلوفنا الجميع لحضور أمسية عندها. وأخذوا يلعبون الميسر. وفجأة قدموا إلى ألكسندر بافلوفيتش رسالة جلبها الساعي إلى شقة يلينا بافلوفنا من معهد المساحة، وهو بدوره قدمها إليّ. فسأل بعض الحاضرين: ممن الرسالة؟ وأجبت: من ميلوكوف. ونهضت منصرفاً لأقرأها. كانت الرسالة منك. فرحت لها كثيراً، بل وانفعلتُ. وعدت إلى المائدة مسروراً، وقلت إن أخبار ميلوكوف ليست سارة. وبعد ربع ساعة شعرت بمقدمات الصرع. خرجت من الغرفة وبللت رأسي ولففته بمنشف رطب. وارتبك الحاضرون. وهدأت حالي، فاستدعيت سونيا وبلّغتها تحياتك. وفيما بعد، عندما عدت إلى المنزل، قرأت رسالتك كاملة على سونيا وماشا. لا تزعلي يا عزيزتي، فهما شاهدتان على مدى حبي لك، وقد لاحظتا كم أنا سعيد لأنني أحبك بلا حدود.

يلينا بافلوفنا تقبلت الأمر بتسامح، لكنها قالت: «يسرني أنني لم أنزل عند رغبتك في الصيف ولم أعدك بشيء، وإلا سأكون قد هلكت». أنا مسرور جداً لموقفها هذا، ولا يقلقني الآن شيء من هذه الناحية.

غداً سأبذل جهدي لاستلام النقود فوراً وعاجلاً. وأنا أتشوق لرؤيتك أكثر فأكثر كل يوم وكل ساعة. بلّغي بافل تشكراتي له لأنه جاءك في الحال. أعانقك وأقبّلك بلا حصر. عندما أكتب هذه الكلمات أتألم كثيراً لأنها على ورق الرسالة فقط. فما أشد رغبتي في عناقك. وداعاً يا صديقتي العزيزة آنّا، كوني مرحة وأحبيني. أتمنى لك السعادة، انتظريني، الجميع يبلغونك تحياتهم.

أظن أنني لن أكتب لك أكثر، إلا إذا حصل ما يستحق الكتابة. تحياتي لوالدتك.

أقبّلك من جديد، ولا أملّ من القبل.

المخلص زوجك السعيد

ف. دوستويفسكي

يستحيل أن لا يكون الرجل سعيداً مع مثل هذه الزوجة! أحبيني، يا آنّا، وأنا أحبك إلى الأبد.

---

(1) حاول أكساكوف من دون جدوى استمالة دوستويفسكي للتعاون مع جريدته «موسكو».

111. إلى ألكسندر ميلوكوف

بطرسبورغ، 13 فبراير 1867. الاثنين.

ألكسندر بيتروفيتش المحترم

زفافي يوم الأربعاء، 15 فبراير، في كاتدرائية الثالوث الإسماعيلي، الساعة 8 مساءً. وأنا واثق بأنك ستفي بوعدك في الحضور، بل وأنت ملزم بالحضور بوصفك المؤسس[1] للقضية كلها، وكذلك، وبالقدر نفسه، أنتظر (كريمتيك) لودميلا ألكساندروفنا وأولغا ألكساندروفنا اللتين كتبت لهما مذكراً بوعدهما واثقاً بأنهما ستفيان به أيضاً.

(ابنك) بيبا المسكين لا يستطيع أن يحضر طبعاً، وهذا ما يؤلمني. كنت طول الوقت أريد أن أزوره، ولكنني لم أخرج من البيت لليوم الخامس على ما أعتقد. كان لدي ورم في الفك عذبني كثيراً، فيما الأشغال تغطي الرأس. غداً آمل بالخروج إلى الشارع، وأريد من كل بد أن أعرج عليكم لدقائق.

المخلص ف. دوستويفسكي

(1) كاتبة الاختزال آنّا غريغوريفنا بدأت العمل عند دوستويفسكي بتزكية من أحد معارف ميلوكوف.

112. إلى أبوليناريا سوسلوفا

درزدن، 23 أبريل 1867

رسالتك، يا صديقتي العزيزة، تسلمتها من بازونوف متأخرة جداً، قبيل سفري إلى الخارج. ولما كنت مستعجلاً جداً فلم أتمكن من الرد عليها. غادرت بطرسبورغ في جمعة الآلام، الـ 14 من أبريل على ما أظن. وكان الطريق إلى درزدن طويلاً نسبياً مع توقف في المحطات، ولذا لم أتمكن من تصيد الوقت للتحدث إليك إلا الآن.

يعني، أنك، يا عزيزتي، لا تعرفين شيئاً عني، أو على الأقل لم تكوني تعرفين شيئاً حينما بعثت رسالتك، أليس كذلك؟ لقد تزوجت في فبراير من العام الحالي. وبموجب عقد مع ستيلوفسكي كنت ملزماً بتسليمه رواية في ما لا يقل عن 10 ملازم طباعية عادية في الأول من نوفمبر العام الفائت، وإلا كنت سأتعرض لغرامة فظيعة. وفي تلك الأثناء كنت أؤلف رواية «للبشير الروسي» كتبت منها 24 ملزمة وبقي عليَّ أن أكتب 12 ملزمة أخرى. ثم جاءتني ملازم ستيلوفسكي العشر. وحتى الرابع من أكتوبر لم أكن قد شرعت بالكتابة له. نصحني ميلوكوف أن أستعين بكاتبة اختزال أُملي عليها الرواية، الأمر الذي

يسرع في دفع العمل أربع مرات. وأوفد لي أستاذ الاختزال البروفيسور أولخين أفضل كاتبة بين تلاميذه. واتفقت معها. بدأنا اعتباراً من 4 أكتوبر. كاتبة الاختزال، واسمها آنّا غريغوريفنا سنيتكينا، شابة صالحة تماماً في العشرين من العمر. وهي من عائلة محترمة وتخرجت من الثانوية بامتياز، وطباعها طيبة للغاية وصريحة. استمر عملنا على أفضل وجه. وفي 28 من نوفمبر أنهيت رواية «المقامر» في 24 يوماً، وقد صدرت الآن. وفي ختام العمل في الرواية لاحظت أن كاتبة الاختزال تحبني صادقة، مع أنها لم تتفوّه بذلك أبداً، فيما غدت تعجبني أكثر فأكثر. وطالما كنت منذ وفاة أخي في ضجر فظيع، وفي حياة معيشية صعبة، فقد عرضت عليها الزواج مني. فوافقت، وها نحن متزوجان. الفارق في السن رهيب، هي في الـ 20 وأنا في الـ 44، لكنني أزداد قناعة كل يوم بأنها ستكون سعيدة. فلديها فؤاد يجيد الحب.

والآن أحدثك عن أوضاعي عموماً.

لعلك تعلمين أنني فقدت صحتي كلياً بوفاة شقيقي، حيث توليت مشاغل المجلة، ولكنني تركتها بعد أن استنزفتُ طاقاتي في الصراع مع الجمهور اللاأبالي وما إلى ذلك. ثم إني أنفقت الـ 3000 التي استلمتها من بيع الرواية إلى ستيلوفسكي من دون تردد على مجلة ليست مجلتي وعلى احتياجات عائلة شقيقي وعلى تسديد ديونه. وانتهى الأمر إلى تكبدي ديناً جديداً لشؤون المجلة، بالإضافة إلى ديون أخي التي اضطررت أن أتكفل بتسديدها، فتجاوز إجمالي الديون 15000. تلك كانت الحالة عندما سافرت إلى الخارج في عام 65، وليس معي من المال سوى 40 قطعة نقدية من عملة نابليون. وفي الخارج تصورت أنني لن أتمكن من تسديد هذه الـ 15000 إلا بالاعتماد على النفس. وفوق ذلك عافت نفسي الحياة بوفاة شقيقي

الذي كان بالنسبة لي هو الكل في الكل. وكنت أظن أنني سأجد فؤاداً يتجاوب معي، لكنني لم أجد. وعندذاك انهمكت بالعمل وشرعت بكتابة رواية. كاتكوف دفع أكثر من الآخرين، فأعطيته إياها. إلا أن كتابة رواية بـ 37 ملزمة، إضافة إلى 10 ملازم أخرى لستيلوفسكي، كانت فوق طاقتي، رغم أنني أنجزت الروايتين.[1] اشتد عليَّ الصرع بأبشع صورة، وبالمقابل تمتعت وأنقذت نفسي من السجن (بسبب الديون). الرواية، مع طبعتها الثانية، عادت عليّ بـ 14000 عشت عليها وسددت 12 ألفاً من الديون البالغة 15 ألفاً. والآن أنا مدين بـ 3 آلاف لا غير. إلا أن هذه الثلاثة آلاف هي الأسوأ. فكلما سددت المزيد يغدو الدائنون أقل صبراً وأكثر حماقة. لاحظي، لو أنني لم أتعهد بتسديد هذه الديون لما استلم الدائنون ولا كوبيكاً واحداً. وهم يعرفون ذلك. ثم إنهم استعطفوني أن أسجل تلك الديون باسمي رأفة بهم، ووعدوا بأن لا يمسوني بسوء. تسديد الـ 12 ألفاً أجج جشع الذين لم يستلموا أثمان كمبيالاتهم. ولن تكون لدي نقود هذه المرة قبل حلول العام الجديد، بشرط أن أتم العمل[2] الذي أواظب عليه. فكيف أتمه إذا كانوا يلاحقونني ويشوشون عليّ؟ ولذا ارتحلت مع زوجتي إلى الخارج. وإلى ذلك أتوقع أن تخف عليَّ نوبات الصرع في الخارج. أما في بطرسبورغ، في الآونة الأخيرة، فلم يعد العمل ممكناً تقريباً. وفي الليالي لا أستطيع الجلوس، لأن النوبات تباغتني حالاً. ولذا أريد أن أحسن صحتي هنا وأنجز العمل. أخذت النقود من كاتكوف مقدماً. ولم يرفضوا طلبي، وهم يدفعون بسرور. وأبلغت كاتكوف منذ البداية أنني من مناصري السلافية ولا أتفق معه في بعض آرائه، الأمر الذي أدى إلى تحسين علاقاتنا وجعلها أسهل بكثير. وهو من حيث وضعه الشخصي الإنسان الأكثر نبلاً وشهامة في الدنيا. أنا

لم أكن أعرفه على حقيقته في السابق. إلا أن غروره اللامتناهي يضر بسمعته كثيراً. ولكن من لا يعاني من الغرور اللامتناهي؟

في آخر أيامي في بطرسبورغ التقيت بريلكينا - غلوبينا وقمت بزيارتها. وتحدثنا كثيراً عنك. وهي تحبك. قالت لي إنها حزينة جداً لأنني سعيد مع امرأة أخرى. سأتراسل معها. فهي تعجبني.

رسالتك تركت في نفسي انطباعاً كئيباً. تقولين إنك حزينة جداً. أنا لا أعرف تفاصيل حياتك في السنة الأخيرة وماذا كان في فؤادك، إلا أن كل ما أعرفه عنك يشير إلى أن من الصعب عليك أن تكوني سعيدة.

آه يا عزيزتي، أنا أدعوك ليس إلى سعادة رخيصة تعتبر من الضروريات. فقد كنت ولا أزال أحترمك دوماً على تشددك، ولكنني أعرف أن فؤادك لا بد أن يطالب بالحياة، بينما تعتبرين الناس إما متألقين دوماً وإما سفلة سطحيين. أنا أحكم بالوقائع. ولك أن تخرجي بالاستنتاج.

إلى اللقاء، يا صديقتي الأبدية. أخشى أن هذه الرسالة لن تصلك وأنت في موسكو. فاعلمي، على أية حال، بأنني سأبقى في درزدن حتى الثامن من مايو بتقويمنا. هذا في أقل تقدير، ولربما أبقى فترة أطول. ولذا فإذا أردت أن تردي على رسالتي اكتبي حالما تستلمينها على العنوان التالي: Allemagne (Saxe), Dresden, Dostoiewsky, poste restante وسأبلغك بالعناوين اللاحقة. وداعاً يا صديقتي. أشد على يدك وأقبّلها.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) «الجريمة والعقاب» و«المقامر».

(2) المقصود رواية «الأبله».

113. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 5 مايو 1867. الجمعة

مرحباً يا ملاكي الحبيب!

أعانقك وأقبّلك بحرارة. طول الطريق كنت أفكر فيك.

وصلت تواً. الآن الساعة الحادية عشرة ونصف. أنا متعب بعض الشيء، وقد جلست للكتابة إليك. ها هم يقدمون لي الشاي والماء لأغتسل. وفي الفترة بينهما أكتب لك بضعة سطور. في لايبزيغ اضطررت إلى الانتظار من الخامسة والنصف حتى الحادية عشرة ليلاً. هكذا هو قطارهم السريع. انتظرت في المحطة وتناولت طعاماً وشربت القهوة. وتجولت جيئة وذهاباً في الصالة الهائلة الغارقة في سحب الدخان الممزوج برائحة الجعة. حتى ألمّ بي الصداع، واضطربت أعصابي. كنت أفكر فيك طول الوقت، وألوم نفسي: لماذا تركت (عزيزتي) آنّا؟ تذكرتك من جميع الجوانب، حتى آخر ثنايا روحك وفؤادك طوال كل هذه الفترة، ابتداءً من أكتوبر، وأدركت أنني لا أستحق مثل هذا الملاك المكتمل الشفاف، الهادئ الوادع، الرائع العفيف الذي يثق بي. كيف سوّلت لي نفسي أن أتركك؟ ولماذا

ارتحلت؟ وإلى أين؟ لقد وهبني اللّه إياك كيلا تضيع ذرة من إرهاصات روحك وخلجات فؤادك، على العكس فقد شاء أن تغتني تلك الخلجات وتزدهر. لقد وهبني إياك لكي أكفّر بك عن خطاياي الشنيعة وأعمل لتكوني أمام اللّه متطورة هادفة ومحصنة من كل دناءة تهبط بمنزلة الروح وتفتك بها. بينما أنا قد أحيد بك عن الطريق القويم بتصرفاتي الحالية الحمقاء كهذه الرحلة إلى هنا، بعد أن كانت تلك الأفكار النيرة تزورني بكثرة وبهدوء، وخصوصاً عندما كنت أقيم الصلاة. ما أشد الحزن الذي ألمّ بي يوم أمس. ولو كنت معي لعانقتك ولما عدت، مع أن فكرة العودة برقت في ذهني. وكلما أفكر في (أصحابي) من أمثال فرانغيل ولاتكين وريسلر وفي الكثير مما هو أهم منهم أرتبك تماماً وأتعثر. إنني أقترف حماقات، نعم حماقات. والأدهى من ذلك أنني أقترف مساوئ منبعثة من الضعف النفساني، رغم وجود فرصة ضئيلة ويمكن... كلا، فلتذهب تلك الأمور إلى الشيطان. لن أمارسها.

وأخيراً ركبنا وتحرك القطار. العربة مكتظة بالركاب. الألمان مهذبون، رغم مظهرهم الوحشي الفظيع. تصوري، كان الليل بارداً لدرجة تشبه ما لدينا عندما يعتكر الجو في أكتوبر. زجاج النوافذ مبتل بالندى، وأنا في معطفي الخفيف وبنطالي الصيفي. كنت أرتجف من شدة البرد. تمكنت أن أنام قرابة ثلاث ساعات، لكن البرد أيقظني. وفي الساعة الثالثة شربت، مستبرداً، فنجان قهوة في محطة توقف فيها القطار. فتدفأت لعشر دقائق. ثم صعدت إلى العربة من جديد. وفي الصباح تدفأ الجو كثيراً. توجد هنا أماكن رائعة، لكنها جميعاً ضبابية معتمة، ورطبة باردة، أبرد مما في درزدن. الناس تنتظر تحسن الجو. لم أبق في فرانكفورت حتى لدقيقتين، خوفاً من تفويت العربة القادمة

إلى هنا. وها أنا في فندق «فيكتوريا». إيجار الغرفة 5 فرنكات في اليوم. يبدو أنهم قطاع طرق. سأبقى يومين، أو ثلاثة في أكبر تقدير. وإلا فمن الصعب المكوث حتى في حال النجاح.

لماذا بكيت، يا عزيزتي آنّا، عندما ودّعتِني؟ اكتبي لي، يا حلوتي، إلى هنا. اكتبي عن كل الصغائر، ولكن في رسائل ليست مطولة، فلا تتعبي نفسك، ولا توقّعي الرسائل بالاسم الكامل، تحوطاً لاحتمال سفري من هنا وبقاء الرسائل.

آنّا، يا نور عيني، يا شمسي المنيرة، أحبك. أثناء الفراق يتحسس الإنسان ويطيل التفكير، ويدرك مدى حبه. كلا، سنبدأ أنا وأنت بالاندماج معاً.

خفّفي عليَّ بأن أجد غداً رسالة منك، وأنت أيضاً يمكن أن تستلمي رسالتي غداً (في درزدن).

لا تكتبي ما لم تستلمي رسالة ثانية مني.

وداعاً، يا فرحتي، وداعاً يا نور عيني. أعصابي متهيجة بعض الشيء، لكنني بصحة جيدة ولست متعباً كثيراً. وأنت، كيف حالك؟

أقبّلك بلا حساب، المخلص حتى آخر المسامات

المحب د.

114. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 6 مايو 1867. السبت

مرحباً يا ملاكي آنّا. إليك بضعة أسطر أخرى. يوميات الأخبار. كل صباح سأكتب لك طالما أمكن. وتلك حاجة ماسة بالنسبة لي، لأنني أفكر فيك كل لحظة. طول الليل أراك في المنام، وكذلك، تصوري، أرى ماشا ابنة أخي وأخت فيديا. تصالحت معها في الحلم[1]، وكنت مسروراً جداً. ولكن فلندخل في صلب الموضوع.

كان الجو بارداً، بل وممطراً نهار الأمس. شعرت طول الوقت بضعف وأعصابي متوترة حتى كانت قدماي بالكاد تحملانني. من حسن الحظ أنني تمكنت أن أغفو في عربة القطار قرابة ساعتين. كنت طول الوقت راغباً في النوم.، بينما أنا عاجز عن ترك اللعبة. ويمكنك أن تتصوري بأي حال من الانفعال كنت. لاحظي: بدأتُ ألعب منذ الصباح، وعند الظهر خسرت 16 (ريالاً). ولم يبق عندي سوى 12 (ريالاً) وبضعة تاليرات. ومضيت بعد الغداء بمزيد من التعقل، حتى استعدت، والحمد للّه، الـ 16 التي خسرتها وكسبت، فوق ذلك، 100 غولدين. وكان بوسعي أن أربح 300. كانت في يدي، لكنني

جازفت وأفلتُّها. تلك هي، يا آنّا، ملاحظتي النهائية: إذا تحليت بالتعقل، أي إذا تحولت إلى قطعة من الرخام البارد وكنت حذراً أكثر مما يستطيع الإنسان، يمكنني أن أربح أي مبلغ. ولكن، في هذه الحالة، ينبغي اللعب وقتاً طويلاً، أياماً متوالية، والاكتفاء بالقليل إذا أشاح الحظ بوجهه وعدم الإعتماد كثيراً على الصدفة. هناك يهودي يلعب من عدة أيام ببرود أعصاب فظيع وحسابات تفوق طاقة البشر(. . .)، فصار صاحب الروليت يخشاه. إنه يغترف المال رابحاً، ويمضي يومياً بما لا يقل عن 1000 غولدين.

باختصار، سأحاول بذل جهود تفوق طاقة البشر لكي أبقى متعقلاً، ولكن، من الجهة الأخرى، لا أستطيع أن أبقى هنا لعدة أيام. وبلا مبالغة، يا آنّا، أشعر بالقرف من ذلك كله، والاشمئزاز الفظيع لدرجة تدفعني إلى الفرار. حالما أتذكرك أندفع بكل كياني لأكون جنبك.

آه، يا آنّا! أشعر بأني في أمسّ الحاجة إليك. حالما أتذكر إبتسامتك العريضة وذلك الدفء البهيج الذي يكتنف الفؤاد تلقائياً حينما أكون جنبك يشتد بي الشوق إليك بصورة تفوق الوصف. في العادة أنت، يا آنّا، ترينني متجهماً عابساً متقلب الأطوار. ذلك في المظهر وليس في المخبر. كنتُ دوماً على هذه الشاكلة. مقهوراً حطمني المصير. أما في الباطن فأنا، واللّه، على غير ذلك. صدقيني.

والحال أن كسب المال مجاناً كما في هذا المكان، ليس مجاناً تماماً، بل مقابل الآلام، إنما ينرفز الأعصاب ويخدر الدماغ. وحالما أفكر في الحاجة إلى المال وفي الديون المستحقة وفي غيري ممن تعوزهم نقودي أشعر بأنني لا أستطيع أن أبتعد (عن الروليت). لكنني

أتصور مدى ألمي عندما أخسر ولا أفعل شيئاً، فما أكثر المساوئ التي أتقبلها مجاناً، ثم أعود وأنا أكثر فقراً وبؤساً مما جئت به إلى هنا. آنّا، عديني بأنك لن تعرضي هذه الرسائل على أحد أبداً. لا أريد أن تسري على الألسن حقارة الوضع الذي أنا فيه.(. . .)

أعانقك، يا آنّا، يا نور عيني. ولربما أستلم منك اليوم رسالة، يا رفيقة عمري الوحيدة. إلى الغد. سأكتب لك يوم غد حتماً. في كل الأحوال لن أبقى هنا طويلاً.

ليلة أمس طلبت أن يسخنوا مدفأة الحائط، فانبعث دخان كاد يخنقني. وغرقت في نوم عميق رغم الصداع. واليوم أنا في صحة تامة. الشمس مشرقة، والنهار رائع.

وداعاً يا فرحتي!

المخلص لك دوماً ف. د.

ملاحظة: إذا لم تستلمي يوماً ما رسالة مني لأي سبب كان لا تقلقي. فستستلمينها في اليوم التالي. وأعتقد أن ذلك لن يحدث.

---

(1) تصالح دوستويفسكي مع ابنة أخيه بالفعل حالما عاد من الخارج. وكان بينهما خلاف طفيف.

115. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 9 مايو 1867 الثلاثاء، العاشرة صباحاً

ملاكي الحبيب، بالأمس تألمت كثيراً حينما ذهبت إلى البريد، بعد كتابة رسالتي إليك، وقالوا لي: لا رسالة منكِ. تراخت قدماي وكدت أسقط. لم أصدق. اللّه يعلم ماذا خطر في بالي، وأقسم أنني لم أصادف يوماً مثل هذا الألم والرعب. خطر في بالي أنك مريضة، أو تحتضرين. جبت الحديقة ساعة وبدني كله يرتعش، حتى دخلت كازينو الروليت في الأخير وخسرت كل ما أملك. أصابعي ترتجف، وأفكاري تتبدد. وحتى عندما خسرت كاد الأمر يهون عليّ تقريباً، وقلت في نفسي: فليكن ما يكون. ثم، وبعد الخسارة التي لم تدهشني كثيراً في تلك اللحظة، تمشيت ساعتين في المتنزه، ولا أدري أين ولجت. أدركت عجزي المطلق، فقررت أن أتوجه إليك فوراً، إذا لم تصل منك رسالة غداً، أي اليوم. ولكن كيف؟ عدت مدفوعاً بهذا التساؤل ورهنت ساعتي بعد أن كنت قد افتديتها في طريقي إلى دائرة البريد. رهنتها عند الشخص نفسه مثلما قبل ثلاثة أيام. وفجأة ومضت في ذهني فكرة بأنك ما كنت تستطيعين أن تكتبي إليَّ في الحقيقة، بمعنى

أن تبعثي الرسالة لأستلمها الاثنين. يوم السبت استلمتِ رسالتي الأولى وأجبت عليها حالاً في دائرة البريد. وبعد ذلك، يوم السبت نفسه، لم تكتبي شيئاً لأنك أجبت في صباح ذلك اليوم في دائرة البريد بكلمتين. ولذا لم تبعثي لي رسالة يوم الأحد. وفي يوم الأحد ذاته، وبعد استلام رسالتي الثانية، أجبتِني في اليوم نفسه، ولم تستطيعي أن تبعثي الرسالة إلا يوم الاثنين، وبالتالي لا يمكنني أن أستلمها قبل الثلاثاء، أي اليوم. واتضحت الأمور أخيراً بالنسبة لي، وعادت إليّ الروح وبُعثت حياً من بين الموتى، صدقيني. والآن أكتب إليك مرتجفاً، ماذا لو كنتُ أخطأت الحساب، ولن أستلم منك رسالة اليوم؟ لا سمح اللّه. الآن أنا مسرع إلى دائرة البريد. يا عزيزتي آنّا، (تصوري) ما أغلاك بالنسبة لي حتى أتعذب إلى هذا الحد! أنا لم أتعذب يوماً، أبداً، لهذا الحد، ولم أرتعب كما حصل لي يوم أمس، في تلك الساعة الفظيعة. كلا، يا آنّا، لا بد أن يكون الحب شديداً ليأتي شعور الشخص على هذا النحو. يا إلهي! ماذا لو أنني لن أستلم رسالة اليوم أيضاً؟! أنا مستعجل لأنهي هذه الرسالة وأهرع إلى البريد. إذا لم أجد منك رسالة هذه المرة أيضاً فكيف سيكون حالي؟ يجب أن أعود، وليس عندي ثمن التذكرة. وقد خسرت تقريباً حتى ثمن رهان الساعة. وليس عندي الآن سوى 25 فلورين، فيما يتعين تسديد نفقات الفندق وتكاليف الطريق. يا إلهي! عادت إليّ الآن كل مخاوف الأمس تقريباً. إذا لم تكوني مريضة، وكل شيء على ما يرام، يا رفيقة عمري، عالجي أموري حالما تستلمين رسالتي هذه. اسمعي: خلاص! اللعبة انتهت[1]، وأريد أن أعود عاجلاً، ابعثي لي فوراً، حالما تستلمين رسالتي، حوالة بعشرين قطعة نقدية، من فئة إمبريال. فوراً، في اليوم نفسه، في اللحظة نفسها إن أمكن. ولا تضيعي ذرة من الوقت. ذلك

هو أعظم رجاء مني إليك. أولاً- ينبغي أن أستعيد ساعتي، فلا يجوز تضييعها مقابل 65 غولدين، ثم ينبغي تسديد تكاليف الفندق، ثم شراء تذكرة السفر، وما يتبقى سأجلبه معي، فلا تقلقي. لن ألعب القمار. المهم أن تعجلي في الإرسال. غداً أو بعد غد يسلمونني فاتورة الحساب في الفندق، وإذا لم تصل النقود منك عليّ أن أذهب لأعتذر من صاحب الفندق، وسيذهب هو إلى البوليس على الأرجح. خلصيني من هذا العذاب بإرسال النقود بأسرع ما يمكن. حوّلي المبلغ بنفسك ولا تخبري صاحبة البيت، بمعنى لا تستشيري أحداً، فلا موجب أن يعرفوا أمورنا. القيام بذلك سهل، اذهبي إلى مكتب أحد أفضل موظفي البنوك، اسألي عنه ولو من موظف البريد الذي يسلم الرسائل. وعندما تأتين إلى مكتب البنك وتسلمينه الـ 20 إمبريال اسأليهم هل يستطيعون أن يحولوها إلى هامبورغ فوراً، إليّ بالطبع. وزوّديهم بالعنوان الدقيق: poste restante. أكيد يستطيعون. وهم يستلمون منك النقود بعد خصم العمولة طبعاً. ويسلمونك كمبيالة باسم أحد أصحاب البنوك هنا في هامبورغ. ولا تقلقي، فهم يعرفون باسم من، ولديهم مصرفيون مراسلون في كل مكان. ضعي الكمبيالة في رسالتك إليّ، واختميها وخذيها إلى البريد واعملي لها تأميناً وخبريهم أن الرسالة مالية. هذا كل ما في الأمر. وأنا عندما أستلم منك الرسالة مع الكمبيالة أذهب إلى المصرفي فيسلمني النقود بموجبها. باللّه عليك أعطيهم العنوان الدقيق: هومبورغ وليس هامبورغ. اكتبي العنوان على قصاصة ورق. أنتظر بفارغ الصبر. وسآتي إليك حالما أستلم المبلغ.

يا حبيبتي. لن يبقى لدينا إلا القليل من النقود، فلا تتذمري، ولا تحزني، ولا تلوميني. فيما يخصني، أنا هادئ الأعصاب تقريباً بشأن أمورنا المالية. فتبقى لدينا 20 قطعة من فئة إمبريال، وسيبعثون لنا

20 قطعة أخرى. ثم إنني حالما أعود إلى درزدن أكتب إلى كاتكوف ليرسل إليّ 500 روبل أخرى. بالطبع سيمتعض كثيراً، ولكنه سيرسلها. فبعد أن دفع مبلغاً ضخماً، 3000، لن يمانع في دفع الـ 500. بل هو لا يستطيع تقريباً أن يمانع. فكيف يمكنني أن أنجز العمل بلا نقود؟ بالطبع هذا شيء مزعج، ولكنه مقابل 23 ملزمة، أنا أشتغلها له[2]. وفي انتظار المبلغ سنبقى وإياكِ في درزدن. لن يصل الجواب قبل شهر. يا ملاكي، إنني أفكر وأتعذب بخصوصك: فماذا ستفعلين في درزدن، في الملل والضجر؟ أنا سأنهمك في كتابة مقالة عن بيلينسكي[3]، وسأنهيها في فترة انتظار جواب كاتكوف. وعندها نسافر إلى سويسرا، ثم أعكف على العمل هناك سريعاً. يا ملاكي، رب ضارة نافعة! الفكرة اللعينة، فكرة الإدمان على القمار، ولا شيء غير القمار، ستفارقني من الآن فصاعداً. وسأعوض عنها بالعمل، كما فعلت قبل ثلاثة أعوام، قبيل «الجريمة والعقاب». وليكن ما يكون. إلا أن ما يؤذيني هو أنك ستشعرين بالملل. وأنا قلق عليك، عليك وحدك. يا عزيزتي. ليتنا نلتقي بأسرع ما يمكن. ولا تزعلي مني بسبب هذه الرسالة الخرقاء، فأنا في عجلة من أمري، أتوق لمعرفة مصيري في دائرة البريد سريعاً، بمعنى هل هنالك رسالة منك اليوم أم لا؟ أنا في الحقيقة أرتعش هلعاً الآن. وإذا استلمت الرسالة سأسعد بها. أعانقك، يا حبيبتي، فلا تحزني ولا تجهدي نفسك، ولا تقلقي بخصوصي. كل ما أصبو إليه أن أستلم رسالة منك اليوم. وعندها أكون سعيداً. إلى اللقاء، إلى لقاء قريب، أعانقك، لا تعذبي نفسك، ولا تحزني: خاصة وأن ذلك غير مهم في الحقيقة. هذه الإخفاقات تصادف في حياة كل إنسان، حتى وإن كان من أسعد الناس. أما أنا فقد تخلصت بهذه النقود من فكرة حمقاء، ولعل الثمن

لم يكن باهظاً. إذن، فليكن ما يكون. أعانقك بحرارة. وأقبّلك بلا حساب.

المخلص زوجك وعبدك

فيو. دوستويف.

ملاحظة: عجّلي في تحويل النقود، باللّه عليك. ليتني أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن.

حوّلي المبلغ على عنوان: poste restante

(معذرة) عذبتك، يا ملاكي!

---

(1) كتبت آنّا غريغوريفنا في مذكراتها فيما بعد أنها هي التي اقترحت على زوجها هذه المرة أن يسافر إلى هامبورغ ليروّح عن نفسه.

(2) المقصود رواية «الأبله» التي يشتغل دوستويفسكي عليها.

(3) المقالة المذكورة ضاعت في طريقها إلى بطرسبورغ.

116. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 10 مايو 1867 الأربعاء. العاشرة صباحاً

مرحباً يا ملاكي الحبيب! استلمت رسالتك أمس، وفرحت بها لحد الجنون. وانتابني الفزع في الوقت ذاته. فماذا يجري لك، يا آنّا؟ وبأي حال أنت؟ إنك تبكين ولا تعرفين طعم النوم وتتعذبين. فكيف أتحمل قراءة مثل هذا الكلام؟ كل هذا قبل خمسة أيام، وماذا دهاك الآن؟

يا عزيزتي، يا ملاكي الغالي، يا كنزي الثمين، أنا لا ألومك، بل بالعكس أنت أعز عليَّ وأغلى مع هذه المشاعر. أنا أفهم أن لا حيلة لنا في الأمر، طالما لا تستطيعين أن تتحملي غيابي إطلاقاً، وتنتابك الوساوس بخصوصي. أكرر أنا لا ألومك، وإنني أحبك مرتين أكثر بسبب ذلك، وأقدره رفيع التقدير. ولكن ألا توافقينني في الوقت ذاته، يا عزيزتي، بأنني أقدمت على تصرف جنوني طائش عندما جئت إلى هنا نزولاً عند رغبتك؟ حكمي عقلك، يا عزيزتي: شوقي إليك حال دون التخلص من هذه اللعبة اللعينة والعودة إليك، ما يعني أنني نفسياً لم أكن حراً طليقاً. هذا أولاً، وثانياً- كيف أستطيع البقاء هنا وأنا

أعرف أحوالك؟[1] سامحيني، يا ملاكي، لأني أريد أن أعرض بعض تفاصيل ولعي بهذه اللعبة لتكوني على علم بحقيقة الموقف. اقتربت من طاولة الروليت حوالى عشرين مرة وصارت عندي خبرة بأنه إذا لعبت ببرود أعصاب وبهدوء وفقاً للحسابات تنتفي احتمالات الخسارة تماماً. أقسم لك حتى الاحتمال ينتفي. عندهم الصدفة العمياء، وعندي الحسابات، ما يعني أن لدي فرصة للربح. ولكن ما الذي يحدث في العادة؟ أبدأ من أربعين غولدين، أستخرجها من جيبي وأجلس وأضعها واحداً واحداً أو اثنين اثنين وبعد ربع ساعة أربح دوماً بمقدار الضعف في العادة. هنا ينبغي التوقف والانصراف حتى المساء، في أقل تقدير، لتهدئة الأعصاب المنفعلة، لا سيما وأنني لاحظت تماماً أنني لا أستطيع أن ألعب ببرود أعصاب وهدوء أكثر من ثلاثين دقيقة متواصلة. لكنني كنت أنصرف لأدخن السيجارة فقط، وأهرع بعدها إلى الروليت في الحال. فلماذا كنت أفعل هكذا رغم علمي بأنني لن أتحمل وسأخسر حتماً؟ ذلك لأنني كنت مصمماً كل يوم، حالما أنهض من النوم صباحاً، على أن يكون هذا اليوم آخر يوم لبقائي في هامبورغ، حيث سأغادرها غداً، وبالتالي ما كنت أستطيع أن أنتظر أكثر قرب الروليت أيضاً. كنت مستعجلاً لأربح، على قدر المستطاع، أكبر مبلغ دفعة واحدة في ذلك اليوم، لأنني مسافر غداً، وكنت أفقد برودة الأعصاب، وأتهيج، وأجازف وأغضب، وأضع القطع النقدية على رقعة الروليت من دون حساباتي التي فقدتها في تلك اللحظات، وأخسر بالنتيجة، ذلك لأن من يلعب من دون حسابات، أملاً في المصادفات، إنما هو مجنون. خطأي الأول والأخير أننا افترقنا وأنني لم أصطحبك معي. نعم، تلك هي الحقيقة. في حين أنني أحن إليك وأنت تكادين تموتين من دوني. يا ملاكي،

أكرر من جديد أنني لا ألومك وأنك أكثر معزة عندي حينما تحنين إليّ. ولكنْ احكمي بنفسك، يا عزيزتي، ماذا حصل لي يوم أمس مثلاً؟ بعد أن كتبت لك كي تبعثي لي نقوداً ذهبت إلى صالة القمار، وكان في جيبي، على سبيل الاحتياط، عشرون غولدين، فغامرت بعشرة منها. بذلت جهوداً تفوق طاقة البشر تقريباً لأبقى هادئاً على مدار ساعة كاملة، فكانت نتيجة حساباتي أن ربحت ثلاثين فريدريكاً ذهبياً، ما يعادل 300 غولدين. كنت مسروراً جداً، وأردت لحد الجنون أن أنهي المسألة هذا اليوم بأسرع ما يمكن لكي أربح ضعف هذا المبلغ على الأقل، لكي أغادر من هنا فوراً، فلم آخذ قسطاً من الراحة ولم أستعد قواي، بل هرعت إلى الروليت وأخذت أضع القطع الذهبية حتى خسرت كل ما لدي، نعم كل ما لدي. ولم يبق عندي سوى اثنين غولدين ثمن التبغ. عزيزتي آنّا، افهميني، تذكري أن لدي ديوناً مستحقة يجب تسديدها، وسينعتونني بالسافل الدنيء إن لم أسددها. افهمي أنني ينبغي أن أكتب إلى كاتكوف، وأننا يجب أن نبقى في درزدن وننتظر. وكان يجب أن أربح. بالضرورة. فأنا ألعب ليس من أجل اللهو والترفيه. هذا هو السبيل الوحيد للخروج من المحنة. وأنا أفقد كل شيء لسوء الحسابات. أنا لا ألومك، بل ألعن نفسي. لمَ لم أصطحبك معي؟ إذا لعبت قليلاً كل يوم لا بد أن أربح. هذا صحيح. عشرون مرة تكرر معي. ورغم ذلك أغادر هامبورغ بخسارة. وأنا أعرف أنني لو أمهلت نفسي أربعة أيام أخرى لربحت واستعدت كل ما خسرته. ولكن هيهات، فلن ألعب بعد الآن.

افهميني يا عزيزتي آنّا. أرجوك مرة أخرى أن تفهمي أنني لا ألومك، لا أقرعك، بالعكس ألوم نفسي لأنني لم آخذك معي.

ملاحظة هامة: فيما لو ضاعت رسالة يوم أمس. أكرر هنا ما جاء

فيها باختصار. (طلبت منك إرسال 20 قطعة نقدية ذهبية من فئة إمبريال في حوالة...) إجراءات الحوالة، إذا استعجلت في إرسالها، لن تأخذ منك أكثر من ساعة، ولذا يمكن أن يتم الإرسال في اليوم نفسه.

وإذا تمكنت من ذلك في اليوم نفسه، أي هذا اليوم، الأربعاء، فسأستلمها غداً الخميس. وإذا أرسلتِها الخميس أستلمها الجمعة. وإذا استلمتها الخميس أكون السبت (عندك) في درزدن. أما إذا استلمتها الجمعة فسأكون عندك الأحد. هذه الحسابات صحيحة. نعم صحيحة. وإذا تسنى لي أن أنهي كل الأشغال فلربما أصل إلى درزدن في اليوم الثاني وليس الثالث. ولكن من المستبعد أن أنجز كل شيء لأرتحل، بما في ذلك استلام النقود والتهيؤ للسفر وجمع الحاجيات والوصول إلى فرانكفورت دون أن أتخلف عن القطار السريع.

(...) ومع أني سأحاول جهدي، فالأرجح أني سأصل إلى درزدن في اليوم الثالث.

وداعاً، يا آنّا، وداعاً يا ملاكي الغالي. أنا قلق جداً عليك. ولا موجب أن تقلقي أنت ولو قليلاً عليّ. صحتي ممتازة. الاضطراب العصبي الذي تخشين عليّ منه مجرد ارتباك بدني آلي. فتلك ليست هزة أخلاقية أو نفسانية. ثم إن طبيعتي تقتضي هذه الأمور. تلك هي تركيبتي. أنا عصبي ولا يمكنني أن أستقر أصلاً. ثم إن الهواء هنا رائع. أنا بصحة منقطعة النظير. لكنني أتألم فيما يخصك. أحبك، وهذا هو سبب عذابي.

أعانقك بحرارة، وأقبّلك بلا حساب.

المخلص ف. د.

---

(1) كانت آنّا غريغوريفنا حاملاً آنذاك.

117. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 13 مايو 1867 السبت. العاشرة صباحاً

آنّا، ملاكي، سعادتي وفرحتي الوحيدة، هل تسامحينني على كل العذابات والانفعالات التي سبّبتها لك؟ آه، ما أشد حاجتي إليك. بالأمس جلست المساء كله وحيداً في محاولة لقراءة كتبي الثلاثة التي سبق أن قرأتها مراراً، وفي دماغي يدق تساؤل واحد: كيف أنت؟ وماذا سيحصل لنا؟ لا أتحدث عن المستقبل. المستقبل مجهول. والرب سينقذنا على أية حال. أنا في حياتي كلها لا أخطط لأكثر من ستة أشهر، شأني شأن أي شخص يعيش على عمله وحده كأجير بالمياومة. كل آمالي معلقة الآن على العمل. افهميني يا آنّا، نتاجي ينبغي أن يكون رائعاً، أفضل من «الجريمة والعقاب». وعندذاك أكسب ودّ القراء في روسيا كلها. وعندذاك يتهافت عليّ الناشرون. أنا واثق بمستقبلنا اللاحق. عسى أن يمنحنا اللّه الصحة. خاصة وأن نوبات الصرع لا تحصل هنا.

إلا أن المستقبل القريب غير معروف. أقصد وقت عودتنا إلى روسيا مكبّلين بالديون وغيرها. ولا أدري ماذا سيحصل. أنا الآن أثق

جاداً تماماً بمساعدة كاتكوف. فطالما ساعدني مرة ولاحظ أنني سأنهي العمل مع مقدم الشتاء فسيساعدني مرة أخرى، في الشتاء عندما نصل إلى هناك. والمشكلة أن ذلك سيكون قليلاً. وليس أمامنا الآن سوى الانتظار. المهم الآن أن ندبر حالنا لحين وصول حوالة كاتكوف. ولكن كيف، وليس عندنا حتى 30 تالير، أليس كذلك؟ كل الأمل على ما سترسله والدتك. أستغرب لما يحدث هناك، ولمَ لا ترسل النقود؟ الشيء الوحيد الذي يهدئني أنهم كانوا سيكتبون لنا لو تعذر عليهم التحويل. ولا أحد منهم يكتب إلينا. شيء غريب. لعلهم لا يجيدون إجراءات التحويل. وقد يبلغوننا بذلك.

إليك، إليك يا آنّا، كل أفكاري الآن حول الرجوع إليك. سنلتقي ونندمج. معاً نبحث كل الأمور ونتكلم بشأنها. أنتظر حلول يوم غد بفارغ الصبر والجزع. سأسافر مهما كانت حالة الجو، وسأحزم أمتعتي منذ المساء. والمشكلة أنني ربما لن أستلم الرسالة قبل الثانية عشرة إذا كانت تتضمن حوالة، بل وربما في الرابعة بعد الظهر. في كل الأحوال سأسافر ولن أبقى هنا مطلقاً. وثمة نقطة أخرى تقلقني: أمس قدموا لي فاتورة حساب الفندق للأسبوع المنصرم. فاتورة فظيعة. اعتذرت قائلاً إنني مسافر يوم الأحد، وسأسدد الحساب حينئذٍ دفعة واحدة. امتعضوا، لكنهم لاذوا بالصمت. والمشكلة أن الفاتورة ستمتلئ أكثر حتى يوم الأحد، وأخشى أن لا تكفي النقود المرسلة لتغطية تكاليف السفر وتسديد مستحقات الفندق. سأركب الدرجة الثالثة.

وهل سألحق بالقطار السريع في فرانكفورت؟ لا أحد أستفسر منه هنا. وأخشى أن أبيت الليل في مكان ما. الطقس فظيع، بارد وممطر. الليل مثلما عندنا في أكتوبر. ولكن لا موجب للمبيت.

سأسافر حتماً. وسأرتدي ثياباً داخلية مضاعفة وقميصين وما إلى ذلك. عسى أن يمر كل شيء بسلام. كل ما أريده، يا ملاكي آنّا، هو أن أصل إليك بأسرع ما يمكن. وعندها ندبر الأمور شيئاً فشيئاً. حالما أصل أكتب إلى كاتكوف. فلعل الجواب يأتي بعد أسبوعين، ولكن الاحتمال بعد شهر. قررت أن أطلب ألفاً ولو على أقساط[1]. وعندها ننتقل إلى سويسرا بسرعة. كلفة القطار 50 تالير. لا يهم. هناك سأباشر العمل.

إلى اللقاء، يا آنّا، يا فلذة كبدي. بعد غد أكون عندك. في أقل من 48 ساعة. أحسب الوقت ساعةً ساعة. أبتهل إلى اللّه أن يوفقني. اعذريني، يا ملاكي، اعذريني يا روحي.

المخلص ف. د.

---

(1) كاتكوف حوّل للكاتب 500 روبل.

118. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 16 أغسطس 1867

هكذا إذن، ما أطول الفترة التي لزمتُ الصمت فيها ولم أجب على رسالتك، يا عزيزي وصديقي أبولون نيكولايفيتش الذي لا ينسى.

أصفك بالصديق الذي لا ينسى، ويشعر فؤادي بأن هذا التوصيف في محله. فنحن وإياك صديقان قديمان متعودان على بعضهما البعض لدرجة أن الحياة التي فرقت بيننا حتى أبعدت أحدنا عن الآخر أحياناً لم توسع الشقة بيننا، بل لعلها ربطت فيما بيننا إلى الأبد. وطالما كتبتَ أنك تتحسس غيابي فالأحرى أن يكون إحساسي بغيابك أشد. وبالإضافة إلى الدلائل اليومية التي رسخت في ذهني الاعتقاد بتشابه وتلاقي أفكارنا ومشاعرنا خذ بالاعتبار أيضاً أنني عندما افتقدتك وجدت نفسي في بلاد الغربة ولم أر فيها وجهاً روسياً ولا كتباً أو أفكاراً أو هموماً روسية، بل ولا حتى أشخاصاً يرحبون بمقدمي. صحيح أنني لا أفهم كيف يستطيع المغترب الروسي الذي يفكر ويمتلك مشاعر أن لا يلاحظ ذلك ولا يتألم له. ذلك هو الواقع. فكيف يمكن البقاء على قيد الحياة في الخارج؟ غياب الوطن، واللّه،

هو العذاب بعينه. السفر إلى هناك لستة أشهر أو سنة شيء جيد. لكن السفر بلا دراية ولا معرفة بموعد العودة، كما أفعل أنا، أمر لا أسوأ ولا أقسى منه. إنها القسوة النابعة من التفكير. أنا بحاجة إلى روسيا للكتابة، للعمل، ناهيك عن باقي جوانب الحياة. وإلا فكيف يمكن العيش محروماً من القوى والمال؟ كالسمكة من دون ماء؟ عموماً، سنتحدث عن ذلك. أنا بحاجة إلى التحدث إليك عن الكثير وطلب المشورة والمعونة. فأنت الوحيد الذي أستطيع الحديث معه من هنا.

ملاحظة: على فكرة، اقرأ هذه الرسالة وحدك ولا تحدث من لا ينبغي الحديث معه عني. وسترى (سبب رجائي هذا) بنفسك. ثم، لماذا لم أكتب إليك كل هذه الفترة الطويلة؟ لست قادراً على الجواب تفصيلاً. لم أكن مستقراً في إدراك أوضاعي، وكنت أنتظر أدنى فرصة للاستقرار كي أبدأ مراسلتك. وأنا أعقد آمالي عليك وحدك. اكتبْ إليَّ كثيراً، ولا تتركني يا عزيزي. ومن ناحيتي سأكتب لك كثيراً وبانتظام كبير. فلنواصل المراسلات بصورة دائمة، باللّه عليك. إنها تعوضني عن روسيا وتمنحني القوة والطاقات.

فلأحدثك عن هذه الأشهر الأربعة على أية حال وبصراحة. أنت تعرف كيف سافرت ولأية أسباب. بينها سببان رئيسيان: أولاً- لأنقذ حياتي، فضلاً عن صحتي.

نوبات الصرع أخذت تتكرر كل أسبوع. الشعور بهذا الخلل العصبي في الدماغ وإدراكه بوضوح شيء لا يطاق. العقل مضطرب بالفعل، تلك هي الحقيقة. شعرت بذلك، فيما كان الاضطراب العصبي يدفعني أحياناً إلى دقائق من الهياج المسعور. والسبب الثاني هو ظروفي: لم يكن الدائنون يريدون الانتظار أكثر. وعندما غادرت كان لاتكين وبعده بيتشاتاني قد قدَّما دعاوى الحجز، وكادا

يصطادانني. ولنفترض أن سجن الديون، أقول ذلك ليس لمجرد الكلام، قد يكون من جهة نافعاً جداً لي، من حيث الوقائع وتوفر المادة و«منزل الأموات» الثاني. باختصار كانت المادة ستكفي على الأقل لكسب 4 أو 5 آلاف روبل، لكنني تزوجت تواً، وإلى ذلك هل كنت سأستطيع أن أتحمل الصيف الخانق (في السجن) بمبنى تاراسوف؟ تلك كانت معضلة غير قابلة للحل. فلو تعذرت عليَّ الكتابة في السجن بسبب نوبات الصرع فكيف سأسدد الديون. في حين أن الأعباء تزايدت. فسافرت. سافرت آنذاك والموت يعشش في ثنايا روحي. فأنا ما كنت أثق ببلاد الغربة. كنت على يقين بأن تأثير الخارج الأخلاقي سيكون سيئاً للغاية. (كيف يكون حالي) وأنا وحيد من دون مادة (للكتابة) ومعي هذا الكائن الفتي الذي يسعى بفرحة ساذجة إلى مشاطرتي حياة الترحال. وقد رأيت بأم العين أن هذه الفرحة الساذجة تنطوي على الكثير من قلة الخبرة والحماس البعيد عن النضوج، وكان ذلك يؤذيني ويؤلمني. كنت أخشى أن تشعر آنّا غريغوريفنا بالملل معي ونحن وحدنا. وقد كنا بالفعل وحدنا حتى ذلك الحين. أنا لم أكن أعوّل على نفسي: طباعي مريضة، وقد حدستُ بأنها ستتعذب معي. صحيح أنها، كما اتضح، أقوى وأعمق مما كنت أعرفها وأتصورها، وكانت في حالات كثيرة تتولى دور الملاك الحارس لي، إلا أن فيها الكثير من الطفولة وسن العشرين، وهو شيء ضروري رائع، إلا أنني من المستبعد أن أمتلك الطاقة والقدرة على معاملته بالمثل. كل ذلك كان يخامرني قبيل السفر، ومع أن آنّا غريغوريفنا، كما أسلفت، أقوى وأفضل مما كنت أتصور فإنني حتى الآن لا أعرف الهدوء. ثم إن نقودنا القليلة كانت تخجلني وتؤذيني. فقد سافرنا بمبلغ متواضع للغاية، وأخذت أنا من كاتكوف

مقدماً 3000. صحيح أنني كنت آمل أن أشرع بالعمل فوراً، حال وصولي إلى الخارج. ولكن ماذا حصل؟ لم أكتب شيئاً على وجه التقريب، والآن فقط قررت أن أعمل جدياً. القول بأني لم أفعل شيئاً ليس صحيحاً تماماً. فقد تلمست الكثير وفكرت في الكثير، إلا أن المكتوب على الورق لا يزال قليلاً[1]. والمكتوب على الورق هو الناتج النهائي الذي يدفعون لقاءه.

غادرنا برلين على عجل، حيث بقيت يوماً واحداً حطم فيه الألمان المملّون أعصابي لحد الغضب، ودخلت الحمام الروسي، وارتحلنا إلى درزدن واستأجرنا شقة بقينا فيها بعض الوقت.

كان الانطباع عجيباً غريباً. وطرح السؤال نفسه في الحال: ما الموجب لوجودي في درزدن، فيها تحديداً، وليس في مكان آخر؟ وما الفائدة من ترك كل شيء في مكان ما والانتقال إلى مكان آخر؟ وكان الجواب واضحاً: الحفاظ على الصحة والفرار من الدائنين وما إلى ذلك. إلا أن المؤذي أنني أحسست بمنتهى الوضوح أن كل الأمور بالنسبة لي سواء حيثما أقمت، في درزدن أو أي موضع آخر. في كل مكان أنا على أرض الغربة. في أي مكان أنا كسرة مقطوعة من الكل. هممت أن أشرع بالعمل، وشعرت أنني لا أرغب فيه. ذلك لأن الانطباعات غير الانطباعات. فماذا فعلت؟ كنت متكاسلاً ضجراً. أخذت أقرأ أو أكتب شيئاً وأتعذب من الحزن ثم من الحر. مرت الأيام متماثلة. وكنا، أنا وآنّا، نتمشى بعد الغداء يومياً في الحديقة الكبرى ونستمع إلى الموسيقى الرخيصة ثم نقرأ ثم ننام. واتضح أن آنّا غريغوريفنا مولعة بالأنتيكات. وقد أعجبني ذلك فيها وألهاني. فقد كانت تطيل التفرج، مثلاً، على مبنى بلدية تافه قديم، وتسجل تفاصيل عنه بطريقة الاختزال، حتى ملأت عموماً سبعة دفاتر. إلا أن أكثر ما

أثار اهتمامها وأدهشها هو الجاليري، وقد سررت لذلك. لأن الانطباعات الكثيرة التي يعج بها ذهنها حالت دون شعورها بالملل. كانت تتردد على الجاليري يومياً. وما أكثر ما تحدثنا أنا وإياها عن أهلنا في بطرسبورغ وفي موسكو، وعنك وعن آنّا إيفانوفنا، حتى انتابنا الحزن أحياناً.

لن أحدثك عن أفكاري. وقد تراكمت انطباعات كثيرة. أقرأ الصحف الروسية وأروّح عن النفس من خلالها. وشعرت أخيراً أن لدي مادة تكفي لمقالة كاملة عن العلاقات بين روسيا وأوروبا، وعن الطبقة العليا الروسية. ولكن ما جدوى الكلام عن ذلك؟ الألمان حطموا أعصابي. كما حطمتها حياتنا الروسية، حياة طبقتنا العليا، وثقتها بأوروبا وحضارتها. حادث باريس(2) هزني من الأعماق. كذلك المحامون الباريسيون أبدوا خسة في هتافهم «تحيا بولندة». تفو، ما أبشع هذه الحقارة. ويا لغباء تلك الإجراءات الرسمية. لقد تمسكتُ أكثر بفكرتي السابقة من أن عدم معرفة أوروبا بنا أو معرفتها الخسيسة بشؤوننا أمر نافع لنا. ثم ما أكثر الرسميات الدنيئة في محاكمة بيريزوفسكي.(3)

والأهم ما أكثر الثرثرة والمراوحة في المكان نفسه.

روسيا تبدو لنا من هنا واضحة ومجسمة أكثر. ومن الوقائع المدهشة نضوج الشعب الروسي المفاجئ في تقبل جميع الإصلاحات عندنا، الإصلاحات القضائية على الأقل (. . .)

ورغم أنني لم ألتق أحداً تقريباً هنا، إلا أنني صادفت في ألمانيا روسياً يقيم في الخارج على نحوٍ دائم ويتردد على روسيا سنوياً لثلاثة أسابيع يستلم خلالها العائدات ويعود إلى زوجته وأولاده الذين «تألمنوا» جميعاً.

وسألته بالمناسبة: «لماذا صدّرت نفسك؟»، فأجابني حرفياً بوقاحة وانفعال: «هنا حضارة وعندنا همجية. وإلى ذلك لا توجد هنا قوميات. بالأمس كنت في عربة القطار ولم أتمكن من التفريق بين الفرنسي والإنجليزي والألماني.

- يعني هذا تقدم في اعتقادك؟
- بالطبع.
- هل تعلم أن ذلك غير صحيح إطلاقاً؟ الفرنسي يبقى فرنسياً بالدرجة الأولى، والإنجليزي إنجليزياً. الحفاظ على الهوية هو الهدف الأسمى بالنسبة لهم. والأكثر من ذلك أن قوّتهم تكمن في هذه التوجهات.
- هذا غير صحيح بالمطلق. الحضارة يجب أن تنشر السواسية. وسنكون سعداء عندما ننسى بأننا روس وكلٌّ منا يشبه الآخرين، ولا ننصت إلى كاتكوف.
- ألا تحب كاتكوف؟
- إنه سافل.
- لماذا؟
- لأنه يكره البولونيين.
- وهل تقرأ مجلته؟
- لا أقرأها أبداً».

أنقل إليك هذا الحديث بالحرف الواحد. هذا الإنسان ينتمي إلى التقدميين الشباب، ويبدو أنه يبتعد عن الجميع. إنهم يتحولون في الخارج إلى كلاب مسعورة موتورة.

في الأخير استولت علينا الكآبة، أنا وآنّا غريغوريفنا، في درزدن. والأهم تركت فينا أثرها الوقائع التالية:

1) من رسائل (ربيبي) بافل، وقد كتب لي مرة واحدة، فهمت أن الدائنين قدموا طلب الحجز، ما يعني أننا لن نتمكن من العودة إلى روسيا إلا بعد التسديد. 2) اتضح أن زوجتي حامل. رجاءً فليبق ذلك سراً بيننا. الشهر التاسع سيصادف في فبراير. ولذا فالعودة غير ممكنة. 3) يطرح السؤال نفسه: ماذا سيحصل لأهلي في بطرسبورغ، إميليا فيودوروفنا وبافل وغيرهما؟ إنهم بحاجة إلى النقود، وهي غير متوفرة. 4) إذا كنا سنقضي الشتاء (في الخارج) فلا بد أن نقضيه بمكان ما في الجنوب. ثم إنني أردت لآنّا غريغوريفنا أن تشاهد بعض الأماكن للترويح عنها ومرافقتها في بعض الجولات. فقررنا أن نقضي الشتاء في سويسرا أو إيطاليا. ولكنْ لا نقود لدينا. ما كان معنا أنفقناه عن آخره تقريباً. كتبت إلى كاتكوف ووصفت له حالتي وطلبت منه سلفة أخرى بمبلغ 500 روبل. وماذا تعتقد؟ استجاب للطلب. فما أروع هذا الرجل! إنه إنسان بقلب كبير. وتوجهنا إلى سويسرا. لكنني أبدأ هنا بوصف عاري وحقارتي.

عزيزي أبولون نيكولايفيتش. أشعر بأني يمكن أن أعتبرك حاكماً أو محكماً لي. فأنت إنسان ومواطن. إنسان بقلب كبير. تأكدت من ذلك من زمان. أنت زوج وأب نموذجي. ثم إنني كنت دوماً أقدر أحكامك. ولا يؤلمني أن أعلن التوبة أمامك. لكنني أكتب هنا لك وحدك. فلا تقدمني إلى محاكم البشر.

عندما مررت على مسافة من بادن عنّ لي أن أستدير نحوها. أقضَّت مضجعي فكرة مغرية: ماذا لو ضحيت بـ 10 لوي؟ فلعلني أربح ولو 2000 فرنك تكفي لمعيشة أربعة أشهر مع تأمين كل احتياجات أهلنا في بطرسبورغ. والأدهى من ذلك أنني صادف وربحت أحياناً في السابق. والأسوأ من ذلك كله أن طبعي حقير وعاطفي جداً. ففي كل

شيء وفي كل مكان أسير بالأمور حتى الحافة الأخيرة، طول عمري على حافة الهاوية.

وضحك عليّ الشيطان في الحال. فربحت 4000 فرنك في ثلاثة أيام، بسهولة غير مسبوقة. والآن أرسم لك كيف تصورت الأمر. من جهة هذا ربح سهل، حيث كسبت من مئة فرنك أربعة آلاف في ثلاثة أيام. ومن جهة أخرى أمامي الديون والحجز والقلق النفساني وتعذر العودة إلى روسيا. والعامل الثالث والأهم هو اللعب نفسه. فما أقوى جاذبيته. كلا، أقسم لك أن المسألة ليست فقط في المصلحة الشخصية، بالرغم من أنني كنت بحاجة إلى النقود والحصول على المزيد منها. آنّا غريغوريفنا ألحّت على أن أكتفي بالـ 4000 فرنك وأرتحل رأساً. ولكن ما أشد إغراءات هذه الإمكانية السهلة لتصحيح أحوالي. وما أشد تأثير الأمثلة الأخرى. فبالإضافة إلى ربحي الشخصي كنت أرى يومياً أشخاصاً يربحون 20000 و30000 ولا ألتفت إلى الخاسرين. فهل أولئك ملائكة؟ أنا أكثر منهم حاجة إلى النقود. واصلت المجازفة وخسرت. صرت أخسر آخر ما لدي منفعلاً لحد الحمى. وخسرت. ورهنت الثياب. آنّا غريغوريفنا رهنت آخر حاجياتها. فما أروع هذا الملاك. وكيف كانت تهدئني وتشعر بالضجر في بادن اللعينة ونحن في الغرفتين اللتين انتقلنا إليهما في طابق فوق ورشة الحدادة. وأخيراً انتهى كل شيء. خسرت كل ما نملك. آه، ما أشد حقارة الألمان. كلهم بلا استثناء مرابون نصابون حقراء. صاحبة الشقة زادت الإيجار لعلمها بأننا لن نغادر إلى أي مكان ما لم نستلم النقود. وأخيراً صار من اللازم الفرار من بادن. وكتبت إلى كاتكوف من جديد. وطلبت منه 500 روبل أخرى. لم أكتب له عن ظروفي، لكن الرسالة وصلته من بادن، ففهم الوضع بعض الشيء على

الأرجح. لكنه أرسل المبلغ، أرسله على أية حال. ووصل مجموع ما استلمته مقدماً من «البشير الروسي» 4000. إلا أن المشكلة أن أكثر من نصف الـ 500 روبل أنفق على الفوائد المئوية وعمولة رهن أثاثنا في بطرسبورغ من قبل والدة آنّا غريغوريفنا. وقد أرسلت «البشير» النقود باسمها بناءً على طلبي. ثم إنني دفعت 100 روبل لتسديد الديون في بادن، وننتظر 50 روبلاً ترسلها والدة آنّا غريغوريفنا من نفس تلك الـ 500. وهي البقية التي لم يتم استلامها آنذاك. وأخيراً بقي لدينا قرابة مئتي فرنك للانتقال إلى جنيف. لماذا جنيف؟ لا أدري. وهل هناك فرق؟ انتقلنا إلى جنيف واستأجرنا غرفة مؤثثة عند اثنتين من العجائز. والآن، أي في اليوم الرابع، بقي عندنا من المال 18 فرنكاً. بالإضافة إلى الـ 50 روبلاً التي ننتظرها (من والدة آنّا ولن نستلمها قبل أقل من شهرين).

ولكي نتخلص من بادن ونحن في داخلها تعذبنا في ذلك الجحيم 7 أسابيع. في البداية، حالما وصلت إلى بادن، التقيت إيفان ألكساندروفيتش غونتشاروف في محطة القطار في اليوم الثاني. وقد ارتبك عندما رآني في البداية. فهذا المستشار المدني أو الفعلي مولع بالقمار مثلي. وطالما أن الاختباء متعذر، وإنني، فضلاً عن ذلك، ألعب بصراحة غليظة على المكشوف فقد كف عن الاختباء. كان يلعب بحماس محموم في القطع الفضية الصغيرة. ظل يلعب طول الأسبوعين من مكوثه في بادن وأظن أنه خسر الكثير. وعندما خسرت أنا حتى الصفر، وكان هذا الإنسان اللطيف قد رأى في يدي قبل ذلك ذهباً كثيراً، تفضل يحفظه اللّه وأعطاني 60 فرنكاً بناء على طلبي كدَيْن. ولعله كان يلومني أشد اللوم: «لماذا خسرت كل ما أملك، وليس نصفه كما فعل هو؟»

غونتشاروف كان يحدثني طول الوقت عن تورغينيف.[4] ولذا قررت أخيراً أن أزوره مع أنني كنت أرجئ الذهاب إليه. ذهبت في الصباح، في الثانية عشرة، فوجدته يتناول فطوره. وأقول لك بصراحة إنني في السابق أيضاً لم أكن أحب هذا الرجل شخصياً. والأدهى من ذلك أنني منذ عام 67 (الأصح منذ 1865)، عندما أقمت في فيسبادن، كنت مديناً له بـ 50 تاليراً لم أسددها حتى الآن[5]. كما أنني لا أحب معانقته الأرستقراطية المرائية حيث يسلط عليك قبلة ويعطيك خده كي تقبله شئت أم أبيت. كبرياؤه فظيعة. والمهم أن كتابه «الدخان» ينرفزني. قال لي إن الفكرة الرئيسية والمنطلق الأساسي للكتاب في العبارة التالية: «لو سقطت روسيا لما خسرت البشرية ولما اضطربت». أكد لي أن هذا هو معتقده الرئيسي بشأن روسيا. وقد رأيته منفعلاً جداً لإخفاق «الدخان». إلا أنني في الحقيقة لا أعرف كل تفاصيل إخفاق الكتاب. كتبتَ لي عن مقالة ستراخوف في «مذكرات الوطن» (حول تورغينيف)، لكنني ما كنت أعرف أن الجميع ينتقدونه وأن أعضاء أحد النوادي في موسكو، على ما أعتقد، جمعوا تواقيع للاحتجاج على «الدخان». أبلغني هو بذلك. وأعترف لك بأنني ما كنت أتصور أن بالإمكان عرض كل دمامل الغرور الشخصي بهذه السذاجة الخرقاء كما فعل تورغينيف. ويتباهى هؤلاء الأشخاص، على فكرة، بأنهم ملحدون. فقد أبلغني تورغينيف أنه ملحد حتى النخاع. ولكن، يا إلهي، المسيح هو الذي منحنا الربوبية، بمعنى التصور الرفيع لدى الإنسان لدرجة لا يمكن فهمه فيها من دون التبجيل ولا يمكن عدم الإيمان بأن هذا هو المثال الأعلى الخالد للبشرية. فماذا قدم لنا تورغينيف وهيرتسن وأوتين وتشيرنيشيفسكي ومن لفَّ لفَّهم؟ فبدلاً من الجمال الإلهي السامي الذي يبصقون عليه

نراهم جميعاً مغرورين خبثاء، ومنفعلين بلا حياء، ومتكبرين أغبياء، لدرجة تجعلنا لا نفهم ماذا يأملون وعلى ماذا يعوّلون، وهل سيمضي أحد خلفهم؟ لقد شتم تورغينيف روسيا والروس لحد القذف الشنيع. ولكنني لاحظت أن جميع هؤلاء الليبراليين والتقدميين المزعومين، ومعظمهم من مدرسة بيلينسكي، إنما يجدون في ذم روسيا متعة وارتياحاً. والفارق أن أتباع تشيرنيشيفسكي يذمّون روسيا ويتمنّون لها السقوط بصراحة، أما غلمان بيلينسكي فيضيفون إلى ذلك أنهم يحبون روسيا. والحقيقة أنهم يبغضون كل ما فيه ذرة من الأصالة في روسيا، ولذا ينكرونه ويلتفتون فوراً بارتياح وتلذذ إلى الكاريكاتير. فماذا لو قدمنا لهم في الأخير واقعاً لا يمكن إنكاره أو إتلافه بالكاريكاتير، فيضطرون إلى الموافقة عليه؟ في هذه الحالة، باعتقادي، سيشعرون بالألم وبتعاسة ما بعدها تعاسة. هذا أولاً، وثانياً- لاحظت أن تورغينيف مثله مثل الذين لم يكونوا في روسيا من زمان، ولا يعرفون الحقائق والوقائع إطلاقاً، رغم قراءة الصحف، وقد فقدوا بخشونة كل إحساس بوجود روسيا ولا يفهمون الوقائع العادية التي لم يعد ينكرها حتى العدميون الروس الذين صاروا يكتفون بالتهكم الكاريكاتيري كما يحلو لهم. فيما قال لي تورغينيف إن علينا أن نركع أمام الألمان، وإن ثمة طريقاً مشتركاً واحداً لا مفر للجميع من سلوكه، ألا وهو الحضارة، وإن جميع محاولات التروّس والنزعة الروسية الاستقلالية إنما هي حماقة وغباء. وقال إنه يكتب مقالة مفصلة عن جميع دعاة التروّس والصقلبة. ونصحته لتقليل العناء أن يشتري تيلسكوباً من باريس. فسألني «وما الغرض منه؟». فأجبته: «المسافة بعيدة من هنا. وجِّه التليسكوب صوب روسيا وتطلع إلينا، وإلا فالرؤية صعبة في الحقيقة». فزعل وانفعل كثيراً. وعندما رأيته بمثل هذا الانفعال قلت

له بسذاجة متكلفة: «لم أكن أتوقع أن كل هذه الانتقادات لك مع إخفاق «الدخان» تثير انفعالك لهذا الحد. واللّه، كل ذلك لا يساوي شيئاً، ابصق عليه». فقال محمر الوجنتين: «أنا لست منفعلاً أبداً». وحوّلت مجرى الحديث، فتطرقت إلى الشؤون المنزلية والشخصية. ثم أخذت قبعتي وذكرت بالمناسبة، من دون قصد مبيت، كل ما خيم على الفؤاد من الألمان في ثلاثة أشهر: «ما أكثر الغشاشين والمحتالين بينهم. نعم، الأجلاف هنا أسوأ بكثير وأخس مما عندنا، ولا أشك في أن الألمان أغبى منا. أنت تتحدث عن الحضارة، فماذا قدَّمت لهم الحضارة؟ وبماذا يمكنهم أن يتفاخروا ويتباهوا أمامنا؟»

شحب لونه. واللّه، من دون مبالغة. وقال: «أنت تهينني شخصياً عندما تتكلم بهذه اللهجة. فاعلم أنني انتقلت إلى هنا نهائياً، وأنا أعتبر نفسي ألمانياً، وليس روسياً، وأفتخر بذلك». وأجبته: «مع أنني قرأت «الدخان» وتكلمت معك الآن ساعة كاملة فما كنت أتوقع منك أن تقول هذا الكلام، ولذا لا مؤاخذة لأنني أهنتك». ثم ودعنا أحدنا الآخر بمنتهى اللطف، وقطعت على نفسي عهداً بأن لا أزور تورغينيف أبداً. وفي اليوم التالي، في تمام العاشرة صباحاً، عرج عليّ هو بنفسه وترك عند صاحبتَي الشقة بطاقته الشخصية لتسلماها لي. وطالما قلت له يوم أمس إنني لا أستطيع استقباله قبل الثانية عشرة، لأننا ننام حتى الحادية عشرة، فقد اعتبرت مجيئه في العاشرة صباحاً إشارة واضحة لكونه لا يريد مقابلتي وقام برد الزيارة في العاشرة تحديداً لكي أفهم هذه الإشارة. طوال تلك الأسابيع الـ 7 صادفته مرة واحدة في المحطة. تطلعنا بعضنا ببعض ولم نرغب في المصافحة.

ربما لا تروق لك، يا عزيزي أبولون نيكولايفيتش، لهجة التشفي

التي أحدثك بها عن تورغينيف وكيف أهان أحدنا الآخر. واللّه العظيم لم أكن قادراً على التحمل. لقد أهانني جداً بمعتقداته. بالنسبة لي شخصياً لا فرق، مع أنه بتعاليه وكبريائه ليس جذاباً جداً. ولكن لا يمكن سماع هذه الشتائم على روسيا من روسي خائن كان يمكن أن يكون نافعاً لها. لقد لاحظت من زمان، من أربع سنوات خلت، تزلفه إلى الألمان وركوعه أمامهم وكراهيته للروس. إلا أن الانفعال الحالي والحقد الأعمى على روسيا سببهما الأول والأخير هو إخفاق (رواية) «الدخان» وتجرؤ روسيا على عدم الاعتراف بعبقريته. لا شيء سوى الغرور، وهذا أدهى وأمرّ.

على أية حال، فليذهب هؤلاء جميعاً إلى الشيطان!

والآن استمع، يا صديقي، إلى نواياي: أنا طبعاً تصرفت بدناءة لأنني خسرت. ولكنني نسبياً خسرت القليل من نقودي. ومع ذلك كان بوسع تلك النقود أن تؤمّن معيشتنا لشهرين، بل ربما لأربعة أشهر إذا حكمنا على الأمور من أسلوب حياتنا. سبق أن قلت لك إنني لم أصمد أمام غواية الربح. لو كنت قد خسرت القطع النقدية العشر منذ البداية لتركت اللعب وانصرفت. إلا أن الربح الذي جاءني بـ 4000 فرنك هو الذي قادني إلى التهلكة. لم أتمكن من مقاومة إغراءات الفوز بالمزيد، عندما كان سهلاً، والتخلص دفعة واحدة من جميع ملاحقات الدائنين وتأمين احتياجاتي مؤقتاً واحتياجات باقي أهلي: إميليا فيودوروفنا وبافل وغيرهما. إلا أن ذلك كله، على فكرة، لا يبرر سلوكي أبداً، طالما أنني لم أكن وحيداً. كنت مع كائن يافع رائع طيب القلب محضني ثقته، فكنت حامياً له وراعياً، وبالتالي ما كان لي أن أعمل على هلاكه وأجازف بكل ما أملك وإن كان قليلاً.

مستقبلي، على ما أتصور، عصيب للغاية. المهم أنني لا استطيع

العودة إلى روسيا للأسباب الآنفة الذكر. والأدهى من ذلك: ماذا سيحصل للذين تتوقف حياتهم على مساعداتي؟ كل هذه الأفكار تحطمني. ولكن، مهما يكن من أمر فلا بد من الخروج من هذا المأزق على نحو ما، آجلاً أم عاجلاً. ولا يمكنني طبعاً أن أعوّل إلا على نفسي. فلا بوادر لحل آخر.

في عام 65، حينما عدت من فيسبادن في أكتوبر، تمكنت بشكل ما أن أقنع الدائنين بالانتظار قليلاً، فحشدت طاقاتي وشرعت بالعمل(6). وتمكنت أن أدفع للدائنين مبالغ مرموقة. والآن وصلت إلى جنيف بأفكار في الذهن(7). (خريطة) الرواية موجودة، وستكون، إن شاء اللّه، ضخمة وربما جيدة. أنا أحبها كثيراً، وسأشرع في كتابتها بارتياح ممزوج بالقلق.

قال لي كاتكوف في أبريل إن الأفضل بالنسبة لهم البدء بنشر روايتي اعتباراً من يناير 1868. وهذا ما سيحصل، مع أنني سأوافيهم بالرواية على أجزاء قبل ذلك.

ومع غياب الدائنين هنا، إلا أن وضعي أسوأ مما في عام 65. آنذاك كنت أرى بافل وإميليا وكنت وحدي. صحيح أن آنّا غريغوريفنا ملاك من السماء، ويا ليتك تعرف قيمتها الآن بالنسبة لي. أنا أحبها، وهي تقول إنها سعيدة، سعيدة تماماً. وإنها ليست بحاجة إلى أي ترفيه أو لقاءات مع الناس، وأنها قانعة تماماً بوجودنا نحن الاثنين معاً في غرفة واحدة.

طيب، يعني أنني الآن سأواظب على العمل المتواصل قرابة ستة أشهر. آنذاك زوجتي ستلد. جنيف مدينة معتبرة. فيها أطباء، ولغة الخطاب هي الفرنسية. إلا أن الطقس سيّئ للغاية. معتكر حالك. وهو في الخريف والشتاء أكثر سوءاً. ولعلنا نستطيع، إذا توفر المال،

أن ننتقل إلى إيطاليا أو باريس بعد شهرين ونصف. عموماً ينبغي قضاء فصل الشتاء إما في إيطاليا وإما في باريس. ولا أدري أين أرخص وأريح. ولعلنا نبقى في جنيف حتى الربيع.

الحسابات المالية كالآتي: إذا تقرر نشر الرواية لن يرفض كاتكوف تقديم سلفة أخرى بثلاثة آلاف خلال العام القادم. وبالتالي تتوفر نقود لنا ولبافل وإميليا، بل وحتى لتسديد القليل من الديون بهدف تهدئة الدائنين. كما يمكن بيع الرواية سلفاً في طبعة ثانية اعتباراً من منتصف السنة[8].

أنت عزيزي الوحيد، أنت بمثابة العناية الإلهية بالنسبة لي. فلا تمتنع عن مساعدتي في المستقبل. وأنا أستعطفك أن تشارك في جميع أموري الصغيرة والكبيرة.

ولعلك تستشف الفكرة الأساسية التي تقوم عليها كل آمالي. وهي أن كل ذلك يمكن أن يتحقق ويؤتي أُكُله بشرط واحد هو أن تأتي الرواية موفقة. وبالتالي ينبغي الآن الاهتمام بهذا الموضوع بكل ما أوتيت من قوة.

آه، يا عزيزي، ما أشد تبنّي تلك الفكرة التي لاحقتني قبل ثلاثة أعوام لأتعهد بتسديد جميع هذه الديون وصرف كل الكمبيالات دفعة واحدة. فمن أين لي بالصحة الكافية والطاقات اللازمة لهذا الغرض؟ وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن النجاح ممكن فبأي شرط؟ بشرط أن يكون أي نتاج لي ناجحاً من كل بد لدرجة تثير في الجمهور اهتماماً كبيراً، وإلا يتقوض كل شيء. فهل هذا ممكن؟ وهل يندرج ذلك ضمن الحسابات الرياضية؟

والآن كلمتي الأخيرة لك. استمع إليها وتأمل فيها وساعدني.

لدينا الآن 18 فرنكاً. وغداً أو بعد غد نستلم من والدة آنّا

غريغوريفنا 50 روبلاً لم تكن قد أوصلتها لنا من مبلغ كاتكوف. هذا كل شيء. كل ما لدينا من نقود حتى وصول حوالة جديدة من كاتكوف. أم آنّا لا تستطيع حالياً، في هذه اللحظة وفي هذه الظروف تحديداً، أن تساعدنا بكوبيك واحد.

ولا يمكنني في الحال الحاضر أن أطلب من كاتكوف شيئاً. لكنّ الأمر سيختلف بعد شهرين. آنذاك سأوافيه برواية تعادل ألفاً وخمسمئة روبل وأصف له أحوالي. وسيقتطع 1000 روبل تسديداً لديني، ويبعث لي 500. وأملي في ذلك كبير. فهو رجل طيب شهم.

ولكن كيف نعيش هذين الشهرين من التأليف؟ لا تلمني، وكن ملاكاً حارساً لي. أنا أعرف، يا أبولون نيكولايفيتش، أنك نفسك في ضائقة. وما كنت سأطلب منك مساعدة أبداً. لكنني أغرق، بل غرقت تماماً. بعد أسبوعين أو ثلاثة لن يبقى عندي كوبيك واحد. والغريق يمد يده دون أن يحكّم عقله. وأنا أفعل مثله. أنا أعرف أنك تميل إليّ، ولكنني أعرف أيضاً أنك عاجز تقريباً عن مساعدتي بالمال. ومع ذلك، مع معرفتي هذه، أرجوك أن تساعدني، لأنه لا أحد عندي سواك، وإذا لم تساعدني فسأهلك، نعم سأهلك.

وهذا رجائي:

أطلب منك 150 روبلاً. أَرسلْها إلى جنيف على بريد poste restante. وبعد شهرين تبعث لك هيئة تحرير «البشير الروسي» 500 روبل باسمي. سأطلب منها ذلك. ولا أشك أنها ستفعل. المهم أن أبعث لهم الرواية. وسأبعثها. بلا شك أيضاً.

وهكذا أطلب منك، يا عزيزي، لشهرين. فأنقذْني. وسأخدمك إلى الأبد بالصداقة والمودة. وإذا لم يكن المبلغ متوفراً لديك اقترض من أحد ما لأجلي.

معذرة على هذه اللهجة في الكتابة. فأنا غريق[9].

اعتباراً من سبتمبر يبقى بافل بلا نقود، ناهيك عن إميليا فيودوروفنا. ولذا خصص له من هذه الـ 150 روبلاً 25 وقل له أن يقتصد لمدة شهرين. وفيما بعد سأكتب لك كم تخصص له من نقود كاتكوف الـ 500. لهذا الغرض أريد أن أطلب من هيئة تحرير «البشير الروسي» أن ترسل المبلغ إليك، لأنني أرجوك أن تكون مساعداً لي وقتياً في بعض الشؤون في بطرسبورغ، بمعنى أن بعض الواردات والمصروفات ستتم من خلالك. ولا تقلق بسبب ذلك، فليس فيه ما يحرجك. أنا أطلب فقط مشاركتك الودية وأستعطفك لأنه ليس لي أحد في بطرسبورغ يمكن أن أعوّل عليه سواك.

كما أرجوك أن تكتب لي بأسرع ما يمكن. لا تتركني وحدي. اللّه سيثيبك بالمقابل.

بلّغ بافل أن يكتب لي إلى هنا في جنيف، عن كل ما حصل له، وإذا كانت لديه رسائل معنونة لي فليرسلها مثلما في المرة السابقة. أنا استلمت منه رسالة واحدة طوال تلك الفترة. يخيل إليَّ أنه لا يحبني بتاتاً. وهذا يؤذيني كثيراً.

عنواني:

M-r Théodore Dostoiewsky, Suisse, Genève, poste restante

اكتبْ لي عنوانك أيضاً. وبما أني لا أعرف رقم داركم أبعث إليك هذه الرسالة على عنوان آنّا نيكولايفنا سنيتكينا (حماتي) وستوصلها لك. على أية حال أرجوك كل الرجاء، يا عزيزي، أن تكتب لي بأسرع ما يمكن وتبعث لي المزيد من الأخبار عن جميع معارفنا وعما يجري وما يسري وعما تفعل أنت شخصياً. باختصار، اسقِ بقطرة ماء تلك الروح التي تحشفت في الصحراء. باللّه عليك.

تحياتي لأهلك، لوالديك وآنّا إيفانوفنا. لها خصيصاً. من آنّا غريغوريفنا خصيصاً. فما أكثر ما نتذكركم. وما أكثر ما نتحدث عنكم. وسنلتقي في حين ما.

أنتظر نصائحك، ورأيك بخصوص أوضاعي. وهل بلغتك معلومات عن أموري في بطرسبورغ، ولو من بافل؟

في الرسالة التالية سأكتب عن شيء آخر.

أنا في جنيف منعزل تماماً، ولم أرَ أحداً من الروس.

«لا صوت روسياً ولا وجه!»[10].

وداعاً، أعانقك بكل حرارة وأقبّلك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) ومنه أولى رؤوس أقلام رواية «الأبله».

(2) المحاولة الفاشلة لاغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثاني أثناء زيارته مع حاشيته باريس.

(3) المغترب البولوني المتهم بمحاولة اغتيال القيصر.

(4) كان موقف غونتشاروف من تورغينيف متحيزاً جداً.

(5) بشهادة زوجة دوستويفسكي سدد الكاتب هذا الدين بعد 10 سنوات تقريباً، كما أسلفنا.

(6) على رواية «الجريمة والعقاب».

(7) بشأن «الأبله».

(8) الطبعة الثانية لرواية «الأبله» صدرت في عام 1874.

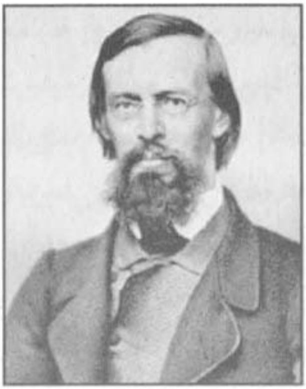
(9) مايكوف بعث للكاتب 125 روبلاً.

(10) من مسرحية غريبويدوف «ذو العقل يشقى».

119. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 15 سبتمبر 1867

اعذرني، يا عزيزي، أبولون نيكولايفيتش، لأني تلكأت في الرد عليك. وخصوصاً على الرسالة التي حولت لي فيها النقود. كنت مشغولاً في إكمال المقالة اللعينة: «هكذا تعرفت على بيلينسكي». ولم يكن بالإمكان إرجاؤها أو التأخر في تسليمها. في حين أنني اشتغلت فيها خلال الصيف أيضاً. إلا أنها عذبتني بصعوبة كتابتها لدرجة جعلتني أتكاسل في إنهائها حتى الآن. وأخيراً أنهيتها بأسنان مصطكة. والمشكلة أنني شرعت بكتابة مقالة كهذه لغباوتي. فحالما بدأت أدركت أنني لن أتمكن من إرضاء الرقابة، ذلك لأنني أردت أن أكتب كل شيء. كتابة رواية بعشر ملازم أسهل من هاتين الملزمتين. وكل ما نتج عن ذلك أنني كتبت هذه المقالة اللعينة المقيتة خمس مرات إجمالاً، حيث كنت كل مرة أشطب منها وأعيد تفصيلها من جديد. وأخيراً وصلت بها على نحو ما إلى المستوى الحالي الذي هو رديء لحد الاشمئزاز. فما أكثر الوقائع الثمينة التي اضطررت إلى حذفها. وكما كان المتوقع ظل فيها كل ما يزكم الأنوف مما يسمى بالوسطية الذهبية. يا للبشاعة!



أبولون مايكوف

كنت قد استلمت أجر هذه المقالة مقدماً. من بابيكوف وجماعته[1].

وعندما سافرت إلى موسكو في أبريل طلبت من بابيكوف أن يمهلني فترة، ليس لخمسة أشهر طبعاً، مع أن الموعد لم يكن محدداً نهائياً. وكانوا يريدون إصدار حوليتهم في سبتمبر أو أكتوبر. هذه كانت حساباتهم في أبريل، ما يعني أن المجلة لن تصدر قبل رأس السنة. مع أن خير البِّر عاجِلُه. ساعدني، يا عزيزي. تكرَّم عليّ بالآتي:

أَرسلْ مقالتي، يا حبيبي، إلى بابيكوف في موسكو مع الرسالة غير المختومة طياً. بابيكوف في موسكو، بفندق «روما». يمكنني طبعاً أن أبعثها إليه بنفسي. ولكني أخشى أن لا يكون موجوداً في «روما»؟ ولذا أرجوك أن تكون بمثابة الأب الحنون. وتفعل الآتي: اكتبْ ثلاثة سطور لبابيكوف في فندق «روما» وأرفقْ بها رسالتي من دون المقالة. وأَرسِل المقالة إن أمكن إلى متجر سولوفيوف، متجر بازونوف سابقاً، على شارع ستراسنوي بولفار مع سطرين إلى سولوفيوف توضح له

فيهما أن هذه المقالة معنونة إلى قسطنطين إيفانوفيتش بابيكوف وتكتب اسمه على الظرف وترجوه أن يبعثها إليه إذا لم يكن بابيكوف في «روما» وإذا كان سولوفيوف يعرف أين هو. أرجوك أن تتصرف هكذا، باللّه عليك. ضميري يؤنبني بخصوص هذه المقالة. ولا أدري ماذا أفعل. ساعدني يا حبيبي. واعذرني لأنني أزعجك بطلباتي.

اقرأ رسالتي إلى بابيكوف، واقرأ المقالة إذا أردت. واكتبْ لي عن رأيك صراحة فيما لو قرأتها[2]. المهم بالنسبة لي أن لا تكون رديئة جداً.

فكرت عدة مرات أن أنهي هذه المقالة في ثلاثة أيام. فتصور، حالما انتقلت إلى جنيف بدأت نوبات الصرع. وهي شديدة للغاية مثلما في بطرسبورغ. نوبة كل عشرة أيام. وبعدها خمسة أيام. أنا في حالة يرثى لها. إنني إنسان هالك. الطقس في جنيف على أسوأ ما يكون. وفي الحال الحاضر لدينا من أربعة أيام عاصفة لا تصادف في بطرسبورغ إلا مرة واحدة في السنة. والبرد فظيع، خلافاً لما كان على الجو من دفء في السابق. ولذا تلكأ العمل وكتابة الرسائل وكل شيء في الآونة الأخيرة. . .

الـ 125 روبلاً التي أرسلتها أنقذتنا بكل معنى الكلمة. سألتقط أنفاسي قليلاً، وأواصل كتابة الرواية[3]. اكتبْ لي، رجاءً. فأنا وآنّا في عزلة تغدو الرسائل فيها مثل المنّ والسلوى بالنسبة لنا، وخاصة إذا كانت منك. نقرأ كل رسالة خمس مرات.

توجد هنا جرائد روسية، فأقرأ منها «غولوص» («الصوت») و«الوقائع الموسكوبية» و«وقائع بطرسبورغ».

وتلك نعمة من النعم. وإلا فالملل هنا قاتل. ولكنْ لا حيلة في الأمر. لا بد من التأليف.

هل كتبتُ لك عن «مؤتمر السلام» هنا؟ لم أر في حياتي ولم أسمع بلخبطة كهذه. لكنني لم أكن أتصور أن الناس يمكن أن يقوموا بمثل هذه الحماقات. كل شيء كان من عمل الحمقى: كيف اجتمعوا وكيف تناقشوا وكيف قرروا. بديهي أنني لم أكن أشك في أن أول ما سيفعلونه هو الشجار. وهذا ما حصل. بدأوا بالتصويت على عدم لزوم الدول الملكية الكبرى، وعلى ضرورة تقسيمها إلى دول صغيرة، ثم قالوا لا موجب للدين وما إلى ذلك. كانت تلك 4 أيام من الصياح والشتائم. كان من المفروض أن تراهم بأم العين وتسمعهم بنفسك.

رأيت غاريبالدي (حضر افتتاح المؤتمر). وارتحل في الحال.

أردت أن أكتب لك عن أمور أخرى، لكنني أتركها لرسالة لاحقة. هل تصدق بأنني لحد الآن في حالة الصرع وأخشى أن أكتب الكثير؟

كيف حال أهلي؟ لماذا لا يكتب لي بافل[4]؟ سأكتب هذه الأيام إلى إميليا فيودوروفنا.

إلى اللقاء يا عزيزي. لا تزعل مني. ما أخبار سكة الحديد الجنوبية؟ نحن الآن أحوج ما نكون إليها.

تحياتي إلى آنّا إيفانوفنا. آنّا (غريغوريفنا) تبلغها وتبلغك تحياتها القلبية.

إذا كنت تريد معرفة شيء عن بابيكوف فأكثر من يعرف عنه هو ستراخوف وكذلك أفيركييف.

في الرسالة التالية سأكتب أكثر وبشيء من الإثارة. حالياً ذهني ليس صافياً.

أشد على يدك بحرارة.

المخلص فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: تصور، هنا أيضاً حجر عثرة في الطريق. أنا في الحقيقة لا أعرف أين يقع فندق «روما» (في موسكو). أعتقد في شارع تفيرسكايا.

العنوان: شارع تفيرسكايا، فندق «روما». ليد قسطنطين إيفانوفيتش بابيكوف.

أشكرك من صميم القلب مرة أخرى على المساعدة.

باللّه عليك ابعثْ لي عنوانك، أي رقم الدار والتسمية. فأنا الآن أيضاً أرجو من آنّا نيكولايفنا أن توصل لك هذه الرسالة.

---

(1) استلم دوستويفسكي مقابل هذه المقالة 200 روبل من بابيكوف لحولية جديدة لم يوفق الأخير في إصدارها.

(2) أبدى مايكوف رأيه في المقالة: «مثل هذا لا يكتب إلا في مذكرات ما بعد الموت»

(3) «الأبله».

(4) بناء على طلب والدة زوجة دوستويفسكي لم يسلم مايكوف ربيب الكاتب بافل عنوانه في جنيف.

120. إلى ستيبان يانوفسكي

جنيف، 28 سبتمبر 1867

السيد الكريم ستيبان دميتريفيتش المحترم(1)

هل كنتَ في الخارج؟ بحثنا عن آثارك في عموم ألمانيا، ولكن لا خبر جاء ولا وحي نزل. أكتب لك ولا أعرف عنوانك، ولذا أكلف ألكسندر بافلوفيتش إيفانوف أن يوصل هذه الرسالة إليك، فلا بد أن يعرف مكان خدمتك. وبالتالي أنا واثق بأن الرسالة ستصلك إذا كنت في موسكو.

أنا أقيم في جنيف منذ شهر تقريباً. ولعلي أقول إنها المدينة الأكثر مللاً في العالم. متقيدة جداً بالبروتستانتية، ويصادف المرء فيها مستخدمين في حالة سكر دائم. صحيح ليس كل ما يلمع ذهباً. النزاهة الألمانية والإخلاص السويسري وما إلى ذلك من توصيفات لا أدري من ابتدعها. ربما الألمان والسويسريون أنفسهم. فالبعض يكتبون في جرائد ريغا وبروسيا أننا نحن الروس سنعود إلى الهمجية السابقة ما إنْ يتركنا ألمان (حوض) البلطيق. ويؤكد أوستريالوف، شأنه شأن سولوفيوف المعجب بالألمان، أن أهالي الحارة الألمانية

يشربون الخمر من الصبح حتى المساء. وأثنى فولتير على ايفورت وهو من أهالي جنيف، فيما تتحدث دراسات العلماء عنه معلنة أن العالم لا يعرف سكيراً أكثر منه. لا تسخر مني، يا عزيزي ستيبان دميتريفيتش، إذا قلت إن من الصعب أن تجد في مكان ما غير ألمانيا هذا القدر من الحماقة والتحايل المصحوبَين بالتباهي والافتخار. وإلى ذلك يجلبون لنا في روسيا عاماً بعد عام الكثير من المصنوعات الأجنبية، ولذا نجد الكثيرين من الروس الذين يسافرون إلى الخارج واثقين، بفعل وهْمٍ لاعقلاني، بأن كل شيء جيد في الخارج وليس باهظ الثمن. إلا أنني تأكدت الآن بتجربتي الخاصة أن المصنوعات، ما عدا الضروريات، جيدة وغير غالية في باريس ولندن فقط. أما في سائر مدن أوروبا فهي أغلى وأسوأ مما عندنا. أؤكد لك ذلك. وكل مدينة ذات شأن كبر أو صغر، مثل جنيف، إنما تنتج وتستهلك مصنوعاتها رغم قرب فرنسا. ولكن ينبغي أن نأخذ بالاعتبار ما يلي: بشأن المصنوعات الخفيفة يتميز عدد من المدن بخصوصيته لهذا القدر أو ذاك. في إحداها النبيذ، وفي الأخرى الأحزمة، وفي الثالثة المنازل الريفية السويسرية المعمولة من الخشب الجميل. طيب، اشترِ من كل مدينة المصنوعات التي تمثل خصوصيتها، أما شراء الباقي فيعني تبذير النقود من دون جدوى. مواطنونا يسافرون إلى الخارج زرافات ووحداناً، وهناك يربّون أولادهم ويبذلون قصارى جهدهم ليحملوهم على نسيان اللغة الروسية. وثمة من يقيمون في الخارج أمداً طويلاً مثل تورغينيف. قال لي صراحة إنه لم يعد يرغب أن يكون روسياً، وبودّه لو نسي أنه روسي، وإنه يعتبر نفسه ألمانياً ويفتخر بهذا الانتماء. هنأته على ذلك وافترقت عنه. في جنيف حضرت «مؤتمر السلام» الذي صادف آنذاك. ومن المنبر العالي في القاعة التي تتسع لثلاثة أو أربعة آلاف

شخص كان يتشدق أشخاص مختلفون يقررون مصير البشرية. وكانت القضية فلسفية، إلا أن هدف المؤتمر عملي تطبيقي يتلخص في ما يلي: ما العمل لتنتفي الحروب من على وجه البسيطة ويحل السلام؟ تلك هي أول مرة في حياتي أستمع فيها وأرى إلى الثوريين ليس في الكتب، بل في الواقع، في سياق العمل، ولذا أبديت اهتماماً بالأمر ليس بقليل. وتقرر رأساً: لكي يحل السلام لا بد من القضاء على البابا والديانة المسيحية كلها بالسيف والنار. ثم طالما أن الدول العظمى كشفت عن عدم قدرتها على الوجود من دون جيوش كبيرة ودون أن تخوض حروباً فلا بد من تدميرها واستبدالها بجمهوريات صغيرة، ثم ينبغي تصفية الرأسمال بالسيف والنار، وكذلك جميع الذين لا يتبنون هذا الرأي. وكان بين الحاضرين[2] من حاولوا الاعتراض على هذا الهذر، ولم يسمح لهم بالكلام. وبدأ التصويت: كان الثوريون في الأقلية البائسة. إلا أن اللجنة زورت نتائج التصويت بوقاحة سافرة وأعلنت أن الثوريين أغلبية. أنا لا أفهم سبب منع مثل هذه المؤتمرات في فرنسا. فليفهم الفقراء الذين يستثيرهم هؤلاء الدعاة ويقودونهم إلى الهياج الشديد إلى أي حد يمكن أن يتمادى هؤلاء المحرضون وهل يستطيعون أن يقولوا أو يفعلوا شيئاً جدياً نافعاً؟ فقد بيَّن هذا المؤتمر بوضوح قيمة هؤلاء المنبوذين والاشتراكيين الطاعنين في السن، وكشف بأكمل وجه عن حقيقة القوى التي يمتلكونها وأن أحداً لن يسير وراءهم ما عدا المجانين من أمثالهم.

أنا أنوي البقاء في جنيف فترة أخرى. فأنا أؤلف رواية وبودّي أن أصل بها إلى نقطة معينة، إنْ لم أستطع أن أنهيها. آنّا غريغوريفنا تبلغك تحياتها وهي في الشهر الرابع (من الحمل). تكررت عليَّ

نوبات الصرع في جنيف. ولها علاقة بالتهاب البواسير. الطقس هنا متقلب على الدوام. وهو سبب تلك النوبات. إذا أردت أن تكتب لي فسأكون مسروراً جداً.

وهذا عنواني:

Suisse, Genève, poste restante, M-r Th. D < ostoiewsky > .

عندي رجاء ملحّ إليك، يا صديقي الطيب ستيبان دميتريفيتش. ولكن لا تظن أني شرعت بالكتابة إليك لهذا السبب. ولا أكذب عليك. الحجة جاءت في مكانها بالفعل. إلا أنني أكتب إليك لسببين مختلفين تماماً. أولهما ليس مهماً جداً، وهو الأسف على كوني مع زوجتي نأمل في ألمانيا أن نجدك ولم نجدك أو نعرف عنك شيئاً. ولو التقيناك لكنا سعيدين جداً. فنحن من خمسة أشهر نعيش في عزلة تامة. والسبب الثاني هو الأمل في أنك سترد عليّ. وطالما أني أنوي العودة بعد خمسة أشهر أخرى[3] فإن الرسائل من الوطن ستكون عزيزة عليَّ للغاية، بما فيها من ذكريات ومسرة. ومن جهتي أعدك بأني سأجيب في الموعد وبكل إخلاص. بالمناسبة، هل كانت الرحلة نافعة لك؟ فيما يخصني كتبت لك أخباري في أعلاه. أما فيما يخص رجائي فهو كالآتي: أنا أعمل وسأظل أعمل خمسة أشهر أخرى، لكنني أنفقت كل نقودي. (. . .) ذات مرة، بعد حديث ودّي قبل ثلاث سنوات، قلت لي، يا صديقي العزيز، إن بوسعك أن تقرضني قليلاً من النقود إذا إحتجتُ إليها في وقت ما. والآن أقول إنني أكثر من محتاج إليها، بل إنني محتاج على جناح السرعة، وإلا ليس أمامي سوى الهاوية. سأستلم نقوداً في الأول من ديسمبر، لكننا الآن لا نملك فلساً واحداً. وقد رهنت آخر حاجياتي. لذا أَرسلْ لي، إذا استطعت، 100 روبل، وإذا تعذر ذلك فـ 75 على الأقل. أنا أعرف،

يا صديقي العزيز، أن هذا أيضاً مبلغ محترم، ولكن لا ترسله إلا إذا كنت تستطيع. ولا موجب للتكلف. من ناحيتي أبلغك على أية حال بأنني سأعيدها لك مع حلول أعياد الميلاد، وليس قبلها، نظراً لبعد المسافة بيننا[4]. باختصار، إذا كنت تستطيع مساعدتي فافعل في الحال، لأنني ما كنت لأطلب منك لو لم أكن في حاجة ماسة.

أكتب إليك باستعجال رغم طول الرسالة. وأقول صراحة إنني مكتئب بعض الشيء 1) لأني لا أستطيع العمل في الليل خوفاً من نوبات الصرع، و2) يقلقني المستقبل كثيراً. فعليّ أن أكتب شيئاً جيداً وإلا لن أستطيع، بلا نقود، أن أواجه الدائنين، وأنا مدين لهم وحدهم ما لا يقل عن 3000 روبل. ومن جهة أخرى عليّ أن أقيم هنا حتى ذلك الحين. ولربما ننتقل إلى إيطاليا، مع أن جنيف أريح بالنسبة لنا: المعيشة هنا أرخص مما في باريس، والأطباء والمولدات يتكلمون الفرنسية، وهذا مهم. صديقي العزيز اكتبْ لي تحديداً ما رأيك في الفكرة التالية: أليس الأفضل لي، لصحتي ولإصابتي بالصرع، أن أترك بطرسبورغ وأغادر إلى موسكو. أنا نفسي أعرف أن موسكو أفضل نوعاً ما، وأظن أنني سبق أن قلت لك ذلك، ولكني أريد أن أعرف هل أن ذلك بالفعل «أفضل» لدرجة تبرر الانتقال؟ ما رأيك، ولو بالخطوط العريضة؟

إلى اللقاء. أعانقك من صميم القلب. والتحية لك مجدداً من آنّا غريغوريفنا، ومني المودة الخالصة. أشد على يدك بحرارة.

المخلص ف. د.

ملاحظة: أنا لا أطلب من أهلي المساعدة، لأن زوجة خالي أعطتني قبل ثلاث سنوات 10000 روبل لإصدار مجلتي، وأن أخي

بعد وفاته ظل مديناً لألكسندر بافلوفيتش بما لا يقل عن 4000 روبل، بل وربما 6000.

ف. د.

---

(1) طبيب. الأصل الروسي لرسالة دوستويفسكي هذه، وكذلك الرسالة رقم 122، مفقود. وقد نقلناهما إلى العربية من ترجمة روسية قديمة عن الفرنسية ظلت محفوظة.

(2) كارل ماركس لم يشارك في المؤتمر.

(3) لم يعد دوستويفسكي إلى بطرسبورغ إلا في صيف 1871.

(4) بعث يانوفسكي إلى دوستويفسكي 100 روبل أعادها له الكاتب في عام 1872.



121. إلى صوفيا إيفانوفا

جنيف، 29 سبتمبر 1867

مرحباً، صديقتي العزيزة، صوفيا. لا تلوميني على صمتي الطويل. ولا تلومي آنّا غريغوريفنا. فمنذ أسبوع لديها رسالة جاهزة إليك، لكنها لا ترغب في إرسالها مع رسالتي، تريد أن تضيف إليها. وأقول بصراحة إني أتوق من كل قلبي إلى استلام جواب منك. فنحن نشعر بملل شديد هنا في جنيف. حتى أن المشيئة الإلهية ستعتبر رسالتك إلينا من الفضائل التي تستحق الثواب. وإلى ذلك تعرفين كم أنا أحبك وكم أنا مهتم بكل ما يحيط بك. لقد تصرفنا بحماقة. كان ينبغي أن نمتلك نقوداً أكثر لنتنقل من مكان إلى آخر كما يحلو لنا. فيما أضفينا على رحلتنا بحكم الضرورة صبغة الإقامة والعيش في الخارج وليس التجوال في ربوع أوروبا.

في حين أن العيش في الخارج ممل جداً أينما كان. وطالما العيش في باريس مكلف والجو مغبر، وفي إيطاليا كان الصيف كله قائظاً وبدأت الكوليرا في الانتشار، قضينا هذا الفصل في ألمانيا في أماكن مختلفة، واخترنا منها الأجمل في الهواء الأنقى. شعرنا

بالضجر في كل مكان، وكانت الأماكن جيدة وصحتي لا بأس بها. وقد سررت كثيراً جداً لأن آنّا غريغوريفنا لم تشعر بالملل رغم أني لست إنساناً مرحاً تماماً يصلح للعيش طوال ستة أشهر في عزلة من دون معارف ولا أصدقاء ما عدا الزوجة.

ما أكثر ما تبادلنا من أحاديث وذكريات. وأقسم لك أننا لو قضينا الصيف جنبكم في لوبلينو (بضواحي موسكو)، بدلاً من هذه الأشهر الستة في الخارج، لكنا في مرح وابتهاج ربما أكثر بعشر مرات.

واتضح أن آنّا غريغوريفنا جوالة منقطعة النظير. فأينما حللنا تتفقد كل شيء وتسجل ملاحظاتها حتى استهلكت العديد من المفكرات الصغيرة والدفاتر، فملأتها برموز الاختزال. وللأسف أنها لم تر الكثير. ثم حل الخريف ولم يكن لدينا إلا القليل من النقود للتجوال في إيطاليا، كما كانت هناك أسباب أخرى. أردنا أن نسافر إلى باريس وأخطأنا بعدم السفر إليها حيث توجهنا إلى جنيف. ومع أني كنت في جنيف سابقاً ثلاث مرات، لكنني لم أمكث فيها للمعيشة، ولم أتأكد من طقسها الذي يتغير في اليوم الواحد ثلاث مرات. فبدأت نوبات الصرع تلاحقني من جديد، مثلما في بطرسبورغ تماماً. بينما كان عليَّ أن أعمل وأبقى في جنيف خمسة أشهر على الأقل. أعكف جدياً على كتابة رواية ستنشر في «البشير الروسي»، وأرجو أن تسمحي لي بأن أكرسها وأهديها لك، يا صوفيا ألكساندروفنا إيفانوفا. كنت قررت ذلك من زمان[1]. ولا أدري، واللّه، هل سيكون من اللائق أن لا أنشر شيئاً الآن، في زماننا هذا، لولا الحاجة التي تدفعني إلى النشر. السماء تكفهر، ونابليون (الثالث) أعلن أنه لاحظ الغيوم السوداء عنده في الأفق. ولكي يصحح المسألة المكسيكية، والإيطالية، والألمانية التي هي الأهم، عليه أن يشغل أذهان الناس بالحرب ويسترضي

الفرنسيين بالوسيلة القديمة: الانتصارات الحربية. ومع أن ذلك ربما لم يعد يخدع الفرنسيين، إلا أن الحرب يمكن تماماً أن تندلع. وأنت تعرفين ذلك بنفسك. على فكرة، هل تستلمون جرائد؟ اقرأوها بالله عليكم، فلا يمكن الاستغناء عنها الآن، ليس من أجل الموضة، بل ليكون الترابط الملحوظ بين جميع الأمور العامة والخاصة أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً. أما إذا قامت الحرب فإن سعر النتاج الأدبي والفني لا بد أن يهبط إلى أدنى مستوى. هذا هو التصور الأساسي الذي يثبط عزيمتي، وأنا أعترف بذلك. فعندنا أصلاً، ومن دون حرب، بدأت في الآونة الأخيرة لامبالاة واضحة بالنتاجات الفنية.

أخشى ما أخشاه هو الوسطية السطحية. وأعتقد الأفضل أن يكون النتاج جيداً جداً أو رديئاً جداً. أما الوسط بين هذين في ثلاثين ملزمة طباعية فهو شيء لا يغتفر.

أرجوك، يا صديقتي العزيزة، أن تكتبي لي، وأن تكتبي بتفصيل أكبر عنك شخصياً وعن ماسينكا وباقي أفراد العائلة خلال الأشهر الستة المنصرمة. كيف عشت هذه المدة في لوبلينو؟ وهل بقي فيديا عندكم طويلاً؟ ماذا كنت تفعلين؟ أنت شخصياً؟ وماذا تفعلين الآن؟ وماذا تنوين أو تريدين أن تفعلي؟ (. . .) أنا أرغب جداً في العودة إلى روسيا لأسباب عديدة. لأكون بين أهلي. وإلى ذلك أريد أن أصدر عندما أعود شيئاً أشبه بالجريدة. وقد أبلغتك بذلك بالخطوط العريضة على ما أتذكر. إلا أنني هنا حددت بكل وضوح الشكل والهدف[2]. وهذا يتطلب أن أكون في الديار لأسمع وأرى كل شيء بأم العين. أنا، على فكرة، مسرور جداً لأن لدي عملاً لولاه لقتلني الضجر. ولكنني عندما أنهي هذه الرواية في وقت غير قريب لا أدري هل يمكن البدء بعمل جديد هنا، في الخارج. أنا لا أفهم الجوالين الذين يقيمون هنا

ثلاث سنوات من دون عمل. يمكن السفر إلى الخارج فعلاً، وبنفع كبير، بل وبارتياح، لستة أشهر والتجول في كل مكان وعدم المكوث في مكان واحد أكثر من أسبوعين. هذا شيء جيد. وإلى ذلك يمكن بالفعل تحسين الصحة. إلا أن البعض يعيشون هنا مع عوائلهم، ويربّون الأطفال ويحرمونهم من تعلّم الروسية، والمهم يعودون إلى الوطن بعد أن يستنفدوا آخر المدخرات ويحاولون أن يعلّمونا لا أن يتعلموا منا. إن المرء يتخلف هنا عن كل شيء، وعليه بعد ذلك أن يتعود عاماً كاملاً ليدخل في السياق ويواكب الحياة. والكاتب بخاصة يتعذر عليه أن يتعايش إلا إذا كان خبيراً أو عالماً. ففي حرفتنا، على سبيل المثال، يشغل الواقع المرتبة الأولى، والواقع هنا سويسري.

تقع جنيف على ضفاف بحيرة جنيف. والبحيرة مدهشة، شواطئها خلابة. إلا أن المدينة نفسها في منتهى الملل. إنها مدينة بروتستانتية عريقة، والسكارى فيها، بالمناسبة، زرافات ووحداناً. (. . .) سأرد عليك، يا صديقتي العزيزة حتماً ومن دون تأخير.

اكتبي لي عن أخواتك. وتحياتي الخصوصية إلى يوليا. كيف حال فيكتور؟

قبّلي بالنيابة عني وعن زوجتي جميع إخوتك وأخواتك.

آنّا غريغوريفنا ستراسلك قريباً. أعانقك وأشد على يدك. تحياتي إلى يلينا بافلوفنا.

محبكم فيودور دوستويفسكي

---

(1) الإهداء المنشور في طبعة «البشير الروسي» لرواية «الأبله» عام 1868 حذف من طبعة 1874 المستقلة.

(2) المقصود مجلة «يوميات الكاتب» الشهرية المرتقبة (بدأت بالصدور عام 1876).

122. إلى ستيبان يانوفسكي

جنيف، 1-2 نوفمبر 1867

صديقي الطيب الغالي ستيبان دميتريفيتش

إذا كنتَ في موسكو، ولم تجد رسالة مني على مكتبك فلا تتسرع في الحكم عليَّ ولا تلمني. رسالتك مع الـ 100 روبل استلمتها قبل أكثر من أسبوعين. وإذا كنتُ لم أرد عليك حتى الآن فذلك ليس بسبب التكاسل أو اللامبالاة، بل بسبب وضعي الحالي المتأزم الأليم. أنت تعرف ماذا يعني وجود الظلام في الروح. يصعب على شخص سوداوي مثلي أن يتجاذب أطراف الحديث مع شخص آخر. رسالتك بعثت فينا، آنّا غريغوريفنا وأنا، ارتياحاً عظيماً. وكنت أتابعك ذهنياً وأرافقك في روما وفي نابولي، وأتذكر تواجدي في إيطاليا، في هاتين المدينتين، وأتصورك واقفاً مبهوراً أمام التحف الفنية. من مجمل الرحلة في جنوب إيطاليا أنا أتذكر الفن وحده بفرحة وارتياح. أما الطبيعة فقد أدهشتني في نابولي فقط. وفي شمال إيطاليا، في لومبارديا، الطبيعة أكثر روعة بما لا يقاس. أنت كنت في ميلانو، فهل زرت بحيرة كومو على مقربة منها؟ ولماذا، لماذا لم

تصل إلى البندقية؟ ذلك شيء لا يغتفر. فالبندقية لا تسحر المرء فقط، بل تبهره، تخلب لبه وتسكره. ولكننا سنذهب إليها معاً في مرة قادمة. كلمة شرف.

هذه المرة لم أتجول كثيراً لحد الآن، ولم أر الكثير. ذلك، في المقام الأول، لأن طبيعة رحلتي اختلفت. أنا لا أتجول، بل أقيم في الخارج، والمعيشة في أوروبا بالنسبة لي لا تطاق. ولكن ما العمل؟ لم أتمكن من توفير الوقت لأعرض على آنّا غريغوريفنا الكثير. كنا في ألمانيا، حيث توقفنا في درزدن وفي بادن- بادن، والآن وصلنا إلى جنيف، وتوقفنا هنا على ضفاف بحيرة ليمان. (. . .)

المسألة التي يتعيَّن عليَّ حلّها تقضّ مضجعي: فإذا ألَّفتُ رواية رديئة تتقوض أحوالي المالية رأساً. من سيعطيني والحال هذه أجر التأليف مقدماً؟ في حين أنا أعتاش فقط على السلف وعلى عائدات إعادة الطبع. وفي هذه الحالة لن أستلم السلف ولن يصار إلى إعادة طبع مؤلفاتي. وبالتالي يتعيَّن عليَّ أن أكتب عملاً لن يكون رديئاً بأي حال من الأحوال. وتلك ضرورة لا بد منها كيلا أهلك. هذه هي المسألة الأولى.

والثانية، غادرت روسيا بعد أن دفعت أربعة أخماس ديوني، والباقي يبلغ 3000 روبل بشكل كمبيالات.

وإذا وصلتُ إلى بطرسبورغ يزجّون بي في سجن الديون. ما يعني لزوم تسديد تلك الكمبيالات. بأي نقود؟ هل أدخر من احتياطيات (لا وجود لها. . .)؟

المسألة الثالثة. زوجتي الطيبة وفرحتي وسلواي الوحيدة آنّا ستلد بعد ثلاثة أشهر. تصور، بعد ثلاثة أشهر وليس في جيبي ولا كوبيك واحد. الـ 100 روبل التي أرسلتها لي أنفقتها على تسديد بعض

الديون الطفيفة وشراء بعض الحاجيات الشتوية الضرورية وعلى احتياجاتنا اليومية. وقد بدأنا من جديد نرهن حاجياتنا، بمعنى أن آنّا غريغوريفنا ترهن فساتينها، فليس لدينا ثمن الرغيف.

مرت اليوم خمسة أسابيع على الرسالة التي بعثتها إلى كاتكوف راجياً أن يحوّل لي، إن أمكن، إضافة إلى الـ 4000 التي أعطاني إياها مقدماً، 500 روبل أخرى، (على أقساط) مئة روبل كل شهر لتسهيل الوضع المادي لهيئة التحرير. وبعد خمسة أشهر أنهي روايتي التي ستأتي في 30 ملزمة على أقل تقدير، وسيتم تسديد كل ديوني للمجلة ومجموعها 4500 روبل. اليوم ينتهي الأسبوع الخامس على رسالتي تلك. صحيح أنني في السابق أيضاً لم أستلم جواباً من «البشير الروسي» قبل مضي شهر. فتلك قاعدة من قواعدهم للأصدقاء وللأعداء. إلا أن الخمسة أسابيع أكثر من المعقول. «الوقائع الموسكوبية» تتشكى دوماً من الخدمات الخارجية للبريد الروسي، وتقول إن الرسائل تضيع أو تصل متأخرة. ولا أتصور أن رسالتي يمكن أن تتأخر. وإذا لم يكن هذا هو السبب فلماذا لا يردّون عليّ؟ وإذا كانوا لا يريدون أن يعطوني النقود مقدماً فيمكنهم أن يجيبوا بكلمة واحدة: كلا. ومن ناحية أخرى المجلة تنتظر روايتي، والصمت لا يصبّ في مصلحتها.

ولو لم نستلم في تلك الأثناء حوالتك لهلكنا أنا وآنّا من زمان.

فحاول أن تتفهم ما ينتظرني. أعيش وزوجتي في غرفة وحيدة، صحيح أنها فسيحة وليست سيئة، في شقة عجوزين طيبتين. إلا أن هذه الغرفة تغدو باردة جداً، ولا تتوفر أية إمكانية لتدفئتها. ولا أدري ماذا سيحصل في الشتاء. آنذاك، في أواخر فبراير حسب التقويم الجديد، يُنتظر أن تلد زوجتي. فتصور كيف سيتم ذلك في غرفة

واحدة: ولادة وطبيب ومرضعة سويسرية وروايتي. لو كانت لدي نقود لاستأجرت الغرفة المجاورة أيضاً بـ 20 فرنكاً، وهي فارغة الآن بعد أن غادر نزلاؤها. ولكن ماذا لو لم أستلم جواباً من كاتكوف؟ وحتى إذا استلمت ما قيمة الـ 100 روبل في الشهر؟ خلال الأشهر الخمسة القادمة أنا بحاجة إلى 150 روبلاً في الشهر على أقل تقدير.

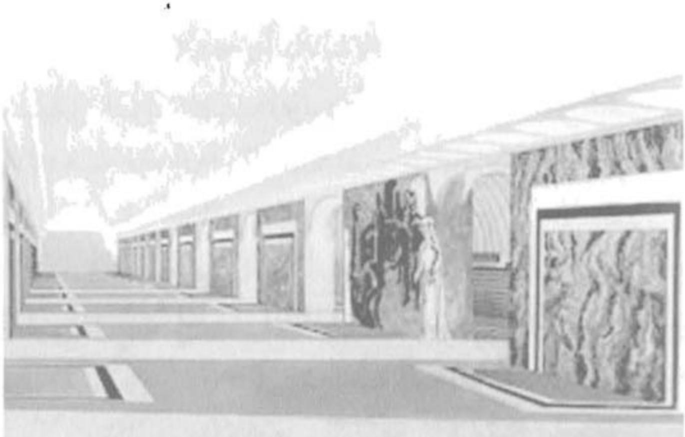
بالإضافة إلى ذلك هناك مسألة أخرى. كنت في الآونة الأخيرة غارقاً في وضع خطة الرواية وفكرتها لدرجة جعلتني طوال عدة أشهر مشغولاً بهذه الفكرة وحدها. وأخيراً تمكنت من وضع الخطة الدقيقة للرواية. وهان الأمر. ولن تكون هناك أخطاء لا في المعالجة ولا في الأداء. بقي على موعد إرسال الرواية شهر واحد لا غير. وهو الموعد الأخير. فكيف يمكنني أن أنهي هذا العمل في شهر، أقصد الجزء الأول الذي لن يقل حجمه عن ست ملازم طباعية؟ وأكثر ما يؤذيني أنني أدرك بوضوح أنه لو توفر لي الوقت الكافي، أو على الأقل الوقت اللازم للأداء والتنقيح، لتمكنت من القيام بذلك.

ثم إنني أخشى نوبات الصرع. في جنيف في البداية كانت النوبات تداهمني كل أسبوع تقريباً. الطقس مزعج للغاية. رياح جليدية تهبّ من جهة الجبال، وحالة الجو تتبدل ثلاث أو أربع مرات في اليوم. إلا أن شهراً مضى تقريباً ولم تحصل لي نوبة. وأخشى أن يداهمني المرض ويصيبني الآن، حينما أشرع في العمل بكل طاقاتي.

آه، يا صديقي ستيبان دميتريفيتش، الصرع سيقضي عليّ في آخر الأمر. نجمي يخبو إلى أفول، وأنا أتحسس ذلك. ذاكرتي ضبابية تماماً، مشوشة بالكامل. لم أعد أتعرّف على وجوه الأشخاص، وأنسى ما قرأته يوم أمس، وأخشى أن أجن أو أغدو معتوهاً. تصوراتي تتموج بلا انتظام، والكوابيس تلاحقني في المنام. ولكن

يكفي الكلام عني. في المرة القادمة سأتحدث أكثر عن مواضيع أخرى. فأنا أريد أن أناقش معك مسألة (الإقامة) في سويسرا. ولعل الأفضل الآن أن أكتفي بهذا القدر. آنّا تشد على يدك بحرارة. وأنا أعانقك، يا صديقي. فلا تنس أنني المخلص لك دوماً.

د.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

123. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 31 ديسمبر 1867

صديقي العزيز الطيب أبولون نيكولايفيتش. حل أخيراً الوقت الذي أستطيع فيه أن أحبّر لك بضع صفحات. فهل تتصور أني نسيتك؟ أنا أعرف أنك لن تظن بي هذا الظن. ولكن لا تلمني. فأنت تفهم كل شيء أسرع من الجميع. هل تصدق بأنه لم تكن لدي ولا ساعة من الفراغ بكل معنى الكلمة؟ لقد نسيت الجميع. ماذا يفعل (ربيبي) المسكين بافل الذي لم أبعث إليه نقوداً منذ شهرين؟ فليس عندي ولا كوبيك واحد بالمعنى الحرفي للكلمة كي أبعث إليه شيئاً. أنا أكتب لك كل التفاصيل وأنتظر منك الجواب بفارغ الصبر والألم. المجهول يقتلني.

إليك ما حصل لي: كنت أعمل وأتألم. هل تعرف ماذا يعني التأليف (المأجور)؟ أنت لا تعرف ذلك والحمد للّه. أعتقد أنك لم تكتب حسب الطلب وبالأمتار ولم تتعرض لآلام هذا الجحيم. بعد أن أخذتُ من «البشير الروسي» تلك المبالغ الرهيبة، 4500 روبل، كنت آمل من بداية العام أن الشاعرية لن تفارقني وأن الفكر الشاعري

سيومض ويتسع فنياً في نهاية العام وأنني سأوفق في إرضاء الجميع. وبدا لي ذلك وارداً تماماً، لأن أجنة الأفكار الفنية الكثيرة تومض دوماً في ذهني وفي روحي وتجعلني أتحسسها وألمسها لمساً. والحال أنها تومض فقط، ولا بد من تجسيدها التام الذي يحدث على الدوام بالصدفة وبصورة مباغتة، وليس بالإمكان حساب الوقت الذي يحدث فيه تحديداً. وبعد ذلك، حينما ترتسم في (الذهن) والفؤاد الصورة الكاملة يمكن الشروع بالأداء الفني. وعندها يمكن حتى حساب الزمن من دون خطأ. هكذا كنت طوال الصيف والخريف أركّب مختلف الأفكار، بعضها مثيرة للغاية، إلا أن القليل المتوفر لدي من الخبرة جعلني دوماً أتحسس الزيف أو الإشكال أو عدم اختبار هذه الفكرة أو تلك على محك الحياة. وفي الأخير توقفت عند فكرة معيّنة وبدأت العمل، وكتبت الكثير. إلا أنني رميت كل ذلك عرض الحائط في الرابع من ديسمبر حسب التقويم الغربي. أؤكد لك أن الرواية قد تكون لا بأس بها، لكنني كرهتها لأقصى حد لأنها لا بأس بها، وليست جيدة تماماً. لم تكن ترضيني. فماذا كان عليَّ أن أفعل والوقت هو الرابع من ديسمبر؟ وأوضاعي المعيشية كالآتي:

لا أتذكر، لم أعد أتذكر شيئاً على الإطلاق، هل كتبت لك أنني، بعد أن نفدت كل نقودي، طلبت من كاتكوف أن يبعث لي مئة روبل شهرياً؟ أظن كتبت. فوافق، وصار المبلغ يصلني بانتظام. إلا أنني في رسالتي التشكرية إلى كاتكوف أكدت بكلمة شرف أن الرواية ستصله وأنني سأبعث إلى هيئة التحرير في ديسمبر مادة كبيرة منها. ولم أكن متردداً في هذا الوعد لأن ظروف الكتابة مؤاتية وقد أنجزت الكثير. ثم كتبت له أن نفقاتي الطارئة كبيرة، وهل يمكن إرسال 200 روبل دفعة واحدة في شهر ديسمبر، من الـ 500 المخصصة لي، بدلاً من

الـ 100؟ فجاءت الموافقة ووصلت الحوالة في ديسمبر، في الوقت الذي أتلفتُ فيه روايتي. فماذا أفعل؟ كل آمالي تقوضت. وكنت قد فهمت أخيراً أن التأليف والرواية هما أملي الأول والأخير، وأنني لو ألَّفت رواية مقبولة فسأسدد ديوني لهيئة التحرير ولك وأرسل مبلغاً محترماً إلى بافل وإميليا فيودوروفنا وأؤمّن معيشتي. وأنني لو ألَّفت رواية جيدة لربما بعتها في طبعة ثانية، وحصلت على مبلغ ما، وسددت نصف أو ثلثي ديون الكمبيالات وعدت إلى بطرسبورغ. إلا أن كل شيء تقوض. وعندما استلمت الـ 200 روبل من كاتكوف كتبت له تأكيداً أن الرواية ستكون جاهزة حتماً لعدد يناير، واعتذرت لأن الجزء الأول منها سيصل إلى هيئة التحرير متأخراً، لكنه سيصل على أية حال في الأول من يناير حسب تقويمنا، ورجوت بإلحاح أن لا يصدر العدد الأول من «البشير الروسي» من دون روايتي. فالمجلة لا تصدر أبداً قبل منتصف الشهر المعني.

ثم إنني بدأت أتعذب في سياق ابتداع رواية جديدة ما دام مستقبلي كله يتوقف عليها. ولم أكن أرغب في مواصلة الرواية القديمة بأي حال من الأحوال. ما كان باستطاعتي أن أواصل. بقيت أفكر من 4 ديسمبر حسب التقويم الجديد حتى 18 منه. وكنت بالمعدل أخرج يومياً بما لا يقل عن ست خطط، على ما أظن. وتحوَّل دماغي إلى طاحونة. ولا أدري كيف لم أجن. وأخيراً، في 18 ديسمبر، عكفت على كتابة الرواية من جديد. وفي 5 يناير حسب التقويم الجديد أرسلت إلى هيئة التحرير 5 فصول من الجزء الأول بحوالي 5 ملازم، مع التأكيد على أنني سأرسل الفصلين المتبقيين من الجزء الأول في العاشر من يناير. يوم أمس، الحادي عشر من يناير، أرسلت هذين الفصلين واكتمل الجزء الأول بحجم 6 ملازم طباعية أو ست ونصف.

الإرسالية الأولى ينبغي أن تصلهم في الـ 30 من ديسمبر حسب تقويمنا، والثانية في 4 يناير، وبالتالي يمكنهم، إذا أرادوا، أن ينشروا الجزء الأول في عدد يناير. والجزء الثاني، الذي لم أكتب منه حتى الآن ولا سطراً واحداً، تعهدت بإرساله إلى هيئة التحرير تباعاً وباطراد اعتباراً من الأول من فبراير.

أرجو أن تفهمني يا صديقي، فهل كنتُ، والحال هذه، أستطيع أن أفكر في كتابة رسالة إلى أحد؟

وعمَّ كنت سأكتب؟ لذا افهمني بوصفك إنساناً إنسانياً، واعذرني بوصفك صديقاً صدوقاً على صمتي الاضطراري. ثم إن الفترة كانت عصيبة للغاية.

والآن أتحدث عن الرواية لكي ننهي هذا الموضوع. في الحقيقة أنا نفسي لا أعرف تحديداً ماذا أرسلت لهم. لكنّ الرواية، بقدر ما أستطيع أن أحكم عليها، ليست نموذجية وليست مؤثرة. من زمان كانت تلاحقني فكرة أخشى أن أجعل منها رواية، كونها فكرة صعبة جداً، وأنا لست متهيئاً لتناولها رغم أنها مغرية تماماً وتعجبني. تتلخص الفكرة في تصوير شخص رائع جداً. وفي اعتقادي لا شيء أصعب من ذلك، وخصوصاً في زماننا هذا. أنت بالطبع توافقني هذا الرأي. هذه الفكرة لاحت سابقاً أيضاً في صورة أدبية(1)، ولكنها صورة غير مكتملة، وينبغي أن تكتمل. ولم يرغمني على تناول هذه الفكرة غير المختمرة بعد إلا أوضاعي المزرية. وقد جازفت، كما في القمار، معللاً النفس «باحتمال تفتح الموضوع تحت ريشة الكتابة». وتلك مجازفة لا تغتفر.

عموماً أمكن بناء الخطة. ولاحت فيما بعد تفاصيل تغريني كثيراً وتوقد في نفسي الحماس. ولكن ماذا عن الاكتمال؟ وماذا عن البطل؟

(وكلاهما مترابطان) لأن الاكتمال عندي قائم على شخصية البطل. هكذا طرحت المسألة، وأنا ملزم بأن أطرح الصورة. فهل ستتطور تحت ريشة الكتابة؟ يمكنك أن تتصور الفظائع التي نشأت عن ذلك تلقائياً. اتضح أن هنالك بطلة إلى جانب البطل، ما يعني وجود شخصيتين أساسيتين. وإضافة إليهما ثمة صورتان بارزتان أخريان، بطلان تقريباً. وهما شخصان ثانويان أنا ملزم بتجسيدهما وفق الجرد الروائي الكبير، المتضمن للكثير من الشخوص. ثم إن الرواية نفسها في 8 أجزاء. ومن أبطالها الأربعة اثنان مرتسمان في مخيلتي بثبات وعمق، والثالث لا يزال هلامياً تماماً، فيما الرابع الذي هو البطل الرئيسي الأول في صورة ضعيفة جداً. ولعله يستقر في فؤادي قوياً لا ضعف فيه، إلا أنه في الأداء بمنتهى الصعوبة. على أية حال أحتاج لكي أكتب إلى وقت مضاعف، بمرتين في أقل تقدير.

الجزء الأول في اعتقادي ضعيف. ولكنْ لا تزال ثمة وسيلة إنقاذ، كما يخيل إليّ. وهي أن شيئاً لم ينسق بعد، ويمكن أن يتطور في الأجزاء اللاحقة بشكل مقبول. يا ليت! ثم إن الجزء الأول في الحقيقة مجرد ديباجة أو مدخل. والشيء الوحيد المطلوب هو أن يثير على الأقل بعض الاهتمام بما سيجري فيما بعد. لكنني لا أستطيع أن أحكم على ذلك أبداً. قارئي الوحيد آنّا غريغوريفنا. وهي معجبة جداً، إلا أنها ليست المحكّم (الأول) في مهنتي.

في الجزء الثاني ينبغي أن تطرح كل الأمور بشكلها النهائي، ولكنْ من دون توضيح. وهناك مشهد واحد فقط من المشاهد الرئيسية، ولكنْ كيف سيكون؟ رغم أنه مسجل في المسودة ويبدو جيداً.

عموماً كل شيء يعود إلى المستقبل. لكنني أنتظر منك تقريظاً متشدداً. الجزء الثاني يقرر مصير الكتاب. وهو الجزء الأصعب،

ولكنْ اكتبْ لي عن الجزء الأول أيضاً، مع أنني أعرف عن قناعة أنه ليس جيداً. ومع ذلك اكتبْ لي. كما أرجوك أن تبلغني، حالما يصدر عدد «البشير الروسي»، هل نشروا روايتي أم لا؟ لا أزال حتى الآن أخشى أن أكون تأخرتُ عليهم. في حين من الضروري جداً بالنسبة لي أن تظهر الرواية في يناير. خبّرني، باللّه عليك، ولو بسطرين لأكون على علم.

كتبتُ إلى كاتكوف عن الرواية، لدى إرسال الجزء الأول، نفس ما كتبته لك تقريباً. الرواية بعنوان «الأبله». على فكرة، لا أحد يمكنه أن يحكم على نفسه، وخصوصاً في الأثر الساخن. فلعل الجزء الأول جيد أيضاً. وإذا لم أكن قد طورتُ شخصية البطل الرئيس فذلك لأن بنية الرواية تقتضي هذا الأمر بموجب قوانين تخطيطها. ولذا أنتظر تقويمك بفارغ الصبر. ولكن يكفينا كلاماً عن الرواية. فهذا العمل استثارني منذ الـ 18 من ديسمبر لدرجة عجزتُ فيها عن التفكير أو الكلام في أي شيء آخر ما عداه. أذكر لك الآن بضع كلمات عن معيشتنا هنا خلال الفترة التي لم أراسلك فيها.

معيشتي هي بالطبع عملي. ومن حسن الحظ أنني الآن لم أعد في عوز أبداً، بفضل المئة روبل التي تأتيني على الدوام شهرياً. نعيش معاً، أنا وآنّا غريغوريفنا باعتدال، ولكن بكفاف. إلا أن أمامنا نفقات، ولا بد من وجود مبلغ ولو زهيد على سبيل الاحتياط. بعد شهر ونصف ستجعلني آنّا غريغوريفنا أباً. وهي تتحمل وضعها الصحي بأفضل صورة[2]. أنت تعرف ما هي النفقات التي تنتظرنا. إلا أنني سأطلب من هيئة التحرير أن تبعث لي خلال هذه الفترة 200 روبل في الشهر. وستفعل. فقد بعثتُ إليها ما قيمته 1000 روبل تقريباً. وحتى الخامس من فبراير سأبعث ما قيمته ألف آخر. ولربما

سيكون العمل جيداً مؤثراً، وبالتالي أستطيع أن أطلب مبلغاً أكبر. بالمناسبة، يا عزيزي، لو لم أتلف الرواية لاستطعت حتى رأس السنة بالطبع أن أسدد ديني لك. إلا أنني أرجوك الآن أن تنتظر شهرين آخرين، لأنني لا أستطيع أن أطلب من هيئة التحرير مبلغاً محترماً قبل موافاتها بالجزء الثاني. إلا أن أهم ما يؤذيني هو تفكيري في ما يجري لبافل. قلبي يقطر دماً، والتفكير فيه، إلى جانب كل آلامي الأدبية في ديسمبر، يقودني إلى اليأس والإحباط. فماذا يفعل هناك؟ في نوفمبر وديسمبر لم أبعث له نقوداً، إلا أنه لم يكتب لي شيئاً قبل نوفمبر. خلال التسليم الأخير، 60 روبلاً من كاتايف بواسطتك، كتبت له رسالة مطولة وكلفته باستحصال كتاب رسمي مهم جداً بالنسبة لي وسهل عليه. ورجوته أن يرد علي. فلم يكتب لي سطراً واحداً. باللّه عليك اكتبْ لي عنه ولو قليلاً. ترى هل يحقد عليّ؟ لماذا؟ ألأني أبعث له من آخر ما لدي وانتظر بفارغ الصبر المناسبة الأخرى لأبعث إليه. من المستحيل أن يكرهني. أنا لا أنسب (تقصيره) إلى فؤاده، بل إلى رعونته وعدم قدرته حتى على كتابة رسالة، مثل عدم قدرته على حفظ جدول الضرب قبل أن يبلغ العشرين من العمر.

كان يقيم عند إميليا فيودورفنا، واستدان منها مبلغاً رغم إرسالي له قبل شهر نوفمبر ما فيه الكفاية. وقد دفعتُ إلى إميليا آنذاك من خلالك. ولكن ماذا حصل في نوفمبر وديسمبر؟ إنهم أنفسهم يتحملون. فيودور يعمل، لكنه لا يستطيع أن يعيل الجميع. وأنا لا أستطيع أن أبعث نقوداً قبل أن يمر شهر. من خلالك طبعاً، وأرجوك يا عزيزي، ستصلك نقود من كاتكوف، فلا تستهن بها ولا تستثقلها. إنهم فقراء، وأنا سأكون خادماً لك مدى العمر، وأثبت لك أنني أقدّر ما فعلته من أجلي. إذن سأبعث رسالة إلى فيودور. هل يقيمون عند

أنونكين؟ طلبت من بافل أن يكتب لي اسم أنونكين واسم أبيه، وقد نسيتهما، لكي أكتب له. أنونكين سيصدقني، لكنه سيطردهم إذا لم يستلم مني خبراً. لأنني تعهدت له بإيجار شقتهم. لكنني لم أستلم اسم الرجل لا من بافل ولا من إميليا. فكيف أكتب رسالة إلى أنونكين من دون الاسم الأول والثاني؟ إنه تاجر، وسيزعل.

على أية حال ربما أبعث لهم النقود قبل ذلك، رغم الحاجة الماسة في انتظار المولود. ومع أننا نعيش ولدينا خبزنا الكفاف، إلا أن حاجياتنا مرهونة دوماً. كلما نستلم نقوداً نستعيد تلك الحاجيات، ثم نرهنها مجدداً في آخر الشهر. أنّا غريغوريفنا عضيدتي الوفية وسلواي. حبها لي لا يعرف الحدود، رغم الاختلاف الكبير في طباعنا. وهي تبعث لك ولآنّا إيفانوفنا تحياتها الصادقة. إنها تحبّك كثيراً لأنك تقدّر والدتها التي تعزها جداً حق قدرها. وهي تقدركما، أنت وآنّا إيفانوفنا، أرفع التقدير من جميع النواحي وتحترمك من صميم القلب وبكل إخلاص.

أكثر ما عانيناه من المنغصات المادية في جنيف هو بسبب البرد. آه لو كنت تعرف كم هي غبية حمقاء، وهمجية بائسة، هذه القبيلة. التجوال والمرور بها مر الكرام لا يعنيان شيئاً بالمقارنة مع الإقامة والعيش معها. أنا عاجز حتى عن التوصيف المختصر لانطباعاتي بهذا الخصوص، كونها كثيرة للغاية. الحياة البرجوازية في هذه الجمهورية الدنيئة متطورة لحد يفوق التصور. وفي الإدارة (المحلية)، وفي سويسرا بأسرها، أحزاب ينهش بعضها بعضاً بلا انقطاع وبؤس وسطحية فظيعة في كل شيء. المستخدم هنا لا يساوي خنصر مثيله عندنا. التطلع فيه والاستماع إليه يثيران السخرية. الأخلاق وحشية. ليتك تعرف ما يعتبرونه صالحاً وطالحاً. الثقافة في أدناها. وما أكثر

السكر واللصوصية وما أكثرالتحايل الخسيس الذي تحوَّل إلى قانون في التجارة. وهناك، بالطبع، عدة خصال طيبة تجعلهم على أية حال أرقى من الألمان.

أكثر ما أثار دهشتي في ألمانيا هو غباء العامة، إنهم أغبياء إلى أبعد الحدود، أغبياء لدرجة لا تقاس. عندنا حتى نيكولاي نيكولايفيتش ستراخوف الكثير الذكاء لا يريد أن يعرف الحقيقة. يقول «الألمان اخترعوا البارود.» إنما حياتهم بنيت على هذا النحو، في حين كنا نحن نشكل أمة عظمى، وأوقفنا (زحف) آسيا إلى الأبد، وتحمَّلنا الآلام اللامنتهية، تمكنا أن نتحملها دون أن نضيع الفكرة الروسية التي ستجدد العالم، بل عززناها، وأخيراً تحمَّلنا الألمان، ومع ذلك شعبنا أرقى بكثير وأنبل بكثير وأنقى وأكثر سذاجة وموهبة، إنه مشبع بالفكرة المسيحية الأخرى التي لا تفهمها أوروبا والكاثوليكية الهزيلة واللوثرية التي تناقض نفسها بغباء. ولكن لا موجب للإطالة في هذا الموضوع. ما أشد حنيني إلى روسيا، إلى الديار، حتى لأشعر بأنني إنسان تعيس. أقرأ الصحف، كل عدد منها، حتى الحرف الأخير في جريدتَي «الوقائع الموسكوبية» و«الصوت». شكراً «للصوت» على اتجاهها الجديد. بودّي أن أتحدث معك كثيراً وأطيل، يا صديقي، فقد تراكم الكثير. ولعلي سأعانقك في هذا العام. فيما أنتظر رسائلك من كل بد. باللّه عليك، يا عزيزي، اكتبْ لي. فالرسائل هي سلواي الوحيدة في عزلتي المملة الكئيبة. آنّا غريغوريفنا تعتبر نفسها سعيدة لأنها معي. لكنني بحاجة إيضاً إليك، إليكم، إلى الوطن.

في سويسرا لا تزال الغابات كثيفة. وهي في جبالها أكثر بكثير مما في سائر بلدان أوروبا، رغم تضاؤلها المرعب عاماً بعد عام. تصور البرد الفظيع والرياح القارسة التي تخترق الجبال وتستمر هنا

خمسة أشهر في السنة. ثلاثة أشهر من الشتاء شبيهة بشتائنا تقريباً. الجميع يرتجفون من البرد. يرتدون نسيج الفانيلا الناعم والثياب القطنية طول الوقت، وليس لديهم حمامات عمومية، فهل تتصور الأوساخ التي تعودوا عليها؟ كما ليس لديهم ثياب شتوية احتياطية. يرتدون الفانيلا نفسها صيفاً وشتاءً. وهي وحدها قليلة على شتاء كهذا. ولا يكفيهم العقل لتحسين المساكن قليلاً. فما جدوى مدفأة الفحم أو الحطب في الجدار حتى وإن ظلت مشتعلة طول النهار؟ في حين أن هذه التدفئة طول النهار تكلف 2، فرنكين، يومياً. وما أكثر الأشجار التي تستهلك دون أن يتوفر الدفء اللازم. فما الفائدة؟ كان ينبغي تركيب نوافذ مزدوجة حتى يمكن العيش بمدافئ الجدران، ناهيك عن الأفران. وكان سيتم إنقاذ تلك الغابات. بعد 25 عاماً لن يبقى منها شيء. إنهم يعيشون كالهمج الحقيقيين. إلا أنهم أشداء يتحملون. الحرارة في غرفتي أحياناً 5 درجات رغم الإفراط في التدفئة. أجلس في المعطف وأنتظر في البرد وصول النقود وأرسم خطة الرواية. فما أروع الحياة!! الماء يتجمد في الغرفة.(. . .) قبل أيام استبدلت الشقة، ولدي الآن غرفتان جيدتان. إحداهما باردة دوماً، والأخرى بحرارة 10 أو 11 درجة، ما يعني أن العيش ممكن.

كتبت الكثير، لكنني لم أعبّر عن شيء تقريباً. وهذا ما يجعلني أعاف كتابة الرسائل. المهم أنني أنتظر منك رسالة، فاكتبْ لي عاجلاً، باللّه عليك. الرسالة في وضعي الحالي بمثابة المبرة وعمل المعروف. نسيت أن أطلب منك أن لا تخبر أحداً بما كتبته لك عن الرواية لحين من الزمن. أنا لا أريد أن يصل ذلك إلى مسامع «البشير الروسي»، لأنني كذبت عليهم بأن المكتوب عندي في المسودات كثير، وأنني الآن أكتفي بالاستنساخ والتنقيح. الوقت يكفيني أصلاً،

ولربما ستكون الرواية جيدة على العموم. من يدري؟ وأقول لك مجدداً عن الرواية إنني مهووس بها.

صحتي لا بأس بها تماماً. النوبات نادرة جداً منذ شهرين ونصف، بل منذ ثلاثة أشهر.

تحياتي الخالصة إلى والديك. وبلّغ سلامي إلى ستراخوف إذا التقيته. واطلبْ منه أن ينقل تحياتي إلى أفيركييف ودولغوموستيف.

خصوصاً إلى دولغوموستيف[3]. ألم تره؟

أعانقك وأقبّلك.

صديقك المحب المخلص

فيودور دوستويفسكي

تحية خصوصية مني إلى آنّا إيفانوفنا.

استلمتُ رسالة من يانوفسكي. وهو إنسان في منتهى الطيبة، ومدهش أحياناً. أنا أحبه كثيراً.

كل عام وأنتم بخير وسعادة. فلتكونوا سعداء حتماً. أنتم على الأقل.

متى ستنشر «كلمة عن عساكر إيغور»[4]، وأين؟ أرسلْها رجاءً إليّ حيثما كنتُ حالما تنشرها.

---

(1) المقصود المحاولات التمهيدية لرواية «الأبله».

(2) وُلدت ابنة دوستويفسكي صوفيا في جنيف في 22 فبراير 1868.

(3) مستخدم عمل مع دوستويفسكي في صحافته الأدبية.

(4) أقدم ملحمة في الأدب الروسي (القرن الـ 12) تُرجمت من السلافية القديمة إلى الروسية مرات عديدة، منها ترجمة أبولون مايكوف المذكورة هنا، وآخرها ترجمة الأكاديمي دميتري ليخاتشيف في العهد السوفيتي.

124. إلى صوفيا إيفانوفا

جنيف، 1 يناير 1868

صديقتي العزيزة الغالية صوفيا. بالرغم من إلحاحك على أن أكتب لك كنتُ صامتاً. في حين أنني أشعر بحاجة خصوصية ماسّة للتحدث إليك. ولذلك وحده في أقل تقدير كان عليَّ أن أرد على نقطة من رسالتك وفي الحال بأسرع ما يمكن. فكيف يخطر في بالك، يا صديقتي الدائمة العزيزة، أنني غادرت موسكو في زعل منك ودون أن أمد يدي لمصافحتك؟ فهل يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل؟ طبيعي أن ذاكرتي متعبة، ولا تحضرني التفاصيل الآن، إلا أنني أؤكد تماماً أن ذلك مستحيل وأنه خيل إليك لا غير. أولاً- لم يكن هناك سبب. أنا أعرف ذلك كما أعرف أن الأربعة هي حاصل ضرب اثنين في اثنين. وثانياً، وهذا هو الأهم، هل أستطيع أن أعلن القطيعة مع أصدقائي بهذه السهولة؟ على هذه الصورة تعرفينني يا عزيزتي؟ فما أشد ألمي حين قرأت هذه السطور. كان عليك، يا صوفيا، أن تفهمي مدى تقديري واحترامي لك وكم أعتز بخلجات فؤادك. أنا لم أصادف الكثيرات من أمثالك في حياتي. ولعلك تسألين ما الذي يدفعني إلى

التعلق بك لهذه الدرجة؟ اسألي إذا كنت لا تصدقينني. ولكن، يا عزيزتي، الإجابة عن مثل هذه الأسئلة صعبة جداً. فأنا أتذكرك منذ أن كنت طفلة تقريباً. إلا أنني أخذت قبل أربعة أعوام فقط أتطلع إليك وأستشف فيك كائناً نادراً فريداً وقلباً رائعاً لا كالقلوب. والأهم أني عرفتك في الشتاء الذي توفيت فيه المرحومة ماريا دميتريفنا[1]. هل تتذكرين عندما جئتكم بعد شهر كامل من مرضي ولم أكن قد رأيتكم من زمان؟ أنا أحبكم جميعاً، وأنت بخاصة. أحب ماشا، مثلاً، لرشاقتها وروعتها المنقطعة النظير، ولسذاجتها وأسلوبها الرقيق، في حين أنني لم أعرف جدية فؤادها إلا في الآونة الأخيرة. إنكن جميعاً موهوبات أنعم اللّه عليكن بهذه الخصال. إلا أنني متعلق بك خصوصاً، ويقوم هذا التعلق على انطباع مميز يصعب جداً تشريحه وتوضيحه. تعجبني رزانتك، كما يعجبني شعورك الفطري الرفيع بالكرامة الشخصية وإدراكك لهذا الشعور. فلا تخذليه ولا تغيّريه قيد أنملة أبداً، وسيري على الطريق المستقيم من دون مساومة في الحياة. عمقي في دخيلتك عواطفك الطيبة الخيرة، لأن كل شيء يحتاج إلى تقوية وتعميق، وحالما يقدم المرء ذات مرة على المساومة مع ضميره وشرفه ويبقى في نفسه لأمد طويل موضع ضعيف يواجه صعوبة ما في الحياة من جهة ويوفر بعض النفع من جهة أخرى فإنه يتراجع في الحال أمام الصعوبات ويتجه نحو المنافع. أنا لا أقول مجرد كلام. فما أقوله بات يؤذيني أنا نفسي. ولعلي أكلمك عن نقطة الضعف هذه إنطلاقاً من تجربتي الشخصية. ولعلي أحب فيك ما ينقصني. أحب فيك خصوصاً مسألة الشرف العزيز والرؤية والمعتقدات، وهي عندك بالتأكيد مسألة طبيعية تماماً. لم تدركيها بنفسك بالقدر الكامل، لأنك ما كنت تستطيعين أن تدركي كل شيء بحكم فتوّتك وصباك. كما أنني

أحب ذكاءك الذي يميز الأشياء بهدوء ووضوح ويراها بالشكل الصحيح. يا صديقتي، أوافقك على كل ما تكتبينه لي في رسائلك، ولكنني لن أوافق أبداً على اتهامك بأن ترددأ طرأ، وإنْ قيد أنملة، على موقفي الودي تجاهك. ولعل من اللازم أن نعزو كل شيء إلى صغائر الأمور، إلى الانفعال الوقتي في طباعي المعتكرة. وحتى هذا الانفعال لا علاقة له بك أبداً، وإنما هو يخص شخصاً آخر. فلا تهينيني أبداً بمثل هذه الاتهامات.

ولأنني تأخرت كثيراً في الكتابة إليك رغم طلبك بأن أكتب سريعاً فأنا أعطيك كلمة شرف بأن أبعث إليك من الآن فصاعداً رسالة كل شهر وبانتظام.

(... في روايتي الأخيرة أحاول تصوير البطل الإيجابي... وتلك مهمة في منتهى الصعوبة... وكيلا أذهب بعيداً جداً) أقول إن صورة دون كيشوت هي الأكثر اكتمالاً بين الوجوه الرائعة في أدبنا المسيحي. إلا أن روعته نابعة من كونه شخصية مضحكة في الوقت ذاته. بيكويك عند ديكنز، وفكرته كشخصية أضعف بكثير من دون كيشوت لكنها عظيمة أيضاً، مضحك كذلك، وهذا هو سبب الإعجاب به. وعندما تتجلى المواساة والإشفاق على المضحك والرائع الذي تفوق قيمته التقدير يتجلى التعاطف لدى القارئ أيضاً. إثارة الإشفاق والمواساة هي بالذات سر الكوميديا. جان فالجان(2) أيضاً محاولة قوية، إلا أنه يثير التعاطف لمصيبته الفاجعة وللغبن الذي لحق به من طرف المجتمع. بالنسبة لي ليس عندي إطلاقاً ما يماثل هذه المواقف، ولذا أخشى الفشل الذريع. بعض التفاصيل قد تكون لا بأس بها، لكنني أخشى أن أكون مملاً. الرواية مطولة. كتبت الجزء الأول منها بكامله في 23 يوماً وأرسلته إلى المجلة قبل أيام. ولن

يكون مؤثراً أبداً. بديهي أنه عبارة عن مدخل فقط (. . .) إلا أن أمنيتي الوحيدة أن يثير اهتمام القارئ فيكلف نفسه عناء مطالعة الجزء الثاني. وسأنهي هذا الجزء الذي أشرع بكتابته اليوم بعد شهر. أنا طول عمري أعمل على هذا النحو. ويخيل إليَّ أنه سيكون أقوى وأضخم من الجزء الأول. فتمنّي لي، يا صديقتي العزيزة، التوفيق ولو قليلاً. عنوان الرواية «الأبله»، وهي مهداة لك، أي «إلى صوفيا ألكساندروفنا إيفانوفا». يا صديقتي العزيزة، ما أشد رغبتي في أن تأتي الرواية جديرة بمن أهديت إليها. على أية حال أنا لا أستطيع أن أحكم على نفسي، وخصوصاً في مثل هذه العجالة التي أنا فيها الآن.

صحتي لا بأس بها، وأستطيع أن أتحمل الإجهاد، على الرغم من حلول فترة عصيبة بالنسبة لي بسبب حالة آنّا غريغوريفنا. سأعكف على العمل أربعة أشهر أخرى أحلم بعدها في الانتقال إلى إيطاليا. العزلة ضرورية لي. وأنا قلق على فيودور وبافل. أكتب إلى فيودور من هذا البريد أيضاً. عموماً الأمر صعب جداً عليّ في الخارج، أتشوق إلى روسيا لدرجة تفوق التصور. أنا مع آنّا غريغوريفنا في عزلة رهيبة. حياتي كالآتي: أستيقظ من النوم متأخراً وأشعل مدفأة الحائط، فالبرد فظيع. ثم نحتسي القهوة وأنكبّ على العمل. ثم في الساعة الرابعة أذهب لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم. أتغدى مع قدح نبيذ بفرنكين. آنّا غريغوريفنا تفضل تناول الطعام في البيت. ثم أذهب إلى المقهى أشرب القهوة وأقرأ «الوقائع الموسكوبية» و«الصوت» من إلفهما إلى يائهما. ثم أتجول نصف ساعة في الشوارع لتحريك البدن، ثم أعود إلى البيت وأواظب على العمل. وبعد ذلك أسخن المدفأة من جديد، فنشرب الشاي وأعود إلى عملي ثانية. آنّا غريغوريفنا تقول إنها سعيدة للغاية.

جنيف مملة كئيبة. إنها مدينة بروتستانتية بليدة، بطقس معتكر، إلا أن ذلك أفضل للعمل. وللأسف، يا صديقتي، ربما لن أعود إلى روسيا قبل سبتمبر. وحالما أعود سأسارع لمعانقتك. في نيتي أن أبدأ بإصدار جديد[3] بعد الوصول إلى روسيا. إلا أن الأمر يتوقف، بالطبع، على نجاح روايتي الحالية. تصوري، أعمل بهذه السرعة ولا أدري هل سأتأخر على عدد يناير؟ فما أشد الإحراج.

لعلني ألتقيكم وأراكم. لعلني أقابلكم على نحو ما. فأنا كثيراً ما أحلم برؤيتك، برؤيتكم جميعاً. قبل أيام رأيتك و(أختك ماريا) ماسينكا في المنام. رأيت قصة كاملة في المنام بطلتها ماسينكا. قبّليها بحرارة نيابة عني. ولكن كيف حالك؟ أرعبتِني بخصوص صحتك. ماذا حصل؟ المهم يا صديقتي أن لا تحزني. المهم أن لا تستعجلي ولا تشغلي بالك كثيراً. كل شيء سيأتي دوره في السياق، رويداً رويداً، وعلى أفضل صورة. ففي الحياة عدد غير متناهٍ من الفرص. الإفراط في انشغال البال مضيعة للوقت. أتمنى لك المزيد من الطاقة وشدة العزيمة، وأنا، على فكرة، واثق بتوفرهما لديك. يا عزيزتي، اهتمي بالتعليم ولا تستهيني بالاختصاص، ولكن لا تتسرعي. المهم أنك لا تزالين في ريعان الصبا، وستسير الأمور بالتدريج كما يرام. ولتعلمي أن مسألة المرأة، وخصوصاً المرأة الروسية، ستخطو بمر الزمن حتماً، وفي حياة جيل واحد هو جيلكم، عدة خطوات عريضة ورائعة.

أنا لا أتكلم عن النساء السطحيات الموفقات، وأنت تعرفين نظرتي إليهن. إلا أنني قرأت في الجرائد قبل أيام أن صديقتي السابقة ناديجدا سوسلوفا، شقيقة أبوليناريا، ناقشت في جامعة زوريخ أطروحة الدكتوراه في الطب بتألق كبير. إنها لا تزال فتاة في مقتبل

العمر، في الثالثة والعشرين حالياً، لكنها شخصية فريدة نبيلة ونزيهة ومتسامية.

كنت أريد أن أكتب لك الكثير، الكثير جداً، وما كتبته حتى الآن لا يعادل عشر معشار ما أردته. فإلى رسالة قادمة، يا صديقتي العزيزة.

بودّي أن أتحدث إليك في مسألة مهمة تخصك أنت[4]. فلا تنسيني، اكتبي لي. وحافظي على صحتك أكثر من أي شيء آخر. عانقي ماسينكا بالنيابة عني مرة أخرى.(. . .) قبّلي يوليا باسمي إذا سمحت لك. وقبّلي فيكتور أيضاً بالنيابة عني.(. . .) ثم الجميع، وشدي بحرارة على يد أخيك ألكسندر ألكساندروفيتش.

أعانقك وأقبّلك.

صديقك الدائم
فيودور دوستويفسكي

سأنفذ كلمة الشرف التي أعطيتها بالكتابة لك كل شهر. ولكن، باللّه عليك، اكتبي أنت أيضاً.

---

(1) ماريا عيسايفا، زوجة الكاتب الأولى، توفيت عام 1864.
(2) بطل «بؤساء» فيكتور هيغو.
(3) المقصود مجلة دورية كان دوستويفسكي يتهيأ لها، وبدلاً منها أصدر مجلة «يوميات الكاتب» بعد سنوات.
(4) كان دوستويفسكي يريد إشراك صوفيا إيفانوفا في المجلة التي يتهيأ لإصدارها.

125. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 18 فبراير 1868

صديقي الطيب الوحيد الغالي، يسعدني أن أطلق عليك هذه النعوت، كونهاً خصالاً ملازمة لك. وأرجو أن لا تزعل مني على طول صمتي بلا حياء. فاحكم عليَّ بنفس العقل وبنفس القلب كما في السابق. ومع أن صمتي بلا حياء، إلا أنني لم أستطع بالمعنى الحرفي للكلمة تقريباً أن أرد عليك، رغم محاولاتي عدة مرات. فقد غرقت بكل ذهني وطاقاتي في الجزء الثاني من روايتي لتهيئته للتسليم في الموعد. ولم أكن راغباً في إتلاف الرواية نهائياً، فعلى نجاحها تتوقف أمور كثيرة جداً. بل إن المطلوب الآن ليس النجاح، وإنما الحيلولة دون السقوط النهائي. في الأجزاء اللاحقة يمكن تصحيح الموقف، والرواية مطولة. وأخيراً أرسلت الجزء الثاني بتأخير كبير، ولكنني أعتقد أن في الوقت متسعاً للنشر. فماذا أقول لك؟ أنا لا أستطيع أن أقول شيئاً عن نفسي، حتى أنني فقدت أي رأي بشأن الأمور. تعجبني خاتمة الجزء الثاني، إنها تعجبني وحدي، فما رأي القراء؟ أما الباقي فهو كما في الجزء الأول، أي أنه باهت كما يخيل إليّ. يهمّني أن

يطالعه القارئ من دون ملل كبير على الأقل. وأنا لا أطمح إلى نجاح أكثر من ذلك.

عزيزي، أنت وعدتني بأن تعطيني رأيك في الجزء الأول حالما تقرأه. وها أنا أتردد على البريد كل يوم ولا رسالة منك، في حين أنك استلمت «البشير الروسي» على الأغلب. الاستنتاج الذي أخرج به غنيّ عن البيان: الرواية ضعيفة. وبما أنك تأسف لقول هذه الحقيقة لي مباشرة بسبب اللياقة فإنك تتباطأ انطلاقاً من الإشفاق عليّ. بينما أنا بحاجة إلى هذه الحقيقة بالذات. أتعطش إلى تقريظ ما. ومن دونه أتألم.(1)

صحيح أنك كتبت لي رسالتين قبل صدور المجلة، ولكن من المستبعد أنك تحاسبني على عدد الرسائل. على أية حال كفانا حديثاً عن ذلك.

ليتك تعرف، يا صديقي، مدى سعادتي وأنا أقرأ كل رسالة منك عدة مرات. وليتك تعرف طبيعة حياتي هنا وقيمة استلام رسالة منك. أنا لا ألتقي أحداً هنا، ولا أسمع شيئاً. حتى جريدتا «الوقائع الموسكوبية» و«الصوت» لم تصلا في بداية العام. نعيش أنا وآنّا غريغوريفنا وحيدين وجهاً لوجه، ومع أننا متوائمان ونحب بعضنا بعضاً، وكلانا، فضلاً عن ذلك، مشغولان، إلا أن الملل قائم على أية حال، بالنسبة لي على الأقل. فيما تؤكد آنّا غريغوريفنا بكل صدق، وأنا واثق بذلك، أنها سعيدة جداً. تصور أننا حتى الآن ننتظر ظهور الجنتلمان، وهو لا يريد الظهور. أنا أنتظره يومياً، لأن كل المؤشرات بادية للعيان. انتظرته أمس، في عيد ميلادي، ولم يأت. وأنتظره اليوم. وغداً سيظهر إلى الوجود أغلب الظن. آنّا غريغوريفنا تنتظر مبهورة، وهي تحب الضيف المرتقب حباً جماً، وتقوى على

الحمل بهمة ونشاط، إلا أن أعصابها بدأت تنهار في اللحظات الأخيرة، وتخامرها أحياناً أفكار كئيبة فتخشى أن تموت وما إلى ذلك. ولذا فالموقف حزين ومشحون بالهموم. نقودنا على أقلها، لكننا لسنا نهائياً في إملاق على أية حال. وتنتظرنا، على فكرة، نفقات. لكنّ آنّا غريغوريفنا، وهي في هذه الحال، سجلت ما أمليه عليها باختزال ثم استنسخت التسجيلات.

وإلى ذلك تمكنت أن تخيط بنفسها وتهيّئ ما يلزم للوليد.

أكثر ما يزعجنا أن جنيف مدينة مزعجة وكئيبة للغاية. اليوم الأحد، وليس هناك ما هو أكثر كآبة وسوءاً من أحدهم. لم يعد الانتقال ممكناً إلى أيما مكان. سنبقى هنا قرابة خمسة أسابيع بسبب المرض، ولا ندري بعد ذلك كيف ستكون الأمور من الناحية المالية. هذا الشهر سيكون عصيباً عليّ لمرض زوجتي ولا بد من إرسال الجزء الثالث من الرواية رغم التأخير. وبعده الجزء الرابع. آنذاك في اعتقادي يمكننا أن نغادر جنيف، مع اقتراب شهر مايو. ومن حسن الحظ أن برد الشتاء هنا خف على غير المتوقع. فبراير كله كان دافئاً وصافياً كما عندنا في بطرسبورغ بالضبط في أيام الصحو خلال شهر أبريل.

إنني مهتم طول الوقت بكل ما تكتبه إليّ هنا. وأبحث في الصحف عن أشياء مماثلة، كما يبحث الشخص عن إبرة ضائعة، فأحزر وأقدّر. وأتحسس هنا أيضاً دناءة وحقارة أدبنا وصحافتنا. فما أكثر سذاجة هذه الأدران. «المعاصرون» مثلاً يلهثون وراء آخر الأرباح مع أمثال سالتيكوف ويليسييف، وبنفس الكراهية المتحجرة لروسيا (. . .) أما أن يهاجم سالتيكوف (شيدرين) المجالس المحلية الريفية فذلك في طبيعة الأشياء. لأن هذا الليبرالي لا يمكن في الوقت ذاته إلا أن

يكون عدواً لدوداً لروسيا، متحيزاً ضدها. فما إنْ ينجح شيء في روسيا أو تنتفع البلاد بشكل ما حتى تجد السم ينساب في بدنه. لاحظت ذلك ألف مرة. حزبنا الليبرالي المتطرف اصطدم مع (صحيفة) «الأخبار»، ولا يمكن للأمر أن يكون على غير ذلك. أما وقاحة وحقارة هذه الشرذمة فأراهما أحياناً في الجرائد. بعثوا إلى هنا من هيئة التحرير العدد الأول من «البشير الروسي». قرأته من ألفه إلى يائه. ولم أجد لك شيئاً فيه. فإما أن تكون قد تأخرت وإما أنهم يحتفظون بك لتزيين عدد فبراير. فيما تضمن العدد الأول قصيدة مقبولة لبولونسكي وقصة ضعيفة جداً لتورغينيف. قرأت المقالة التحليلية «للحرب والسلام». أرغب في قراءة المقالة كاملة. وقد قرأت نصفها. يبدو أنها محترمة. ولكن للأسف فيها الكثير جداً من التفاصيل السيكولوجية الطفيفة. حبذا لو كان عددها أقل. على فكرة، في المقالة كثير من الجودة بفضل هذه التفاصيل. باللّه عليك اكتبْ لي أكثر عن الأخبار الأدبية. تطرقتَ إلى «بشير أوروبا». هل هي من تحرير ستاسوليفيتش؟ يخيل إليَّ أن هذا الاتجاه بات واسع الانتشار عندنا. تصور أني لا أعرف شيئاً عن «موسكو» و«الموسكوبي».

(قصيدتك) «صوفيا ألكسييفنا» لا أروع منها.

وتبادرت إلى ذهني الفكرة التالية: حبذا لو تحولت «صوفيا ألكسييفنا» هذه إلى مشهد في ملحمة مكتملة من ذلك الزمان، أي ملحمة انشقاقية (انقسامية دينياً)، أو في رواية شعرية من تلك الفترة (زمن الانقسامات). هل يعقل أنك لا تفكر أبداً في مخططات كهذه؟ يمكن أن يكون لملحمة من هذا النوع مفعول كبير. وماذا عن ملحمة «كلمة عن عساكر إيغور»؟ أين ستنشر؟ ربما في «البشير الروسي». عندئذٍ سأقرأها. لعلك تتصور كم أنتظرها؟ ما عدا التلاوة التي أشرتَ

إليها ألم تقرأ الملحمة على الجمهور؟ صف لي كل شيء. ماذا قرأت في يوبيل كريلوف، غير الذي أرسلته لي؟ طالعتُ شيئاً في الجريدة، ولكن بغير وضوح.

(. . .) هنا في جنيف كثير جداً من أبناء الأرستقراطيين الروس. والغريب أنهم أمضوا الشتاء كله ليس في مونتريه، مثلاً، بل في جنيف وطقسها السيّئ.

إذا كنتُ سأنتقل إلى مكان ما فإلى إيطاليا. إلا أن الموعد لا يزال بعيداً. على أية حال سأخبرك ولن أتأخر في إرسال العنوان إليك. ولكنْ اكتبْ لي باللّه عليك. صحتي ليست جيدة جداً. النوبات ازدادت من جديد مع قدوم الربيع. قرأت حديثك عن عملك مع المحلفين. فتصاعدت نبضات قلبي من شدة الانفعال. ومن خلال ما قرأته عن المحاكم عندنا نشأ عندي انطباع وكأن الجوهر الأخلاقي للقضاة، والمهم للمحلفين، عندنا أسمى بكثير مما لدى الأوروبيين. فهم ينظرون إلى المجرم بمنظار المسيحية. حتى الخونة الروس المغتربون يوافقون على ذلك (. . .) التجديد العظيم للعالم كله يتهيأ من خلال الفكرة الروسية المرتبطة، وأنت على حق فيما تقول، بأواصر متينة مع الأرثوذكسية. وسيتحقق ذلك في حدود مئة عام. هذا هو إيماني الغريب العجيب. ولكي يتحقق هذا الأمر الجليل ينبغي أن ينفّذ نهائياً، ومن دون رجعة، الحق السياسي وأولوية العشيرة الروسية على العالم السلافي بأسره، فيما يروّج ليبراليونا التافهون لتفكك روسيا إلى ولايات متحدة. يا لأولئك الأرجاس الأنجاس.

عندي هذه المرة أيضاً رجاء ملحّ، أو على الأصح رجاءان، وكل أملي في طيبة قلبك ومشاطرتك الأخوية. كتبت إلى كاتكوف عندما أرسلت له الجزء الثاني وطلبت منه 500 روبل. شيء فظيع. ولكن ما

العمل إذا لم تكن في الأمر حيلة؟ في البداية كانت أحلامي كالآتي: 1) أكتب أربعة أجزاء في 23-24 ملزمة. 2) أكتب جيداً، وعندها أطلب مبلغاً كبيراً (. . .) وتعذبت نفسياً عندما طلبت الـ 500 روبل. فلو كانت الرواية جيدة لكان الطلب أسهل بعض الشيء.

ولا أدري هل سيرسل المبلغ أم لا (. . .) رجوت كاتكوف، في حال وافق على منحي الـ 500 روبل، أن يبعث لي منها إلى جنيف 300 ويحوّل 200 إليك شخصياً في بطرسبورغ (. . .) وأرجوك أن تنتظر وتصبر عليّ قليلاً حتى أتمكن من تسديد ديني إليك، وبهذا تنقذني من الآلام. هذا هو طلبي الأول، والثاني: أنا لا أدري ماذا يحصل للمسكينة إميليا فيودوروفنا (. . .) وهناك بافل (. . .) ولذا أرجوك إذا استلمت الـ 200 روبل سلِّم 100 منها دفعة واحدة إلى إميليا، وسلِّم بافل حالياً 50 روبلاً فقط، والـ 50 الأخرى بعد شهرين (. . .) هذا هو رجائي الثاني إليك. (. . .)

إلى اللقاء يا صديقي. المهم أنني مسرور لأنك لا تسمح لنفسك بالبطر والتهاون. وفيك تغلي الأماني والأهداف والمثل العليا. وهذا شيء كثير. ففي زماننا إذا استولى الخمول على الإنسان فإنه هالك، ميت، وآيل إلى ثرى المدافن.

إلى اللقاء. أعانقك بحرارة وأتمنى لك كل خير. اكتبْ لي، اكتبْ لي شيئاً ما، ولو قليلاً، عن روايتي.

أنا أقرأ الأخبار السياسية طول الوقت. الكذب فيها كثير طبعاً، إلا أن ما يخيفني ويفزعني هو الفتور الملحوظ والهبوط الواضح في سياستنا الخارجية في الآونة الأخيرة. وإلى ذلك عندنا في الداخل كثير من أعداء الإصلاحات الحكومية. أملنا الوحيد هو (الإمبراطور). وقد أثبت صلابته، فليمنحه اللّه حكماً مديداً.

آنّا غريغوريفنا تبلغ تحياتها لك مع آنّا إيفانوفنا ويفغينيا بتروفنا. وأنا أيضاً. ذكّرهما بي رجاءً.

يخيل إليَّ أنني سأكون أباً اليوم، إما لـ «ميشا» (ميخائيل) أو لـ «صونيا» (صوفيا). هكذا جرت العادة.

وداعاً، يا صديقي العزيز.

المخلص ف. دوستويفسكي

(1) رد مايكوف أن الكثير من الشخصيات، مثل توتشيف وميلوكوف وسولوفيوف وغيرهم، معجبون «بالأبله» ويهنئون.



126. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 21-22 مارس 1868

الصديق الطيب الكريم أبولون نيكولايفيتش. أولاً- أشكرك كل الشكر، يا عزيزي، على تنفيذ جميع طلباتي التي تحتاج إلى جهد كبير وأخذتْ منك الوقت الكثير. سامحني لأنني أتعبك. ولكنك الشخص الوحيد الذي أعقد عليه آمالي، وليس من الحكمة أن أتعبه. ثانياً- أشكرك على التحية والتهنئة وتمنيات السعادة لنا ثلاثتنا. الحق معك، يا صديقي الطيب، فقد وصفت بالطبيعي الإحساس بالأبوة وأخذت من الطبيعة كلماتك الرائعة: كل ما قلتَه صحيح بالمطلق. إنني أتحسس منذ شهر تقريباً الكثير جداً من المستجدات والأمور التي لا أعرفها إطلاقاً لحد الآن منذ اللحظة التي رأيت فيها ابنتي الوليدة صونيا وإلى هذه اللحظة التي جهدنا فيها معاً لنغسلها في الطست. أجل إنها روح ملائكية حطت عندنا. لن أصف لك إحساساتي، كونها تتنامى وتتطور يوماً فيوماً. في المرة السابقة، عندما كتبت لك وأنا في قلق شديد، نسيت (!) أن أذكر ما اتفقنا عليه أنا وآنّا في درزدن العام الماضي، وهي تلومني وتقرعني بشدة لأنني نسيت، من أننا اخترناك

عرّاباً لابنتنا صونيا. فلا ترفض يا عزيزي. لقد قررنا ذلك من عشرة شهور. وإذا رفضت فسيكون ذلك فألاً سيئاً لصونيا. حتى أول عراب رفض هذه المهمة! ولكنك لن ترفض يا صديقي. وأضيف أن ذلك لن يكلفك أدنى قدر من الهموم، فيما تغدو مهمتك كعراب لنا خطوة نحو الأفضل. (. . .) باللّه عليك أجبني عاجلاً، فهذا الإجراء ضروري للتعميد. مر شهر والطفلة غير معمدة بعد. فهل ذلك جائز في روسيا؟ أما ربيبتك، وأنا واثق بأنك ستكون عراباً لها، إنما هي جميلة جداً وإن كانت تشبهني لحد مضحك، بل ولحد غريب. وما كان بوسعي أن أصدق ذلك لو لم أره بأم العين. الطفلة في شهرها الأول، وتعابير وجهها تعابير وجهي بالتمام والكمال، لحد الغضون على الجبين، ناهيك عن الملامح والتقاسيم. إنها، وهي راقدة، تبدو وكأنها تؤلف رواية. جبينها يشبه جبيني لحد يثير الاستغراب. ويستنتج من ذلك طبعاً أنها ليست جميلة بهذا القدر. لأنني جميل فقط في أنظار آنّا غريغوريفنا. أقول لك ذلك جاداً. وأنت نفسك رسام تعرف تماماً أن بالإمكان التشابه مع وجه غير جميل، لكن الشبيه جميل جداً. آنّا غريغوريفنا ترجوك كل الرجاء أن تكون عراباً للبنت. وهي تحبك وتحب آنّا إيفانوفنا حباً جماً، وتحترمكما إلى ما لا نهاية.

أنت متنبئ كبير، تتنبأ لي المزيد من الاهتمامات أو الهموم الجديدة، وأنني سأغدو أنانياً، وقد حصل ذلك من سوء الحظ، وما كان إلا أن يحصل. تصور: طوال هذا الشهر لم أكتب سطراً واحداً. يا إلهي، ماذا أفعل لكاتكوف ووعودي والتزاماتي وكلمة الشرف؟ وقد سررت جداً عندما استجابت «البشير الروسي» لتبليغي لهم بأنني أتأخر بسبب ميلاد الطفلة، فكتبتْ في نهاية الجزء الأول من الرواية أن البقية ستنشر في عدد أبريل وليس في مارس. وللأسف لم يبق أمامي حتى

شهر أبريل لا أكثر من عشرين يوماً. لقد تخلفت كثيراً. وليس عندي ولا سطر واحد. غداً سأكتب إلى كاتكوف وأعتذر منه. ولكن ما نفع اعتذاري بالنسبة له. عليّ أن أسرع لألحق بعدد أبريل وإنْ ببعض التأخير. في حين أن معيشتي كلها تتوقف عليهم. والحقيقة أن الموقف حرج للغاية. ولكن ما العمل؟ الشهر كله انقضى في قلق وهموم بالغة. وصادف أننا لم نذق طعم النوم ليالي كاملة، ليس بسبب الانفعال العصبي لأحد منا، بل بمقتضى الضرورة. وهذا شيء فظيع فيما يخص الصرع. أعصابي منهارة الآن لأقصى حد. الطقس هنا في أسوأ حالاته خلال شهر مارس، مع ثلوج وصقيع كما في بطرسبورغ تقريباً. وكانت آنّا غريغوريفنا مرهقة بدنياً. فلا تخبر آنّا إيفانوفنا بذلك أبداً. فقد تتصور ما لم ينزل اللّه به من سلطان. كل ما في الأمر أن آنّا غريغوريفنا لا تستطيع لحد الآن أن تستعيد صحتها. وهي، بالإضافة إلى ذلك، مرضعة. واللبن قليل طبعاً. فنستخدم زجاجة الإرضاع. الطفلة عموماً في صحة جيدة. عين الحسود فيها عود! وأخذت آنّا بالتمشي خارج البيت. لليوم الثالث الجو صحو لدرجة مدهشة. وبدأت الأعشاب تنبجس. (. . .) المصروفات ازدادت (. . .) ولا بد من البدء بالعيش اعتباراً من هذا اليوم على مدى شهرين في أقل تقدير، حتى يحين موعد استلام شيء من «البشير». ولكن ليس بالإمكان استلام مبلغ من المجلة ما لم يتم إرسال الجزء الثاني. فمتى أكتبه؟ إلا إذا كان في 18 يوماً فقط، كما حصل لما نشر في عدد يناير. (. . .).

(يدهشني) أن بافل لم يكتب لي مهنئاً بميلاد صونيا. هل يعقل أنه لن يكتب. الآخرون هنأوني. أنت وستراخوف من موسكو، ومعارف آنّا غريغوريفنا من بطرسبورغ، (. . .)

أبلغت إميليا فيودورفنا تحريرياً بميلاد البنت، ولم أستلم أي جواب. (. . .) ويدهشني أنها في السابق أيضاً لم تكتب لي (. . .) بافل تركته (أمه) المسكينة ماريا دميتريفنا في عهدتي وهي على سرير الموت. فكيف أتركه؟ وأنت لا تشير عليَّ بأن أتركه. كلا، ثم كلا. لا بد من مساعدته، لا سيما وأنني أحبه صادقاً. رعيته في بيتي أكثر من عشر سنوات بمثابة ابني. عشنا معاً، فهل يجوز أن أتركه وحده وهو في مقتبل العمر؟ يجب أن أساعده بين فترة وأخرى، رغم ما أنا فيه من ضيق. صحيح أنه شاب طائش، لكنني، على ما أتذكر، ربما كنت أسوأ منه في سنه. لا بد من معونته في هذه الحقبة. (. . .)

ومهما كانت حياة الخارج بشعة فظيعة فإنني أفكر بفزع أحياناً ماذا سيحصل لصحتي فيما لو وفقني اللّه في العودة إلى بطرسبورغ. فإذا كانت نوبات الصرع تلاحقني هنا فكيف ستكون هناك؟ (. . .).

كل ما كتبتَه عن روسيا، والأهم مزاجك الوردي، يبعث السرور في نفسي.

صحيح تماماً أن لا نلتفت إلى مختلف الحالات الجزئية إذا كان الكل قائماً، ولديه دافع وهدف. وما عدا ذلك لا يمكن أن يكون على غير هذه الحال في ظل التحول الهائل الجاري بفضل القيصر المعظم الحالي. أنت يا عزيزي تنظر إلى الأمور مثلما أنظر إليها تماماً. وذكرتَ ما ذكرتُه أنا على رؤوس الأشهاد ولم يفهموني قبل ثلاث سنوات، عندما كانت مجلتنا على قيد الوجود، من أن دستورنا هو الحب المتبادل، حب القيصر للشعب وحب الشعب للقيصر. نعم، الأساس الودي، وليس الفتوحاتي لدولتنا الذي اكتشفه، على ما أظن، أوائل دعاة النزعة السلافية، إنما هو أعظم فكرة يقوم عليها الكثير. وسننقل هذه الفكرة إلى أوروبا التي لا تفقه فيها شيئاً على

الإطلاق. مصيبتنا للأسف الشديد في وجود الفئة الضالة المنفصلة عن تربتها من الأذكياء الأدعياء الذين سينتهون إلى جهنم وبئس المصير، سينتهون على هذه الصورة لتعذر تغييرهم. كيف نغير أمثال تورغينيف؟ ينبغي أن نتطلع إلى الجيل الأحدث. والتعليم الكلاسيكي يمكن أن يساعدنا. فما نفع مدرسة كاتكوف؟ هنا، في الخارج تحولت أنا بالنسبة لروسيا إلى نصير متحمس للنظام القيصري. ففي روسيا إذا تحقق شيء إنما يتحقق على يد القيصر بالذات، ذلك لأنه محبوب الشعب الروسي، ولأنه قيصر. الشعب عندنا منح حبه ولا يزال يمنحه للقيصر أياً كان. وهو يثق به وحده. فذلك بالنسبة للشعب قدس الأقداس، وهو روحانية الفهم القدسي للوجود. الغربويون لا يفهمون في ذلك شيئاً، وهم عندما يمتدحون الاستناد إلى الحقائق والوقائع يفوّتون أعظم حقيقة أساسية في تاريخنا. تعجبني فكرتك بشأن الأهمية السلافية العامة لبطرس (الأكبر). إنني أسمع بهذه الفكرة لأول مرة، وهي صحيحة بالمطلق.

ولكن، أنا أقرأ هنا «الصوت». وفيها أحياناً وقائع مؤسفة للغاية حول الخلل والمخالفات في سككنا الحديدية الجديدة، وحول مجالس الأرياف والأوضاع المزرية في الأطراف النائية. ومن أشد المصائب عندنا قلة المنفذين. الثرثارون كثيرون، لكن العاملين بعدد الأصابع. أنا بالطبع لا أعني المنفذين في الشؤون العليا، بل صغار الموظفين الذين تستدعي الحاجة كثيرين منهم وهم غير موجودين. ربما كان عدد القضاة والمحلفين كافياً، فماذا في السكك الحديدية وفي بعض المواقع الأخرى؟ التقاطع على أشده بين المجددين والمتطلبات الجديدة وبين الأنظمة القديمة. وأنا لا أتناول تجسيد أفكارهم: دعاة حرية الفكر كثيرون، وليس بينهم من الروس

(الحقيقيين) أحد. المهم أن يعي الشخص ذاتياً أنه روسي. ذلك هو المطلوب. وما أكبر ما تعود به المصارحة من نفع على القيصر وعلى الروس جميعاً. والله حتى المصارحة المعادية (لنا)، الموالية للغرب.

بودّي جداً أن تقام لدينا سكك سياسية على جناح السرعة، في سمولينسك وكييف بأسرع ما يمكن، وأن يكون لدينا سلاح جديد بأسرع ما يمكن أيضاً[1]. فلماذا زاد نابليون من تعداد عساكره، وأقدم على هذه الخطوة غير السارة بالنسبة لشعبه وفي وقت حرج بالنسبة له شخصياً؟ الشيطان وحده يعلم. إلا أن ذلك لن يجلب الخير لأوروبا. ولعلي على يقين تام بهذا الخصوص. سيكون الوضع أسوأ إذا ورّطونا. حتى بعد عامين. وليس نابليون وحده. فبالإضافة إليه المستقبل قاتم، ويجب التهيؤ له. تركيا تتشبث بقشة. والنمسا في وضع غير طبيعي أبداً. أنا أستعرض الجزئيات فقط، ولا أحكم على شيء. وتفاقمت المسألة البروليتارية الغربية اللعينة إلى أقصى حد، ولا أحد يتذكرها تقريباً بين أولويات السياسة. وأخيراً النقطة الأهم، نابليون (الثالث) في سن متقدمة، صحته ليست على ما يرام. ولن يطول به العمر[2]. في مثل هذه الحال يسجل المزيد من الإخفاقات ويحوّل البونابرتيون فرنسا إلى كيان بغيض أكثر. فماذا سيحصل إذن؟ يجب على روسيا حتماً أن تستعد لوضع كهذا، وبأسرع ما يمكن. لأن ذلك قد يحدث في القريب العاجل.

ما أشد فرحتي بظهور ولي العهد[3] أمام روسيا بمثل هذه الطيبة والفخامة، وبكون روسيا تسوق الدليل بهذه الصورة على حبها له وآمالها المعقودة عليه. والحقيقة أن نصف الحب الموجه إلى أبيه يكفي. فليمنح الله (قيصرنا) ألكسندر (الثاني) طول العمر ولو لأربعين عاماً أخرى على الأقل. فما حققه لروسيا يكاد يفوق كل ما حققه

أسلافه معاً. والأهم أنه محبوب لهذه الدرجة. فعلى هذه الدعامة ترتكز الآن الحركة الروسية بكاملها، والنهضة بمجملها تقوم عليها وحده. يا صديقي ما أشد رغبتي في العودة، وما أكثر عزوفي عن الحياة هنا. إنها حياة رديئة. والأهم أن العمل متعثر. فلو أنهيت الرواية كما يجب لكان ذلك من أطيب الأمور. لأن تلك هي فاتحة مستقبلي كله. آنّا غريغوريفنا لا تشعر بالضجر، وتقول صادقة إنها سعيدة. بينما أشعر أنا بالغثيان (من الحياة هنا) فلا أزور أحداً ولا أذهب إلى أي مكان. وحتى لو كان لي معارف هنا لما ترددت عليهم أغلب الظن. توحشتُ لحد الإهمال. التام. والعمل لا يسير على ما يرام. لا أغادر الشقة إلا لساعتين في اليوم، في الخامسة بعد الظهر. أمضي إلى المقهى لقراءة الصحف الروسية. لا أعرف أحداً هنا، وذلك يطيب لي. مقابلة أذكيائنا الأدعياء مقززة (...[4]). التقيت هيرتسن في الشارع صدفة، تحدثنا عشر دقائق بلهجة عدائية مؤدبة تخللتها دعابة ساخرة ثم افترقنا. لا مؤاخذة، لن ألتقيهم، كلا. ثم إلى أي مدى تخلفوا وإلى أية درجة لا يفقهون. لقد ترهلوا وانتفخت أوداجهم من شدة الغرور.

أنا أقرأ هنا بنهم شديد الإعلانات المنشورة في الصحف بشأن صدور المجلات ومحتوياتها. أسماء غريبة وتراكيب عجيبة، مثلاً، في أعداد «مذكرات الوطن». خِرقٌ بالية بدلاً من الرايات المرفرفة. يا عزيزي، لا تقدم لهم شيئاً، تمهل. يبدو أنك مهتم بمسألة النشر. لا تقلق يا صديقي. حالياً أكتب لك باستعجال، وإلا لتحدثت معك طويلاً في هذا الشأن. لدي فكرة بخصوصك. لكنها تتطلب شرحاً مفصلاً، في رسالة كاملة، بينما ليس لدي وقت الآن. سأكتب لك قريباً. الفكرة التي خطرت في بالي تدور حول (قصيدتك) «صوفيا

أليكسييفنا». صدقني، الفكرة جدية، فلا تتهكم. سترى بنفسك أبعاد هذه الفكرة. سأشرحها لك (فيما بعد). وهي لن تكون على شكل رواية أو ملحمة شعرية، بل ستأتي بالصورة الضرورية المطلوبة. وستكون أصيلة ومستحدثة في الاتجاه الروسي اللازم لدرجة تثير دهشتك. أطرح عليك برنامجاً، ويؤسفني أن هذا الطرح ليس من خلال حوار حي، بل في رسالة. تلك وسيلة يمكن أن تجلب الشهرة. ويمكن إصدارها في عدد خاص بعد نشر عدة مقتطفات منها في البداية، فيما يُنتظر أن يحظى العدد الخاص بإقبال هائل.

إنك أكملت ترجمة «سفر الرؤيا»، أليس كذلك؟ بينما تصورتك أرجأتها. بديهي أنها لن تسلم من سوط الرقابة الدينية بأي حال. ولا يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر. إلا أنهم سيسمحون بالنشر طبعاً إذا كانت ترجمتك صحيحة جداً. استلمت من ستراخوف رسالة أفرحتني. وأريد أن أرد عليه بسرعة. إلا أنني سأرد عليه من خلالك، لأنه نسي أن يكتب لي عنوانه. فأرجوك أن توصل رسالتي إليه. اكتبْ لي يا عزيزي. فرسائلك ذات أهمية بالغة بالنسبة لي. اليوم هو الثالث من أبريل حسب التقويم الجديد. وأنا لم أكتب سطراً واحداً، بينما الموعد الأخير لتسليم الرواية هو الـ 25 من الشهر(. . .) يا إلهي، ماذا سيحصل لي؟ على أية حال، إلى اللقاء. أقبّلك وأعانقك. آنّا تبلغك تحياتها، وكلانا نبعث تحياتنا إلى آنّا إيفانوفنا.

المخلص فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: باللّه عليك اكتبْ لي كل ما تسمعه مما يقال عن «الأبله»، إذا كنت تسمعه. فأنا بحاجة، بأمسّ الحاجة، إلى ذلك. (. . .) على فكرة، أنا لا أزال حتى الآن واثقاً بصحة طباع ناستاسيا

فيليبوفنا. ثم إن العديد من الأمور في نهاية الجزء الأول مأخوذة من الواقع. وبعض الشخوص عبارة عن صور لأشخاص حقيقيين، مثل الجنرال كوليا إيفولغين.

إلا أن أحكامك يمكن أن تكون صحيحة تماماً.

---

(1) آنذاك كانت تمد سكك حديدية فعلية في تلك الأماكن، ويجري التحضير لزيادة تسليح الجيش الروسي.

(2) توفي عام 1873.

(3) ألكسندر الثالث إمبراطور روسيا للفترة 1881-1894.

(4) يقصد المغتربين الروس الغربويين، وفي مقدمهم تورغينيف وهيرتسن.



127. إلى آنّا غريغوريفنا

باينس - ساكسون، 23 مارس 1868 التاسعة والنصف مساءً
Bains-Saxon

ملاكي آنّا. بدلاً مني تأتيك هذه الرسالة غداً الساعة الخامسة، فيما لو أردت أن تذهبي إلى دائرة البريد في المساء. ولعلك لن ترغبي في الذهاب مرهقة بالهموم المتعلقة برعاية صونيا التي لا أستحقها. فأي أب أنا؟! المهم أنك ستسلمين مني رسالة في الصباح. ولكن حبذا لو قرأت هذه الرسالة أيضاً يوم غد!

المشكلة أنني استلمت من مدام دوبوك الحقيرة 20 فرنكاً في الساعة السابعة اليوم. ولما كان عندي 50 سنتيماً بالإضافة إلى الـ 20 فرنكاً، وهذا في كل الأحوال لا يكفي للتسديد والعودة إليك، فإنني ذهبت لألعب في الساعة الثامنة وخسرت كل ما لدي. في جيبي الآن نفس تلك السنتيمات الخمسين. صديقتي، فليكن ذلك هو الدرس النهائي الأخير لي. أجل إنه درس فظيع. اسمعي يا عزيزتي. ذات مرة، أي في المرة الأخيرة، كان بإمكاني أن أتوجه بقطار الصباح. ففي السابق كنت تبعثين إليّ النقود على جناح السرعة. والأكثر إزعاجاً

هو تأخرها وعودتي يوم الثلاثاء. ولو شاء اللّه أن تصل باكراً في يوم الاثنين لربما استطعت أن أصل الاثنين. آه، يا ليت الأمر كان كذلك!

ملاحظة: على فكرة، أذكر لك على أية حال ما كتبته في الرسالة التي بعثتها في الساعة السادسة هذا اليوم، فلربما لن تصل، ولو أن هذا احتمال ضعيف. أخبرتك في الرسالة أنني خسرت كل شيء حتى الصفر ورهنت الخاتم وأنني بحاجة إلى 100 فرنك بأسرع ما يمكن. ورجوتك أن لا تحزني لأن الـ 100 كثيرة وأنها كل ما لدينا تقريباً، وأعطيتك كلمة شرف وآخر وعد بأنني لن ألعب بعد الآن، وسأتوجه إليك حالما أستلم الـ 100 فرنك.

والآن، يا ملاكي العزيز والأبدي البهيج المنقطع النظير، اسمعي الشيء الرئيسي الذي أريد أن أخبرك به.

واعلمي، أولاً، يا ملاكي، لو لم يحصل هذا التبذير المقيت المهين للـ 220 فرنكاً من دون جدوى لربما ما نشأت تلك الفكرة الرائعة المدهشة التي زارتني الآن وستخدم خلاصنا المشترك النهائي. أجل يا صديقتي، أنا أعتقد بأن اللّه ربما شاء، برحمته اللانهائية، أن يفعل ذلك من أجلي أنا العبد الفاجر الحقير واللاعب الصغير ليعيدني إلى رشدي وينقذني من القمار، وبالتالي ينقذك مع صونيا، ويخلصنا جميعاً على مدى مستقبلنا.

استمعي إذن.

هذه الفكرة خطرت في بالي قبل أن أجيء إلى هنا، لكنها كانت تومض لا أكثر، وما كنت لأوظفها وأستخدمها أبداً، لولا هذا الدافع الناجم عن تبديد آخر ما نملك من قروش بهذا الفجور المقيت. والآن سأوظفها. وأعترف لك أنني تباطأت خصيصاً في الكتابة إلى كاتكوف، وكان يجب أن أفعل قبل أسبوع لأعتذر منه على تأخري.

كنت أنتظر نتيجة سفرتي إلى هنا. والآن، وبعد أن خسرت كل شيء، سأكرس يوم غد كله لهذه الرسالة وسأكتبها له هنا وأنا على أتم الاستعداد. وحالما أصل إلى جنيف أبعثها إلى موسكو في اليوم نفسه.

وسأوضح أوضاعي في هذه الرسالة بمنتهى الصراحة وبلهجة لا تقبل التأويل. وستكون الرسالة صادقة من صميم القلب لدرجة لن أجد فيها أي صعوبة في كتابتها.

أبدأ بتوضيح سبب تأخري. وهو سبب خارج عن السيطرة، وأعني ميلاد الطفلة. وذلك لن يتكرر، أعني التأخر. وسيفهم الرجل. ثم أقول له إن صحتي وصحتك في جنيف تدهورت، وإن الأطباء يوصون بانتقالي، وبانتقالك في المقام الأول، إلى منطقة ذات طقس أفضل، لأن ذلك هو الذي يعيد الهدوء إليّ.

وطالما أنا لا آمل الآن، بأي حال، في الحصول على مبلغ كبير، ولا وقت لدي للانتقال، فإنني أريد أن أنتقل إلى مكان قريب من جنيف، قاب قوسين أو أدنى، وهو مدينة فيفَي على الضفة اليمنى للبحيرة، حيث تنتفي الزوابع وتقلبات الطقس الحادة.

في هذه المدينة الصغيرة ذات المناخ الصحي الرائع، والشبيهة ببيت ريفي، أي بقرية، سأعيش في عزلة تامة حتى الفراغ من كتابة روايتي. العزلة والهدوء أمر يلزمني لهذا الغرض. في مطلع الخريف تكون الرواية قد اكتملت. وسأوافيكم بفصولها من دون توقف. وفي تلك الأثناء تتحسن صحة زوجتي ونرعى طفلتنا لتكتنز دون أن نخشى عليها من الاستبراد الذي يصاحب الزوابع المفاجئة هنا.

ثم أكتب له أن الحياة في الخارج باتت صعبة عليّ، بينما في ذمتي ديون كمبيالات بقيمة 3000 روبل. كل آمالي معقودة على الرواية ونجاحها. أريد أن أصب فيها من روحي، ولعلها ستحقق نجاحاً.

وهذا يعني إنقاذ مستقبلي. سأنهي الرواية في الخريف، وإذا جاءت جيدة فسيشتريها الناشرون لطبعة ثانية، في حال تسديد الدين المستحق لكاتكوف بالكامل. حينئذٍ أعود وأعرض الطبعة الثانية على الدائنين.

كما أقول له التالي: مستقبلي كله يتوقف عليك، يا ميخائيل نيكيفيروفيتش. فساعدني إذن كي أنهي الرواية، ويخيل إليَّ أنها ستكون جيدة. انصرني الآن ووفّر لي الجو الملائم والاكتفاء في عزلة تستمر حتى الخريف، وإليك ما أريد تحديداً:

مجموع ما استلمته منك مقدماً، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش، حتى الآن 5060 روبلاً، وإذا حسمنا من هذا المبلغ ما أرسلته لك من الرواية، وهو 12 ملزمة تقريباً، يبقى في ذمتي 3300 روبل على وجه التقريب. وأرجوك أن ترسل لي الآن 300 روبل أخرى، فيكون الدين 3600، وفي أقل من شهرين سأرسل لكم من 10 إلى 12 ملزمة، وبالتالي يبقى من الدين قرابة 2000 روبل.

وأعدك بأنني لن أطلب نقوداً لحين إرسال هذه الملازم، أعني الجزء الثاني كاملاً من الرواية أي الجزءين الثالث والرابع بالحساب القديم[1] ولكنني بعد الإرسال، أي بمضي شهرين، سأطلب مبلغاً من جديد. وبالمقابل ستستلمون آنذالك الجزء الثالث، أي الجزءين الخامس والسادس. وعندئذٍ أظل مديناً للمجلة بألف روبل لا أكثر، بل وربما أقل. وبعد ذلك يأتي الجزء الرابع، أي السابع والثامن فأسدد ديني بالتمام والكمال. ملاحظة: أنا في الحقيقة نسيت ما اتفقنا عليه في لقائي الأخير مع كاتكوف هل يدفع على الملزمة 150 روبلاً أو 125. وسأكتب له أن يدفع 150 إذا جاءت الرواية جيدة جداً، وإذا كانت مجرد جيدة فسأوافق على 125 روبلاً نظراً لحجم الرواية الكبير، 40 ملزمة.

أنا بحاجة، في الحال تقريباً، إلى الـ 300 روبل. والمهم أنها، وفقاً لحساباتنا أنا وزوجتي، لن تكفي لشهرين (. . .) مع الانتقال فيما لو تحقق وتسديد الديون الطفيفة.

وهكذا، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش، مصيري كله تقريباً بيدك.

والطبعة الثانية من «الأبله» على أية حال ملكك ما لم أسدد كل ما بذمتي لك، أي ما لم أفرغ من تأليفها. حينئذ سأتوجه إليك نفسك لتساعدني مالياً في العودة إلى روسيا مع حلول الخريف.

هذا هو مضمون رسالتي. وأضيف راجياً الإجابة فوراً بالنظر لصحتك وصحتي وظروفنا الأخرى. بالنسبة لي يتوقف كل شيء تقريباً على هذا الجواب. وسأقول له إنك رجل شهم غيور لن تزعل لمطالبتي بجواب سريع. فأنت طوال هذه الفترة تكاد تكون بمثابة المشيئة الإلهية التي ترعاني. وبفضلك أنا سعيد للمعونة التي قدمتها لي قبل عام لتغطية تكاليف الزواج. تلك هي نظرتي إليك.

إذن، يا ملاكي العزيز آنّا، أريد أن أبعث رسالة بهذا المضمون إلى كاتكوف في اليوم نفسه الذي أصل فيه إليك. أقسم لك يا صديقتي أنني أتوقع رداً إيجابياً.

والآن، اسمعي أيضاً، يا آنّا.

سيأتي جواب كاتكوف والـ 1000 فرنك، وأملي كبير في وصولهما، في الأول من مايو حسب التقويم هنا. أنا واثق بذلك ثقتي باللّه. والمسألة الآن تتوقف علينا أنفسنا، عليَّ وعليك، وهل نستطيع، إن شاء اللّه، أن نرتب الأمر. وهو، والمسألة كلها، يتلخصان فيما يلي:

هل نستطيع مع حلول الأول من أيار بالتقويم الغربي حيث سيبعث كاتكوف الجواب أن نحتفظ بـ 400 أو 350 فرنكاً على الأقل مع

تسديد كل المدفوعات والنفقات وتكاليف الانتقال إلى فيفَي في 1 مايو؟ اسمعي:

حساباتي كالآتي: فك الرهان حوالى 200 فرنك، وما يأخذه القرض ومدام رولان وغيرها 100 فرنك، مدام جوسيلين، في أسوأ الأحوال، 200 فرنك، وأخيراً 100 فرنك لفساتينك الصيفية حتماً. المجموع 600 فرنك. والباقي 400. عندما أعود نحسب وإياك بمزيد من الدقة. ولربما تأخذ جوسيلين أكثر. لا يهم. المهم أن نغادر جنيف بأسرع ما يمكن.

ثم إننا سنتحدث وإياك كثيراً عن فيفي. لكنني أتصور أننا سندفع مقابل الشقة ليس 100 فرنك، بل 50، وربما أقل. كما أن الطعام هناك أرخص. ننتقل عبر البحيرة ونأخذ (الخادمة) جوزيفين معنا.

وحتى لو بقيت لدينا 300 فرنك صافية بعد نفقات الانتقال إلى فيفي فإن هذا المبلغ ليس قليلاً. ذلك لأن فيفي أرخص من جنيف على الأرجح.

أما الآن، يا ملاكي العزيز، يا فرحتي وسمائي اللامتناهية، يا زوجتي الطيبة، فلا يشغل بالي سوى هم واحد. فاستمعي:

يشغل بالي ما سيحصل لك. فيفي مدينة أصغر من جنيف. صحيح أن موقعها خلاب وطقسها رائع، ولكن ليس فيها أكثر من ذلك. ربما هناك مكتبة عامة. صحيح أن على مسافة ستة فراسخ منها تقع Vernex-Montreux (مونتريه)، وهناك موسيقى ومحطة قطار ومتنزه وما إلى ذلك. إلا أن العزلة ستستمر حتى الخريف. وستشعرين بالوحشة والملل يا ملاكي. هذا ما أخشاه.

ألهذا أخذتك من الوالدة؟ ألأجل أن تشعري بالضجر وتتحملي ما تتحملين؟ ولكن فكّري، يا عزيزتي، ما هو الأهم بالنسبة لنا الآن؟

الأهم هو نجاح روايتي. فليذهب القمار، ذلك السراب اللعين، إلى الشيطان. لن أقدم على شيء من هذا القبيل أبداً. إذا أنجزت الرواية في الموعد فسيكون ذلك طوق النجاة. لا بد من إنجازها بأسرع ما يمكن، بحلول الخريف. ما يعني أن التجوال لم يعد ممكناً حتى ذلك الحين، وأنني يجب أن أستقر في مكان واحد. جنيف باتت مقيتة. أما فيفي فسنكون فيها كما في الريف، كما في المنزل الصيفي. وسأواظب على الكتابة ليل نهار، فيما يهدئ المكان الجديد أعصابي لأمد طويل، ونوبات الصرع تهدأ في الطقس الرائع. ولربما تتبدد كآبة جنيف. وسآخذ بالاعتبار أنني سأتفرغ سريعاً إذا أنهيت الرواية قريباً بنجاح. بعد شهرين سأطلب 300 أو 400 روبل أخرى، وبالتالي يكون لدينا ما نعتاش عليه. علماً بأن صحتك ستتحسن في الطقس الجيد هناك، وسنكون عند اكتمال الرواية قد سهرنا على صونيا وقويناها بالطعام. يا ليت أمك تأتي إلينا، فتساعدنا. وبعد ذلك، بحلول الخريف، حيث أنهي الرواية وأسدد ديني إلى كاتكوف كله، أو معظمه، سأطلب 1000 روبل، ونغادر فيفي منتصف سبتمبر أو في نهايته إلى روسيا عبر إيطاليا، عبر فلورنسا ونابولي والبندقية ثم فيينا، فأنا أريدك أن تشاهدي كل هذه الأماكن. وإذا وصلت أمك[2] يمكننا أن نزور في البداية موضعين أو ثلاثة في سويسرا. وسننتقل إلى روسيا طبعاً من دون نقود. ولكن إذا رأيت وسمعت وبلغوني بنجاح الرواية فسأحصل على طلبيات وأتمكن من بيع «الأبله». وسأقول للدائنين بصراحة: إذا كنتم تريدون أن تسجنوني، أي ترغموني على بيع الرواية الآن فسأبيعها بثمن بخس. انتظروني أربعة أشهر وسأسدد لكم.

علامَ سنعيش في روسيا؟ هناك سأحصل على مال، سأجد عملاً جديداً وطلبية جديدة.

كل شيء، إذن، يتوقف على الرواية ونجاحها، على انتقالنا إلى فيفي. ولربما المستقبل كله يتوقف على ذلك. وستهون الأمور كلما مر الزمن. ولربما سنثبّت أقدامنا نهائياً بعد ثلاث سنوات.

عزيزتي آنّا، لا أدري بالنسبة لك، لكنني معجب بالفكرة الحالية. كاتكوف سيساعدنا حتماً، أنا واثق بذلك، على يقين تام. سأقرأ عليك الرسالة التي سأكتبها له هنا غداً، حالما أعود وأعانقك أنت وصونيا. ما أحلاكما يا عزيزتَيّ. ولكن ألا توافقينني، يا فرحتي، بأنني لو لم أتعرض لهذه الخسارة البشعة لما أقدمت على هذه الخطوة التي تخلصنا من كل المشاكل وأعتبرها الآن خطوة صحيحة؟ يا إلهي، لربما علينا أن نحمد اللّه ونشكره على ما حصل وعلى هدايته لي نهائياً إلى الأمل الوحيد المتمثل في العمل.

لا تظني، يا ملاكي، كلا، لا تظني أنني سأنفق على القمار ولو فرنكاً واحداً من الـ 100 التي سترسلينها إليّ. حتى ولو كنت أعلم علم اليقين بأنني سأربح شيئاً، فلن أجازف مرة أخرى، وإلا لشعرت بالخجل حقاً أمامك وأمام نفسي من هذا الربح بعد تصميمي الحالي وآمالي الجديدة.

يا ليتك تعلمين كيف هدّأ ذلك كله أعصابي ومدى الثقة والأمل اللذين سأكتسبهما غداً. رسالتي إلى كاتكوف لن تكون هذه المرة شبيهة بالرسائل السابقة. فأنا الآن في منتهى الهمة والنشاط. والشيء الوحيد الذي يشغل بالي هو كم من الوقت سيمضي دون أن أراكما أنت وصونيا؟ لربما حتى الثلاثاء. سأظل أفكر فيكما ليل نهار. وأهم ما يعذبني هو أنك ستشعرين بالقنوط وتبكين وتمرضين، وقد يصعد اللبن إلى الدماغ. لمَ لم أكتب لك عن ذلك من زمان وبدلاً منه بعثت إليك تلك الرسالة اليائسة؟ في السابق ومضت هذه الفكرة الرائعة في

ذهني، لكنني لم أدركها بالشكل النهائي الذي جاءت إليّ فيه الآن.

جاءتني في حدود الساعة التاسعة عندما خسرت ومضيت أتسكع في المماشي. كما كان الحال في فيسبادن حينما فكرت في «الجريمة والعقاب» بعد أن خسرت وأردت أن أقطع العلاقة مع كاتكوف. فهذا إما من فعل القدر أو من المشيئة الإلهية.

آمني باللّه يا آنّا، آمني برحمته يا عزيزتي، واعلمي أنني لم أكن يوماً بمثل هذه القوة وهذا الأمل. أفكر فيكما وحدكما، ويشدني الحنين إليكما. ماذا سيحصل لك؟ ولصونيا؟ فلربما ستكتئبين لدرجة النحول. وصونيا؟ كيف صونيا؟ يا ليتني أكون جنبكما سريعاً.

عزيزتي، حتى الأول من مايو سنعيش على الاقتراض والرهن والنقود التي سيبعثها مايكوف. هذه المرة سأعكف على العمل في الحال. مرحى وطوبى.

ثم إنكما الاثنتين عندي. يا إلهي. سنعيش في حب ومودة، في وفاق قلبي. أنا الآن متحمس وواثق بأننا سننتقل إلى فيفي. هذا، واللّه العظيم، أفضل من الربح. والمهم بالإضافة إلى ذلك أن تصل والدتك. وأعتقد أنها ستجلب نقوداً لتغطية كلفة المعيشة دون ريب.

أعانقكما، أنت وصونيا، فلتكونا مرحتين سعيدتين. انتظراني. أنا أرتعد خوفاً عليكما.

لا ترهقي نفسك، نامي أطول وكلي أكثر. على فكرة، قولي للآخرين بشيء من الدهاء إنني سأصل الاثنين متأخراً ليوم واحد. آه، يا عزيزتي، أبارك وأدعو لكما. ما أشد رغبتي في السعادة برؤيتكما بأسرع وقت.

أنا في صحة جيدة تماماً.

والشيء الوحيد الذي أخشاه أن لا تذهبي مساءً إلى دائرة البريد ولن تصلك هذه الرسالة اليوم. ولربما أرسلها على عنوان البيت.

إلى اللقاء يا ملاكي، إلى اللقاء السعيد، أعانقكما.

المخلص ف. دوستويفسكي

سنكون في فيفي من كل بد. صدقاً وحقاً، فلا تفقدي الأمل.

---

(1) المقصود التركيبة الجديدة لرواية «الأبله» من 4 أجزاء، بدلاً من نية الكاتب سابقاً في جعلها من 8 أجزاء.

(2) وصلت حماة دوستويفسكي إلى جنيف في بداية مايو 1868.



128. إلى صوفيا إيفانوفا

جنيف، 29 مارس 1868

صديقتي العزيزة الغالية صونيا. اعذريني لأني لم أرد على رسالتك العزيزة عليّ في الحال. ثم إنني الآن أيضاً أكتب باستعجال. فأنا مشغول جداً ومثقل بالهموم، والمهم أنني خاضع لفكرة تلاحقني وتوحي لي بأن الوقت لن يتسع أمامي لإرسال بقية الرواية إلى هيئة التحرير وأنني سأتأخر بالتأكيد. ناهيكِ عن مشاغل هذه الأسابيع الخمسة[1]. فهل تصدقين بأنني كنت طوال الليل ألهث ساعياً دون أن أذوق طعم النوم. شهر مارس في جنيف كان فظيعاً ببرده وأمطاره، ولذا كانت صحة آنّا غريغوريفنا تسير نحو التحسن ببطء شديد. ولم يتسع لي الوقت كي أكتب شيئاً من الرواية. فيما أعلنت «البشير الروسي» في عددها الثاني أن «بقية الرواية ستنشر في عدد أبريل». بمعنى أنهم أعطوني تسهيلات لمدة شهر. إلا أنني سأتأخر، أغلب الظن، على أبريل أيضاً. فما أصعب تحمُّل هذه الفكرة. بقيت أمامي عشرة أيام فقط حتى الموعد الأخير للتسليم.

(. . . عزيزتي صونيا) الرواية ستكون ضخمة، بـ 40 ملزمة،

وسأعمل عليها الصيف كله. لكنّ جنيف فظيعة بالنسبة لي، لنا جميعاً، لدرجة أن صحتنا تدهورت ولن أكتب شيئاً. لذا طلبت من كاتكوف 400 روبل للانتقال إلى فيفَي، على مسافة خطوتين من هنا، أربع ساعات على متن الباخرة عبر البحيرة. فيفي تقع في نفس منعطف البحيرة الذي تقع فيه مونتريه وشيليون وفيلينيو، أي الأماكن المعروفة للعالم كله من حيث مناخها المعتدل وطقسها الرائع. الموقع محمي بالجبال من جميع الجهات، وهو من أكثر المواقع الخلابة على الكرة الأرضية. وإلى ذلك تكاليف المعيشة هناك أرخص. ثم إن جنيف باتت بغيضة وكأنها قرحة في القلب. تحملت فيها الكثير من الكآبة، وكذلك آنّا غريغوريفنا. طفلتنا، ملاكنا صونيا، في صحة جيدة. لكنها ستكون في فيفي أفضل بمئة مرة. وسأعكف على كتابة الرواية هناك أربعة أشهر حتى أنهيها (. . .) أنا أحبكم جميعاً. وأتذكركم، أنا وآنّا غريغوريفنا، على الدوام (. . .).

ولكن يكفي الكلام عني، فلنتكلم عنك. أنت، من خلال رسالتك الأخيرة، في ذهننا، أنا وآنّا غريغوريفنا، طول الوقت. آنّا تحبك وتحترمك لا أقل من حبي واحترامي لك. وقد تبادرت إلى ذهننا كلينا فكرة واحدة أو مشروع واحد تجاهك. ولذا أسارع لإبلاغك به في اختصار، مع أنه يحتاج إلى شرح أطول وأكثر تفصيلاً بأربع مرات. ألا تريدين العمل في الاختزال؟ إذن، اسمعيني بانتباه، يا صونيا. الاختزال فن رفيع، وحرفة لا تحط من سمعة الإنسان (. . .) بل توفر لمن يجيد هذا الفن الكرامة والمال الكثير. وهو فن حر طليق، وبالتالي تجد النساء فيه طريقاً لهن. آنّا غريغوريفنا، مثلاً، لم يتسع لها الوقت كي تنهي دراستها، وهي تنوي مواصلة الدراسة بعد العودة إلى بطرسبورغ. هذا الفن يتطلب من أفضل ممثليه تعليماً واسعاً جداً

ومختصاً بعض الشيء. فإن كتابة التقارير عن الجلسات الجادة إلى الصحف لا يقوى عليها إلا الإنسان المتعلم جيداً. فليس كافياً نقل الكلمات حرفياً، بل ينبغي معالجتها بعد ذلك أدبياً وتضمينها الفكرة والروحية والمفردات الدقيقة لما يقال ويسجل. ولدى التسجيل السياسي مثلاً ينبغي توفر تعليم تاريخي عميق، وخصوصاً دراسة التاريخ الحديث (. . .). نحن نأمل أن نكون في بطرسبورغ بحلول الخريف أو الشتاء في حال نجحت روايتي. وسآتي إلى موسكو ونتحدث (في الموضوع) بجد وبصورة نهائية. وإذا وافق الجميع يمكنك أن تنتقلي معنا إلى بطرسبورغ لغرض الدراسة. مدة الدراسة سنة أو سنة ونصف لا أكثر. ولن تفترقي عن الأهل. فيمكنك أن تسافري إلى موسكو ثلاث مرات في العام. وأنا سأتردد كثيراً على موسكو لأنني لا أريد أن أقطع علاقاتي مع «البشير الروسي». وستقيمين عندنا، فأنت لا تضايقيننا (. . .) وبحصولك على هذه المعارف ستكونين عوناً لعائلتك، ويكون لك مورد مالي مرموق مدى الحياة. وستبدأين العيش بالتأكيد. فبعد 10 سنوات ستتغير أمور كثيرة جداً عندنا. وقد تحتاج كل محافظة في روسيا إلى كاتبات اختزال للمجالس الريفية والمحاكم. الإقبال على الاختزال اليوم كبير، وهو نادر. ينبغي انتهاز الفرصة وإتقان هذه الحرفة طالما أنها لا تزال نادرة عندنا(. . .)

أتوقف عند هذا الحد في رسالتي. فأنا مستعجل، وموضوع كهذا يتطلب كتابة صفحات. آنّا غريغوريفنا التي خطر هذا المشروع في بالها قبلي ستكتب لك حالما تتوفر لها الفرصة. فهي ترضع الطفلة ولا تنام الليل ولم تبلغ الصغيرة شهراً ونصفاً بعد.(. . .) وأنا أيضاً سأكتب لك بتفصيل أكبر حالما أبعث جزءاً من نص الرواية إلى المجلة

ويتوفر لي فراغ لبضعة أيام. والآن أعانقك وأحبك من صميم القلب، كما تعانقك آنّا غريغوريفنا. (...)

إلى اللقاء يا عزيزتي الذهبية.

المخلص (...)

ف. دوستويفسكي

(...)

---

(1) بالارتباط بميلاد ابنة الكاتب.



129. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 18 مايو 1868

عزيزي أبولون نيكولايفيتش، أشكرك على رسالتك وعلى استمرارك في مراسلتي رغم زعلك مني. كنت واثقاً دوماً، في أعماق نفسي، أن الزعل لا يؤثر على أبولون مايكوف.

ابنتي صونيا توفيت ودفناها قبل ثلاثة أيام. وأنا، قبل ساعتين من وفاتها، ما كنت أعلم أنها ستموت. الطبيب قبل ثلاث ساعات من الوفاة قال إن حالها تحسنت وإنها ستعيش. مرضت أسبوعاً لا أكثر وتوفيت بالتهاب الرئتين. آه يا أبولون نيكولايفيتش. قد أكون مضحكاً وقد يكون مثاراً للسخرية حبي لطفلتي الأولى، قد يكون مضحكاً ما كتبته عنها في العديد من رسائلي إلى الكثيرين ممن هنأوني بميلادها، كنت أنا وحدي مضحكاً بالنسبة لهم، لكنني لا أخشى الكتابة لك شخصياً. هذا الكائن الصغير بأشهره الثلاثة، هذا الكائن المسكين الضئيل كان بالنسبة لي شخصية لها طباعها وطابعها. أخذت تتعرف عليّ، وتحبني وتبتسم عندما أقترب منها وأنشد لها الأغاني بصوتي المضحك. ولم تكن تبكي أو تقطّب عندما أقبّلها، كانت تكف عن

البكاء حين أقترب منها. والآن يقولون لي على سبيل المؤاساة إنني سأرزق أطفالاً آخرين. وصونيا، أين هي؟ أين تلك الشخصية الصغيرة التي أقول بجرأة إنني مستعد أن أتجرع الموت على الصليب من أجل أن تبقى على قيد الحياة.

على أية حال فلنترك هذا الكلام. زوجتي تبكي. وبعد غد نودع القبر ونذهب لا أدري إلى أين. آنّا نيكولايفنا معنا. وصلت قبل أسبوع من الوفاة.

لم أتمكن من العمل خلال الأسبوعين الأخيرين منذ أن اكتشفنا مرض الصغيرة. وبعثت من جديد اعتذاراً إلى كاتكوف وستنشر «البشير الروسي» في عدد مايو ثلاثة فصول فقط. لكنني آمل أن أعمل ليل نهار بلا انقطاع، وستنشر في المجلة اعتباراً من عدد يونيو فصول غير قليلة على أية حال.

أشكرك لأنك لم ترفض مهمة العراب. وكنا قد عمدناها قبل وفاتها بثمانية أيام.

أنا أعرف، يا صديقي، أنني مقصر جداً بحقك، لأنني لم أسدد حتى الآن الدين الذي لك عليّ. ولأني أعطيت إميليا وبافل جزءاً مما استلمته من كاتكوف ولم أعطك شيئاً وأنت في احتياج شديد. إلا أن الأسف لا يحل المشكلة. ولذا أقول لك بصراحة كل ما أستطيع أن أقوله على وجه التحديد: في الحال الحاضر لا أستطيع أن أدفع لك، فليس لدي شيء تقريباً. غادرت جنيف بعد أن رهنت بدلتي وفستان زوجتي. أقول ذلك لك وحدك. ولا أستطيع أن أطلب من كاتكوف الآن، لأنني أتحايل عليه من ثلاثة أشهر. ولكنني سأطلب منه بالتأكيد أن يبعث إليك 200 روبل بدلاً مني بعد شهر ونصف أو شهرين، لا أكثر. وفيما يخص عدم تفكيري فيك حتى الآن فذلك، واللّه، غبن

كبير. كنت متألماً جداً لذلك. فماذا عساي أن أقول لك؟ لا أستطيع أن أقول شيئاً. ولكنني أريدك أن تتذكر، يا أبولون نيكولايفيتش، أنني عندما اقترضت منك هذه الـ 200 روبل فإنني خصصت نصفها تقريباً لهم، لأهلي، آنذاك. فعن طريقك أرسلت لهم 75 روبلاً من الـ 200 على ما أتذكر. وأنا أشكرك جزيل الشكر لأنك أنقذتني آنذاك وأقدرك كل التقدير على معاملتك المهذبة لي حتى الآن رغم وضعك العصيب الذي علمت به مؤخراً.

بالمناسبة، لا تخبر أحداً من أقربائي إذا رأيتهم أن ابنتي صونيا توفيت. على أية حال لا أريد لهم، وكذلك بافل بالطبع، أن يعرفوا بالخبر لحين من الوقت. يخيل إليّ أن أحداً منهم لن يأسف على طفلتي، بل وربما على العكس، ومجرد التفكير في ذلك يثير غضبي. فما ذنب هذا الكائن المسكين بحقهم؟ فليكرهوني أنا وليسخروا مني ومن حبي، لا يهم. (بافل، مثلاً، لم يهنئني بميلاد صونيا، ولا أريد له أن يعرف بوفاتها).

المعذرة لأنه يثقل عليك. وأنا لا أفهم ما سيحصل له. وماذا يريد؟ (. . .) علمت أن لديه بعض الرسائل الهامة جداً التي أرسلت إليّ هذا العام. إحداها من (صديقتي) السابقة كروكوفسكايا.

فكيف أستطيع استلامها. هذه مسألة في منتهى الأهمية بالنسبة لي. ولربما لديه رسائل أخرى.

وداعاً يا صديقي. سأحاول الكتابة إليك من الموقع الجديد. مونتريه التي تتحدث عنها من أغلى الأماكن المعتبرة في أوروبا كلها. سأبحث عن قرية مناسبة على مقربة من فيفي. ترجمتك لسفر الرؤيا على أروع ما يكون. وللأسف ليس كاملاً. أمس قرأته.

المخلص فيودور دوستويفسكي

(. . .)

130. إلى أبولون مايكوف

فيفي، 22 يونيو 1868

صديقي الطيب الكريم الأفضل أبولون نيكولايفيتش. اعذرني يا عزيزي على صمتي الطويل. لوجه المسيح. سبب الصمت بسيط للغاية، فقد تأخرتُ على «البشير الروسي» لدرجة جعلتني أعمل كل هذه الفترة ليل نهار بالمعنى الحرفي للكلمة، رغم نوبات الصرع. ولكن للأسف لاحظت يائساً أنني لا أستطيع أن أعمل بالسرعة نفسها التي كنت أعمل بها في السابق وقبل فترة غير بعيدة. أزحف مثل سرطان البحر، وعندما أعدّ ما أنجزت أجد قرابة 4 ملازم فقط في شهر كامل تقريباً. شيء فظيع. ولا أدري ماذا سيحصل لي. لا تزال من الرواية 27 ملزمة، وربما 30. والأهم أنه يخجلني أن أنشر مثل هذه الأشلاء والمقتطفات كما فعلت في ثلاثة أعداد من المجلة حتى الآن. إنني ألحق الضرر بنفسي، ناهيك عن رأي هيئة التحرير بخصوصي، وهو بالنسبة لي أثمن من رأي القراء. أرسلت لعدد يونيو 4 فصول، آخرها أرسلته أمس، وأعطيتهم كلمة شرف بأن أرسل لعدد يوليو في الموعد خاتمة الجزء الثاني في 5 ملازم كحد أدنى. ولم يبق

لي من الوقت في أحسن الأحوال سوى 3 أسابيع. غداً سأنكب على العمل، واليوم استراحة، بمعنى أن عليَّ كتابة ثلاث رسائل.

يا صديقي أبولون نيكولايفيتش. أنا أعرف وأثق بأنك تشفق عليَّ بصدق وإخلاص. إلا أنني لم أكن تعيساً في يوم ما كما أنا في الآونة الأخيرة. لن أصف لك حالتي. غير أن الذكريات تنهال عليّ مع مر الزمن، فأتصور بمنتهى الوضوح محيا المرحومة صونيا. وثمة لحظات لا تطاق. عندما خرجت في ذلك اليوم لأقرأ الجرائد دون أن أعلم بأنها ستموت بعد ساعتين تابعتني بنظراتها مودعة، وحدقت فيّ على نحو لا أزال أتصوره بوضوح متزايد حتى الآن. لن أنساها أبداً وسأبقى أتعذب دائماً. حتى لو جاء طفل آخر لا أدري كيف سأحبه وأين أجد ذلك الحب. أنا بحاجة إلى صونيا. ولا أفهم أنها لم تعد على قيد الوجود وأنني لن أراها أبداً.

مصيبتي الثانية هي حالة آنّا غريغوريفنا. فهي حزينة لحد رهيب، تبكي طول الليل وتتأثر صحتها لذلك بأشد ما يكون. أنا، كما قلت لك، أكتب ليل نهار، ولا أعتقد أن كل ما أكتبه على ما يرام، فمن الصعب جداً الكتابة في مثل هذه الظروف. صرت، بناء على نصيحتك، أُملي عليها وأعطيها عملاً كثيراً (لأشاغلها)، لكنها تنجزه بسرعة وتعود إلى الأحزان. وأرى أنها بحاجة ماسة إلى السلوى، لكن المصير عندما يتطاول علينا ينهال من جميع الجهات: لا نقود للسفر إلى مدينة كبيرة، إلى فلورنسا أو نابولي، ثم إن الموسم غير ملائم، والسفر إلى باريس متعذر أيضاً والمسافة بعيدة. المدينة الكبيرة بمتاحفها ومعارضها، مثل درزدن العام الماضي، من شأنها أن تروّح عنها، فهي تحب التفرج والتعلم. (...) انتقلنا من جنيف إلى هنا، إلى فيفي، ليس من دون مشاكل، ومعنا مبلغ زهيد جداً نظراً لكلفة

مرض الطفلة ووفاتها ودفنها. فوجدنا أنفسنا في فيفي بالعوز نفسه الذي كنا فيه، بل وأسوأ. بديهي أن من الصعب تصور معيشة أسوأ مما في جنيف. إلا أن الوضع هنا ليس أفضل مطلقاً. ونحن ثلاثتنا، مع والدة آنّا، نعتقد بصواب ما قاله أطباء جنيف عندما حذرونا بأن الهواء هنا يتلف الأعصاب. ثلاثتنا نشعر بذلك. صحيح أن جنيف من نواحٍ أخرى، مثل الزوابع الباردة، أسوأ بكثير بالنسبة للصحة (. . .) ليتكَ تعرف حقارة الإقامة في الخارج ومدى دناءة السويسريين ووضاعتهم وغبائهم وتخلفهم اللامعقول. صحيح أن الألمان أسوأ، ولكن هولاء أيضاً ليسوا أفضل. ينظرون إلى الأجنبي نظرتهم إلى البقرة الحلوب، وكل ما يفكرون فيه هو كيفية خداعه ونهبه. والأدهى من ذلك هو قذارتهم. القرغيزي في خيمته أنظف منهم. حتى في جنيف. لو كنت سمعت بذلك سابقاً عن الأوروبيين لغرقت في القهقهة. ولكن، فليذهبوا إلى الشيطان. أنا أكرههم إلى أبعد الحدود. لكنني في جنيف كنت، على الأقل، أقرأ الجرائد الروسية، أما هنا فلا جرائد. وهذا الأمر صعب جداً عليّ. استلمت أخيراً رسالة مطولة من بافل. يتحدث فيها عن أربع رسائل وصلت إليّ، ولا أدري أين اختفت؟ (. . .).

من كثرة العمل صرت أشعر بالغباء وكأن دماغي محشو بالقش. أنتظر رسائلك دوماً وكأنها من ملكوت السموات. فهل هناك أثمن من صوت الصديق القادم من روسيا؟ ليس عندي ما أكتبه لك، لا أخبار. فأنا أزداد غباءً وحماقة هنا. وما لم أفرغ من كتابة الرواية لن أتمكن من القيام بشيء. عندذاك سأعود إلى روسيا مهما كلف الأمر. ولكي أنهي الرواية عليَّ أن أواظب على العمل خمسة أشهر، بثماني ساعات في اليوم على الأقل. دين كاتكوف اشتغلته لحد النصف، وسأشتغل

الباقي. اكتبْ لي، يا صديقي، اكتبْ لوجه المسيح. زوجتي تبلغك وآنّا إيفانوفنا تحياتها، وهي تحبكما حباً جماً. احتراماتي لآنّا إيفانوفنا. وتبلغكم آنّا نيكولايفنا تحياتها أيضاً. إلى اللقاء. أعانقك.

المخلص صديقك

ف. دوستويفسكي

في الفصول الأربعة التي ستقرأها في عدد يونيو، ولربما في ثلاثة فصول فقط، لأن الرابع تأخر، حاولت أن أقدم مشهد الوضعيين المعاصرين من الشباب الأكثر تطرفاً. وأعرف أنني كتبت الصحيح، لأنني كتبت من تجربتي الشخصية، فلا أحد غيري تابع هذه التجربة وامتلكها. وأعرف أيضاً أن الجميع سيلومونني ويقولون تلك حماقة وسذاجة بعيدة عن الصواب. عنواني:

Suisse, Vevey (Lac de Genève).

A M-r Dostoiewsky, poste restante.

131. إلى أبولون مايكوف

فيفي، 21 يوليو 1868

الصديق الحبيب الطيب الذي لا ينسى أبولون نيكولايفيتش.

التقطتُ الريشة لأكتب لك ثلاثة سطور.

كنت قد بعثت لك رسالة مطولة في يونيو رداً على رسالتك المؤرخة في مايو. رسالتك تلك أثبتت لي أنك لست زعلاناً مني لأي سبب يمكن أن أتخيله لغبائي ولطبعي المريض، بل وأنك لا تزال تحبني كالسابق. ولم أجبك في الحال لأنني كنت أطوي الليل بالنهار في عمل يسير ليس على ما يرام طوال 20 يوماً. لكنني لم أستلم منك حتى الآن رداً على رسالتي الجوابية المطولة المؤرخة في يونيو والمهمة جداً بالنسبة لي. هناك سببان في نظري: 1) إما لأنك زعلت مني لأمر ما، وإما 2) أن رسالتي أو رسالتك ضاعت. أنا لا أصدق السبب الأول مطلقاً، لأن رسالتك الأخيرة في مايو مفعمة بالمشاعر الطيبة تجاهي ولا يمكن أن أتصورك زعلاناً مني. ولذا أظن متيقناً أن رسالتي ضاعت. ولدي سبب يجعلني آخذ بهذا الظن، فقد بلغ مسامعي أن رقابة فرضت عليّ. بوليس بطرسبورغ يفتح رسائلي

ويقرأها جميعاً. وطالما أن قسيس جنيف، كما تشير كل الدلائل، بالوقائع وليس بالتكهنات، يخدم في البوليس السري فإن بعض الرسائل المعنونة إليّ تأخرت في بريد جنيف المركزي الذي لدى القسيس ارتباطات سرية به، على حد علمي الأكيد. ثم إنني استلمت أخيراً رسالة مهملة تفيد بأنني متهم بشيء لا يعلمه إلا الشيطان، وأن أمراً صدر بفتح رسائلي والتربص بي على الحدود عندما أدخلها وتفتيشي كأنما بالصدفة.

ولذا أعتقد أن رسالتي لم تصلك أو رسالتك لم تصلني. ولكن كيف يتحمل الشخص النظيف والوطني الشريف الذي أخلص لهم وتنكر لمعتقداته السابقة ويحب القيصر لحد التأليه، كيف يتحمل التهمة بارتباطات بالبولنديين الأدعياء أو «بالناقوس»[1]؟ يا لهم من حمقى أغبياء! ليست لدي أية رغبة في خدمتهم. ما أكثر المذنبين الذين فوتوهم عندنا، بينما يرتابون بدوستويفسكي!

إلا أن تلك ليست هي المسألة. هذه الرسالة تحملها إليك شقيقة زوجتي وتسلمها لك يداً بيد. والحقيقة هذه ليست رسالة، بل ثلاثة سطور، فأنا لم أعد أعرف ماذا ينبغي أن أكتب إليك. فليست رسالتك تحت يدي. أنت، يا صديقي أبولون نيكولايفيتش، أنت نفسك تسمّيني صديقاً لك. فما أصعب عليَّ والحال هذه أن أتحمل أحياناً فكرة كونك زعلاناً مني.

فاكتبْ لي إذن، في كلتا الحالتين، إذا كنت زعلاناً أوضح السبب. وإذا كنت غير زعلان فاكتبْ لي أنك تحبني.

كنت في منتهى التعاسة طول هذه الفترة. وفاة صونيا هدّت حيلي وحيل زوجتي. صحتي ليست على ما يرام. الصرع وطقس فيفي يتلفان الأعصاب.

حالما أستلم مبلغاً أغادر فيفي. ولكنك إذا أردت أن تجيب الآن ابعثْ على العنوان السابق:

Vevey (Lac de Genève), poste restante.

أنا لست راضياً عن الرواية لحد الاشمئزاز. عملت قدر ما أستطيع، ولم أتمكن. النفس مريضة. والآن سأبذل قصارى جهدي على الجزء الثالث. إذا صححت الرواية أستعيد صحتي، وإلا فأنا هالك.

أعصاب زوجتي متهالكة، وهي نحيلة وصحتها تتدهور أكثر فأكثر(...) أنا مجرم، مذنب بحقك. لا أزال مديناً لك بـ 200 روبل. سأسددها، فلا تلمني. ليتك تعلم كم تحملت، ومع ذلك سأسدد. سنرى نتيجة الجزء الثالث.

إذا كنتُ سأنتقل فالهدف الرئيسي هو إنقاذ زوجتي.

وهي تبلغك تحياتها، وتشد على يدك. تحياتي وتحياتها الخالصة إلى آنّا إيفانوفنا الموقرة.

المخلص ف. دوستويفسكي

(..) هل أتوجه إلى مسؤول ما وأطلب أن لا يتهموني بخيانة الوطن وبالارتباط مع البولنديين الأدعياء ولا يختطفون رسائلي؟ هذا شيء بغيض. ألا يعرفون أن العدميين والليبراليين و«المعاصرين» يلطخونني بالقاذورات منذ ثلاثة أعوام لأنني أعلنت القطيعة معهم ولا أحب البولنديين، بل أحب الوطن؟ يا لهم من حقراء!

---

(1) جريدة هيرتسن الثورية.

132. إلى رئيس تحرير مجلة أجنبية

(مسودة)

فيفي، أواخر أغسطس - أوائل سبتمبر 1868

السيد رئيس التحرير

أرجو السماح لي أنا الأجنبي أن ألجأ إلى طلب المساعدة الممكنة من مجلتكم الموقرة في نشر تكذيب وإحقاق الحق.

أنا أقيم في سويسرا منذ عام. في السابق عندما كنت أغادر روسيا إلى الخارج كنت أمر بسويسرا مر الكرام وأتجول فيها. أما الآن فقد أقمت لأول مرة ولا أتجول كسائح، بل أعيش في الغربة في مكان واحد. وبالتالي، ولأول مرة في حياتي لاحظت بكل وضوح ما لم يكن يخطر في بالي لو كنت أمرّ بالبلد كسائح.

وبالمناسبة أدهشني كل الدهشة عدم معرفة الأوروبيين بأي شيء تقريباً يخص روسيا. فالأشخاص الذين يسمّون أنفسهم بالمثقفين المتحضرين مستعدون كثيراً وبمنتهى الاستخفاف للحكم على الحياة الروسية دون أن يعرفوا ظروف حضارتنا ولا حتى جغرافية بلادنا. لن أدخل في تفاصيل هذا الموضوع الحساس وغير المريح، وأكتفي

بالقول إن أكثر الأخبار الهمجية غرابة من الحياة المعاصرة في روسيا تحظى لدى الجمهور بالتصديق الساذج التام. ولا بد من الإشارة إلى أن حجم تلك الأخبار يزداد في الصحف وفي المطبوعات، الأمر الذي يعتبر بالطبع مؤشراً على الاهتمام الكبير المتزايد الذي يثيره وطني لدى الجمهور الأوروبي.

الجميع يعرفون أن في أوروبا عدة إصدارات دورية مخصصة بالكامل تقريباً لتسويد صفحة روسيا. كما لا يتوقف في مختلف أرجاء أوروبا ظهور مؤلفات لهذا الغرض نفسه. ومعظم هذه الكراريس تصدر بشكل وسيلة لفضح مختلف الأسرار الفظيعة في روسيا. وهي تصور الأوروبي أو الروسي الموتور المتألم والحاقد على روسيا والذي يجمع المعلومات هناك وكأنه قادر على الوصول إلى الحقيقة وإلى الكشف عن الوقائع الاستثنائية فيتمكن في النهاية من مغادرة البلد المسكين الذي كان يختنق فيه من الحقد والغضب فيصدر في مكان ما في الخارج حيث تعجز الحكومة الروسية عن مواجهته كتيباً يضم ملاحظاته وتسجيلاته وأسراره. ويسارع الناشر إلى كتابة سطر على صفحة العنوان يشير إلى أن حقوق الطبع تعود له وحده. وبالتالي، كما تأكد لي تماماً خلال عام من إقامتي في الخارج، يصدق الجمهور بسذاجة وحسن نية أن كل ما مكتوب هو عين الحقيقة والمصداقية المقدسة، وليس متاجرة بمشاعر القارئ النبيلة ولا تسويقاً بالأوقية أو المتر للغضب النبيل المفبرك بشكل ممتاز لهدفين هما إلحاق الضرر بروسيا وبلوغ المنفعة الشخصية، ذلك لأن الغضب النبيل يباع على أية حال، ويباع بربح لا خسارة. ويستعيد ناشر الكتاب نفقاته، كما يكافأ الكاتب على «مجهوده».

لقد رأيت الكثير من هذه الكتيبات. وقرأت بعضها. إنها مفبركة

من قبل الأجانب أو حتى الروس، في كل الأحوال من قبل أناس كانوا بالضرورة في روسيا. وترد فيها أسماء معروفة وقصص أناس معروفين وأحداث جرت بالفعل. إلا أن كل هذا التوصيف غير صحيح ومشوَّه لغرض معيَّن. وكلما كثر كذب المؤلف ازدادت وقاحته. مخالفة الحقائق والافتراءات المتعمدة وقحة أحياناً ولا تعرف الحياء لدرجة تغدو فيها مثاراً للتسلية. فكنت كثيراً ما أضحك وأنا أقرأ تلك الخرافات. ومع ذلك فهي ضارة شأن أي افتراء أو تزييف للحقيقة. ومع ذلك يبقى شيء من الافتراء وأثر له مهما كان مشوهاً. وإلى ذلك تنتشر بين الجمهور الواسع في أوروبا آراء كاذبة زائفة تكون قوية كلما بقيت الحياة الروسية غير معروفة للأوروبيين. وفي هذه الحالة يمكن للآراء الزائفة والمعتقدات المشوهة أن تلحق ضرراً ليس بروسيا وحدها. وأنا على الأقل واثق بذلك.

وأعترف بأنني ما كنت سآخذ على عاتقي مهمة الكشف عن الأكاذيب وإحقاق الحق والحال هذه. فذلك عمل مهين للغاية. ولدى قراءة بعض هذه الكتيبات شعرت لسبب ما بالخجل الشديد إما تجاه المؤلف وإما تجاه نفسي لأنني تكلفت عناء قراءة مثل هذه الحماقات الوقحة.

وقبل أيام وقع نظري على كتيب بعنوان* «Les mystères du Palais des Czars (sous l'Empereur Nicolas I)». Par Paul Grimm. Propriété de l'éditeur. Vurzbourg, F.-A. Julien libraire-éditeur, 1868

يتناول سيرة حياتي ويفرد لي مرتبة بين الشخوص الرئيسيين. تجري الأحداث في بطرسبورغ في العام الأخير من حكم الإمبراطور نيكولاي، أي عام 1855. ومع الإشارة إلى أن الكتاب رواية

وحكاية، إلا أنه يعلن بوقاحة تفوق التصور أن كل الأحداث حقيقية وثائقية. ويتضمن الكتاب أشخاصاً فعليين ويشير إلى أحداث غير خيالية. ولكن ذلك كله بقدر من التزييف والتشويه يجعل القارئ لا يصدق بإمكان مثل هذه الوقاحة. على سبيل المثال اسمي مذكور بالكامل هكذا: فيودور دوستويفسكي. كاتب. متزوج. عضو في جمعية سرية.

---

(1) بالفرنسية: «أسرار البلاط القيصري في عهد نيكولاي الأول». بقلم بول غريم، 1868.



133. إلى أبولون مايكوف

ميلانو، 26 أكتوبر 1868

صديقي العزيز أبولون نيكولايفيتش.

استلمت رسالتك من زمان، قبل ثلاثة أسابيع، ولم أتمكن من الإجابة في الحال، لأنني مشغول بالعمل روحاً وجسداً. ومع أنه كان بالإمكان تصيد ساعة أو ساعتين للكتابة إليك، إلا أن الموقف في أثناء العمل صعب عليَّ أحياناً لدرجة تخونني فيها قواي واللّه العظيم، خاصة وأنني أريد أن أتحدث معك من صميم القلب. فبقيت أنتظر رسالتك الثانية التي استلمتها أمس وأشكرك عليها كل الشكر يا صديقي الغالي. (. . .) من رسائلك تفوح روسيا، وهي عيد لي بالمعنى الحرفي للكلمة. ولكن كيف تظن أنني يمكن أن أزعل منك بسبب فكرة أو عبارة ما؟ كلا. لدي قلب من طبيعة أخرى. ولعلك تتذكر أنني تعرفت عليك لأول مرة قبل 22 عاماً، عند بيلينسكي، أليس كذلك؟ ومن ذلك الحين تقاذفتني الحياة ذات اليمين وذات الشمال مراراً وتكراراً. وعذبتني أحياناً بتقلباتها. وفي نهاية الأمر، في هذه اللحظات، أنت الإنسان الوحيد الذي أوده وأثق بما في نفسه

وفؤاده، ومعه التقت أفكارنا ومعتقداتنا في كلّ منسجم واحد. أفلا تريد أن تبقى عزيزاً عليَّ معزة المرحوم أخي تقريباً؟ رسائلك أفرحتني وأعادت إليَّ الروح لأن حالتي النفسانية محطمة. فالعمل أرهقني واستنفد قواي. منذ عام تقريباً وأنا أكتب كل شهر ثلاث ملازم ونصفاً. وفي هذا إجهاد كبير. وإلى ذلك أنا غائب عن الحياة الروسية، وليس حواليّ انطباعات روسية، فيما يشكل هذا الأمر دوماً ضرورة من ضرورات عملي. ثم إنك تمتدح فكرة روايتي، إلا أن أداءها لم يكن رائعاً حتى الآن. ويؤذيني أنني إذا ألفت الرواية قبل الأوان، في غضون عام، ثم أقضي شهرين أو ثلاثة في الاستنساخ والتنقيح، وتأتي ليس كما يرام، أكون مسؤولاً. وأنا الآن أرى ذلك بنفسي وبوضوح.

بدأت الحديث معك عن الرواية مباشرة. لكنني أريد أن أستعرض أوضاعي في البداية. فمنها ترى الباقي بوضوح أكثر. إذن، إليك أوضاعي، ها هي:

ليس من الجائز كتابة ثلاث ملازم ونصف في الشهر الواحد. هذه حقيقة إذا كان الكاتب يعكف على العمل طوال العام. لكن النتيجة جاءت بأنني لن أنهي الرواية هذا العام، ولن أنشر سوى نصف الجزء الرابع والأخير. حتى قبل شهر كنت لا أزال آمل بأني سأنجزها. بيد أنني فتحت عينيّ الآن ورأيت أن ذلك مستحيل. علماً بأن كل آمالي وأمنياتي معقودة على الجزء الرابع، وهو كبير بـ 12 ملزمة. والآن، حيث أرى كل شيء كما وراء الزجاج الشفاف، تيقنت بمرارة أنني لم أكن يوماً في حياتي الأدبية قد عرفت فكرة شاعرية أفضل وأغنى من الفكرة التي زارتني الآن بكل تفاصيلها من أجل الجزء الرابع. ما يعني أنني يجب أن أسرع بكل ما أستطيع وأعمل بلا كلل ورغم ذلك لن

أتمكن من الانتهاء. ففي أي موقف حرج سأضع نفسي ومجلة «البشير الروسي»؟ وكيف أواجه كاتكوف الذي عاملني بنبل وشهامة؟ سيتعين عليَّ أن أسلمهم بقية الخاتمة لينشروها في ملحق يكلفهم مبالغ إضافية. ورأيت أن أكتب لهم وأتخلى عن أجرة كل ما سينشرونه في العام القادم لأعوض للمجلة عن الخسائر المترتبة على إصدار الملحق. وهذا ينسف مصالحي المالية.

حياتي هنا باتت تثقل عليَّ كثيراً. ومنذ ستة أشهر لم أقرأ شيئاً روسياً، لم أقرأ كتاباً واحداً ولا جريدة روسية واحدة. ثم هناك العزلة التامة. في الربيع عندما فقدنا صونيا انتقلنا إلى فيفي. ووصلتنا أم آنّا غريغوريفنا. إلا أن فيفي تحطم الأعصاب وهذا أمر معروف لجميع الأطباء، لكنهم لم يحذروني عندما استشرتهم. وفي نهاية مكوثنا في فيفي مرضت أنا وزوجتي. فانتقلنا قبل شهرين إلى ميلانو عبر (نفق) سيمبلون. الطقس هنا أفضل، لكن المعيشة أغلى، والأمطار غزيرة، والضجر قاتل. آنّا غريغوريفنا امرأة صبور، لكنها شديدة الحنين إلى روسيا. وكلانا نبكي على صونيا. حياتنا كئيبة ومتقشفة كما في الدير. طباع آنّا شديدة التأثر وكثيرة الانفعالية. وليس لديها هنا ما يشغلها. أنا أراها حزينة كئيبة، ومع أننا نحب بعضنا بعضاً ربما أكثر مما كنا قبل سنة ونصف، يؤلمني أنها تعيش معي في مثل هذا الدير الكئيب. إنه شيء لا يطاق. الله وحده يعلم ما يمكن أن يحصل فيما بعد. فلو كانت الرواية قد انتهت، على أية حال، لكنت متفرغاً. العودة إلى روسيا يصعب التفكير فيها. فلا نقود لدينا. يعني أنني سأدخل سجن الديون حالما أصل. وهناك أعجز عن العمل. ولن أتحمل السجن بسبب الصرع، ولن أتمكن أن أعمل، فكيف أسدد الديون وعلامَ أعيش؟ ولو منحني الدائنون سنة هادئة واحدة، وهم على مدار ثلاث

سنوات لم يتركوا لي شهراً هادئاً واحداً، لتعهدت بتسديد ديوني إليهم من خلال العمل. ومهما كانت ديوني كبيرة فإنها تشكل قرابة خمس ما دفعته لهم بنتاجي. وقد ارتحلت من أجل العمل. وها هي فكرة «الأبله» تكاد تنفجر. إذا كانت لها أو ستكون ميزة ما فإن المفعول ضئيل، والمفعول (الكبير) ضروري للطبعة الثانية التي كنت قبل بضعة شهور أعول عليها بشكل أعمى، وكان بوسعي أن أكسب منها بعض المال. والآن لا مجال حتى لمجرد التفكير في الطبعة الثانية ما دامت الرواية لم تنجز بعد.

لو وصلتُ إلى روسيا لكنت أعرف بماذا أشتغل وكيف أكسب النقود. فقد كسبتها في حينه على أية حال. أما هنا فأغدو بليداً ضيق الأفق. وأتخلف عن روسيا. لا يوجد هنا هواء روسي ولا روس. وأنا لا أفهم المهاجرين الروس إطلاقاً. إنهم مجانين.

تلك هي أحوالنا، وهذا وضعنا. إلا أننا لا نستطيع المكوث في ميلانو أيضاً: فالعيش غير مريح أبداً، والكآبة شديدة حالكة. ننوي الانتقال إلى فلورنسا بعد شهر، وهناك سأنهي الرواية. لا أزال أستلم نقوداً من كاتكوف. ما أفظع النفقات هنا، على الرغم من تقشفنا الشديد. قريباً، مع إتمام كتابة الرواية، يتوقف طبعاً استلام النقود من كاتكوف. وتأتي المشاغل والهموم من جديد. إلا أن ديني لكاتكوف مع ما استلمته منه في البداية تقلص كثيراً.

لقد تخلفت تماماً عن الحياة عندكم، مع أن فؤادي كله بينكم، ولذا فإن رسائلكم بالنسبة لي نعمة من السماء. (...) (...)

قبيل رسالتك بقليل كنت قد قرأت الكتيب الذي أبلغتني به، وأعترف بأني اشتطت غضباً. فيا لها من وقاحة. بالطبع يمكن أن نبصق عليه. هكذا أردت أن أفعل في البداية، إلا أن ما منعني هو أنني

إذا لم أستنكر سأعطي مبرراً لوجود مثل هذه الكراريس. ولكن أين أستنكر وأحتج؟ في «Nord»؟ أنا لا أكتب جيداً بالفرنسية. وإلى ذلك أريد أن أتقيد باللياقة. أفكر في الذهاب إلى فلورنسا ومراجعة القنصلية الروسية، وهناك أستشيرهم عن كيفية التصرف. بديهي أنني مسافر إلى فلورنسا ليس لهذا الغرض وحده. أنت تقترح عليَّ السفر إلى البندقية التي يمتدحها جميع الأطباء وكل الأدلة السياحية من حيث المصحات. وسأكون مسروراً جداً ولو للترويح عن آنّا غريغوريفنا على الأقل، ولا أدري، ربما سأقوم بذلك، لأن الطريق بالفعل ليس طويلاً. إلا أن الوقت ضيق جداً، هذا أولاً، وثانياً، ستكلفنا السفرة ولو لثلاثة أيام، ولو في الدرجة الثالثة، ما لا يقل عن 100 فرنك. وهذا مبلغ هائل بالنسبة لنا الآن، رغم أننا لا يندر أن نستلم 1000 فرنك من كاتكوف مثلاً. ولكن حالما نستلم يتعين علينا أن نخصص لتكاليف المعيشة في شهر أو شهر ونصف ونسدد الديون التي تتراكم دوماً وننفق على السفر والثياب. ولما كان المستقبل غير مؤمن مادياً فلا بد من التقتير الشديد، والعمل في المقام الأول لإنهاء الرواية والمواظبة ليل نهار، وإلا لن نحصل على نتيجة.

حبذا لو التقيت لامانسكي. وسأكون سعيداً لو قرأت كتاب سامارين، لا سيما وأنني دوماً أفكر في هذه الأمور نفسها. ولكن أين أحصل على الكتاب؟ المشكلة كبيرة. حتى في جنيف التي توجد فيها كتب روسية لا ترى في الأكشاك سوى (رواية تشيرنيشيفسكي) «ما العمل؟» ومختلف قاذورات مغتربينا. ويمكن بالصدفة أن تعثر على مجلد لغوغول أو بوشكين. وليس في تسويق الكتب الروسية في أي مكان لا نظام ولا معنى ولا فكر، بل إن بيعها ظاهرة نادرة. وهنا، في إيطاليا، لا تجد شيئاً. كان بودّي أن أقتني سامارين، ولكن هيهات.

أنا قلق جداً على أهلي (في بطرسبورغ). لم أتمكن من إرسال شيء إلى بافل طول الصيف. ثم إنه هو أيضاً مقصر. لكنني لست زعلاناً منه. ذلك لأنه ما من سبب يجعله يحبني. كثيراً. ولا يمكنني أن أتشدد بشأن أخطائه في الخدمة. فهو صبي مسكين غير متطور، وحيد بلا عون. فكيف لا يقترف الأخطاء؟ لكنني أخشى الأسوأ، وأرغب في مساعدته بأسرع ما يمكن. إميليا فيودوروفنا ملزمة بأن تترك شقتي (المستأجرة) في بيت أنونكين في شهر نوفمبر، لأنني لا أستطيع أن أدفع الإيجار. كل ذلك يقلقني، إلا أن الأهم هو أن أنهي الرواية.

أما عن ديني لك، يا صديقي، فيخجلني حتى مجرد التفكير فيه. وهو يعذبني تحديداً لأنك عاملتني كأخ شقيق، بل ليس كل شقيق يتصرف بهذه الشهامة.

فأنت لديك عائلة أيضاً. على أية حال أنا أستلم نقوداً، وسأدفع لك. وسيبزغ الفجر عليَّ أنا أيضاً. لكن الأهم أني أتشوق إلى روسيا. ففي روسيا ستتحسن أموري. وأظن أن صونيا كانت ستبقى على قيد الحياة لو كنا في روسيا.

آنّا غريغوريفنا تودّك وتفكر فيك وتتحدث عنك بسرور. بلّغ تحياتي وتحياتها الملحة، سألتني اليوم ثلاث مرات هل بلغتك تحياتها؟، إلى زوجتك ووالديك. وتحياتي كذلك لكل من يتذكرني (. . .)

المخلص ف. دوستويفسكي

اكتبْ لي باللّه عليك. وإليك العنوان على أية حال:

Italie, Milan, à M-r Dostoiewsky, poste restante.

134. إلى أبولون مايكوف

فلورنسا، 11 ديسمبر 1868

أسارع في الرد عليك، يا صديقي أبولون نيكولايفيتش، باستعجال حقاً، مع أنني أريد أن أحدثك طويلاً من صميم القلب. تصور ماذا أخذت على عاتقي؟ أعتقد أنني كتبت لك أنني تلكأت في إتمام «الأبله» ولم، ولن، أتمكن من إنجاز الرواية لعدد ديسمبر. وقد أبلغت كاتكوف بذنبي في منتهى الصراحة، أي بمسؤوليتي عن نشر خاتمة الرواية في ملحق (مكلِف) يوزع على المشتركين في العام القادم. إلا أنني قررت الآن العمل على نحو آخر، ولكنني لا أعرف هل ستوافق هيئة تحرير «البشير الروسي» على قراري أم لا. قررت أن أكمل الفصل الرابع والخاتمة في عدد ديسمبر من العام الحالي بشرط أن يتأخر صدور هذا العدد لبعض الوقت. واليوم أبلغت كاتكوف بأن هيئة التحرير ستستلم خاتمة «الأبله» في الـ 15 من يناير حسب تقويمنا. أما الفصول التمهيدية فسأوافيهم بها تباعاً كل خمسة أيام. والقضية أنهم في كل سنة يتأخرون أصلاً في إصدار عدد ديسمبر، بل يصادف أن يصدر عدد يناير للاشتراك الجديد قبل عدد ديسمبر

للاشتراك المنتهي. وبالتالي سيصدر العدد المعني في 20 يناير، أي ببعض التأخير. ولا أدري كيف سيقررون هناك في هيئة التحرير. إلا أنني من اليوم فصاعداً ينبغي أن أكتب وأبعث لهم قرابة 7 ملازم طباعية في 4 أسابيع. وأدركت فجأة أنني قادر على ذلك دون أن أسيء إلى الرواية كثيراً. وإلى ذلك فكل ما بقي من الرواية مسجل بهذا القدر أو ذاك في مسودات، وأنا أعرف كل مفردة فيها عن ظهر قلب. إذا كان هنالك قراء «للأبله» فلربما يدهشون بعض الشيء للخاتمة المباغتة، لكنهم بعد أن يتأملوا قليلاً سيوافقون طبعاً على أن النهاية جاءت كما ينبغي. عموماً الخاتمة من المكونات الموفقة كخاتمة، ناهيك عن المزايا الأخرى الملازمة للرواية ككل. ولكنني عندما أنتهي سأكتب لك كصديق رأيي الشخصي فيها. ذلك، إذن، الموقف الذي أنا فيه. وإلى ذلك تجمعت أربع رسائل عليّ أن أجيب مرسليها، لأنني أنا نفسي، على الأقل، أرغب في الإجابة. وقد يصعب عليك، بالطبع، أن تتصور كيف تنعشني رسائلك هنا. فمنذ شهر مايو لم أقرأ ولا جريدة روسية واحدة، ولا أستلم سوى «البشير الروسي»، فيغدو يوم استلام العدد عيداً لي. على فكرة، كتبت إلى نيكولاي نيكولايفيتش (ستراخوف) أن يبعث لي «الفجر» إلى هنا في فلورنسا (. . .) واستلمت منه رسالة فيها أخبار أدبية كثيرة. أفرحني منها خبر عن مقالة دانيليفسكي «أوروبا وروسيا» (. . .) وأعترف لك بأنني لم أسمع أخبار دانيليفسكي منذ عام 49، لكنني كنت أتذكره وأفكر فيه أحياناً. كان من أنصار فوريه المتحمسين جداً لنظريته. وها هو يتحول من (الاشتراكيين الطوباويين) الفوريويين ويتجه نحو روسيا، ويغدو روسياً من جديد ويستعيد تربته وجوهره. تلك هي مؤشرات الإنسان الواسع الصدر. أما تورغينيف فقد تحوَّل من كاتب روسي إلى

ألماني. وتلك هي مؤشرات الإنسان الخبيث. أنا لا أتفق بالقدر نفسه مع كلمات المرحوم أبولون غريغوريف الذي قال عن بيلينسكي إنه يمكن أن يغدو في الأخير من دعاة السلافية. كلا. ما كان بيلينسكي سيبلغ ذلك. فهو خبيث أجرب. كان شاعراً كبيراً في حينه، لكنه عجز عن مواصلة التطور. وكان سينتهي إلى خدمة إحدى السيدات المحليات، من قبيل هيغت، ليؤدي وظيفة ضابط ارتباط في المسألة النسوية خلال الاجتماعات الجماهيرية، حتى ينسى النطق بالروسية من جهة دون أن يتعلم الألمانية بالتمام من جهة أخرى. هل تعلم من هم الروس الجدد؟ واحدهم كالفلاح المنشق (على الكنيسة) الذي كتبت عنه «البشير الروسي» في عدد يونيو. إنه ليس الإنسان الروسي المرتقب، بل مجرد واحد من روس المستقبل.

هذا الموضوع إذا بدأناه لن ننتهي منه. أريد أن أستشيرك، يا عزيزي، وأطلب نصيحة أخوية: ما العمل؟ أطلب منك وحدك بالطبع. فلا أريد للآخرين أن يطلعوا على أموري العائلية. المسألة أنني بعد شهر أنهي التزاماتي إلى «البشير الروسي». حجم «الأبله» سيكون قرابة 42 ملزمة طباعية. وقد استلمت منهم (. . .) ما يقارب 7000 روبل. أجل، حوالى سبعة آلاف، (. . .) ووفقاً لحساباتي أبقى مديناً للمجلة 1000 روبل. وقد لا يثقل عليهم ذلك، فهم يعرفون أنني سأشتغل بهذا المبلغ. ولكن السؤال كالآتي: بِمَ سأعيش؟ بعد الفراغ من الرواية سأكتفي لشهرين آخرين، وبعد ذلك كيف؟ ما العمل؟ هل أستعين بكاتكوف؟ إذا كانوا ينوون الانتفاع من التعاون معي فسيبعثون لي النقود طبعاً، بناءً على طلبي. لكن أسوأ شيء بالنسبة لي هو أنني لن أعرف بأية صفة أو أساس سأتعاون معهم؟ ككاتب مدين لهيئة التحرير، هذا مفهوم. لكنهم لا يجيبون.

حتى أنني لا أعرف ما إذا كانوا مرتاحين لروايتي أم لا، وهل يرغبون في التعاون معي (لاحقاً) أم لا؟ وهذا أمر من المهم أن أعرفه حتى لمجرد الحسابات المالية.

الدائنون الملاعين سيخنقونني تماماً. لقد أخطأت بسفري إلى الخارج، ربما كان الأفضل أن أقبع في سجن الديون. لعلي أستطيع أن أتفق معهم من السجن. لكنني الآن لا أستطيع لعدم وجودي هناك.

المهم، بهذا الخصوص، أن في ذهني إصدارين أو حتى ثلاثة لا تحتاج سوى إلى عزم ومواظبة ميكانيكية على الكتابة. ومن شأنها، دون ريب، أن تعود عليَّ بالنقود. ففي السابق كنت أنجح أحياناً من هذه الناحية. في ذهني بهذا المعنى رواية ضخمة بعنوان «الإلحاد». باللّه عليك فليبق هذا سراً بيننا. ولكن عليّ، قبل الشروع بكتابتها، أن أقرأ ما يقارب مكتبة كاملة من مؤلفات الملحدين والكاثوليك والأرثوذكس. وستستغرق ما لا يقل عن عامين حتى لو توفرت كل مستلزمات العمل. الشخصية موجودة: روسي من مجتمعنا، متقدم في السن، قليل التعليم ولكنه ليس أمياً، ولا تعوزه الرتب. إلا أنه، وهو يتقدم في السن، فقد إيمانه باللّه. وكان طول عمره في الخدمة لا يخرج عن مسارها، ولم يتميز بشيء حتى الخامسة والأربعين (. . .) فقدان الإيمان باللّه يؤثر فيه تأثيراً عظيماً. مسرح الأحداث في الرواية واسع عريض. الرجل يتوغل متسكعاً بين الأجيال الحديثة، بين الملحدين من السلافيين والأوروبيين، بين الطائفيين الروس المتعصبين والمعتكفين في البراري، بين القساوسة المتعبدين، ويقع في شرك أحد الجزويتيين وأحد المروجين البولونديين ويتخلص منه هابطاً إلى أعماق الخوارج اليسوعيين، فيستعيد في الأخير ولاءه للسيد المسيح وللتربة الروسية، ولاءه ليسوع الروسي ولإله روسيا. باللّه عليك لا تخبر

أحداً، فبالنسبة لي كتابة هذه الرواية الأخيرة ضرورة قصوى لأعبر من خلالها عن كل ما أريد. آه يا صديقي، مفاهيمي عن الواقع والواقعية تختلف تماماً عن مفاهيم واقعيينا ونقادنا. مثاليتي أكثر واقعية من واقعيتهم. يا إلهي، لو تحدثنا بذكاء عما عانيناه نحن الروس جميعاً في تطورنا الروحي خلال السنوات العشر الأخيرة لزعق الواقعيون صائحين: هذا من بنات الخيال. بينما هو واقعي أصلي لا خيال فيه. إنه الواقعية بعينها، ولكن بمزيد من الغوص في الأعماق، في حين تطفو واقعيتهم على سطح المضاحل (. . .)

يا عزيزي، لا تسخر من اعتدادي بالنفس. فأنا مثل (الرسول) بولص: لا أحد يمدحني، فأمدح نفسي.

ولكن الآن ينبغي أن نعيش. ولن أعرض «الإلحاد» للبيع. علماً بأن لدي عن الكاثوليكية والجزويتية ما أقوله بالمقارنة مع الأرثوذكسية. كما لدي فكرة قصة طويلة[1] بـ 12 ملزمة تقريباً. وهي تستهويني. وعندي أيضاً فكرة أخرى[2]. بمَ عليّ أن أبدأ، وعلى من أعرض مؤلفاتي؟ على «الفجر»؟ أنا أطلب الأجر مقدماً. ومن المستبعد أن يدفع أصحاب «الفجر» مقدماً. بالطبع قد لا أستغني عن مساعدتهم، ولكن ينبغي أن أبعث إليهم مقالة جاهزة. وهذه مسألة صعبة. فبمَ أعيش وأنا أكتب المقالة؟ (. . .) خاتمة «الأبله» ستكون مؤثرة، لا أدري؟ ولكني إذا عرضت الرواية بنفسي على الناشرين لطبعة ثانية أخسر نصف الأجر. المفروض أن يأتوا هم إليّ، كما كان يحصل دوماً، فهل سيأتون؟ أنا لا علم لي بنجاح الرواية أو فشلها. على أية حال كل شيء يتوقف على خاتمتها.

أنا، في كل الأحوال، أنشد نصيحتك، يا صديقي. أنتظر النصيحة الرئيسية منك عندما تقرأ خاتمة «الأبله». اعتباراً من يناير

سأكون حراً طليقاً. ولا يجوز في مثل وضعي أن أجلس مكتوف الأيدي. يجب أن أعيش وأسدد الديون. اكتبْ لي، يا صديقي، كل شيء عن «الفجر»، فيما بيننا فقط، ما هي إمكانياتها المالية، وهل تستطيع أن تدفع مقدماً بصورة عامة، ولي بصورة خاصة؟ أعترف لك أن مطالبة «الفجر» بالدفع المقدم يحتاج إلى شجاعة، وترك «البشير الروسي» ولو مؤقتاً فيه إحراج، وخصوصاً إذا بقيت مديناً للمجلة. يا ليتني أعرف نظرتهم الشخصية إلى التعاون معي. أعرفها طبعاً ما داموا يدفعون لي. على أية حال اكتبْ لي شيئاً عن ذلك أيضاً، عن كل شيء. وهل يستحسن تحمُّل عناء المبادرة والدخول في تعاون استثنائي، لا سيما وأنهم ينظرون إلى هذا التعاون ببرود؟ لقد تخلفت عنكم كثيراً، ولا أعرف شيئاً. على أية حال فليبقَ كل ما كتبته إليك، وأنا أطلب النصح، سراً بيننا.

أشكرك كثيراً، يا عزيزي، على مساعدتك في تعيين بافل (. . .)، ولدي رجاء إليك من جديد: طلبت تواً من كاتكوف أن يبعث إليك 100 روبل، وأرجوك أن تعطيها إلى بافل وإميليا فيودوروفنا مناصفة. أرجوك أن تفعل ذلك، كما هو دوماً موقفك الطيب تجاهي. (عائلة المرحوم أخي غاضبة عليَّ لتصورها أن تصرفاتي أدت إلى إفلاس شركته وأربكت عمل المجلة) والحقيقة أن من أسباب احتجاب المجلة تصور القراء أن فيودور دوستويفسكي هو الذي توفي وليس ميخائيل. وكانوا دوماً يخلطون بيننا. وقد وقعت كل الديون على كاهلي (كما تعلم) (. . .) (. . .).

فلورنسا جميلة، لكنها شديدة الرطوبة. ومع ذلك الورود لا تزال متفتحة حتى الآن في الهواء الطلق في متنزه بوبولي. وما أروع المجوهرات في المعارض! يا إلهي، كنت في عام 63 قد تطلعت في

«العذراء جالسة»[3] طوال أسبوع، ولم أر (عمق أبعادها) إلا الآن. وبالإضافة إليها ما أكثر الألوهيات هناك. لكنني أرجأت مشاهدتها إلى ما بعد الفراغ من الرواية. وانزويت في عزلتي. قصيدتك «أمام الكنيسة» منقطعة النظير. من أين لك بهذه المفردات؟ إنها من أفضل وأروع قصائدك (. . .).

آه، ما أكثر ما أريد أن أقوله لك. اكتبْ لي على العنوان:

Italie, Florence, à M-r Th. Dostoiewsky, poste restante

آنّا غريغوريفنا تبعث تحياتها القلبية لك ولآنّا إيفانوفنا. الضجر ينتابها أكثر مني، فأنا، على الأقل، مشغول كثيراً.

ملاحظة: قد لا تصل إليك الـ 100 روبل من هيئة تحرير «البشير الروسي».

ملاحظة: كتبت إلى ستراخوف على عنوان مجلة «الفجر»، فهل ستصل الرسالة؟

أعانقك.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) الأرجح أن المقصود قصة «الزوج الأبدي».
(2) لعل المقصود فكرة رواية «الزواج».
(3) لوحة روفائيل «مادونا ديلا سيديا».

135. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 12 ديسمبر 1868

لقد أفرحتني كثيراً، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، برسالتك أولاً، وثانياً بالأخبار الطيبة التي فيها[1]. أنا لم أجب على سالتك الأولى لسبب بسيط هو أنك لم تكتب لي عنوانك (ولكنني أعتز برسائلك وبرسائل مايكوف). فهي، وأقول حرفياً، نعمة من السماء. أنا الآن في فلورنسا منذ أسبوعين، وأعتقد أني سأمكث فيها طويلاً، كل الشتاء، في أقل تقدير، وجزءاً من الربيع. هل تتذكر كيف كنا نتنادم في فلورنسا في الأمسيات؟ وكنت أنت كل مرة أكثر مني ميلاً إلى الاحتياط، تعدّ لنفسك قنينتين للأمسية وأنا قنينة واحدة، وعندما أفرغ من قنينتي أنتقل إلى قنينتك. هذا بالطبع شيء لا يستحق التباهي. ومع ذلك أمضينا تلك الأيام الخمسة في فلورنسا بشكل لا بأس به. فلورنسا الآن أكثر صخباً وبرقشة نسبياً، والزحام في شوارعها رهيب. الكثيرون يؤمّونها كالعاصمة. وتكاليف المعيشة أغلى بكثير من السابق. لكنها أرخص كثيراً مما في بطرسبورغ. ومع ذلك كل أمنياتي تتجه نحوكم، نحو روسيا وبطرسبورغ. ولكن يبدو أن اللّه لا يمنح



نيكولاي ستراخوف

قرنين للبقرة الناطحة. ولكن، فلنتق اللّه، أية بقرة ناطحة أنا؟ ربما أنا بقرة غبية في الكثير من الأمور، هذا صحيح، وإذا كنت أنطح فذلك من قبيل الصدفة.

من الصحيح تماماً القول إن الأدب يكاد يتوقف. بل هو متوقف إنْ شئتَ. ومن زمان. ذلك، يا صديقي نيكولاي نيكولايفيتش، بحسب وجهة النظر. في اعتقادي إذا نضبت كلمتنا الروسية الأصيلة يعني أن الأدب توقف، وإذا غاب العباقرة يعني توقف. لقد توقف الأدب بوفاة غوغول. وأنا أريد ما هو لنا، خصوصيتنا، بأسرع ما يمكن. أنت تحترم ليف تولستوي كثيراً، هذا ما أراه، وأنا موافق أننا نجد الخصوصية عنده. ولكن ذلك قليل. على أية حال، باعتقادي، أنه تمكن أكثر من أي واحد منا من التعبير عن خصوصيته. ولذا يستحق أن نتكلم عنه.

ولكن فلنؤجل ذلك. لماذا تكتب في رسالتك أن لا نعلق الآمال عليك؟ كلا، كلامك هذا ليس له ما يبرره جدياً. وإذا عافت نفسك

في الأخير الكتابة المتواصلة وتحبير المقالات حسب الطلب فنحن جميعاً في مثل حالك. هذه الطلبيات والمواعيد تعكر المزاج وتخفف الحماس، وخصوصاً مع التقدم في السن. ولكن حافظ على أعصابك، فإنك لن تفقد أبداً لب ولعك وإندفاعك. طيب، لا تكتب 12 مقالة في العام، اكتبْ ثلاثاً فقط. وستكتبها بارتياح، وخصوصاً إذا تحمست لها. يكفي أن تكون هناك مقالة أساسية واحدة، وليس اثنتان أو ثلاث، لكي تدفع المجلة، الجديدة بخاصة، وتلفت الأنظار إليها. إلا أن المهم هو التحرير. التحرير شيء أساسي، إنه عين المجلة ويدها وتوجهها المتواصل. والآن، وخصوصاً الآن، يشغل التحرير المرتبة الرئيسية الأولى. كلا، لا تقنعني بعكس ما أتوقعه لمجلة «الفجر». فمن رسائل أبولون نيكولايفيتش وحتى من رسالتك أرى أن لدى المجلة، من حسن الحظ، كثيراً مما هو شبابي ساخن، ويتحلق حولها العديد من الأشخاص الراغبين بالمساهمة فيها. (. . .)

والآن، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، أنا أنتظر «الفجر». باللّه عليك أَرسلْ لي نسخة إلى هنا في فلورنسا من دون إبطاء. (. . .) أخبِرني، إن لم يكن ذلك سراً، بعدد المشتركين في المجلة (. . .) بعد شهر آمل أن أصفي الحساب مع «البشير الروسي» نهائياً، وبالمقابل سأكدّ وأكدح خلال هذا الشهر. من حسن الحظ أن طقس فلورنسا لا يزال دافئاً، مع أنه رطب. أما في ميلانو فلم تبق خرقة إلا وتدفأتُ بها وأنا قابع في البيت. ناهيك عن سويسرا التي هي (من هذه الناحية) مثل لبلانديا[2].

أجل، يا صديقي، بودّي أن أتحدث إليك طويلاً. فبعد مضيّ عامين أعتقد حتى أراؤنا ومعتقداتنا لا بد أن تكون قد تغيرت جزئياً[3].

ما كتبته لي عن دانيليفسكي يهمني جداً. فهو لا بد أن يكون ذلك الاشتراكي الفوريوي المستميت، والوضعي الطبيعي الذي كنت أعرفه في حينه. عفارم عليه طالما استطاع أن يتحول إلى روسي، طليعي كما تقول، بعد أن كان اشتراكياً طوباوياً (من مريدي فوريه). أنا أتلهف إلى مقالته كالجائع إلى الرغيف.

هكذا إذن، لم يمت اتجاهنا وعملنا المشترك. «الوقت» و«العصر» عادتا بثمارهما مع ذلك. وبدأ العمل الجديد من حيث توقفنا آنذاك. هذا مبعث سرور عظيم. ولعل من المجدي الكتابة خلال العام الحالي عن أبولون غريغورييف، لا أعني سيرة حياته، بل دوره الأدبي على العموم.

أبعث هذه الرسالة إلى هيئة تحرير «الفجر» لا على التعيين، وآمل أن تصل إليك. عنواني في فلورنسا: (. . .)

إلى اللقاء. ذكّرتني زوجتي الآن أن أبلغك تحياتها. ليتك تعلم ما أكثر ما نتذكركم جميعاً. فنحن وحدنا، وحالما أنجز العمل بعون اللّه لربما أعود إلى بطرسبورغ في العام القادم إن شاء اللّه. وستكون تلك فرحة عظيمة طال انتظاري لها. أما الآن فإلى اللقاء.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) كتب الناقد ستراخوف عن نجاح مجلة «الفجر» التي التفَّ حولها مريدوه ومريدو دوستويفسكي.

(2) بلاد قطبية غير موجودة على الخارطة رسمياً، أراضيها موزعة بين فنلندة والنرويج والسويد وروسيا.

(3) الخلافات الفكرية بين ستراخوف ودوستويفسكي كانت قائمة في الماضي أيضاً.

136. إلى صوفيا إيفانوفا

فلورنسا، 25 يناير 1869

صديقتي العزيزة الطيبة المحترمة صونيا!

لم أجبك رأساً على رسالتك غير المؤرخة وأنّبني ضميري أشد تأنيب، فأنا أحبك حباً جماً. لكن الذنب ليس ذنبي. أما الآن فسأكون مسؤولاً عن انتظام المراسلات، وسأجيبك في اليوم نفسه. ولما كانت كل رسالة من روسيا حدثاً كبيراً يهمني، بأحلى شكل إذا كانت الرسالة منك، فاكتبي أكثر إذا كنت تحبينني. لم أرد عليك طويلاً لأنني تركت كل شيء ولم أجب حتى على أهم الرسائل لحين الفراغ من رواية («الأبله»). والآن أنهيتها. عكفت على كتابة الفصول الأخيرة ليل نهار بكآبة وقلق شديد (...) وفي تلك الأثناء داهمتني نوبتان من الصرع. فتأخرت عشرة أيام عن موعد التسليم. ويمكنك أن تتصوري مدى قلقي (وشعوري بغضب هيئة التحرير عليّ)، وأنا في أمسّ الحاجة إلى النقود في تلك اللحظات بالذات. فطلبت من كاتكوف أن يرسلها لي.

الطقس هنا في فلورنسا، بالنسبة لي، ربما أسوأ من ميلانو وفيفَي،

ونوبات الصرع أكثر. حصلت لي نوبتان متواليتان في ستة أيام، ما جعلني أتأخر في تسليم الرواية تلك الأيام العشرة. وإلى ذلك المطر كثير في فلورنسا، لكنها تبدو كالجنة عندما تشرق الشمس. فلا أفضل من هذه السماء والهواء والنور. طوال أسبوعين عمَّ بردٌ غير شديد، إلا أن غياب وسائل التدفئة الجيدة في الشقق جعلنا نرتجف طوال الأسبوعين كالفئران في جحورها. ولكنني الآن على الأقل صفيت حسابي وتفرغت، وكان هذا العمل طوال عام قد هد حيلي لدرجة شتت أفكاري. والمستقبل لغز من الألغاز، لا أدري ماذا سأفعل، في حين لا بد من القيام بشيء. بعد ثلاثة أشهر يمضي عامان على مكوثنا في الخارج. يخيل إليَّ أن ذلك أسوأ من المنفى في سيبيريا. أقول هذا بجد ومن دون مبالغة. أنا لا أفهم الروس المغتربين في الخارج. إذا كانت هنا في فلورنسا شمس كهذه وسماء ومعجزات الفن الفعلية غير المسبوقة والتي تفوق التصور بالمعنى الحرفي للكلمة ففي سيبيريا عندما أنهيت الأشغال الشاقة كانت هناك مزايا أخرى غير متوفرة هنا، وأهمها الروس والوطن، ومن دون ذلك لا أستطيع أن أعيش.

ولعلك ستشعرين بنفسك في زمن ما وتتأكدين أنني لا أبالغ من أجل بديع الكلام. ومع ذلك فإن مصيري القريب غير معروف. حساباتي الإيجابية الأولى انفجرت جزئياً في الحال الحاضر. أقول حساباتي الإيجابية وأدرك بالطبع أن كلاً منها يقوم على المخاطرة ويتوقف على الملابسات، شأنه شأن حسابات أي رجل بلا مال يعيش بعرق جبينه. كانت حساباتي تلك تتوقع أن أتمكن من خلال الطبعة الثانية للرواية أن أدبر حالي وأعود إلى روسيا، لكنني لست راضياً على الرواية، فهي لم تعبّر عن عشر معشار ما أردت أن أعبّر عنه، ومع ذلك لا أتخلى عنها، بل أحب فكرتها التي لم تتجسد حتى الآن.

الرواية، على أية حال، غير مؤثرة بالنسبة للجمهور، وطبعتها الثانية حتى وإن صدرت ستعود عليَّ بمبلغ زهيد لن يمكنني من فعل شيء. على فكرة أنا، بوجودي هنا، لا أعرف شيئاً عن رأي جمهور القراء في روسيا بشأن الرواية. في البداية بعثوا لي مرة أو مرتين مستلات من بعض الصحف تمتدحها كثيراً. إلا أن الآراء خفتت الآن. والأسوأ من ذلك أنني لا أعرف رأي ناشري «البشير الروسي» أنفسهم فيها. كانوا يبعثون لي النقود استجابة لأول طلب مني وحتى الآونة الأخيرة، ما جعلني استشف من ذلك حسن ظنهم بالرواية. ولكنني قد أكون مخطئاً في هذا التقدير. أبلغني مايكوف وستراخوف من بطرسبورغ أخيراً بصدور مجلة جديدة هي «الفجر» ومحررها ستراخوف نفسه. وزوداني بالعدد الأول منها وطلبا أن أساهم فيها. ووعدتهما، لكنني مرتبط بـ «البشير الروسي» والتعاون المتواصل معها. التعاون مع جهة واحدة هو الأفضل، خاصة وأن كاتكوف أعطاني مقدماً ثلاثة آلاف قبل أن أغادر روسيا. صحيح أنني، وفق الحسابات، لا أزال مديناً لمجلته بمبلغ كبير، لأن ما استلمته منها، مع الثلاثة آلاف السابقة، بلغ 7 آلاف، وهذا وحده سبب وجيه لمشاركتي في «البشير». كل شيء الآن يتوقف على رد هذه المجلة على طلبي بإرسال نقود. ومع ذلك تبقى ظروفي غير معروفة. ولا بد لي أن أعود حتماً إلى روسيا، فهنا سأفقد حتى إمكانية الكتابة لعدم توفر المادة الدائمية اللازمة لها، وأقصد الروس والواقع الروسي الذي هو منبع الأفكار (. . .) في ذهني الآن فكرة رواية ضخمة سيكون لها تأثيرها حتى وإن أخفقت، نظراً (لأهمية) موضوعها، وهو الإلحاد. إنها ليست محاولة لفضح المعتقدات الراهنة. بل هي شيء آخر، ملحمة حقيقية. ستجتذب القارئ عفوياً. وهي تتطلب دراسات تمهيدية واسعة. اثنان أو ثلاثة

من شخوص الرواية مرتسمون في ذهني بمنتهى الوضوح. ومنهم، على فكرة، قسيس كاثوليكي متحمس، على غرار (المبشر فرانسيسك كسافير) St. François Xavier. إلا أن إمكانية كتابتها هنا غير متوفرة. ومن الممكن بيعها في طبعة ثانية والحصول على مبلغ كبير، ولكنْ متى؟ بعد عامين. بالمناسبة لا تكشفي عن هذا الموضوع لأحد. وسأضطر الآن لكتابة شيء آخر[1] لأعيش. يا للحقارة. لا بد للملابسات أن تتحول على نحو آخر. ولكن كيف تتحول؟

أنت على حق تماماً، يا صديقتي، عندما تقولين إنني أستطيع الحصول على النقود في روسيا أكثر وأسرع وأسهل بمرتين. أذكر لك على سبيل المثال أن في ذهني (بهذا الخصوص) فكرتين بشأن طبعتين، إحداهما تتطلب جهدي كله، بمعنى أنها تمنعني من كتابة رواية، لكنها توفر لي مبلغاً مرموقاً جداً. وأنا لا أشك في ذلك. أما الفكرة الثانية فهي تجميعية تقريباً تتلخص في عمل ميكانيكي فقط، وأعني إصدار حولية سنوية ضخمة في قرابة 60 ملزمة طباعية ببنط صغير، تكون بمثابة كتاب ضروري مفيد يلازم كل منزل، على أن توزع بعدد كبير من النسخ وتظهر في شهر يناير من كل عام. ولن أطلع أحداً على هذه الفكرة، لأنها صائبة جداً وقيمة تماماً، وربحها واضح للعيان. عملي في الحولية سيقتصر على المراجعة والتحرير[2]. صحيح أن المراجعة ينبغي أن تقوم على فكرة وعلى دراسة مستفيضة للموضوع. إلا أن هذا العمل السنوي ليس من شأنه أن يعيقني عن كتابة الرواية. وطالما أنني سأكون بحاجة إلى موظفين فقد اخترتك قبل غيرك لتعملي في الحولية، بصفة مترجمة أيضاً، ليتم توزيع الأرباح بالتناسق، وأتعهد لك بأن تستلمي أكثر مما تستلمين الآن (في «البشير») بعشر مرات على الأقل، أو تستلمي على قدر عملك.

(. . .) (عودتي إلى روسيا تتطلب تسديد 4000 روبل للدائنين واعتماد 3000 أخرى للمعيشة في السنة الأولى). لا بد أن تحل كل المشاكل، وإلا سأموت غماً وكمداً. آنّا غريغوريفنا حزينة أيضاً. وهي الأن حامل من جديد (. . .).

اليوم رأيتكم في المنام جميعاً، والمرحوم ألكسندر بافلوفيتش (. . .)

عندما أقرأ رسائلك، يا عزيزتي صونيا، أشعر وكأنني أتكلم معك وجهاً لوجه. لهجة رسائلك وحديثك المتكامل فيهما الكثير من التأمل والقليل من الإسهاب.(. . .) اكتبي لي أكثر وبمزيد من التفصيل عن أموركم العائلية. وأنا أيضاً سأكتب لك بالتفصيل. فهذا سيكون أفضل على أية حال. سأحاول العودة إلى روسيا هذا العام(3) مهما كلف الأمر. أعانقك بحرارة وأعانق الوالدة مع الجميع. وإذا التقينا لن نفترق. قبلاتي إلى ماسينكا وجميع الأطفال. وتحياتي الخالصة إلى يلينا بافلوفنا، وكذلك ماريا سيرغييفنا. اكتبي لي تفصيلاً عن مغامراتك وأعمالك في «البشير الروسي». لوبيموف يلعب (هناك) دوراً كبيراً. إذا ترسخت علاقاتي مع «البشير» فسأكتب إلى كاتكوف عنك. فلقد وعدتك بالكثير ولم أفِ بوعودي. الظروف منعتني. والآن أعانقك مرة أخرى.

المخلص من صميم القلب

فيودور دوستويفسكي

---

(1) ألَّف دوستويفسكي آنذاك قصته الطويلة «الزوج الأبدي» لمجلة «الفجر».

(2) هذا المشروع لم يتحقق.

(3) لم يتمكن دوستويفسكي من العودة إلى روسيا إلا في صيف عام 1871.

137. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 26 فبراير 1869

كلما هممتُ بالرد على رسالتك الودية المثيرة، يا عزيزي المحترم نيكولاي نيكولايفيتش، أجد نفسي مضطراً إلى التأجيل. والآن فقط استطعت أن أحقق رغبتي، بعد أن أجبت عليك عدة مرات غيابياً، وكل مرة أضيف شيئاً إلى الرسالة التي في ذهني، ولو سجلت ذلك كله على الورق لاحتجت، على ما أظن، إلى مجلد كامل. تأخرت في الرد عليك لتدهور حالتي الصحية في البداية، حيث كنت أنتظر أن يصفو ذهني بعد نوبة الصرع، ثم كنت أنت مذنباً جزئياً في إرجاء الرد عليك، فقد تصورتُ من رسالتك أن «الفجر» ستصدر بعد أيام. لكنها تأخرت كثيراً بالمقارنة مع الشهر الأول. كنت أريد طول الوقت أن أطلع على العدد الثاني لأعرض عليك حينئذٍ كل انطباعاتي. لأنني متأثر لذلك كله. ومهما يكن من أمر سأحاول الآن الكتابة في شيء من الانتظام.

أولاً: المضمون الرئيسي لانطباعاتي عن «الفجر». المجلة بالنسبة لي ظاهرة بهيجة وضرورية. هذا بالنسبة لي، لكنها بالنسبة للكثيرين

تطابق في الحال الحاضر، وبكل دقة، الرأي الذي قرأته عنها قبل أيام في «الصوت»، الجريدة الروسية الوحيدة التي نستلمها هنا. وهو التعبير التام عن رأي الوسط الروتيني، أي الأكثرية. المقالة مكتوبة بعداء سافر، وهي مقالة تافهة لا تستحق أن نشير إليها لولا أنها بدت لي، من خلال مؤشر واحد، مثيرة للغاية. ذلك لأن كاتبها فوَّت مغزى المجلة، ولو كان قد فهمه ولم يفوته لسخر منه. فهو يتساءل متحيراً: ما سبب ظهور هذه المجلة وما الغرض منها؟ بمعنى ما الجديد الذي جاءت به؟ ولعل ذلك ما ستتساءل عنه الأكثرية. (. . .) وأنت، مثلي، بلا شك تؤمن بأن نجاح أية فكرة جديدة يتوقف على الأقلية، وهي ستكون إلى جانبكم رغم الأخطاء والهفوات التي يمكن أن تقترفها المجلة على ما أظن. هذه الأقلية ستتقوى وترسخ أقدامها في نهاية العام على الأرجح. ذلك لأن لدى المجلة فكرة لا بد من تنميتها (. . .)، وهي فكرة صعبة وحساسة. وأنت تعرف ذلك. وسوف ينعتونكم بسببها بالتخلف والرجعية، في حين أنها الفكرة التقدمية والليبرالية الوحيدة في الواقع بالنسبة لنا وفي زماننا هذا. وعندما تشرحون هذه الفكرة بالتمام والكمال يتبعكم الجميع. وحتى ذلك الحين ترى الأكثرية الروتينية في القديم المتخلف ليبرالية وفكراً جديداً. ولعل «مذكرات الوطن» و«القضية» تعتبر الأكثر تقدمية. أنت تعرف ذلك حق المعرفة، والأهم أن المستقبل حليفكم. ولكنْ هل تعرف ما أخشاه؟ أخشى أنك والكثيرين منكم سترتعبون من حجم العمل وتتركون هذه القضية الجليلة. آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، هذه الأعمال كبيرة حقاً وتتطلب قدراً من الثقة والمثابرة لدرجة لن تعرفوها تماماً إلا بعد وقت طويل. هذا ما يخيل إليّ. أنا نفسي لم أكن أعرف سوى طرف منها عندما شاركت مع أخي في التحرير. إلا

أن «الوقت» و«العصر»، كما تعلم، لم تصلا في التعبير عن فكرتهما إلى هذا الحد من المصارحة والشفافية، فكانتا في معظم الأحايين تتمسكان بالوسطية، وخصوصاً في البداية. بينما بدأتم أنتم رأساً من القمة. الأمر أصعب عليكم، ولذا ينبغي تثبيت الأقدام بمزيد من المتانة.

خلال العامين أو الثلاثة الأخيرة من صمتك المطبق تقريباً كسبت كثيراً، يا نيكولاي نيكولايفيتش. هذا هو رأيي القائم على كتابك المسلسل «الفقر» ومقالتك في «الفجر». كنتُ دوماً معجباً بوضوح إنشائك وتواتره المنطقي، إلا أنك الآن، في اعتقادي، أقوى مما كنت بما لا يقاس. ويؤسفني أنك بدأت «الفجر» ليس «بالفقر»، بمعنى أنك نشرت «الفقر» قبل «الفجر». (. . .). على فكرة، هل لاحظت في النقد الروسي عندنا أن كل ناقد رائع، من أمثال بيلينسكي وغريغوريف، يظهر في مضمار الأدب كأنما بالاعتماد على كاتب طليعي، بمعنى أنه يكرس نشاطه لتوضيح نتاج ذلك الكاتب ويعبّر طول عمره عن أفكاره بصيغة تفسير لنصوص الكاتب المعني. كان ذلك يجري بسذاجة وكأنما بالضرورة. أريد أن أقول إن الناقد عندنا لا يحقق ذاته إلا بالظهور متأبطاً يد الكاتب الذي يعجبه. بيلينسكي أعلن عن نفسه ليس بإعادة النظر في الأدب وأعلامه، وليس حتى بمقاله (الشهير) عن بوشكين، وإنما بالاعتماد على غوغول الذي كان معجباً به منذ الصبا. فيما ظهر غريغوريف وهو يحلل نتاج أوستروفسكي ويدافع عنه. وأنت تتعاطف دوماً مع ليف تولستوي، منذ أن عرفتك. صحيح أنني عندما قرأت مقالتك في «الفجر» كان الانطباع الأول عنها أنها ضرورية وما كان لك، لكي تعبّر عن نفسك على قدر الإمكان، إلا أن تبدأ من ليف تولستوي. (. . .) وما كتبته في الموضع المخصص

لمعركة بورودينو إنما يعبّر عن جوهر فكرة تولستوي وجوهر فكرتك عن تولستوي (. . .) إلا أنني لا أوافقك في بعض التفاصيل. طبيعي أننا أثناء اللقاء لن نتكلم بشكل المراسلات. فأنا على أية حال أعتبرك الممثل الوحيد عندنا للدراسات النقدية الراهنة الذي ينتظره المستقبل. ولكن، هل تعلم أنني قرأت رسالتك بشيء من القلق؟ لاحظت من لهجتها أنك مشغول البال وفي قلق شديد. كما أخشى عليك لأنك غير متعود على المواظبة والعمل العاجل. ينبغي لك أن تكتب ثلاث أو أربع مقالات مطولة في العام، وأمامك الكثير مما ينبغي لك أن توضحه. بينما أنت ضعيف المعنويات والمقالة الصغيرة تهزك كالمقالة المطولة. ويبدو أنك في المجلة الشخص الأول الملزم بتوضيح فكرتها. ولن تتقدم المجلة من دونك. أقول هذا الكلام لك وحدك. وهكذا لا بد لك، يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن تقوم بمأثرة شاقة وطويلة الأمد من دون التفات إلى الصعوبات (. . .) ولا حق لك في التنصل عن القضية. فأنا، حينئذٍ، أول من يلومك.

والآن أحدثك باختصار عن باقي الانطباعات التي تركتها المجلة في نفسي. أنت تعرف ثنائي عليها. فلديها فكرة ولها مستقبل.(. . .) لكنني أنتقل إلى ما لا يبعث السرور في انطباعاتي. المجلة صغيرة الحجم ومقترة حتى في شكلها الخارجي. صفحات رواية بيسيمسكي الأغلى كلفة على الناشر مطبوعة بكلمات متباعدة وببنط عريض لم أر مثله في السابق. مقالة دانيليفسكي التي هي من المقالات الأساسية في توضيح فكرة المجلة مطبوعة ببنط صغير جداً، سيظهر تأثيره السلبي فيما بعد(. . .) المقالات قليلة. برأيي كان ينبغي نشر مقالتين أخريين. ليس في المجلة سياسة يومية ملحة ولا مقالة نقدية تهكمية لاذعة. استعراض الأحداث السياسية الشهري ضروري كما في

الصحيفة اليومية، وخصوصاً للجمهور الروسي. ثم إن الفترة ساخنة الآن. (يمكن العثور على محلل سياسي جيد، فيما يندر وجود كاتب جيد للمقالات التهكمية). كل الموجودين هم من أمثال مينيايف وسالتيكوف (شيدرين). على فكرة، من كتب المقالة التهكمية عن المسرح؟ إنها مقالة لطيفة جداً ودقيقة.

أنتم تتحاشون المجادلات والمناظرات؟ عبثاً تفعلون. المجادلات وسيلة ملائمة جداً لتوضيح الفكرة. والجمهور عندنا يحب المجادلات كثيراً. بيلينسكي، مثلاً، كتب كل مقالاته بصيغة المجادلة (. . .) المجادلة تضفي على المقالة هالة الضرورة الملحّة وتخلب ألباب القراء.

حالما زاد البريد رسوم الطرود قرأت في «الصوت» إعلان «الفجر»عن زيادة بدل الاشتراك. هذا حق، لكن المشتركين سيطالبون المجلة (بتحسين الأداء). آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، المجلة في عامها الأول يجب أن لا تبخل بالجهود (لهذا الغرض).

أنتظر بفارغ الصبر بقية ثلاث مقالات، وخصوصاً مقالتك ومقالة دانيليفسكي. ولا يمكنني الآن أن أقول شيئاً عن رواية بيسيمسكي، ينبغي أن أقرأ بقيتها. عموماً عندكم بهذا الخصوص (رواية «رايسكي». التي كنت أعرف سابقاً أنها تافهة. أما قصة تورغينيف[1] التي قرأتها في «البشير الروسي» فهي تفاهة ما أنزل اللّه بها من سلطان. وبناءً على الجزء الأول من رواية بيسيمسكي أستنتج أنه لا بد من وجود أشياء رائعة في باقي أجزائها.

أشكرك كثيراً، يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب المحترم، على اهتمامك بي. أنا في صحة جيدة كالسابق، بمعنى أن نوبات الصرع أخف مما في بطرسبورغ. في الآونة الأخيرة، قبل شهر ونصف، كنت

مشغولاً جداً بخاتمة «الأبله». اكتبْ لي، كما وعدت، عن رأيك فيها، فأنا أنتظره بتعطش شديد. لدي وجهة نظر خصوصية عن الواقع في الفن. فما تنعته الأغلبية بالخيال الاستثنائي تقريباً إنما يشكل بالنسبة لي أحياناً جوهر الواقع. فإن عادية الظواهر والنظرة الرسمية إليها لا تمتّان، في اعتقادي، بصلة إلى الواقعية، بل على العكس. في كل عدد من الجرائد تجد تقارير عن الوقائع الفعلية، حتى أكثرها غرابة، فيما يعتبرها كتّابنا خيالية، بل وهم لا يعالجونها، على الرغم من أنها هي الواقع بعينه، لأنها وقائع حقيقية. فمن يلتفت إليها ويوضحها ويسجلها؟ إنها أحداث اللحظة، أحداث اليوم، كل يوم، وليست ظواهر استثنائية. ماذا سيحصل إذا لم يتجاوز عمق الفكرة عند فنّانينا في تصويرهم عمق الفكرة، مثلاً، في (رواية) غونتشاروف «رايسكي»؟ من هو رايسكي يا ترى؟ إنه صورة مكتوبة بأسلوب رسمي لخصال روسية مزيفة. يبدأ الرجل بكل شيء من الأشياء الكبيرة ولا يستطيع أن يحل أصغر الأمور. إنه يمثل القديم، يمثل فكرة خاوية متهرئة، وغير صحيحة إطلاقاً. إنه افتراء على الطبع الروسي من عهد بيلينسكي. وما أتفه وجهة النظر هذه وما أسوأ التوغل إلى داخل الواقع. إنها تكرار في تكرار. يفوّت الواقع كله، فمن يحلل الوقائع، إذن، ويتعمق فيها؟ أما قصة تورغينيف فأكتفي بالقول عنها إنها شيء لا يعرفه حتى الشيطان. أليست (روايتي) الخيالية «الأبله» هي الواقع بعينه؟ بل الواقع العادي جداً. أجل، الآن تحديداً يجب أن نرى طباعاً وشخوصاً، (كبطل «الأبله»)، بين فئات المجتمع المعزولة عن التربة، تلك الفئات التي تتحول في الحقيقة والواقع إلى ظاهرة خيالية. صحيح أن في الرواية الكثير مما هو مكتوب باستعجال، وإسهاب، وما هو غير موفق، إلا أن فيها أيضاً بعض التوفيق. أنا لا أدافع عن

الرواية، بل عن فكرتي التي تتضمنها. اكتبْ لي، اكتبْ عن رأيك، وبأكبر قدر ممكن من الصراحة. وكلما أمعنت في انتقادي ازداد تقديري لمصداقيتك. لم يتسع الوقت «للبشير الروسي» أن تنشر الخاتمة في ديسمبر، ووعدت بنشرها في ملحق خاص. وأظن أنهم سيرفقونه بعدد فبراير. بودّي لو قرأتَ الخاتمة، ومع ذلك أنا مشغول البال كثيراً. على فكرة، أنا نفسي لست راضياً عن الكثير جداً في روايتي. وإلى ذلك أنا بمثابة الأب لها.

أرجو أن تشكر بالنيابة عني كلاً من دانيليفسكي وكاشبيريف وغرادوفسكي وجميع الذين يتعاطفون معي. هذا أولاً، وثانياً- آمل، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، بمساعدتك لي في مسألة حساسة، وأنشد مشاركتك الأخوية فيها، نظراً لأهميتها الكبيرة بالنسبة لي.

لقد كتبتَ لي مادحاً وقلت إن «الفجر» تدعوني للمشاركة فيها. وإليك ما أنا مضطر للرد به على الدعوة: بما أنني كنت دوماً ولا أزال بحاجة ماسّة إلى النقود وأعيش على عملي وحده فإنني مضطر طول عمري وفي كل مكان عملت فيه أن أطلب الأجر مقدماً. والحقيقة كانوا في كل مكان يستجيبون لطلبي. غادرت روسيا قبل عامين تقريباً وأنا مدين (لمجلة) كاتكوف بـ 3000 روبل، ليس بحسابات «الجريمة والعقاب» المنتهية، بل بحساب جديد. ومنذ ذلك الحين أخذت من كاتكوف 3500 روبل. وسأستمر في التعاون معه، ولكن من المستبعد أن أعطي «البشير الروسي» شيئاً هذا العام. ولدي الآن ثلاث أفكار أعتز بها. إحداها تمثل رواية مطولة[2]. وأعتقد أنهم سيختارون رواية يدشنون بها العام الجديد. والآن أنا متفرغ لبضعة أشهر. بديهي أن «البشير» ستستمر في تزويدي بالنقود هذا العام أيضاً رغم أنني بقيت مديناً لها بعض الشيء. إلا أن احتياجاتي في ازدياد، زوجتي حامل

من جديد. والنفقات كثيرة، بينما عشنا في الآونة الأخيرة في تقتير شديد، وحرمنا أنفسنا من الكثير. في الستة أشهر الأخيرة أنفقنا إجمالاً 900 روبل، بما فيها الانتقال من فيفي إلى ميلانو وفلورنسا، وبعثنا من هذا المبلغ مؤخراً 100 روبل إلى بافل وإميليا فيودوروفنا. في الحال الحاضر لم أستلم من كاتكوف شيئاً، ولذا أنا في عوز شديد، لأقصى درجة تقريباً. «البشير الروسي» محققة. فقد تأخرتُ، وإلى ذلك طلبت منها تصفية الحساب. وأعتقد أنهم سيتأخرون في إرسال النقود ثلاثة أسابيع أخرى. لكن هذه ليست المشكلة. المشكلة هي المستقبل القريب. باختصار، أنا بأمسّ الحاجة إلى النقود، ولذا أقترح على هيئة تحرير «الفجر» ما يلي: أولاً- أطلب أن تبعثوا لي فوراً إلى هنا، في فلورنسا، ألف روبل، وثانياً- أتعهد بأن أبعث إلى هيئة التحرير قصة طويلة، بمعنى رواية، في الأول من سبتمبر من العام الحالي، أي بعد ستة أشهر. ستكون الرواية بحجم «الفقراء» أو بعشر ملازم طباعية على الأقل، وربما أكثر. ولن أتأخر في الإرسال ولا يوماً واحداً. وأنا دقيق جداً في مواعيدي. وإذا تأخرت لشهر فرضاً أتخلى عن استلام بقية الأجر. فكرة الرواية تحتذبني كثيراً. ليست مما أكتبه من أجل النقود، بل على العكس تماماً. أنا أشعر بأن تأثير «الأبله» في الجمهور أضعف من تأثير «الجريمة والعقاب». ولذا تحفزت لأشبع غروري، وأريد أن أحقق تأثيراً جديداً. في حين أن لفت الأنظار إليّ في «الفجر» أنفع مما في «البشير الروسي». ألا تلاحظ أنني أكتب لك عن كل شيء بمنتهى الصراحة؟ وأقترح أن تكون أجرة الملزمة 150 روبلاً. حساب الملزمة كما في «البشير الروسي» إذا كانت ملزمة «الفجر» أصغر. بمعنى أنني لا أستطيع أن أستلم أقل مما في «البشير». كنا أنا والمرحوم أخي ندفع مقدماً

أكثر(. . .) والآن لدي رجاء أخوي عندك شخصياً، يا نيكولاي نيكولايفيتش. وهو 1) أن تساعد في تمرير هذه المسألة إذا رأيت أنها مناسبة للمجلة، و2) إذا استحصلت موافقة كاشبيريف أرجوك كل الرجاء أن تحول المبلغ لي من دون إبطاء، وتوزعه على النحو التالي: 200 روبل من هذا المبلغ ترسل مع تشكراتي العميقة إلى أبولون نيكولايفيتش مايكوف، وأنا مدين له بها أكثر من عام. 200 روبل أخرى تسلم إلى شقيقة زوجتي ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا، وهي تعرف لأي غرض. (العنوان مرفق طياً)، والـ 600 روبل المتبقية أرجو أن تبعثها لي هنا في فلورنسا (على العنوان التالي. . .). 3) وأخيراً، إذا أمكن تنظيم هذه المسائل بلغني وابعث النقود من دون إبطاء. أرجوك. فأنت صديق قديم.(. . .). وإذا أمكن تدبير هذا الأمر فالأفضل عدم تبليغ من لا يعنيهم الأمر لفترة من الزمن. ثم بودّي لو نشرت الرواية التي سأوافيكم بها في الأول من سبتمبر في الأعداد الأساسية من «الفجر» لهذا العام. هذا بالنسبة لي أنفع لبعض الاعتبارات. وبالطبع إذا رأت هيئة التحرير أن تنشر الرواية في العام القادم فلا اعتراض لدي على ذلك. القول الفصل لكم، وأنا أعربت فقط عن رغبة لا غير.

والآن أبلغك سراً، كصديق قديم وشريك في العمل، بأمر آخر يقلقني أشد القلق.

يخيل إليَّ أن هذه الـ 200 روبل التي أنا مدين بها لأبولون نيكولايفيتش أكثر من عام هي السبب في صمته الحالي. فقد أوقف المكاتبات معي فجأة. وكنت قد طلبت من كاتكوف في ديسمبر أن يبعث 100 روبل إلى إميليا وبافل على عنوان أبولون نيكولايفيتش كالعادة، فتصور ربما أنني استلمت مبلغاً كبيراً وأسبح في حوض من

ذهب دون أن أسدد ديني له. (... بينما أنا في وضع لا أحسد عليه). وفي هذا الوضع الحزين يأتي التفكير في أن شخصاً مخلصاً آخر أخذ يبتعد عني ليزيد أحزاني ويعذبني أشد عذاب. ألم يخبرك بشيء؟ وهل تعرف شيئاً بهذا الخصوص؟ إذا كنت تعرف، يا عزيزي، فخبرني. وهل يعقل أن علاقات ودية مستمرة من عام 46 تنقطع بسبب 200 روبل، خاصة وأنا منسي أصلاً من قبل الجميع؟.(...). آه، لعلنا نلتقي يوماً ما. أنا آمل في ذلك. إلى اللقاء. آنّا غريغوريفنا تشد على يدك وتشكرك على تذكرها. تحياتي من جديد لكل من يتذكرني. ما أخبار أفيركييف؟ تحياتي له. أسفي على دولغوموستيف[3].

المخلص لك روحياً

فيودور دوستويفسكي

(...)

---

(1) المقصود قصة إيفان تورغينيف «التعيسة».

(2) المقصود فكرة رواية «الإلحاد» التي لم ينفذها دوستويفسكي.

(3) دولغوموستيف أصيب بالجنون.

138. إلى صوفيا إيفانوفا

فلورنسا، 8 مارس 1869

(. . .)

تقولين يا عزيزتي الغالية صونيا إن «البشير الروسي» حسب الإشاعات تتراجع. فهل هذا أكيد؟ أظن كلا. لا لأنني أشارك فيها، بل لأنها أفضل مجلة عندنا في روسيا تعي اتجاهها وتلتزم به. صحيح أنها جافة وأن الأدب الذي تنشره ليس جيداً على الدوام، لكنه ليس أسوأ مما في بقية المجلات. كل المؤلفات الريادية نشرت في هذه المجلة، مثل «الحرب والسلام» و«الآباء والبنون»[1] وما إلى ذلك، ناهيك عن نتاجات الأزمان القديمة، وهذا أمر يتذكره القراء. المقالات النقدية في المجلة نادرة، ولكنها أحياناً دقيقة جداً، وبالخصوص فيما لا يتعلق بما يسمى الأدب الجميل. إلا أن الأهم أنها تنشر كل عام ثلاث أو اربع مقالات تحليلية هي الأدق والأعمق والأكثر ضرورة في الحال الحاضر، وهذا أمر يعرفه المشتركون. والأهم أنها تُنشر في هذه المجلة دون سواها. والجمهور على علم

بذلك. ولذا لا أعتقد أن المجلة يمكن أن تتدنى كثيراً رغم جفافها وتخصصها الضيق حسب الظاهر.

في عام 67 قال لي كاتكوف بحضور لوبيموف وسكرتير التحرير إن عدد المشتركين بالمجلة ازداد بـ 500 مشترك بفضل «الجريمة والعقاب». وأنا أعتقد أن «الأبله» ما كان بوسعها أن تجتذب مشتركين جدداً. أنا آسف لذلك. إلا أن ما يفرحني كثيراً هو أن المجلة متمسكة بي، رغم فشل الرواية الظاهري. (. . .) وقد كتب لي البعض من بطرسبورغ صراحة أن الجميع يقرأون «الأبله» باهتمام كبير رغم ما فيها من نواقص ورغم الانتقاد الذي تتعرض له من الكثيرين. وهذا تحديداً ما أنا بحاجة إليه. أما بخصوص النواقص فأنا متفق تماماً مع الجميع. والمهم أنني غاضب على نفسي بسبب هذه النواقص لدرجة أرغب فيها بكتابة انتقاد لروايتي. ستراخوف ينوي إرسال تحليله «للأبله» إليّ، وهو ليس من الذين يثنون عليّ.

أنا أكتب لك طول الوقت عن نفسي، ولكنْ ما دمنا بدأنا هذا الموضوع فاستمعي، يا عزيزتي، إلى البقية، ذلك لأن الملابسات الأدبية تشكل، عند تلاقيها، وضعي الراهن ومستقبلي وعودتي إلى روسيا. (. .) في قضيتي الأدبية جانب مهيب يتمثل في مقاصدي وآمالي. أنا لا أتوخى الشهرة والمال، بل أهدف إلى تركيب يجمع بين فكرتي الفنية والشاعرية، بمعنى أنني أريد أن أقول كلمتي متجسدة في عمل ما بأكمل ما يكون قبل أن أموت. ولذا أعالج الآن فكرة بشكل رواية. الرواية بعنوان «الإلحاد»، ويخيل إليَّ أني سأتمكن من التعبير فيها عن نفسي بالكامل. تصوري، يا صديقتي، لا أستطيع تأليفها هنا. ولهذا الغرض لا بد من وجودي في روسيا، لا بد أن أسمع وأرى وأنخرط في الحياة الروسية مباشرة، ثم ينبغي أن أواظب

على كتابتها عامين. لا أستطيع أن أفعل ذلك هنا. ولذا عليَّ أن أكتب شيئاً آخر. كل ذلك يجعل حياتي في الخارج لا تطاق (. . .) أنت تكتبين عن تورغينيف وعن الألمان. تورغينيف لفظ أنفاسه في الخارج وبدد موهبته. حتى جريدة «الصوت» لاحظت ذلك. أما أنا فلا أخشى التحول إلى ألماني،، لأنني أكره الألمان جميعاً. لكنني بحاجة إلى روسيا، ومن دونها سأفقد البقية الباقية من الطاقة والموهبة. أتحسس ذلك بكل مسامات حياتي.

ولذا استمعي إلى ما أقوله عن ظروفي الأدبية التي يتوقف عليها وضعي الحالي وعودتي إلى روسيا ومستقبلي كله. أنا أواصل الكتابة. بعثت لي «الفجر» عن طريق ستراخوف رسالة ثانية تضمنت دعوة رسمية من هيئة التحرير إلى الكتابة للمجلة. الطلب جماعي من ستراخوف ورئيس التحرير كاشبيريف وبعض الموظفين الذين لا أعرفهم، غرادوفسكي مثلاً، وكذلك دانيليفسكي الذي لم أره منذ 20 عاماً، ليس الروائي دانيليفسكي، بل شخص رائع آخر. وإلى ذلك يبدو أن «الفجر» استقطبت كثيراً من المستخدمين الجدد الرائعين من حيث اتجاههم القومي الروسي العميق. العدد الأول ترك في نفسي انطباعاً قوياً باتجاهه الصريح الثابت ومقالتيه الرئيسيتين بقلم ستراخوف ودانيليفسكي. اقرأي مقالة ستراخوف يا عزيزتي صونيا، فأنت لم تقرأي مثلها في النقد الأدبي. أما مقالة دانيليفسكي «أوروبا وروسيا» فهي بحث ضخم سينشر تباعاً في عدة أعداد من المجلة. تلك محاولة نادرة. دانيليفسكي هذا كان في السابق اشتراكياً من مريدي فوريه. إنه إنسان رائع منذ أن وقع في أيدي السلطات قبل عشرين عاماً في قضيتنا ونفي أيضاً. وها هو يعود الآن قومياً روسياً صرفاً. أنصحك أن تقرأي مقالته خصيصاً. لم يكتب شيئاً قبلها.

عموماً للمجلة مستقبل واعد فيما لو تعايشوا معاً، خاصة وأن ستراخوف الذي هو محرر حقيقي في الواقع ليس قادراً، في اعتقادي، على العمل الدوري المتواصل. ولعلي على خطأ، فليكن اللّه في عونه. أجبت على رسالتهم بأنني مستعد دوماً للتعاون (. . . ومن منافع التعاون مع «الفجر» في اعتقادي) أني سأظهر أمام الجمهور في مجلة أخرى، وإذا كان ظهوري جيداً، فإن «البشير الروسي» ستقدرني أكثر. ولكنني أخشى أن تزعل «البشير» مني مع أنني لم أعدهم بتعاون حصري، وبالتالي أستطيع في أوقات الفراغ أن أتعاون مع غيرهم. إلا أن المشكلة أنني لا أزال مديناً «للبشير» (. . .) وقد يزعلون بسبب ذلك. بيد أني كتبت لهم قبل ثلاثة أشهر أن الرواية التي أعكف على تأليفها مخصصة ليس لهذا العام، بل لعام سبعين المرتقب. أما القصة الطويلة التي أريد أن أكتبها «للفجر» فستكون جاهزة في أربعة أشهر، وستشغل تحديداً الفترة التي خصصتها للتجوال والاستراحة بعد 14 شهراً من العمل (المتواصل). ومع ذلك أخشى أن تنتشر وشايات تضر بعملي مع «البشير الروسي». ولذا، يا عزيزتي صونيا، لا تفضحي سري بخصوص العلاقة مع «الفجر» ما دامت لك علاقة بهيئة تحرير«البشير»، بل ولا تخبري أحداً على العموم. على فكرة، ماذا تترجمين لهم؟ اكتبي لي من كل بد لأقرأ ما تترجمينه.

إذن، هذه تفاصيل أوضاعي في الوقت الراهن. حساباتي الأساسية تقوم على احتمال بيع «الأبله» و«القصة الطويلة» التي سأكتبها «للفجر» في طبعة ثانية أواخر العام الحالي، وبالتالي توفران لي إمكانية التفكير بالإيجاب فيما يخص العودة إلى روسيا. كنت قد أوضحت لك ضرورة ذلك لي من جميع النواحي. والأهم أني أريد أن أراكم جميعاً وأكون قربكم.

فقد مللنا هنا أشد الملل. آنّا غريغوريفنا مشغولة بأحوالها، والمنتظر أن يكون ذلك في سبتمبر[2]، وأنا لا أدري أين سأكون عندئذٍ. فقد مللنا كلانا من فلورنسا. والحال ينبغي لنا أن ننتقل حتماً إلى مكان ما هادئ ومستقر لفصل الصيف ولسبتمبر. بالنسبة لي من أجل العمل، وبالنسبة لآنّا لسبتمبر. وستقيم معنا حينذاك والدة آنّا. فما كان أجمل ذلك لو حصل في روسيا، ولو استطعنا أن نعود إلى الديار حتى في أغسطس. لكن ذلك باعتقادي متعذر في الحال الحاضر (. . .)

أنا يا عزيزتي صونيا أريد أن أعود لأحضر حفل زفافك، فلا تزعلي مني على رغبتي هذه. (. . .) يقلقني كثيراً ما كتبتِه عن تدهور صحة ساشا (. . .). تقولين إنك رأيت فيديا. إنه إنسان طيب، هذا صحيح. وهو باعتقادي يشبه كثيراً أباه، أخي المرحوم ميشا، من حيث طباعه في مثل سنه، ما عدا التعليم طبعاً. غياب التعليم نقص فتاك عند فيديا (. . .). عموماً عائلة أخي هذه عزيزة على قلبي، وأشعر بالقنوط (تجاه مصيرها). إميليا فيودوروفنا تتشكى من الفقر، وابنتها كاتيا تترعرع في اكتئاب شديد. وميشا الذي لا تعرفينه، وهو أفضل من فيديا، عاطل من العمل تقريباً ويبحث عن وظيفة طول الوقت. لو كنت موجوداً معهم لكان وضعهم أحسن من الآن. تفكيري فيهم يعذبني طول الوقت، ناهيك عن تفكيري في (ربيبي) بافل. آه، يا ملاكي، أنت لا تعلمين كم تلقيت منهم من أذى. الأحقاد والافتراءات والسخرية، كل ذلك ينهال عليَّ من طرفهم. وهم يذنبوني في كل مصائبهم. إميليا فيودوروفنا تؤكد أنهم كانوا يمتلكون معملاً للسجائر وكانوا يعيشون في بحبوحة قبل مجيئي، وعندما وصلت وبدأت بإصدار المجلة أفلسوا جميعاً. كل ذلك كذب في

كذب. عندما عدت من المنفى كان المعمل مثقلاً بالديون وفي كساد تام. (. . .) المجلة أصدرها المرحوم أخي. وكان طلب ترخيصاً من الحكومة بإصدارها قبل رجوعي. وقد فعل ذلك ليتخلص من سجن الديون. ازدهرت المجلة بفضلي وبلغ عدد مشتركيها 4500 مشترك، وعادت على شقيقي بأرباح صافية قدرها 60000 روبل في ثلاثة أعوام. فلماذا يتشكون مني الآن؟ عندما توفي أخي لم يكن هناك ولا كوبيك واحد. وكان ينبغي إصدار ثمانية أعداد من المجلة وتقديمها إلى المشتركين (لأنهم دفعوا ثمنها). وتقول إميليا إنني ملزم بمساعدتهم لأن أخي (زوجها) أعالني عندما كنت في سيبيريا. والحقيقة أن أخي أرسل لي 1000 روبل فضي على مدار سنوات المنفى، والباقي كسبته بعرق الجبين. وإلى ذلك كان يحق لي أن أستلم من أخي جزءاً من الأرباح، ولم أطالبه بها أبداً. (. . .) والآن يدّعون أنني تركتهم، بينما أنا أعطيتهم كل ما أملك. (لو تعلمين) كيف كانوا ينظرون إلى زفافي، أعني إميليا فيودوروفنا وعائلة فلاديسلافليف وكاتيا، وحتى بافل ربما، وكم كانوا يسخرون مني وكيف افتروا عليّ أمام آنّا غريغوريفنا وأرعبوها وحطموا أعصابها. كل تلك الحقائق عرفتها فيما بعد. ويؤسفني أنني لا أستطيع أن أكتب لك كل شيء. حالياً أنا لا أكاد أمتلك ما أعتاش عليه، بينما هم يجأرون بأنني خذلتهم وتركتهم (. . .) فيما كان أخي يعيلني في سيبيريا كما يقولون. (. . .).

آه، يا صونيا. حالما أتناول هذا الموضوع أتمادى فيه إلى ما لا نهاية. فهؤلاء الذين في بطرسبورغ يعذبونني كثيراً. وداعاً، أعانقكم جميعاً، أنا أحبكم أكثر من الجميع، وأتذكر (المرحوم والدكم) ألكساندر بافلوفيتش طول الوقت وأقدر ذكراه. تحياتي للجميع. أقبّل

ماشا. ذكّري ماريا سيرغييفنا ويلينا بافلوفنا بي. أعانق فيرا وأقبّلها بحرارة.

المخلص فيودور دوستويفسكي

اكتبي لي على العنوان نفسه.
آنّا غريغوريفنا تقبلكم جميعاً بحرارة وتحبكم صادقة.

(1) وكذلك «في العشية» لتورغينيف و«القازاق» والجزءان الأولان من «الحرب والسلام» لتولستوي، بالإضافة إلى قصائد مشاهير الشعراء في ذلك الزمان.
(2) في سبتمبر ولدت للزوجين دوستويفسكي ابنتهما لوبوف في درزدن.



139. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 18 مارس 1869

أولاً، أشكرك يا نيكولاي نيكولايفيتش الموقر على جوابك العاجل. ففي ظروفي الحالية يشكل هذا الجواب نصف المسألة، لأنه يرسم أشغالي ونواياي. وأشكرك، ثانياً، على الإيعاز بإرسال «الفجر»، وثالثاً- على الخبر الطيب عن أبولون نيكولايفيتش (مايكوف). سأكتب له بنفسي هذه الأيام، رداً على رسالته. وما دام قد أثنى عليَّ أمامك أخبرك أنني أيضاً أثني عليه طول الوقت. سوء الفهم الذي حصل في الآونة الأخيرة ناجم عن وساوسي، وأنا لم أبدد قطرة من مودتي القلبية له. ولا يخامرني أدنى شك من زمان بأنه رجل طيب طاهر، وأنا مسرور جداً للغة التفاهم بينكما.

إذا كانت «الفجر» لم تحقق بعد كل النجاح المنشود فهي على أية حال حققت نجاحاً معتبراً تقريباً. وليس ذلك بالقليل. ولربما لن تحصلوا على الألف الثالث من المشتركين، لكنكم إذا احتفظتم بهذا النجاح على مدار السنة ستقفون على أقدامكم بثبات. أنا واثق بذلك. فليس بين المجلات الشهرية مجلة أخرى بمثل هذا الاتجاه الدقيق

الراسخ. العدد الثاني ترك في نفسي انطباعاً ساراً للغاية. خاصة مقالتك. فبالإضافة إلى كونها من النقد الحقيقي فقد قالت بمنتهى التحديد الكلمة التي هي اليوم أكثر ضرورة من غيرها، حيث توضح القضية أكثر من أي شيء آخر. أما مقالة دانيليفسكي (المسلسلة) فهي تغدو، في نظري، أكثر أهمية وشمولاً. وستغدو في المستقبل كتاباً منزلياً لجميع الروس ولأمد طويل (. . .) وكان بودّي أن أتحدث عن هذه المقالة معك تحديداً، يا نيكولاي نيكولايفيتش، إلا أن ذلك يتطلب حديثاً مستفيضاً جداً. فالمقالة متوافقة مع استنتاجاتي ومعتقداتي لدرجة أدهشني فيها التشابه في بعض صفحاتها بين الاستنتاجات. وقد دأبتُ منذ عامين على تسجيل الكثير من أفكاري استعداداً لكتابة مقالة تكاد تأتي بالعنوان نفسه، وحتى بالفكرة نفسها والخلاصة نفسها. فما أعظم فرحتي وما أشد دهشتي وأنا أصادف تقريباً ما كنت أتوق إلى تنفيذه في المستقبل وهو منفّذ بتناسق وبمنطق حديدي ودقة علمية ما كان بوسعي أن أوفرها رغم كل جهودي. أنا متعطش لقراءة بقية هذه المقالة حتى أنني أتردد على دائرة البريد يومياً وأحسب احتمالات وصول «الفجر» (. . .)

العدد الثاني من «الفجر» غني بالموضوعات، وفيه مقالات جيدة جداً. وهو يبعث على السرور.

إلا أن بعض سطور رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش الموقر، أدهشتني لحين من الوقت أشد الدهشة. لماذا تقول بهذه اللهجة الحزينة السافرة إن مقالتك لا تحظى بالتفهم والقبول لدى البعض. فهل يعقل أنك واثق بأن الجميع يفهمون للوهلة الأولى؟ لو كان الحال كذلك لكانت تلك، في اعتقادي، تزكية رديئة للمقالة. فما يتم فهمه على عجل يفتقر عادة إلى التعمق. بيلينسكي لم يبلغ الشهرة المنشودة

إلا في نهاية منبره. أما غريغوريف فقد وافاه الأجل دون أن يحقق شيئاً تقريباً في حياته. لقد اعتدت على احترامك لدرجة أعتبرك فيها حكيماً تدرك هذه المسألة أيضاً. فإن جوهر الأمر دقيق رهيف لا تلتقطه الأغلبية التي لا تفهم إلا بعد اجترار طويل، وحتى ذلك الحين تبدو لها كل فكرة جديدة ليس على قدر من الأهمية. وكلما كان عرض الفكرة أبسط وأوضح، أي بموهبة أكبر، فإنها تبدو عادية وأكثر بساطة. ذلك قانون.(. . .) ولكن من جهة أخرى ألم تقل إن غرادسكي ودانيليفسكي وأكساكوف معجبون بك؟ فهل هذا قليل؟ وأنا على أية حال واثق بأنك تدرك تماماً حاجتك الباطنية إلى التقدم وأنك لن تفقد احترامك لنشاطك ولن تترك المجلة. فلا ترعبني رجاءً. إن انسحابك من «الفجر» يقود إلى انهيارها. أما الآن فلننتقل إلى أموري الشخصية. أحوالي وظروفي المالية تحسنت بعض الشيء بعد حوالة من كاتكوف الذي يقدرني، على ما يبدو، كمتعاون مع مجلته، وأنا شاكر له على ذلك كثيراً. لكنني كنت محتاجاً لدرجة أن المبلغ المرسل إليّ ساعدني تقريباً للحظة لا غير. وسأحتاج إلى نقود من جديد في القريب العاجل. ولكن صدقني، يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن النقود وحدها ليست هي التي تدفعني للتعاون مع «الفجر»، فهناك المشاطرة الصادقة من جانبي للمجلة. وأعتقد أنك شخصياً لا تشك في ذلك. ورغم كل شيء لا يمكنني أن أوافق على اقتراح كاشبيريف بالشكل الذي جاء به في رسالتك. فذلك غير ممكن بدنياً بالنسبة لي. والألف روبل بالتقسيط، والدفعة الأولى ليست فورية، شيء قليل وغير كاف في ظروفي الحالية (. . .) الأنفع لي الآن أن أعكف على كتابة رواية «للبشير الروسي» تنشر في العام القادم، والمجلة لن تتركني عندئذٍ في عوز شديد. ثم إنني لم أكن أنوي القطيعة مع كاتكوف.

والشيء الذي أستطيع القيام به الآن من أجل «الفجر»، بدلاً من العرض السابق، هو ما يلي: (. . .)

لدي قصة غير طويلة، في ملزمتين، أو أكثر قليلاً، يمكن أن تشغل في «الفجر» ثلاث صفحات أو ثلاثاً ونصفاً. كنت قد فكرت في كتابتها قبل أربع سنوات، في عام وفاة شقيقي، استجابة لكلمات أبولون غريغوريف الذي امتدح آنذاك «ذكريات من تحت الأرض» (في قبوي) وقال لي: اكتبْ على غرارها. لكن هذه القصة لا تشبه تلك «الذكريات»، بل هي شيء آخر تماماً من حيث الشكل، مع أن جوهرها هو نفسه، وهو جوهري أنا، إذا كنتَ، يا نيكولاي نيكولايفيتش، تؤمن بوجود جوهر متميز بعض الشيء لديّ ككاتب. يمكنني أن أكتب هذه القصة في فترة وجيزة، فلا توجد فيها أسطر أو أية مفردة غامضة بالنسبة لي. علماً بأن رؤوس الأقلام موجودة. أستطيع أن أنهي القصة وأبعثها إلى هيئة التحرير قبل الأول من سبتمبر. وأظن أنكم لستم بحاجة إليها قبل هذا الموعد. فليس من المنطق أن تنشروا لي شيئاً في أشهر الصيف. باختصار، يمكنني أن أوافيكم بالقصة بعد شهرين. وهذا كل ما أستطيع أن أساهم به في «الفجر» هذا العام. رغم رغبتي الشديدة في الكتابة إلى مجلة تكتب فيها أنت ويكتب فيها دانيليفسكي وغرادسكي ومايكوف. وإليك شروطي التي أرجوك أن توصلها إلى كاشبيريف رداً على جوابه الأول:

أنا أطلب مقدماً الآن فوراً 300 روبل. وأرجوك يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن تبعث منها من دون تأخير، في حال الموافقة، 125 روبلاً إلى ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا، وعنوانها عندك في رسالتي السابقة، والـ 175 المتبقية تحولها لي إلى هنا، في فلورنسا، في فترة أقصاها شهر من اليوم، لكي أستلمها في الـ 18 من أبريل بتقويمنا.

وفي هذه الحالة أوافيكم بالقصة بعد شهرين، وسأحاول أن لا أشعر بالخجل فيما يخص جودتها. فأنا أبتكر الحبكات ليس من أجل النقود. ولو لم تكن فكرة القصة موجودة في ذهني لما طرحت على المجلة شروطاً.

والآن أرجوك يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن لا تزعل مني بسبب هذه الشكليات والبيع والشراء.

والحقيقة هذا ليس بيعاً وشراءً. وإنما هو عرض واضح ودقيق لظروفي، وكلما كان العرض دقيقاً واضحاً كانت الأعمال أفضل. أليس كذلك؟ (. . .). وأرجوك كل الرجاء أن تبلغني بقرار كاشبيريف حالما تستلم رسالتي. ذلك ضروري جداً بالنسبة لي لتوزيع حساباتي وأعمالي. وإذا انشغلتَ اكتبْ لي بضعة سطور للتبليغ فقط.

(. . .) إلى اللقاء يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب المبجل. رسائلك تمثل الكثير بالنسبة لي. آنّا غريغوريفنا تبعث إليك بتحياتها، وأنا

المخلص لك بالتمام والكمال

فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: (. . .)

من قال لك إن صحتي متدهورة؟ صحتي جيدة جداً، ونوبات الصرع، رغم استمرارها، باتت أقل بمرتين مما في بطرسبورغ، وخصوصاً بعد الانتقال إلى إيطاليا.

140. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 6 أبريل 1869

أنا شاكر لك كل الشكر، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، على جهودك. ومن دواعي السرور والارتياح العميق أن أتعامل معك نظراً للالتزام الذي تتحلى به. لكنني هذه المرة أيضاً أتوجه إليك بطلب جديد رغم شعوري بالخجل الشديد. ولذا أرجوك قبل كل شيء أن تهمل طلباتي إذا كانت تثقل عليك ولو قليلاً، فأنا لا أريد أن أثقل عليك أكثر، وإنما أتوجه إليك بحكم الضرورة.

فلندخل، إذن، في صلب الموضوع.

الطلب الأول: تقول إن النقود، 175، ستحول إليَّ في منتصف أبريل وإنك شخصياً ستتأكد من التحويل. وأنا أشكرك على ذلك خصيصاً. لأنني لا أستطيع أن أعول على دقة وانضباط باقي هيئة التحرير من دون التعرف عليها عن كثب. ولكن هل يمكن تسريع التحويل بخمسة أو أربعة أيام على الأقل؟ هذا هو طلبي. ذلك لأنه يتعين عليّ، لأسباب عائلية، أن أنتقل من فلورنسا. فقد بدأ الحر هنا، والطقس في الصيف، كما يقول الأطباء، لا يناسب حالة آنّا

غريغوريفنا. وإلى ذلك ينبغي البحث عن طبيب وممرضة خلوقين يجيدان الكلام بلغة مفهومة. فرنسا غالية، وفي ألمانيا، في درزدن، أفضل، فقد عشنا هناك فترة ولدينا معارف. إلا أن هذا الانتقال يغدو مع كل أسبوع يمر أصعب على زوجتي، رغم أن أمامها أربعة أشهر أخرى. ولذا الأفضل لو أسرعنا.

باختصار، ملابسات كثيرة تلعب دورها. بعد أيام تصل إلينا في فلورنسا والدة آنّا، ولذا نريد أن نشد الرحال في أول فرصة متاحة وننتقل إلى درزدن عبر البندقية. مبلغ الـ 175 روبلاً ليس كبيراً لرحلة طويلة من هذا النوع. ولما كنت الآن أيضاً لا أمتلك نقوداً فسنضطر أن نعيش على الاستدانة طول الوقت لحين الانتقال، على أمل أن نسدد من المبلغ المرتقب.(. . .) لذا أرجو أن تبعثوا المبلغ بأسرع ما يمكن، ولو لأيام قبل الموعد. ما أثمن الدجاجة التي تبيض في المناسبات! هذا هو طلبي الأول.

والثاني بخصوص «الفجر». أنا أستلمها بتأخير كبير. وقد فهمت من قراءاتي «للصوت» أحياناً، أنها تصدر بفترة قبل أن أستلمها. وأنا أنتظرها بفارغ الصبر والتحمل. ألا يمكن ترتيب إرسالها إليَّ في حينه؟ علماً بأنني أوضحت منذ البداية أنني سأستلمها ليس مجاناً. أنا واثق بأن قصتي ستكون أكبر بنصف ملزمة مما سأستلمه منكم الآن. ولذا فلتستقطع هيئة التحرير ثمن المجلة أثناء الحسابات النهائية (. . .)

الطلب الثالث حساس. فإذا وجدت فيه أدنى صعوبة أهمِلْه، بلا مجاملات(. . .) بودّي أن أحصل على بضعة كتب لم أقرأها حتى الآن، على أن تستقطع قيمتها أيضاً من بقية حساب قصتي إضافة إلى ثمن «الفجر». والكتب هي «أطراف روسيا» لمؤلفه سامارين، وكل مجلدات «الحرب والسلام» لتولستوي(. . .). أنت تسألني في

رسالتك: ماذا أقرأ؟ طول الشتاء قرأت فولتير وديدرو وقد استفدت من هذه المطالعة وشعرت بالارتياح طبعاً. لكنني أريد أن أقرأ شيئاً لمؤلفينا المعاصرين أيضاً.

خاتمة روايتي «الأبله» استلمتها قبل أيام في كراس مستقل، توزعه هيئة التحرير على المشتركين السابقين. ولا أدري هل استلمتها أنت؟

سأكلف ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا أن تسأل بازونوف هل يشتري حقوق الطبعة الثانية؟ إذا اعتذر فلن نلح عليه. وسأطلب ثمناً بخساً بالمقارنة مع إصداراتي السابقة، وهو 1500 روبل. ولن أقبل بأقل من ذلك ولو بروبل واحد. وبودّي أن أطلب 2000. ألن يكون موقف بازونوف طائشاً، مجافياً للحكمة، فيما لو رفض؟ فهو يعلم أكثر من غيره أن كل مؤلفاتي صدرت بطبعات ثانية، ناهيك عما صدر منها بثلاث وأربع وخمس طبعات. أرجوك أن لا تخبر أحداً بهذا لحين من الوقت. (. . .)

مقالتك المعنونة «بؤس الأدب الروسي» أعجبتني أكثر من مقالتك عن تولستوي، فهي أوسع.

إلا أن النصف الأول من المقالة التي عن تولستوي منقطع النظير. باعتقادي أن في المقالة أخطاءً. ولكن ذلك في اعتقادي فقط. ثم إن هذه الأخطاء طيبة، وتسمى عادة بالإفراط أو الإسهاب. وهو أمر قابل للجدل دون أن يلحق ضرراً بالقضية. على أية حال أنا لم أقرأ في النقد الروسي حتى الآن شيئاً من هذا المستوى.

بخصوص مقالة دانيليفسكي أعتقد أن لها مسقبلاً باهراً، أكثر مما هي عليه الآن. وليس وارداً الافتراض بأن كتابات من هذا النوع يمكن أن يخفت تأثيرها ولا تفعل فعلها (. . .). لا أدري كيف ستكون شهرة أفيركييف، لكنني لم أقرأ مثل ما كتب، ما عدا «ابنة الضابط»

(لبوشكين). أما أوستروفسكي فهو متبجح ينظر نظرة متعالية أكثر من التجار الذين يكتب عنهم. (. . .) واعتقد أن دوبرولوبوف أكثر مصداقية من غريغوريف في نظرته إلى أوستروفسكي. ولربما أن فكرة «ملكوت الظلام» لم تخطر في بال أوستروفسكي، إلا أن دوبرولوبوف أوحى له بها ووجد لديه تربة خصبة. ولا أدري هل نجد عند أفيركييف القدر نفسه من التألق في الموهبة وفي الخيال كما عند أوستروفسكي، إلا أن تعبيريته وروحيتها أعلى بكثير (. . .) هذا موهوب عظيم جديد، يا نيكولاي نيكولايفيتش، ولعله أرقى من الكثيرين من معاصرينا. وسيكون مؤسفاً جداً لو اكتفى بمسرحية كوميدية واحدة.

(. . .) تحياتي للجميع. أشد على يدك بحرارة، . آنّا غريغوريفنا تبلغك تحياتها العاطرة.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .) الرجاء عدم الإعلان عن قصتي قبل الأوان، كما فعلتم بشأن «الغجر».

141. إلى أبولون مايكوف

فلورنسا، 15 مايو 1869

ما أطول الفترة التي لم أجب فيها على رسائلك الطيبة الصادقة، يا صديقي الطيب الصادق الوحيد. أنت على حق، أنا أعتبرك الإنسان الوحيد القريب إليَّ من حيث الفؤاد بين جميع الذين التقيتهم في حياتي على مدى ثمانية وأربعين عاماً تقريباً. (. . .) نحن وإياك على الرغم من اختلاف الموقع الاجتماعي متماثلان تقريباً من حيث التقاء القلبين والروحين ومن حيث المعتقدات. حتى استنتاجاتنا العقلية ومجريات العمر الذي عشناه باتت متشابهة في الآونة الأخيرة لحد يثير الاستغراب. وأظن أن دفء قلبينا هو نفسه. (. . .) في الصيف الماضي (كنت أريد أن أقترح عليك) فكرة مشروع شعري يضم عدداً من المقطوعات والحكايات والأغاني والقصائد والملاحم المصغرة، سمها ما تشاء، وجوهرها وأحجامها تتوقف على خلجات فؤاد الشاعر، فتظهر جاهزة من أعماق روحه، بل ولا تتوقف عليه (. . .). ولكنك لم تجبني آنذاك. ولربما حسناً فعلت. وهنا أستدرك فأقول إن الملحمة، باعتقادي، كالمجوهرات، كالأحجار الكريمة، كالماسة في

روح الشاعر، جاهزة تماماً بجوهرها، وهي الهم الأول للشاعر كمبدع والجزء الأول من إبداعه (. . .) وإذا لم يكن الشاعر هو المبدع فإن روحه هي منجم الماس الذي لا يمكن العثور عليه من دونها. ثم تأتي المهمة الثانية للشاعر كفنان يعالج الماسة ويضفي عليها الأبعاد التي يريد. فنجد الشاعر عندنا بمثابة أحد صاغة المجوهرات على وجه التقريب (. . .) في التاريخ الروسي نقاط ومواضع يتجمع فيها الماس، ولا بد من التعبير عنه في أشعار تتحف الجميع، ولكن ليس بشكل مدونات بسيطة، كلا، بل بشكل ملحمة عاطفية حتى من دون تجسيد دقيق للوقائع الفعلية، بحيث يتم تلقف النقطة الرئيسية ونقلها على نحو يبين كيفية تحولها إلى فكرة ومدى الحب والألم اللذين رافقا الحصول على تلك الفكرة. وينبغي العرض بلا أنانينة، من دون مقدمات من الشاعر، وبأكبر قدر من العفوية والبساطة والوضوح. المهم أن ينبض وينبجس فيها حب روسيا معيناً لا ينضب.(. . .)

أنت في هذه اللحظة تعتبرني مجنوناً بالطبع (لأنني بالأساس أكتب لك الآن، في هذه الرسالة، عن كل ما أفكر فيه بشأن تاريخ روسيا)، فيما يحتاج ذلك إلى حوار وجهاً لوجه. والحقيقة أنني تحمست للموضوع ولم أضبط أعصابي عندما قرأت في رسالتك أنك تنظم ملحمة من هذا النوع، ودهشت أشد الدهشة لأن الفكرة نفسها والملحمة نفسها خطرت في بالك وبالي رغم انقطاعنا الطويل عن المراسلة. فرحت لذلك، ثم فكرت هل نحن نفهم الموضوع على نحو واحد؟ فكرتي أن هذه الملاحم يمكن أن تشكل سجلاً قومياً عظيماً، وتخدم إحياء الوعي الذاتي لدى الإنسان الروسي لدرجة كبيرة. تصور، يا أبولون نيكولايفيتش، كل الصبية في المدارس سيعرفون هذه الملاحم ويحفظونها عن ظهر قلب. وعندما يحفظ الصبي الملحمة

يحفظ الفكرة والنظرة، ولما كانت النظرة صحيحة فستبقى راسخة في نفسه مدى العمر. وما دامت هذه الملاحم عبارة عن أشعار وقصائد قصيرة نسبياً فإن جميع القراء الروس سيقرأونها، كما يقرأون (قصيدتك) «كاتدرائية القسطنطينية» التي يحفظها الكثيرون عن ظهر قلب حتى الآن. ولذا لن تكون تلك مجرد ملاحم في درس الأدب، بل ستغدو علماً من العلوم، وموعظة ومأثرة. (. . .). تذكر يا صديقي أن نشاطك الشعري كله كان حتى الآن مقدمة ومدخلاً لما ستغدو عليه، وأنك الآن (من خلال هذه الملاحم) قادر على أن تقول كلمة جديدة، كلمتك الجديدة. ولذا فكر في الموضوع بمزيد من الجدية والعمق والولع. والأهم أن يكون لديك المزيد من البساطة والسذاجة العفوية (الفولكلورية). وإلى ذلك اكتب الشعر الحر المرسل، وليس العمودي على غرار الشعر الروسي القديم. ولا تسخر من هذا القول. فالمهم اليوم هو القافية الشعبية وليس الرويّ العمودي الأكاديمي. (. . .)

أكتفي بهذا القدر. أنا واثق بأننا متوافقان في الأفكار، وهذا هو مبعث سروري. أَرسلْ لي، رجاءً، شيئاً ولو قليلاً مما كتبت، وإذا أمكن أَرسلْ أكثر. فلن أستخدمه في ما يضر. أنت نفسك ترى أن ذلك يثير اهتمامي لحد الانفعال.

وقد تسألني لماذا لم أكتب لك طول هذه المدة؟ لم أكتب لك طويلاً، حتى صار من الصعب عليّ أن أجيب عن هذا السؤال. السبب الأول هو الاكتئاب. وإذا أردنا المزيد من التوضيح فلا بد من الكلام الكثير. إلا أن الاكتئاب شديد لدرجة كان من شأنها أن تؤدي إلى المرض فيما لو كنت وحيداً. من حسن الحظ أنني مع آنّا غريغوريفنا التي عاد إليها الأمل من جديد، كما تعلم. وهو أمل

يقلقنا كلينا. تقيم معنا الآن والدة آنّا، ووجودها هنا ضروري في هذه الظروف. لقد أخطأنا كثيراً في البقاء مؤخراً في فلورنسا بعد أن قررنا الانتقال إلى درزدن قبل شهر كامل. والسبب الأول هو عدم توفر النقود (. . .) سأعمل في درزدن ليل نهار (. . .) مللت جداً من فلورنسا (. . .) مللت من أوروبا كلها، وصرت أنظر إليها كأنني وحش كاسر. قررت أن أعود إلى بطرسبورغ في الربيع مهما كلف الأمر. حالما أنهي الرواية. حتى ولو زجوا بي في سجن الديون. مصالحي المادية هنا في الخارج، ناهيك عن الاهتمامات الروحية، تتضرر. تصور، على سبيل المثال، أن جميع مؤلفاتي، مهما كانت الأحوال، تباع في طبعاتها الثالثة والرابعة والخامسة. و«الأبله»، وأنا لا أجادل الآن في نواقصها، بضاعة جيدة على أية حال. وأعلم علم اليقين أن طبعتها الثانية يمكن أن تباع في سنة واحدة. فلِمَ لا تصدر؟ (. . .) قد أصدرها بنفسي حينما أعود دون أن أخسر شيئاً (. . .)

على أية حال مصالحي المادية تتضرر كما هو واضح. والسبب الوحيد هو غيابي. ثم إن الكثير جداً من الأمور التي لا أستطيع الاستغناء عنها ظلت في روسيا. ولا أتذكر هل كتبتُ لك أن لدي فكرة أدبية لرواية رمزية عن الإلحاد يغدو نشاطي الأدبي السابق كله بالمقارنة معها مجرد تفاهات أو مقدمة وأنني أنوي أن أكرس بقية حياتي لها؟ لكنني لا أستطيع كتابتها هنا بأي حال. ولا بد لي من العودة إلى روسيا. لن أتمكن من الكتابة من دونها.

(. . .)

لدي رجاء آخر إليك، يا أبولون نيكولايفيتش. نفذه إذا كنت تستطيع. ولا تتعب نفسك، باللّه عليك. ربما الجهد غير كبير، لكن

طلبي حساس. أرجوك أن تعرج على متجر (الناشر) بازونوف وتسأله هل يريد أن يصدر «الأبله» (في طبعة ثانية) مقابل 2000 روبل، وأنا لا أقبل بـ 1500؟ ولعلك تعلم أن الكلام مع بازونوف، كما هو معك شخصياً، يجب أن يكون صريحاً. ولا تحاول إقناعه. كل ما في الأمر أنه قد يطلب منك النصح في الموضوع، فلا تبخل بكلمة ثناء على «الأبله».

(...)

لا أزال آمل بمغادرة هذا المكان سريعاً والانتقال إلى درزدن. عَنونِ الرسائل إلى هناك، وسوف تعاد اليّ إذا بقيت في فلورنسا. تكاتبتُ مع بريد درزدن بهذا الخصوص (...) ولذا أنتظر رسائلك على أحر من الجمر على العنوان التالي:

Allemagne, Saxe, Dresden, à M-r Théodore Dosty, poste restante

نحن ننتقل إلى درزدن في الواقع للعديد من الأسباب والاعتبارات. والأهم أننا جربنا هذه المدينة. وهي رخيصة نسبياً، ولدينا فيها معارف. هناك تنوي آنّا غريغوريفنا تحقيق آمالها في بداية سبتمبر. آنّا تشكرك بحرارة على كلماتك الطيبة، وهي غالباً ما تتذكركم وتحنّ إلى روسيا طول الوقت. وأنا مسرور جداً لأن مشاغلها الحالية ستلهيها بعض الشيء عن الاكتئاب. إلى اللقاء يا صديقي. حبّرت ثلاث صفحات، فماذا أخبرتك فيها؟ لا شيء. لقد انقطع التواصل بيننا أمداً طويلاً، وبغياب التواصل يتراكم الكثير مما هو غير مفهوم. كل ما يحدث عندكم في بطرسبورغ تصلني أخباره جزئياً، فلدي «البشير الروسي» و«الفجر» وأطالع «الصوت» التي تستلمها المكتبة العامة هنا. هل يعجبك (مسلسل) مقالات دانيليفسكي «روسيا

وأوروبا»؟ أعتقد أنها في منتهى الأهمية.(. . .) وأعتبر «ملهاة فرول سكوبيف» بقلم أفيركيف أفضل ما كُتب في هذا العام.

دهشتُ وأعجبت بالمسرحية كثيراً منذ القراءة الأولى، وفي القراءة الثانية صرت أنظر بمزيد من الحذر. أشد على يدك وأعانقك بحرارة.

المخلص لك دوماً

فيودور دوستويفسكي



142. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 27 أكتوبر 1869

استلمت أمس الأحد رسالتك، يا صديقي الغالي، مع حوالة 100 روبل. (. . .) أنت تطلب مني فيها أن لا أزعل من كاشبيريف، وأنا أكيد لست زعلاناً منه، لا سيما وأنك تقول إنه نفسه في ضائقة مالية كانت هي السبب. ولكن تصور موقفي واحكم، هل كان بإمكاني أن لا أنفعل؟ أعتقد أن عدم الانفعال من الغضب غير ممكن حتى بتوفر المشاعر النصرانية، على حد تعبيرك. كان بوسعه دوماً أن يجيب. المسألة الآن باتت في طي الماضي، وأنا أتكلم حالياً عن الماضي فقط، خاصة إذا كان هذا الماضي يؤذيه كما يؤذيني. أقول لك صادقاً إنني لم أحقد عليه حتى عندما كتبت لك. ناهيك عما أنا مدين به لك شخصياً. ولن أنسى فضلك أبداً. فشكراً. (. . .)

بخصوص الفائدة المئوية ونفقاتي التي يريد أن يتحملها كل تلك أمور لا موجب لها. فقل له، رجاءً، إذا التقيته، إنني لن أوافق على ذلك بأية حال. فأنا لست مرابياً (. . .) أنا لا أريد أية هبات أو

عطايا. اشكره بالنيابة عني (. . .) كما أنني أشكرك أنت مرة أخرى (. . .)

والحقيقة لدي رجاءات وطلبات كثيرة إليك، رغم إدراكي دناءة ما أثقل به عليك. ولكنني لا أرى أدنى فرصة لتدبير أموري من دون مساعدتك ووساطتك. ولذا تجرأت على إزعاجك من جديد. باللّه عليك لا تزعل.

أول ما أرجوه منك بعض الوساطة بيني وبين كاشبيريف بخصوص قصتي. أنا نفسي سأكتب له، إلا أن كلمتك، كلمة الإنسان الذي يحترمه كاشبيريف أغلب الظن والمتعاطف مع «الفجر»، سيكون لها وزن كبير. والقضية كالآتي: أولاً - القصة التي لا يمكن أن تستلمها «الفجر» قبل أسبوعين من تاريخ اليوم قد تكون في 6 أو 7 ملازم من قياس «البشير الروسي» وليس 3 ونصفاً كما كتبتُ إلى كاشبيريف في بادئ الأمر (. . .) ثلثا القصة جاهزان نهائياً. حاولت جهدي أن أختصر ولم أتمكن. إلا أن القضية ليست في حجم القصة، بل في مزاياها، وأنا لا أستطيع الكلام عن المزايا، فذلك من اختصاص الآخرين. إلا أن ما يشغل بالي هو ما يريد كاشبيروف، وقد كتب لي عن ذلك، أن ينشره مقدماً عن قصتي. أنا لا أريد الإعلان بأي حال. أبداً. اطلبْ منه إذا التقيته أن لا يفعل. أشعر بأن لا إرادة لي في ذلك، فهو صاحب المجلة، ولا أستطيع أن أمنعه. ولكن هل ينزل عند الطلب؟

2) حسب الاتفاق الأولي كتبت له أنه حر في نشر قصتي هذا العام أو العام القادم، مع أنني أعربت عن رغبتي في نشرها هذا العام. وسأطلب منه عندما أرسل القصة إليه أن ينشرها في عدد ديسمبر، أو حتى في عدد نوفمبر، إذا تمكنت من إرسالها. وسيكون

الأمر صعباً عليَّ جداً إذا أرجأها إلى العام القادم. فلدي بهذا الخصوص حساباتي القائمة على التقاء الملابسات. أنا لا أقصد الحسابات المالية، القضية تختلف تماماً. بودّي أن تنشر في عدد ديسمبر. وهذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لي. عندما أصدر (المرحوم) أخي «الوقت» قررنا معاً في نهاية السنة الأولى أن الأعداد الأخيرة من العام الأول للمجلة البادئة تتسم بأهمية للاشتراكات أكثر من أهمية عددي يناير وفبراير من العام الجديد. وكان نجاح حملة الاشتراكات قد برر صواب هذه الحسابات. وإذا كان كاشبيريف يريد أن يعلن عن روايتي قبل الأوان فذلك يعني أنه يقدرني ككاتب، وإذا كان يقدرني فالأنسب له أن ينشر لي في ديسمبر. أرجوك أن تكلمه عن ذلك وأن تساعد على تنفيذه عندما أرسل القصة إلى هيئة التحرير. هذا مهم جداً بالنسبة لي، لكن القول الفصل له.

3) القصة بملازمها الطباعية السبع بمقاس «البشير الروسي» يمكن أن تأتي في «الفجر» بـ 8 ملازم ونصف. وبودّي أن تنشر القصة في عدد واحد لا أن تتجزأ في عددين. وأنا أصر على ذلك. بلّغه أرجوك.[1]

4) استلمت منه 500 روبل مقدماً، وإذا جاءت القصة بحجم 7 ملازم، فلا بد أن أستلم 500 روبل إضافية (. . .) ألا يستطيع أن يدفع قبل صدور العدد؟ (. . .) وأرجوك أن تأخذ منه المبلغ، وتقتطع لنفسك 200 روبل تسديداً لديني لك، والباقي سنستعيد به حاجياتنا المرهونة في بطرسبورغ (. . .). وسأكتب إلى كاشبيريف أن يسلمك المبلغ، كما سأطلب من شقيق زوجتي أن يتصل بك لغرض استعادة حاجياتنا. وإذا لم تنشر القصة في عدد ديسمبر تؤجل كل هذه الإجراءات طبعاً إلى يناير (. . .)

وأخيراً أهم طلب لي يخص إميليا فيودوروفنا. حينما استلمت منك حوالة الـ 100 روبل بلغ إجمالي ما استلمته من «الفجر» 175 روبلاً. وما دام كاشبيروف وعدني بـ 200 فهل يمكن تسليم الـ 25 روبلاً المتبقية إلى إميليا؟ (فهي في عوز شديد) (. . .) وسأطلب من كاشبيروف أن يبعث إليها عن طريقك فيما بعد 25 روبلاً أخرى.

لم أكن أريد أن أكتب الآن عن أقاصيصك بشأن التاريخ الروسي. لأنني كنت أريد أن أكتب عنها الكثير. ولكنني لم أتمالك نفسي في هذه الرسالة، فكتبت لك بضعة سطور. قرأت الأقصوصتين الأوليين، وغني عن البيان أنهما تعجبانني. لكن ثمة عيباً مهماً للغاية بشأنهما، وهو أنك ربما ستكتب أقصوصتين أخريين وتهمل المسألة. أنا واثق بذلك تقريباً. كل ما في الأمر أنك ستتهاون وتطيل الأمد، بينما يمكنك أن تقدم نفعاً كبيراً جداً. فلو واظبت على الكتابة وأنجزت 25 أقصوصة على الأقل يمكنك أن تصدرها في كتاب يعود بالمنفعة على جميع المدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية (. . .) وتغدو تلك الأقاصيص ضمن مناهج التعليم. ففي تلك المؤسسات لا يقرأون كارامزين (تاريخ الدولة الروسية) ولا سولوفيوف (تاريخ روسيا من أقدم العصور) بالكامل، فيما يمكن لكتابك أن يقرأ من ألفه إلى يائه ويرسخ إلى الأبد الأفكار السليمة الواضحة في أذهان التلاميذ الغضة. وإذا كنت تؤكد أن الشيوخ يقولون إن في أقاصيصك ما يصلح للإرشاد فإنهم سيقتنون الكتاب لأبنائهم بالتأكيد. وسيبقى كتاباً ضرورياً جداً للتربية على مدى عشرين عاماً. وإذا نشر نصف الأقاصيص في المجلات فإنها ستروّج سلفاً للكتاب وتوضحه. وإذا حكمنا من وجهة النظر الاقتصادية وحدها فإن ذلك رأسمال، ولعله رأسمال كبير. ويمكن أن يصدر الكتاب في عدة طبعات خلال العشرين عاماً. فهل

يصح إهمال ذلك كله من دون الاستفادة منه. تلك فكرتك، فكرتك أنت شخصياً. وإذا أهملت القضية يأتي شخص مثل رازين صاحب «دنيا اللّه» فيسبقك ويكتب أقاصيصه ويصدرها ويكسب منها، وينسف مواقعك. المهم أن لا تهمل المسألة.

ألا توجد فرصة لإبلاغ كاشبيريف بأن يرسلوا لي «الفجر» في الموعد، فأنا مشترك أدفع الثمن. وكيف حال المشتركين في المناطق الهامشية؟ المجلة لا يمكن أن تستمر بهذه الصورة. وستتقوض بسبب الإهمال حتى لو اشتغل عندهم موظفون من مستوى بوشكين وغوغول. إنهم يسيئون إلى أنفسهم. كرايفسكي (صاحب «مذكرات الوطن») نجح من الناحية التجارية باعتماد الدقة والعقلانية. فيما أتعذب أنا في استلام كل عدد من «الفجر». فكيف أتعاون مع مجلة لا أطلع على ما فيها؟ (. . .)

والآن أنتقل إلى ستيلوفسكي. وأبعث إليك نسخة طبق الأصل من العقد الموقع بيني وبينه عام 65، مستنسخة بدقة فائقة حتى مع الأخطاء النحوية الواردة في النص. ستيلوفسكي أرغمني قسراً على توقيع هذا العقد بتنفيذ كمبيالة ضدي مهدداً بزجي في السجن حتى أن معاون شرطة الحي جاءني لهذا الغرض. إلا أنني كسبت ود المعاون، فزوّدني فيما بعد بمعلومات كثيرة استفدت منها في «الجريمة والعقاب» (. . .) كانت فكرتي أن أبيع «الأبله» لستيلوفسكي بـ 1000 روبل، 500 منها نقداً، و500 بكمبيالات قصيرة الأجل (. . .) وفي بعض فقرات عقد «الأبله» شيء من الالتباس. (. . .) للأسف اتضح أن ستيلوفسكي نصّاب مخادع. وهو يريد أن يكسب لنفسه بالحق والباطل عاماً إضافياً من حقوق طبع «الأبله» (. . .)

(وفي كل الأحوال) ينبغي أن لا ننسى أن ستيلوفسكي نصّاب

غادر. وإذا اتفقت معه فسأساعد بافل وإميليا فيودوروفنا من هذه الـ 1000 روبل.

قصتي «للفجر» ستحمل، على ما أعتقد، عنوان «الزوج الأبدي»، ولكنني لست متأكداً.

إلى اللقاء يا عزيزي. آنّا غريغوريفنا تحييك وتشكرك.

(الصغيرة) لوبوف في صحة جيدة، وبدأت تفهم. تحياتها لك ولبافل.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) قصة «الزوج الأبدي» نشرت مع ذلك في عددين من «الفجر» لعام 1870.



143. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 12 فبراير 1870

يخجلني جداً أن أزعجك، يا أبولون نيكولايفيتش العزيز الموقر. إلا أن الظروف دفعتني هذه المرة بحكم الضرورة أن أطلب مساعدتك من جديد. أنا قلق جداً بخصوص إحدى المسائل، وأرجوك بصددها، كإنسان طيب في معاملتي، رغم عدم وجود أي حق لي كي أطلب خدمة منك، لكنني أفكر أحياناً في أنك بقيت ولو جزئياً أبولون نيكولايفيتش نفسه الذي شاطرني أحوالي في حينه مشاطرة دافئة للغاية. ولكنك أكيد مللت مني، مع أنني لست مذنباً في حقك بشيء. لذا اعذرني هذه المرة أيضاً على الإزعاج.

مشكلتي كالآتي: قبل حوالي شهرين بعثت إلى بافل وكالة مصدقة حسب الأصول، عن طريقك على ما أتذكر. وبالتالي أنت ربما تعلم بوجود هذه الوكالة في يد بافل. وبعد ذلك ساد الصمت، ولم أستلم أي جواب طوال شهر. وأخيراً استلمت من بافل قبل شهر ونصف رسالة يطلب مني فيها موافقتي على اقتراح ستيلوفسكي بتمديد فترة حقوق الطبع عاماً آخر. فوافقت رأساً (...) وتصورت الأمر حقيقة.

ومنذ ذلك الحين لم أستلم خبراً (. . .) وفقاً للعقد الموقع مع ستيلوفسكي ينبغي أن أستلم في هذا العام قرابة 900 روبل مقابل نشر «الجريمة والعقاب» (. . .) وأخشى أن يكون هناك تلاعب وراء هذا الصمت، مع أني لا أريد أن أشكك في نزاهة بافل. لكنه شاب طائش (. . .)

طلبي إليك يتلخص في ما يلي:

أن تستدعي بافل (ليبلغك بسير القضية وتأخذ منه الوكالة وتحتفظ بها) (. . .) وإذا رفض تسليمك الوكالة بلّغه أنني سأنشر في الصحف نبأ إلغائها، وسيكون ذلك أسوأ بالنسبة له.

أنا لا أستطيع ترك الوكالة عنده، لأنه سيعرضها على جميع المتاجر ويبيع حقوق طبع مؤلفاتي ويسيء إلى سمعتي. (. . .)

قبل أسبوعين بعثت إلى كاشبيريف رجاءً بأن يرسل لي ما تبقى من أجر القصة وهي منضّدة لأجل العدد الثاني، ما يعني أن من السهل جداً عليه أن يجري الحسابات. ولم أستلم جواباً ولو بسطر واحد. ما أسهل إجراء تلك الحسابات لأسبوعين أو أسبوع قبل الأوان، فيما أنا أكاد أهلك. أرجأت ديوني المستحقة للحوانيت وأصحاب البيت، ففقدت الائتمان، كما أبلغوني. وكاشبيريف يخشى أن يدفع لي الآن، ولا أدري لماذا؟ (. . .) لاحظت في الجرائد أنه سلم مقدماً إلى ليسكوف، على سبيل المثال، 1500 روبل، شأنه شأن بيسيمسكي، بينما لا يدفع لي حتى عندما أطلب في الموعد الشرعي وليس مقدماً. لم يحصل معي مثل هذا الأمر أبداً، ولم أكن يوماً في مثل هذه الحاجة، وقد كسبت في أربعة أشهر حوالى 1500 روبل (المفروض أن أستلمها كاملة). أنا أكتب له مرة أخرى، وأرجوك أن تذكّره بي فلعله نسيني. باللّه عليك، أنا في أمسّ الحاجة لدرجة تكاد تقود إلى الانتحار.

يطيب لي لو عرفتُ أن مجلتهم رائجة، وهل ازداد عدد المشتركين فيها؟ (. . .) أنا أشفق على «الفجر»، فهي مجلة ذات اتجاه جيد. ما حاجتهم إلى إسلوب الإعلان سلفاً عما ينشر: «في العدد القادم تبدأ رواية «الغجر» (للكاتب كلوشنيكوف)»؟ يظهر هذا الإعلان مرتين على الصفحة الأولى وببنط عريض. المجلة التي اتخذت منذ العدد الأول أسمى وأرقى لهجة من حيث الاتجاه والنقد لا يجوز لها أن تعلن عن «الغجر» على رؤوس الأشهاد، ما لم تكن هذه الرواية ترقى في مزاياها إلى مستوى «النفوس الميتة» و«عش النبلاء» و«أوبلوموف» و«الحرب والسلام». في حين تفتقر «الغجر» إلى المزايا أصلاً، ناهيك عن مستوى «النفوس الميتة» (. . .)

العدد الأول من «الفجر» لهذا العام يترك انطباعاً باهتاً للغاية: غياب الموضوعات الملحّة الحساسة والساخنة، وقد تعوّدوا على غيابها، والأدب قليل للغاية، حتى قصتي (الزوج الأبدي) قسموها إلى قسمين، ترجمتك الرائعة («كلمة عن عساكر إيغور») لا يمكن اعتبارها من الأدب (الخالص)، أليس كذلك؟ فهي ملحمة شعرية، لكنها في الوقت ذاته عبارة عن مقالة علمية وليس أدبية. مثل هذه الأشعار تنشر لإثراء المجلة والظهور بمظهر الأناقة، بينما نحتاج إلى الأدب الخالص أيضاً. حتى ترجمة رواية (هارييت بيتشر ستو Old Town Folks) هزيلة تافهة، وحتى النقد، رغم لهجته القوية السابقة إنما هو مع ذلك تكرار، للمرة الثالثة أو الرابعة، لأفكار قديمة[1]. عدد ديسمبر من العام الماضي ظهر إلى النور قبل الأعياد، فيما يصدر عدد يناير لهذا العام حسبما كتبت الصحف في 23 من الشهر. ألن يقول المشتركون: «إذا كان العدد الأول في هذه الفترة الساخنة، فترة الاشتراكات الجديدة، يصدر بمثل هذا التأخير فماذا سيحصل للأعداد

10 و11 و12 يا ترى؟». أنا على يقين أن الجميع في هيئة التحرير، وعلى رأسهم كاشبيريف، يعتبرون هذه الهفوات طفيفة ومن صغائر الأمور. إلا أن عدد هذه الصغائر بالعشرات، وقد تكون أبعدت عن المجلة ربما ألف مشترك جديد. وذلك وسط منافسة شديدة، مثلاً، من «بشير أوروبا» التي استقطبت كل الأسماء اللامعة، تورغينيف وغونتشاروف وكوستوماروف (...) إلا أن القائمين على «الفجر» يعتبرون ذلك كله تفاهات، فالمهم هو الاتجاه. أنا طبعاً لا أتحدث عن الاتجاه، بل عن مهارات الطباعة والنشر. ولذا يؤسفني أن تكون «بشير أوروبا» المجلة الرائدة بلا شك. فهل نجحت «الفجر» في استقطاب المشتركين؟

بعد أن كانت نوبات الصرع متباعدة أخذت تضربني من جديد وتغضبني لأنها تحول دوني ودون عملي. عكفت على فكرة غنية، لا أقصد التنفيذ، بل الفكرة نفسها. وهي من الأفكار التي لها تأثير لا ريب فيه على الجمهور، مثل تأثير «الجريمة والعقاب»، لكنها أقرب منها إلى الواقع وأكثر إلحاحاً، وتتناول مباشرة أهم مسألة معاصرة. وسأنتهي في الخريف من دون تسرّع أو استعجال. وسأسعى إلى إصدارها في الخريف نفسه، وإذا لم أفلح لا يهم[2]. سأحاول الحصول على نقود تعادل ما استلمته مقابل «الجريمة والعقاب»، ما يعني أني آمل أن أرتب كل أموري حتى نهاية العام، وأعود إلى روسيا. إلا أن الموضوع ساخن جداً. ولم أكن قد عملت أبداً بمثل هذا الارتياح وهذه السهولة. ولكن كفاية. إنني أقضي عليك برسائلي التي لا تنتهي. كلّم كاشبيريف، إن أمكن، بخصوص النقود، وعالج أمر بافل كما طلبتُ، وسأبقى شاكراً لك مدى العمر. كلنا نحييك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود مقالات الناقد نيكولاي ستراخوف عن «الحرب والسلام» لتولستوي.

(2) بدأت «البشير الروسي» بنشر «الشياطين» في عددها الأول لعام 1871.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

144. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 26 فبراير 1870

شكراً لك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، على رسالتك وعلى تذكرك لي. في الغربة رسائل المعارف الطيبين السابقين ثمينة. مايكوف، مثلاً، لم يعد، على ما يبدو، يكتب لي إطلاقاً[1]. كما قرأت بنهم شديد سطور الاستحسان القليلة التي كتبتها عن قصتي (الزوج الأبدي). وهذا يسرّني ويداري غروري. فأنا أرغب دوماً في إرضاء قراء من أمثالك، أو على الأصح أرغب في إرضائهم وحدهم. كاشبيروف راض أيضاً، وأشاد بالقصة في رسالتين. أنا مسرور جداً لذلك كله، ومسرور بخاصة لأنك تقول عن «الفجر»: سيكون رائعاً لو رسخت مواقعها. فأنا كلياً أنتمي إليها من حيث الاتجاه، وبالتالي فإن نجاحها نجاحي. إنها تذكّرني، على نحو ما، «بالوقت»، وقت «فتوتنا»، يا نيكولاي نيكولايفيتش. وأقول لك بصراحة إذا شئت: كنت أشك في نجاح حملة الاشتراكات. لم أكن أقلق على نجاح المجلة نفسها، فهي ستستقطب المشتركين آجلاً أم عاجلاً. ولكنني كنت قلقاً بعض الشيء على حملة الاشتراكات الحالية. وتصورت بهذا

الخصوص أن المجلة كان يمكن أن تصدر بمزيد من العناية، بل وبمزيد من الثقة بالنفس. إلا أنني أخطأت، وهذا شيء رائع. 2500 مشترك شيء رائع لأنه يعني أن المجلة تقف على قدميها. طبيعي أن الـ 3500 مشترك أفضل بكثير. وأنا لا أفهم تماماً عدم وجود هذا العدد منهم لدى مجلة بمثل هذا الاتجاه الضروري وبمثل المقالات التي نشرتها في العام الفائت. أنا على يقين بأن الألف مشترك الذين لم يلتحقوا بالمجلة إنما كانوا يطرقون باب هيئة التحرير، لكنها فوَّتتهم بالصدفة. وكان الأمر يتوقف على الصغائر، ربما على قلة الحذق والشطارة في النشر. وهذه الصغائر مهمة في العمل الطباعي. أنا أدرك تماماً أنني أتدخل الآن في شأن لا يعنيني، ولكن احكم بنفسك: إعلانات الجرائد تقول إن عدد فبراير من «الفجر» صدر في 16 من الشهر، واليوم هو 26 فبراير وأنا لم أستلمه حتى الآن. (. . .) أرجوك، باللّه عليك، اسألهم هل نسوا أن يبعثوا لي العدد المذكور؟ تلك بلا ريب من صغائر الأمور، ولكن إذا تراكمت هذه الصغائر فلا غرابة أن يمر ألف مشترك على المجلة مر الكرام.

عندما استلمت العدد الأول من «الفجر» كتبت إلى مايكوف أنه لم يترك في نفسي انطباعاً عميقاً. فالأدب النثري فيه بدا لي قليلاً. هناك قصتي وحدها، وأنت تمتدحها، ولكنها ليست الكل في الكل حتى يمكن الاستغناء بها عن غيرها. وإلى ذلك فهي نصف قصة. المنشور منها 5 ملازم فقط. ثم إن «كلمة» مايكوف («عن عساكر إيغور») ليست سرداً أدبياً، وإنما ترجمة شعرية، ومقالتك رغم روعتها إنما هي على أية حال تتناول موضوعاً قديماً. أنا أتكلم من وجهة نظري، وليس من وجهة نظر المشتركين. على فكرة، من قال لك إن مقالتك عن تورغينيف أفضل مما كتبته عن تولستوي؟ المقالة عن تورغينيف

رائعة وواضحة. إلا أنك، في مقالاتك عن تولستوي، وضعت، إن صح التعبير، نقطة الارتكاز التي تنوي مواصلة نشاطك منها. تلك هي وجهة نظري. وأنا، إذا سمحت، موافق حرفياً الآن، خلافاً للسابق، على كل ما جاء في الآلاف العديدة من سطور هذه المقالات ولا أستثني منها سوى سطرين، لا أقل ولا أكثر، لا أستطيع أن أوافق عليهما. وسأعود إليهما فيما بعد. المهم أن المجلة تأسست والحمد لله.

على فكرة، لماذا تقول عن صحتك إن بدنك كله في صرير؟ هل أنت مصاب بمرض مزمن؟ أسمع منك هذا الكلام لأول مرة. أما صحتي فلا بأس بها. أنت تعلم، نوبات الصرع، وفيما عدا ذلك كل شيء تمام.

تسألني عما إذا كنت سأساعد، بمعنى أشارك في «الفجر». أقول لك بمنتهى الصراحة، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، إنني أتمنى للمجلة كل النجاح من صميم القلب. ولكن لكي أتمكن من إعداد شيء لائق لها ينبغي أن تساعدني هي مقدماً. فهل المجلة قادرة على ذلك؟ هذا هو السؤال. الحديث عن الدفع مقدماً ليس من الأهواء والتعالي أو التغنج والغرور من جانبي. خاصة وأن أحداً لم يطلب مني المشاركة، بل أنا أقترحها، ولا أعتبر دعوتك للتعاون طلباً رسمياً. وأعتقد أن من الممل الإسهاب الذي لا موجب له في الكلام عن أوضاعي المالية، لكنك ستفهم حقيقة الأمر من كلمتين: عملت طول عمري من أجل النقود، وطول عمري كنت بحاجة إليها في كل لحظة، والآن أنا بحاجة أكثر مما في أي وقت مضى.(. . .) (أنا لا تتراكم عندي النقود) حتى أستطيع أن أتحمل عدة أشهر ثم أبيع الرواية جاهزة، كما يفعل أدباؤنا الأقدم(2).

ولكنني أقول لك صراحة بهذا الخصوص إنني لم أبتكر الحبكات أبداً من أجل النقود وبسبب الالتزامات التي أتعهد بها لتسليم النتاج في موعد محدد. كلا. أنا ألتزم دوماً وأعرض نتاجي للبيع بعد أن يكون في ذهني الموضوع الذي أرغب في كتابته حقاً، وأعتبر الكتابة فيه أمراً ضرورياً. في ذهني الآن موضوع من هذا النوع. ولن أسترسل في الحديث عنه حالياً، بل أكتفي بالقول إن من النادر أن تتبادر إلى ذهني أفكار أكثر منه جدة وكمالاً وأصالة. أقول ذلك ولا أخشى الاتهام بالغرور، لأنني أتكلم فقط عن الموضوع، عن الفكرة المرتسمة في ذهني، وليس عن الأداء، فهو يتوقف على المشيئة الإلهية، ويمكن أن أحيد وأفسد العمل، وقد حصل معي ذلك كثيراً، إلا أن شيئاً في داخلي يوحي لي بأن الإلهام لن يخونني. وأنا أتعهد بجدة الفكرة وأصالة الأسلوب، ولا أزال معجباً جداً بفكرة الرواية التي ستتألف من جزءين في ما لا يقل عن 12 ملزمة ولا يزيد عن 15 كما أعتقد. على أي حال لن تتجاوز الـ 15 ملزمة طباعية. ويمكن أن تصل إلى هيئة التحرير في الأول من ديسمبر العام الحالي، 1870، على الأرجح. أريد أن أوفر الوقت لأكتب كثيراً (. . .)

هذا كل ما أستطيع أن أقدمه إلى المجلة من جهتي، ومن جهة هيئة التحرير أرجو أن تسلمني مقدماً ألف روبل على النحو التالي: خمسمئة بعد شهر من الآن، والخمسمئة الأخرى، ولو موزعة على دفعات بمئة روبل كل شهر، بعد مرور شهر واحد على دفع الخمسمئة الأولى. والمهم أن يدفعوا بانتظام. الـ 500 الأولى دفعة واحدة بعد شهر بالضبط (. . .) وأضيف إلى ذلك أنني لا أرى في هذا النوع من الاقتراحات سوءاً وإفراطاً، ذلك لأنني قدمت عشرات

المرات اقتراحات مماثلة، بل وبمبالغ أكبر وقد حظيت جميعها تقريباً بالقبول. (. . .) كما أضيف أنني طوال حياتي الأدبية دأبت على تنفيذ التزاماتي بمنتهى الدقة ولم أقصر في واجبي ولا مرة واحدة. وإلى ذلك لم أكتب مرة من أجل النقود وحدها لمجرد أن أتملص من الالتزامات. وعندما كنت أفسد النتاج يحصل ذلك بصدق من دون نوايا سيئة.

ثم إنني ألتزم بأن لا أزعج هيئة التحرير بطلبات مالية محتملة أخرى، ما عدا هذه الألف روبل، إلى حين توصيل المخطوطة. وأخيراً أتعهد بأن لا أموت في هذا العام.

وهكذا أنتظر ردك، ولديّ رجاء ملحّ إليك. ابعثْ لي، إن أمكن على حساب الأجر المنتظر، كما فعلت عندما أرسلت لي «الحرب والسلام»، كتاب ستانكيفيتش عن غرانوفسكي هذه المرة. وسأكون شاكراً لك على هذا الفضل ولن أنساه أبد الدهر. أنا بحاجة إلى هذا الكتيب حاجتي إلى الهواء وبأسرع ما يمكن، بوصفه مادة ضرورية جداً لعملي لا أستطيع الاستغناء عنها بأي حال[3]. فلا تنس تزويدي بالكتاب، لوجه المسيح، إذا رأيت أن ذلك بالإمكان.

آنّا غريغوريفنا تتذكرك وتبلغك تحياتها القلبية. نحن الآن نسهر على وليدتنا لوبا (مصغر لوبوف للتحبيب- المترجم). آه يا نيكولاي نيكولايف، لماذا لا تتزوج فيكون عندك طفل؟ أقسم لك أن في ذلك ثلاثة أرباع السعادة في الحياة. وفي ما تبقى ربع لا أكثر.

هل يعقل أنني اليوم أيضاً لن أستلم «الفجر»؟

أحدّ أسناني لألتهم مقالتك عن المسألة النسوية، فهي موضوع مهم وأتوقع أن أنعم بارتياح عظيم (في مطالعته). فأنت بالذات من

يستطيع الكتابة فيه كما ينبغي. أنا دوماً أستل مقالاتك من المجلة. أقول ذلك ليس للمجاملة.

من المحتمل تماماً أن نلتقي هذا العام.

المخلص لك من صميم القلب

فيودور دوستويفسكي

---

(1) بعد أيام معدودات استلم دوستويفسكي رسالة من أبولون مايكوف.

(2) تلميح إلى تورغينيف الذي كان ينشر مؤلفاته بعد الفراغ منها، على عكس دوستويفسكي الذي ينشر الفصول الأولى من رواياته قبل أن يشرع بكتابة فصولها الأخيرة.

(3) استعان دوستويفسكي بالكتاب المذكور في تأليف «الشياطين».



145. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 24 مارس 1870

أجيب الآن على رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش، وأبدأ بأموري. أقول لك نهائياً وبصراحة إنني، بعد أن أجريت كل الحسابات، لا أستطيع ولا أجرؤ أن أعدكم بالرواية لأعداد الخريف[1]. يخيل إليَّ أن ذلك متعذر تماماً. ثم إني أرجو هيئة التحرير أن لا تثقل عليَّ بالمطالبة بالعمل، فأنا أريد أن أؤديه نظيفاً بقصارى الجهود، كما يفعل أولئك السادة «العظام»[2]. أنا مسؤول عن أمر واحد، هو أن أنتهي في يناير العام القادم. هذا المؤلف أعز عليّ من الباقيات. ففيه إحدى أثمن أفكاري، وبودّي أن يأتي جيداً جداً. في الحال الحاضر أعكف على عمل «للبشير الروسي» (الشياطين)، وسأنهيه قريباً. فأنا لا أزال مديناً للمجلة بمبلغ كبير. ولو توجهت الآن إلى كاتكوف، وأنا في عوز شديد، واصفاً له كل أموري فمن الواضح أن عملي اللاحق سيكون من حصته أيضاً. وأنا أوضح لك كل شيء هنا بصراحة. أنا أعوّل كثيراً على ما أكتبه الآن «للبشير الروسي»، ليس من الناحية الفنية، بل من ناحية الاتجاه، فأنا

أريد أن أعرض عدة أفكار حتى لو تردت موهبتي الفنية. فما يجتذبني هو ما تراكم في ذهني وفؤادي، وأريد له أن يخرج ولو بما يشبه الأهاجي، على أن أعبّر عن نفسي بالتمام والكمال. وآمل في النجاح. ومن، يا ترى، يعكف على الكتابة دون أن يأمل في النجاح؟

(. . .) بعد إنهاء عملي «للبشير» قريباً سأتفرغ للرواية بكل ارتياح.

فكرة هذه الرواية تراودني وتناغيني منذ ثلاثة أعوام. ولكني في السابق كنت أخشى الشروع بكتابتها في الخارج. كنت أريد أن أتواجد في روسيا لهذا الغرض. وخلال ثلاث سنوات نضج في ذهني الكثير وارتسم مخطط الرواية كاملاً، وأعتقد أنني أستطيع أن أكتب القسم الأول منها هنا، وأعني الجزء الذي أقدمه إلى مجلة «الفجر». لأن الأحداث فيه حصلت قبل سنوات عديدة. لا تشغل بالك بمفردة «القسم» الأول، ذلك لأن الفكرة تتطلب حجماً كبيراً من السرد، بمقدار «الحرب والسلام» في أقل تقدير. إلا أن الكتاب سيتكون من خمس روايات مستقلة لدرجة يمكن معها لبعض الأقسام، ما عدا قسمين في المنتصف، أن تصدر في مجلات مختلفة كقصص طويلة منفردة، أو في طبعات مكتملة تماماً. العنوان العام للكتاب هو «الخاطئ» (سيرة شيخ الفاسقين)[3]، ولكل قسم فيه عنوان خاص. القسم الواحد، وهو رواية أيضاً، بحجم 15 ملزمة لا أكثر. كتابة القسم الثاني تتطلب وجودي في روسيا.

أحداث هذا القسم تجري في الدير، ومع أني أعرف حياة الأديرة الروسية[4] تمام المعرفة إلا أنني أريد أن أتواجد في روسيا من كل بد. بودّي أن أتكلم معك بمزيد من التفصيل، فكيف أستطيع ذلك من خلال الرسائل؟ أكرر أنني لا أستطيع أن أعد بالكتاب لهذا العام، فلا

تستعجلوني، وإلا تستلمون نتاجاً غثاً يخجلني، أو قد يكون جيداً. فأنا على أية حال جعلت من هذه الفكرة هدفاً لحياتي الأدبية في المستقبل، لأنه ليس بالإمكان الأمل في العيش والكتابة أكثر من 6 أو 7 سنوات. قل «للفجر» أن لا تزعل لأنها تسلم النقود قبل تسعة أشهر من استلام العمل. فقد كنت أحياناً أستلم النقود مقدماً قبل عامين. ولا حصاد من دون بذار (. . .) أرجوك يا صديقي الطيب القديم نيكولاي نيكولايفيتش أن تبلغني عاجلاً إذا كانت هناك موافقة من المجلة لأعرف ذلك بالتأكيد. فإن احتياجاتي تزداد بتسارع عظيم ولا يمكنني أن أفوت لحظة من الوقت. أنا أعيل زوجتي وطفلتي، وإلى ذلك تقتضي الكتابة استقراراً نفسياً وهدوء أعصاب. فليتخذ كاشبيريف قراراً ما. سواء بالسلب أو الإيجاب لأعرف النتيجة على الأقل. الوقت بالنسبة لي ثمين. وحتى الرفض والحال هذه أكثر نفعاً من المماطلة في الإجابة بنعم. ، فلا أضيع الوقت جزافاً.

قرأت عدد مارس من «الفجر» بمنتهى الارتياح. وأنتظر بفارغ الصبر بقية مقالتك لأفهم كل ما فيها. أشعر أنك تريد أن تصور هيرتسن غربوياً وتتحدث عن الغرب على النقيض من روسيا، أليس كذلك؟ لقد حالفك التوفيق بالكامل عندما طرحت الفكرة الرئيسية عند هيرتسن، ألا وهي التشاؤم. ولكنْ هل تتصور فعلاً أن شكوكه المطروحة في «من المذنب؟» و«الدكتور كروبوف» وسواهما غير قابلة للحل؟ يخيل إليّ أنك تتحاشى هذا الموضوع لكي تعبّر خصيصاً عن فكرتك الرئيسية. على أية حال أنتظر على أحر من الجمر بقية مقالتك، فالموضوع حداثي واستفزازي جداً. وكيف سيكون الأمر عندما تدلل على أن هيرتسن قال قبل الكثيرين إن الغرب يتعفن؟ ماذا سيقول الغربويون من عهد غرانوفسكي؟ لا أدري هل سيأتي ذكر ذلك

في مقالتك؟ كل ما في الأمر تلك توقعاتي. على فكرة، وإن كان ذلك لا يدخل ضمن موضوع مقالتك، هل صحيح أن ثمة وجهة نظر أخرى في تحديد جوهر نشاط هيرتسن بمجمله، وهي أنه كان دوماً وفي كل مكان شاعراً بالأساس. الشاعرية تعلو عنده في كل نشاطاته. إنه شاعر داعية، وشاعر سياسي، شاعر اشتراكي، وشاعر فيلسوف، شاعر بأسمى معنى للكلمة. خاصية طبيعته هذه، باعتقادي، يمكن أن توضح الكثير في نشاطه، حتى الاستخفاف والميل إلى التلاعب بالألفاظ أثناء معالجة أسمى المسائل الأخلاقية والفلسفية، وذلك بالمناسبة ينفّر منه الكثيرين.

المسألة النسوية في عدد فبراير معروضة عندك بشكل رائع في اعتقادي (. . .) ولكنك رقيق جداً في التعامل. يجب أن تكتب والسوط بيدك، فأنت أذكى منهم في حالات كثيرة. والأفضل لو كنت تهاجم بخشونة أكثر. العدميون والغربويون يستحقون ضربة قاضية. وأنت كأنما تستعطفهم في مقالاتك عن تولستوي بأن يوافقوا على ما تقول. في حين أنك تقع في المقالات الأخيرة عنه تحت وطأة الكآبة وخيبة الأمل، فيما ينبغي أن تكون اللهجة باعتقادي مهيبة ومستبشرة لحد الوقاحة. فماذا تعتقد؟ هل يفهمون حقاً فكاهتك الرقيقة الرائعة (. . .) في (مقالتيك عن تورغينيف)؟

ثم هناك سطران عن تولستوي لن أوافقك عليهما، حيث تقول إن ليف تولستوي يعادل كل ما هو عظيم في أدبنا. هذا كلام غير جائز أبداً. بوشكين ولومونوسوف عبقريان. ظهور «وصيف القيصر بطرس الأكبر» و«بيلكين» (من مؤلفات ألكسندر بوشكين) يعني تماماً ظهور كلمة جديدة لم تكن موجودة قبل الآن في أيما مكان ولم يقلها أحد في أي زمان. أما ظهور «الحرب والسلام» فيعني الظهور بعد تلك

الكلمة الجديدة التي نطق بها بوشكين من قبل، مهما مضى تولستوي إلى أبعد وأعلى في تطوير الكلمة الجديدة التي قالها عبقري قبله. وهذا في منتهى الأهمية باعتقادي. على أية حال لا يمكنني أن أبدي رأيي كاملاً في بضعة سطور.

هل يعقل أن ميلوكوف وصل إلى هذا الحد؟ ماذا يفعل الآن؟

معذرة. رواية تشايف «القوى الخفية» أعجبتني كثيراً. مكتوبة جيداً وفيها شاعرية، فلماذا فوتموها؟

(مسرحيته) «الكنة» أكثر جدية ككتاب. لكنها ليست رواية، وإلى ذلك هي مكتوبة شعراً. أنا أحكم عليها من وجهة نظر الساحة الضرورية لاستقطاب المشتركين في المجلة.

آنّا غريغوريفنا تبعث تحياتها القلبية. آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، ليتنا نعود إلى الديار عاجلاً، يا ليت.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) «الخاطئ»

(2) المقصود تورغينيف وليف تولستوي وغونتشاروف المتمكنون مالياً.

(3) لم يقدَّر لدوستويفسكي أن يؤلف هذه الرواية.

(4) موضوع الأديرة انعكس عند دوستويفسكي في «الشياطين» و«الأخوة كارامازوف».

146. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 25 مارس 1870

معذرة، يا أبولون نيكولايفيتش الطيب المحترم، لتأخري في الجواب حتى الآن مع أنني حاولت كل يوم أن أكتب لك. ذلك، أولاً، بسبب العمل، وثانياً، صحتي والوساوس التي عادت إليّ، في العزلة، بشأنها، فكنت مكتئباً للغاية. نبضات القلب مشوشة، ولا أستطيع أن أغفو. راجعت طبيباً من كبار البروفيسوريين، ففحصني بالكامل وقال: «لا شيء إطلاقاً سوى الأعصاب. الأعصاب متوترة للغاية». ينبغي مغادرة درزدن لفصل الصيف، حبذا لو أمكن السفر إلى البحر للسباحة. وهو أمر جيد أيضاً لزوجتي. ولا جدال أن هواء الوطن هو الأفضل. كل ما كتبته في رسالتك عن ذلك هو جوهر الحقيقة، عين الحقيقة(1). ولكنْ، يا أبولون نيكولايفيتش، ألا تعرف لماذا لا أعود ولا أستطيع أن أترك بلاد الغربة اللعينة؟ لن أتمكن من العودة مطلقاً لبعض الوقت، وهل تتصور أنني قليل الحنين والتشوق بكل جوانحي إلى روسيا؟ ثم ما أشد حنين زوجتي إليها، وهل يسرّني أن أرى كآبتها؟ وإلى ذلك أنا أعلم علم اليقين، بالوقائع، أن أموري

من الناحية الاقتصادية ستكون في روسيا أفضل بثلاث مرات مما أنا فيه هنا. أريد أن أقول لك نهائياً بهذا الخصوص إنني أقسم لك، يا صديقي العزيز، أنني لن أعبأ بسجن الديون، فقد رأيت أبشع منه في حياتي. كنت سأقضي سنة في السجن وأتخلص من الديون. ولكنني أعرف أن ذلك كان ممكناً في الماضي، قبل خمس سنوات، أما الآن فهو متعذر بالتأكيد. صحتي لن تمكنني من التحمل في السجن العمومي حتى لستة أشهر، والأهم أنني لن أكسب شيئاً هناك (لتسديد الديون)، ناهيك عن التأليف. بخصوص الكتابة والتأليف في الخارج كلماتك من ذهب خالص. بالفعل سأتخلف، ليس عن العصر ولا عن معرفة ما يجري عندكم، فلعلي أعرف ذلك أفضل منكم لأنني أقرأ يومياً، نعم يومياً، ثلاث صحف روسية عن آخرها وأستلم مجلتين. سأتخلف عن الينبوع الحي للحياة، سأتخلف ليس عن الفكرة، بل عن تجسدها في لحم ودم. وما أشد تأثير ذلك على عمل الفنان. كل ذلك هو عين الحقيقة، ولكن ما العمل؟ هل أتفق مع الدائنين وأطلب منهم مهلة عام لأسدد بعدها ديوني لهم؟ وهل يوافقون؟ إذا دفعت نصف المبلغ ربما يوافقون على منحي مهلة عام. أنا أفكر في ذلك ليل نهار. وحتى لو دفعت ثلث المبلغ ربما يوافقون. لكن الدخول في علاقات معهم صعب الآن. اللّه يعلم هل هم موجودون جميعاً في بطرسبورغ. ذلك أمر ضروري، لكن النقود غير متوفرة. إجمالي الديون الخطيرة، أي ديون الكمبيالات، 4000 روبل. ما يعني ألفين لتسديد (نصف المبلغ) وألفاً للمغادرة والانتقال إلى بطرسبورغ. المجموع اللازم ثلاثة آلاف. من أين لي بها؟ صدقني، لو لم أترك بطرسبورغ آنذاك لتمكنت من تسديد جميع الديون في غضون عامين. لكنني غادرت لأن بيتشاتكين أقام عليّ دعوى المصادرة، وعلمت بذلك سلفاً. فكيف

كان سيغدو حالي إذا زجوا بي في السجن وقد تزوجت تواً؟ لم أتحمل ذلك، فارتحلت. تلك هي القضية. عموماً سأفكر في هذا الموضوع وأمعن التفكير في الصيف حين تتضح الأمور. أما الآن فأنا أعمل «للبشير الروسي»، أنا مدين لها. وعندما أسلم «الزوج الأبدي» إلى «الفجر» أضع نفسي في موقف حرج. ينبغي أن أنهي ما أكتبه الآن مهما كلف الأمر. وما وعدتهم به ثابت لا يتغير، فأنا في الأدب إنسان شريف. ما أعكف على كتابته الآن عمل ذو اتجاه متحيز أريد أن أتحدث فيه بحرارة. وسيتهمني العدميون والغربويون بالرجعية[2]. فليذهبوا إلى الشيطان. وسأعبّر عن رأيي كاملاً. فهل تعلم بمدى حيرتي؟ لا أستطيع الجزم هل سأوفق أم لا؟ تارة يخيل إليَّ أن الكتاب سيكون موفقاً للغاية، وسأتلقف مبلغاً مقابل الطبعة الثانية، وتارة أتصور أنني لن أوفق أبداً. أن أفشل تماماً أفضل لي من نجاح منقوص إلى النصف. ولعلك ضربتني بهراوة على الجبين بملاحظتك عن «التمادي في التصورات» التي لمستَها في «الزوج الأبدي». فكم من الكآبة والأحزان كلفني ذلك. ولكن القرار بيد اللّه. ومن دون الأمل بالنجاح لا يمكن العمل بحماس. أنا أعمل بحماس، يعني بأمل. إلا أنني لم أشكرك بعد على مشاطرتك الطيبة وجهودك في الذهاب إلى (الناشر) الخسيس السافل ستيلوفسكي وما إلى ذلك.

أنت لا تتصور مدى ما تفضلتَ به عليّ من خلال هذه الجهود. لقد أعدتَ السلام والوئام إلى روحي، وعالجتَ جروحي. وأنا أعترف لك، ولك وحدك، اعترافاً نهائياً: ظننت أن بافل خدعني، فتألمت أشد الألم وصليت من أجله، فجاءت رسالتك أخيراً لتبدد كل شكوكي. إنه صبي طائش، لكنه طيب نزيه. أكرر لك: لقد شفيتَ جرحاً في روحي. أما ستيلوفسكي فليذهب إلى الشيطان. وأنا مسرور

بعض الشيء. فتصور. ما أصعب التعامل مع نذل كهذا[3].

والحال أنا الآن في وضع عصيب، مثل السيد ميكوبر[4]. ليس لدي ولا كوبيك واحد، بينما ينبغي العيش حتى الخريف، حيث سأستلم نقوداً.(. . .) لا تتصور أني أنفق هنا في بذخ. هل تصدق أنني من بداية انتقالي إلى درزدن عشت 8 أشهر على «الزوج الأبدي» وحدها؟، بمئة تالر تقريباً في الشهر، تشمل ميلاد الطفلة والترميم الأكثر ضرورة والمعيشة غير الرخيصة، حتى أنني كبلت نفسي بالديون، ولا أزال مديناً. ستراخوف اقترح عليَّ قبل شهر أن أستمر في الكتابة «للفجر»، فأجبته أن يعرض على كاشبيريف روايتي للعام القادم بشرط أن يدفع 500 روبل الآن و100 روبل كل شهر على مدار خمسة أشهر. حتى يكون المبلغ الإجمالي 1000 روبل. أعتقد أن المبلغ غير كبير (. . .) أنا لم أشتغل سنة ونصفاً تقريباً، لأنني صرت أشعر بالتعب من العمل، ما عدا «الزوج الأبدي». (. . .) (. . .)

العدميون لا يستحقون أن نتكلم عنهم هنا. فلننتظر حتى تتعفن نهائياً هذه الطبقة السطحية التي انسلخت عن التربة الروسية. يخيل إليَّ أن الكثيرين من هؤلاء الغلمان الأراذل المتفسخين سينتهون إلى العودة إلى التربة الصلبة الحقيقية، أما الباقون فليذهبوا في داهية التعفن حتى يصمتوا هم أيضاً في شلل آخر المطاف. ولكن ما أبشع دناءتهم!

آنّا غريغوريفنا فرحة جداً لرأي آنّا إيفانوفنا. الحقيقة أنها شديدة الاعتداد بالنفس والافتخار. يا ليتك تعرف مدى سعادتي معها. مصيبتنا الوحيدة أننا لا نستطيع العودة الآن. ولكننا ربما سنعود، أليس كذلك؟ لوبا تصنع لنفسها أسناناً وتبكي. إنها طفلة سليمة لا بد أن تثير دهشتك. ولولا آنّا نيكولايفنا، حماتي، لتوفيت لوبا أيضاً. ولهلكنا من دونها.

آه، بودّي أن أسألك عن الكثير. ولكن إلى اللقاء على أية حال. لا تنسني ولا تتركني أبداً. وأنا لن أنساك، أنت تعرف ذلك. صديقك الدائم الثابت على العهد

فيودور دوستويفسكي

آنّا تبعث تحياتها لك ولآنّا إيفانوفا.

وأنا أيضاً أعبّر عن احترامي العميق لها وشكري على ثنائها الودي على زوجتي.

عندما بعث لي كاشبيريف 400 روبل قبل شهر قال إن هناك بقية بمبلغ بين 50 و100 روبل، لكنه لم يبعثها حتى الآن. إذا كانت هذه البقية موجودة فعلاً، فلمّح له يا عزيزي أبولون نيكولايفيتش، لوجه المسيح، أن يرسلها. بالنسبة لي حتى الـ 50 روبلاً مبلغ كبير جداً.

هل تعجبك مقالات ستراخوف النقدية؟ أنا أعطيها درجة عالية من التقدير.

---

(1) كتب مايكوف إلى دوستويفسكي: «إذا كانت نوبات الصرع لا تبارحك في الخارج فما جدوى البقاء هناك؟».

(2) الكلام عن «الشياطين». وقد صدقت توقعات دوستويفسكي بشأن موقف الأوساط الديمقراطية والليبرالية السلبي من الرواية.

(3) ستيلوفسكي مارس القرصنة في نشر «الجريمة والعقاب».

(4) بطل رواية ديكنز «ديفيد كوبرفيلد» الذي أفلس وزج به في سجن الديون.

147. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 28 مايو 1870

أشكرك على الرسالة، يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب. رسائلك دوماً قصيرة، لكنها قادرة على تحريكي. رأيك عن نشاطك النقدي أعتبره منقوصاً وغير صحيح. أولاً لأنني أعتقد أنه لولا مقالاتك النقدية لما بقي عندنا الآن أحد في الأدب كله ينظر إلى النقد على أنه ظاهرة جدية وضرورية للغاية. ولما بقي أحد حتى ممن يكتبون النقد الأدبي يقدر ويحترم الحاجة إلى الفهم الفلسفي الصائب للماجريات الراهنة والسالفة، وبالتالي يحترم النقد نفسه، أي يحترم قضيته الشخصية كناقد. وهكذا نجد لديك في المقام الأول هذه النظرة الفلسفية الصارمة إلى النقد ولا نجدها عند غيرك، الأمر الذي يجعل من «الفجر» المجلة الوحيدة التي تنشر النقد وتنظر إليه نظرة صحيحة. ففي «البشير الروسي» النقد هوائي أو أهوائي، وهو ضئيل وسطحي رغم جريانه في الاتجاه العام للمجلة. وأعتقد أن ناقدهم «ب. ش.»[1] يشبه ميلوكوف بعض الشيء. وبالتالي فلو كان لديك هذا وحده لكان كثيراً للغاية. ثم إن التأثير لا يتجلى عاجلاً (. . .).

إليك معياراً يمكن بواسطته، على ما أتصور، الحكم على التأثير والنفوذ: «الفجر» في الغالب مجلة توجهات ونقد. وسيبيّن عدد المشتركين بعد عامين أو ثلاثة مدى تأثيرها في الجمهور، ومعه بلا ريب تأثير النقد، لأن النقد هو السمة الرئيسية للمجلة وهو تخصصها الرئيسي بالنسبة لجمهور القراء. فالجمهور يكشف عن نفسه بهذه الطريقة دوماً، وإن كان بصورة لاشعورية.

وفيما يخص مقالتك قرأتها مرتين وبكل ارتياح. وإلى ذلك أنت تجيد الكتابة لحد مدهش. لغتك الأدبية الفصحى أفضل مما عند الآخرين جميعاً. وهذا، إنْ شئتَ، شيء لا بد أن يكون ملحوظاً في نهاية المطاف. وقد سررت كثيراً لأن موقفك تجاه الأسلوب الراهن في التفلسف يتسم بهذا القدر من الازدراء، لكنني أرغب كثيراً في قراءة ردود أولئك (المتفلسفين) عليك.

ثم ما هذا التهتك في لهجة أدبنا المعاصر كله. أنا لا أقصد الاضطراب والبلبلة في الأفكار، فهما لا بد وأن ينتهيا. إلا أن تلك اللهجة شاملة. فما أكثر التهتك والابتذال. وليس هناك ولا فكرة واحدة متينة ومستوعبة، ولو زائفة. فأي فلاسفة هؤلاء، أي نقاد؟ لا أدنى منهم ولا أحط. ومع ذلك هناك أشخاص معدودون يجيدون التفكير ولديهم تأثير. هكذا يحصل دوماً وسط الاضطراب الفكري. حبذا لو تمكن هؤلاء القلائل أن يطوقوا ويحتووا التشوش والبلبلة لدى الجمهور، وسترى عندئذٍ أنه سيتبنى لهجتهم في الأخير.

على فكرة، مَن هذا البروفيسور الشاب الذي يكتب افتتاحيات «الصوت» وقد «قتل فيها كاتكوف، فلم يعد أحد يقرأه»؟ أريد اسم هذا الكاتب السعيد(2). باللّه عليك، أخبِرني به عاجلاً. قبل عشرين عاماً ونيف، عندما صدرت «دار الغرور» لأول مرة في إنجلترا

(1848)، عرجتُ على كرايفسكي وقلت ربما سيكتب ديكنز شيئاً يمكن ترجمته لرأس السنة، فأجابني على غير المتوقع: «من؟ ديكنز؟ ديكنز قتل. ظهر عندهم ثاكري وقتله في الحال. لم يعد أحد يقرأ ديكنز!» قرأت عن هذا البروفيسور في «الفجر». كما أنني أقرأ «الصوت». كانت هناك مقالات جيدة جداً. اكتبْ لي، يا نيكولاي نيكولايفيتش، رجاءً اسم ذلك البروفيسور.

ثم إني أردت أن أسالك من زمان هل لك معرفة شخصية بليف تولستوي؟[3] إذا كنت تعرفه اكتبْ لي رجاءً أي إنسان هو. يهمني جداً أن أعرف شيئاً عنه. سمعت القليل جداً عنه كإنسان نزيه.

أعمل لأجل «البشير الروسي» بحماس كبير، ولا أستطيع أبداً أن أستشف النتيجة. فلم يسبق لي أن تولّيت الكتابة في موضوع من هذا النوع. أتلذذ بحلم الانتقال إلى روسيا في العام الحالي، وأبذل قصارى الجهود لهذا الغرض. آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، نفد صبري وضاق صدري من الحياة في الخارج لدرجة أعجز عن وصفها. (. . .) (. . .)

زوجتي تحييك وتشكرك على السؤال عنها. صحتها متوعكة أيضاً وهي تطعم الطفلة. وفي الآونة الأخيرة لا تنام الليل بسبب مرض الصغيرة.

المخلص لك بصدق ووفاء

فيودور دوستويفسكي

---

(1) بيوتر شيبالسكي.

(2) ألكسندر غرادوفسكي (1841-1889).

(3) تعرَّف الناقد ستراخوف على تولستوي شخصياً في ضيعة الكاتب ياسنايا بوليانا في منتصف أغسطس 1871.

148. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 11 يونيو 1870

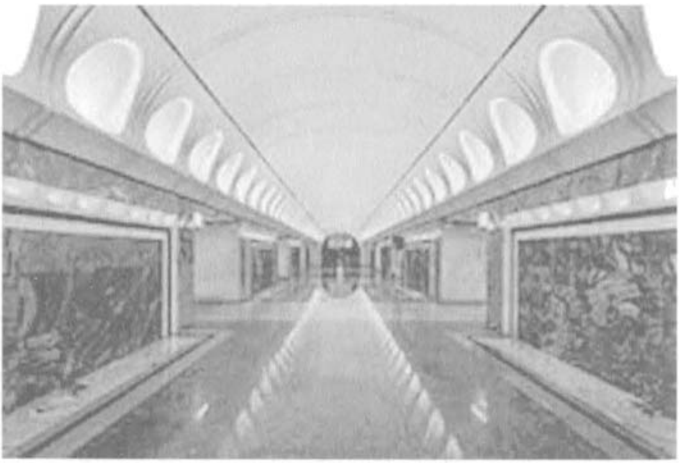
أشكرك، يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب، على سرعة الجواب. لكن رسالتك أرعبتني. أولاً، خوفاً عليك. يخيل إليَّ أنني جلبت لك مشاكل مع كاشبيريف، وما كنت أريد لها أن تحصل مطلقاً. ولربما أنني لم أفهم رسالتك جيداً. على أية حال أشكرك على جهودك من أجلي. رفضُ كاشبيريف أدهشني كل الدهشة. ولذا لا أعرف الآن مطلقاً ماذا سأفعل. الوقت الحالي هو الأصعب بالنسبة لي. ولم أحتفظ من تلك الـ 500 روبل بشيء مؤملاً في حوالات متوالية (من كاشبيريف). فكيف سأصمد وعلامَ أعتمد؟ لا حيلة في الأمر. الطفلة مريضة، والمصروفات متزايدة. وليس لي معارف هنا تقريباً، ولا أريد أبداً أن أطلب المساعدة من «البشير الروسي» لحين الموعد الذي حددته (للتسليم).

حصلت هنا بالصُدفة على «بشير أوروبا» للعام الحالي، فراجعت كل الأعداد، حتى أنني دهشت. هل يعقل أن مجلة في منتهى الفجاجة والسطحية، ولا يضاهيها بهذا الخصوص إلا مجلة بولغارين «نحلة

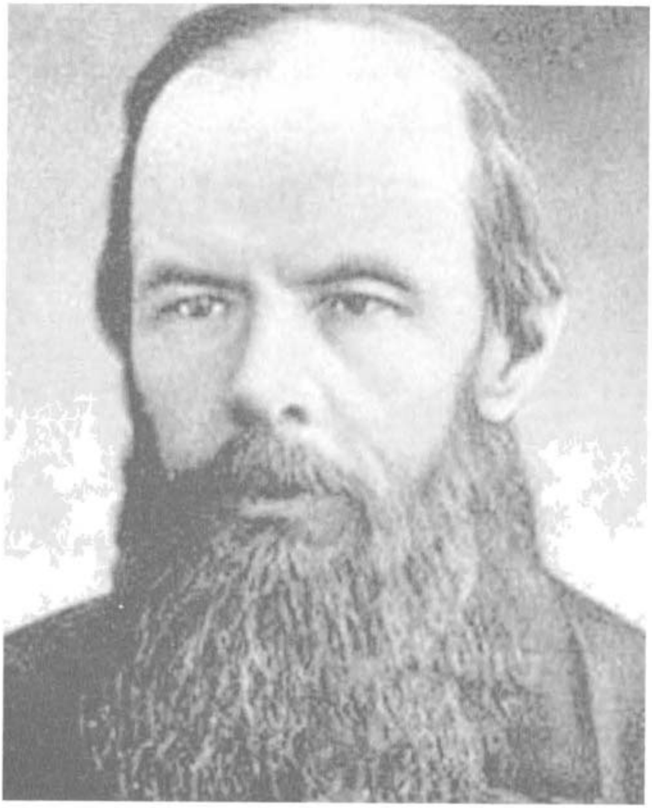
الشمال»، يمكن أن تحقق مثل هذا النجاح؟ 6000 نسخة وطبعة ثانية! تلك هي ثمرة المقدرة. وما أشد التزلف الدنيء إلى رأي الشارع. تلك هي أحدث مظاهر المغازلة الرسمية الليبرالية. تلك هي طبيعة النجاح عندنا. صحيح أنهم يصدرونها بشطارة، في اليوم الأول من كل شهر. ويشارك فيها كثير من الأدباء. قرأت فيها، على سبيل المثال، «إعدام تروبمان» لتورغينيف، وقد يكون لك رأي آخر، إلا أن هذه المقالة المزوقة المتزمتة أثارت استيائي. لماذا يمتعض ويزعم أنه لا يمتلك الحق في التواجد هنا (في ساحة الإعدام)؟ طبعاً، إذا كان جاء ليشاهد المسرحية فقط. إلا أن الإنسان على وجه البسيطة لا يحق له أن يتملص ويتجاهل ما يحصل حواليه، وثمة أسباب أخلاقية سامية لذلك. «أنا إنسان، ولا شيء إنسانياً غريبٌ عليّ. . .» Homo sum et nihil humanum وما إلى ذلك. والمضحك أكثر أن تورغينيف يتملص في النهاية ولا يرى كيف يتم الإعدام في اللحظة الأخيرة. ولسان حاله يقول: «لاحظوا يا سادة، أنا ذو تربية مهذبة، ولم أتحمل». وهو، على فكرة، يفضح نفسه، فالانطباع الرئيسي الذي تتركه المقالة بالنتيجة هو الاهتمام المبالغ فيه لأقصى حد بالنفس وهدوء البال أمام رقبة تقطع بالمقصلة على مرأى من الجميع. على أية حال، فليذهبوا إلى الشيطان، أنا أبصق عليهم. مللت منهم جميعاً. أنا أعتبر تورغينيف الأكثر فراغاً بين جميع الكتّاب الروس الفارغين، مهما كتبت، يا نيكولاي نيكولايفيتش، «دفاعاً عن تورغينيف»، فلا مؤاخذة (. . .). ما أجمل أن نلتقي ولو للحظة. ما الذي يمنعك من السفر إلى الخارج ولو لشهر؟ تكاليف الرحلة مع تذكرة السفر مئتا روبل، تزداد إلى 300 إذا قمت بجولة في أوروبا. ويمكنك أن تعرج على درزدن، فنلتقي. أليس ذلك ممكناً؟

إلى اللقاء، أشكرك مجدداً. لا تتركني. اهتم بشؤوني إن أمكن. آنّا غريغوريفنا تحييك. وهي مرهقة بالرضاع والمشاغل. وفوق ذلك هذه المشاكل.

المخلص فيودور دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو



خامساً:

ما قبل «المراهق» (1875)



149. إلى ميخائيل كاتكوف

درزدن، 8 أكتوبر 1870

السيد الكريم ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر

أرسلتُ اليوم إلى هيئة تحرير (مجلتكم) «البشير الروسي» النصف الأول من الجزء الأول من روايتي «الشياطين»، وسأبعث في القريب العاجل النصف الثاني منه. الرواية تتألف من ثلاثة أجزاء في كل منها ما بين 10 و12 ملزمة. ولن يحصل تباطؤ بعد الآن.

إذا رأيتم أن تنشروا كتابي اعتباراً من العام القادم أعتقد من الضروري أن أخبركم سلفاً وباختصار شديد عما يدور عملياً في الرواية.

سيكون من أكبر أحداث السرد نبأ مقتل إيفانوف في موسكو على يد نيتشايف. وأستدرك هنا فأقول إنني لا أعرف شيئاً عن نيتشايف وإيفانوف وعن ملابسات الاغتيال سوى ما نشرته الصحف. وحتى لو كنت أعرف لما عمدت إلى الاستنساخ. أنا أتناول فقط الواقعة التي حدثت. خيالي يمكن أن يتقاطع إلى أقصى حد مع الواقع السابق*، ولن يكون بطل روايتي بيوتر فيرخوفينسكي شبيهاً (بالقاتل) نيتشايف في

أي حال. ولكنْ يخيل إليّ أن ذهني المنفعل رسم، من خلال التصورات، الوجه أو الشخصية التي تناسب هذه الجريمة البشعة. ولا جدال أن رسم صورة هذا الإنسان لا يخلو من منفعة، لكنه وحده ما كان ليغويني. فهؤلاء المشوهون البائسون، في اعتقادي، لا يستحقون اهتمام الأدب بهم. ومن بواعث دهشتي أن هذا الشخص اتخذ عندي صورة فكاهية لحد النصف. ولذا، وعلى الرغم من أن هذه الحادثة تشغل إحدى المراتب الأولى في مخطط الرواية، إلا أنها مجرد ديكور وساحة لسلوك شخص آخر يمكن بالفعل أن يوصف بالشخصية الرئيسية فيها.

هذا الشخص الآخر، واسمه نيكولاي ستافروغين، هو أيضاً شرير عبوس. ولكن يخيل إليَّ أنه شخصية تراجيدية، مع أن الكثيرين ربما سيتساءلون بعد القراءة: «ماذا يقصد الكاتب؟». لقد عكفت على كتابة ملحمة عن هذا الشخص، لأنني كنت من زمان أريد أن أكتب عنه وأصوره. وفي رأيي إنه شخصية روسية ونموذجية. وسيحزنني جداً لو جاءت صورته مهزوزة وغير موفقة. وسأحزن أكثر إذا سمعت من يعتبره شخصية مفتعلة. فقد استخرجته من الفؤاد. بديهي أنه شخصية نادراً ما تتجلى طباعها بكامل نموذجيتها، لكنها طباع روسية لفئة معروفة من فئات المجتمع. ولكن لا تتسرع في الحكم عليّ، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر، قبل نهاية الرواية. ثمة ما يوحي إليَّ بأنني سأتمكن من تصوير هذه الشخصية. وأنا لا أوضحها بكل تفاصيلها خشية أن أقول ما لا ينبغي أن أقوله. وأشير هنا إلى أمر واحد: طباع هذه الشخصية مسجلة بكاملها عندي في مشاهد وأفعال، وليس في محاججات وتأملات، ما يعني وجود أمل في كون الصورة سترتسم.

حاولتُ الشروع بكتابة الرواية أمداً طويلاً من دون جدوى. كنت

أقلّب مخططها على مختلف صفحاته وجوانبه عدة مرات. صحيح أن شيئاً حصل لي مع هذه الرواية لم يكن قد حصل في السابق أبداً. كنت أوقف العمل في بداية الرواية لأسابيع ثم أشرع في الكتابة من النهاية. وإلى ذلك أخشى أن تكون البداية أكثر حيوية وانتعاشاً. ولم أشد عقدة الحبكة حتى بعد خمس ملازم ونصف، وهي التي أرسلها لكم الآن. على فكرة، الحبكة ستتسع وتتصاعد على غير المتوقع. وأنا أتكفل بالمتعة اللاحقة في الرواية. ويخيل إليَّ أن الشكل الحالي سيكون الأفضل.

إلا أن الشخوص لن تكون جميعها عابسة كالحة، فهناك شخوص نيرة وضاءة. عموماً أخشى أن تكون أمور كثيرة فوق طاقتي. فأنا لأول مرة، مثلاً، أريد أن أتناول شريحة معينة من الأشخاص الذين قلما تناولهم الأدب حتى الآن. والنموذج الأمثل لهذه الشريحة هو تيخون زادونسكي. وهو أيضاً قديس يعيش مطمئن البال في الدير. وأنا أربط وأقارن بين بطل الرواية وبينه لحين من الوقت. وأخشى من هذه المحاولة كثيراً، فلم أكن قد جربتها يوماً. لكنني مطلع بعض الشيء على عالم (هؤلاء القديسين).

والآن أتحدث في أمر آخر.

احكمْ عليّ كما تشاء، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش. لقد ألمّ بي الفقر لدرجة تدفعني، رغم خجلي الشديد منك، إلى طلب المساعدة. ليس لدي ما أقتات عليه، وأنا أعيل زوجتي وطفلتي. رغم صحتها المتدهورة كانت زوجتي قبل شهر ترضع الصغيرة، وهي الآن تسهر عليها الليالي بدلاً من أن تأخذ قسطاً من الراحة. وليس لدينا مرضعة ولا خادمة. وهذا يحز في نفسي. العمل يلهيني أحياناً، وأحياناً يثقل عليَّ في مثل هذا الوضع.

أنا أعرف أنني مدين لكم بالكثير، لكنني سأسدد ديوني لهيئة التحرير بهذه الرواية. والآن أطلب منك 500 روبل. وأعرف أنها مبلغ كبير، إلا أنني مدين هنا للآخرين بهذا القدر تقريباً. اسمح لي أن أعقد الأمل على طيبة قلبك. أرجوك أن تبلغني عاجلاً، وأخشى من ضياع الرسائل في ألمانيا هذه الأيام. فكرة ضياع هذه الرسالة تجنني. عنواني هو نفسه (. . .)

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

قرأتُ الرسالة من جديد وشعرت بالخجل. لا تلمني، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش.

150. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 9 أكتوبر 1870

العزيز المحترم أبولون نيكولايفيتش. لم أجب حتى الآن على رسالتك التي أفرحتني وأدهشتني، لأنني كنت مشغولاً بعمل استطال وأردت أن أنجزه مهما كلف الأمر[1]. حتى أنني لم أجب على ثلاث رسائل تكدست، ولم أقرأ شيئاً طوال هذه الفترة، ما عدا الصحف طبعاً. هذا العمل الذي تأخرت فيه إنما هو بداية رواية «للبشير الروسي»، وسأظل أشتغل عليها ليل نهار ستة أشهر أخرى في أقل تقدير. ولذا فقد مللت منها قبل الأوان. وفيها بالطبع شيء يدفعني إلى كتابتها، إلا أنني عموماً لا أرى في الدنيا شيئاً أمقته أكثر من العمل الأدبي، بمعنى كتابة القصص والروايات حصراً. فإلى أية حالة وصلتُ؟ وفيما يخص فكرة الرواية فلا جدوى من توضيحها، ذلك لأن الحديث الجيد عنها في رسالة غير ممكن. هذا أولاً، وثانياً- جزاؤك يكفي إذا فكرتَ في قراءة الرواية عندما تنشر. فما الداعي لتكرار العقوبة؟

أنت تكتب لي كثيراً عن (القديس) نيكولاي تشودوتفورسكي

(صانع المعجزات). فهو لن يتخلى عنا، لأنه هو روح روسيا ورمز وحدتها. نحن وإياك، يا أبولون نيكولايفيتش، لم نعد من الصبية. نحن نعرف مثلاً الواقع التالي: عندما تحيق بروسيا مصيبة، بل وحتى مجرد مشاغل روسية كبرى، نرى أن الجزء غير الروسي من روسيا، أي الموظف الليبرالي أو الطالب في بطرسبورغ يتحولان إلى روسيين ويشعران أنهما من الروس، مع أنهما يخجلان من الاعتراف بذلك. ذات مرة، في الشتاء، قرأت في «الصوت» اعترافاً خطيراً في الافتتاحية «بأننا، كما تزعم الجريدة، فرحنا لانتصارات سلاح الحلفاء ولهزيمتنا في حرب القرم». كلا، ليبراليتي لم تصل إلى هذا الحد. كنت آنذاك لا أزال في الأشغال الشاقة ولم أفرح لانتصارات الحلفاء، بل شعرت، مع سائر زملائي التعساء وصغار الجنود، بأنني روسي، وتمنيت الانتصار للسلاح الروسي مع أنني كنت لا أزال متأثراً آنذاك بخميرة الليبرالية الروسية الجرباء التي روَّج لها خنافس المزابل من أمثال بيلينسكي ومن لفّ لفّه. لكنني لم أعتبر نفسي نهلستياً عدمياً، بل كنت أشعر بأنني روسي تماماً. صحيح أن الوقائع بينت لي أن المرض الذي استولى على الروس المتحضرين كان أشد مما نتصور وأن المسألة لم تنته بأمثال بيلينسكي وكرايفسكي وسواهم. وقد حصل آنذاك ما يشهد به إنجيل لوقا من أن الإنسان كان ممسوساً ومسكوناً بالشياطين (لوقا 8: 33 فخرجت الشياطين من الإنسان ودخلت في الخنازير فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحيرة واختنق. 8: 34 فلما رأى الرعاة ما كان هربوا وذهبوا وأخبروا في المدينة وفي الضياع. 8: 35 فخرجوا ليروا ما جرى وجاءوا إلى يسوع فوجدوا الإنسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه لابساً وعاقلاً جالساً عند قدمي يسوع فخافوا)[2]. مثل هذا بالضبط حصل عندنا. خرجت

الشياطين من الإنسان الروسي ودخلت في قطيع الخنازير، أي في أمثال نيتشايف وسيرنو- سولوفيوفيتش وغيرهما. وقد اختنقوا أو سيختنقون بالتأكيد، أما الممسوس الذي خرجت منه الشياطين ونجا فقد جلس عند قدمي يسوع. هذا ما يجب أن يكون. روسيا تقيأت هذه الحثالة التي أطعموها بها. وبالطبع لم يبق لدى هؤلاء الأنذال الذين تقيأتهم ولا ذرة مما هو روسي. لاحظ، يا صديقي العزيز، أن من يضيع قومه وقوميته يضيع إيمانه بالوطن وباللّه. هذا هو بالتحديد موضوع روايتي وعنوانها «الشياطين»، وهي توصيف لكيفية دخول هذه الشياطين إلى قطيع الخنازير. ولا ريب أنني سأكتب بشكل رديء. ولأنني شاعر أكثر مما أنا فنان فقد تعودت دوماً أن أتناول موضوعات أكبر من طاقتي. ولذا أفسدها أغلب الظن. الموضوع قوي جداً. وطالما أن أحداً من جميع النقاد الذين حكموا عليّ لم ينكر وجود شيء من الموهبة عندي فستكون في هذه الرواية المطولة أيضاً مواضع لا بأس بها، على الأرجح. هذا كل ما أردت أن أقوله.

يبدو أن لديكم في بطرسبورغ كثيراً من الأذكياء الذين استفظعوا تحول الأراذل إلى خنازير، لكنهم لا يزالون يحلمون بطيبات أزمان بيلينسكي الليبرالية الغامضة ويتمنون عودة التنوير الذي كان. هذه الفكرة يمكن أن نلاحظها حتى عند القوميين المستجدين وغيرهم. المتقدمون في السن من أمثال بليشييف وبافل آنينكوف وتورغينيف لا يستسلمون، وهناك مجلات كبيرة، مثل «بشير أوروبا» تتمسك بهذا الاتجاه (. . .). كلا، سيطول الانتظار لحين اجتثاث هكذا اتجاه. ولذا يتعيَّن علينا، كما أظن، أن لا نخشى شيئاً، حتى الهزات السياسية الخارجية، مثل الحرب الأوروبية دفاعاً عن السلافيين، رغم ما في ذلك من خوف رهيب. فنحن وحدنا، بينما هم يد واحدة.

الملابسات تمهلنا عامين أو ثلاثة من السلام الأكيد، فهل سنفهم وضعنا؟ هل سنتهيأ؟ هل سنمد السكك ونشيد القلاع؟ هل سنصنع على الأقل مليون قطعة أخرى من السلاح؟ هل سنثبت أقداماً راسخة في أطراف (الإمبراطورية الروسية)؟ هل سيعمدون عندنا إلى إصلاح ضريبة الأنفس والتجنيد الإلزامي؟ هذا هو المطلوب، أما ما تبقى، أي المعنويات الروسية ووحدة الكلمة، فهو موجود وسيتوفر بالقوة والكمال والقدسية التي نعجز نحن، وليس الأجانب فقط، عن إدراك عمقها. وأعتقد أن تسعة أعشار هذه القوة تكمن في أن الأجانب لا ولن يفهموا كامل عمق وحدتنا ومدى قوّتها. يا لذكائهم! منذ ثلاث سنوات أنكبّ على قراءة كل الصحف السياسية الرئيسية، أقصد معظمها، فما أكثر مهارتهم في فهم عملهم، وكيف يتوقعون ما سيأتي. هذه المهارة تضع أحياناً النقاط على الحروف. ولا مجال للمقارنة بين تلك الصحف وبين جرائدنا التي تحاكي التفاهات، ربما ما عدا «الوقائع الموسكوبية». وماذا بعد ذلك كله؟ حالما يتطرق الموضوع إلى روسيا تهذر تلك الصحف بما لم ينزل اللّه به من سلطان، وكأن رجلاً محموماً يهذي في الظلام. . يخيل إليَّ أنهم في أوروبا يعرفون عن نجم الشعرى أكثر مما يعرفون عن روسيا. وهذا ما يشكل قوتنا لحين من الوقت. ولعل القوة الثانية هي إيماننا بهويتنا وبقدسية رسالتنا. رسالة روسيا تتلخص كاملة في الأرثوذكسية، في النور المنبعث من الشرق والذي سينساب إلى البشرية التي أصابها العمى في الغرب، فضيعت (السيد) المسيح. كل مصائب أوروبا حصلت من دون استثناء لأنها فقدت المسيح مع كنيسة الروم، ثم تصورت أنها تستطيع أن تستغني عنه. تصور، يا عزيزي، أنني لم أصادف حتى عند كبار الروس من أمثال مؤلف «روسيا وأوروبا» هذه

الفكرة بشأن روسيا، أي بشأن الرسالة الأرثوذكسية الاستثنائية لروسيا تجاه البشرية. وما دام الأمر كذلك فمن المبكر، فعلاً، مطالبتنا بأن نعتمد على أنفسنا.

يبدو أنني توغلت كثيراً في مجاهل الغاب وأنا أحبّر الصفحة الرابعة. إنني أعيش كيفما اتفق، وأحاول أن أعمل، فقد تأخرت كثيراً، وفي كل مكان أقصر في الإيفاء بوعودي، فأسبب لنفسي ألماً. وحتى آنّا غريغوريفنا تعاني من الاكتئاب، ولا أدري ماذا عليَّ أن أفعل. ينبغي أن نعود في الربيع، ولا مال لدينا، لا أعني المال لتسديد الديون، بل لمجرد الصرف على نفقات العودة. وليس لي هنا معارف كثيرون، بينما الروس في درزدن جمهور غفير كالإنجليز. كلهم حثالات إذا أردنا الحقيقة عموماً... يا إلهي ما أحقرهم. وما الغرض من تجوالهم؟

ابنتي في صحة جيدة، مكتنزة، ولم تعد معتمدة على الرضاعة. بدأت تفهم الكثير وتحاول أن تتكلم. لكنها طفلة عصبية جداً، ولذا أخشى عليها رغم صحتها. يا صديقي المحترم كيف تكتب لي نبأ زفاف بافل دون أن تذكر أية تفاصيل؟ أخبِرني، لوجه المسيح، إذا كنت تعرف شيئاً. أنا لم أستلم أي خبر منه. وهو عزيز عليّ. بديهي أن من المضحك أن يكون لي من هنا، بعد ثلاثة أعوام من الفراق، تأثير في قراراته. ومع ذلك أشعر بالحزن. ميشا، ابن أخي، تزوج قبل بافل، لكنه فتى ذكي قوي الشكيمة، خلافاً لبافل فيما يخص الطباع أو التحمل مهما كان ضئيلاً.

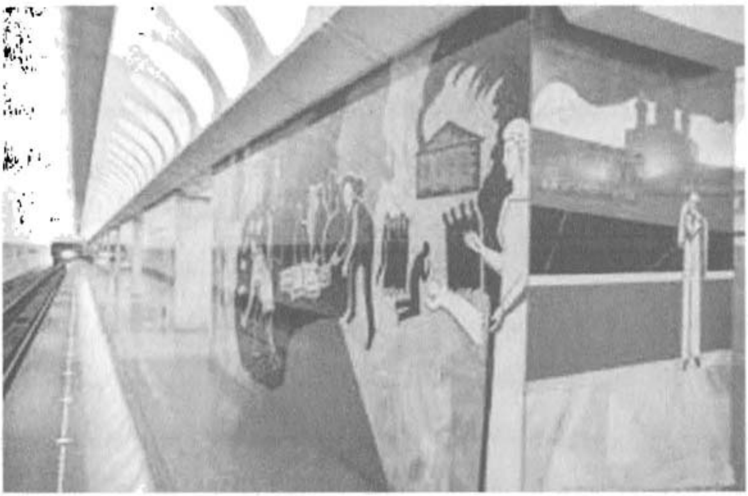
إذا كتبت لي فلن أنكر فضلك. زوجتي تحييك ولوبا تقبِّل يدك. إلى اللقاء، أتمنى لك موفور الصحة والهناء.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود إنجاز نص النصف الأول من الجزء الأول من «الشياطين».

(2) هذا المقتطف من الإنجيل يتصدر «الشياطين»، والحبكة في الرواية مبنية عليه.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

151. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 9 أكتوبر 1870

استلمتُ رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، قبل ثلاثة أسابيع ولم أرد عليها حتى الآن. أكيد أنك تظن بي الظنون، في حين أن رسالتك عزيزة عليّ، أقول من دون مجاملة إنني سررت كثيراً لأنك رغبت أن تستأنف المراسلات معي. إنني الآن أقدر الناس أكثر مما في أي وقت مضى وأنا في عزلتي المقيتة. أمل العودة إلى بطرسبورغ في الخريف لم يتحقق، فلم يكن لدي المال الكافي، واضطررت إلى التأجيل من جديد حتى الربيع لأقضي شتاءً مملاً آخر في درزدن.

لم أجب على رسالتك حتى الآن، لأنني عكفت على كتابة الرواية «للبشير الروسي» طول الوقت. ولم أكن موفقاً في الأداء، فأعدت الصياغة مرات حتى عاهدت نفسي بأن لا أقرأ ولا أكتب أي شيء، بل ولا أتطلع إلى ما حواليّ، ما لم أنجز ما صممت عليه. علماً بأن تلك هي بداية البداية: صحيح أنني كتبت صفحات كثيرة من منتصف الرواية وشطبت الكثير، ليس بالكامل طبعاً. ومع ذلك لا أزال أعمل على البداية. ذلك مؤشر سيئ. لكنني أريد أن أحقق الأفضل. يقول

البعض إن لهجة وأسلوب الفنان ينبغي أن يظهرا تلقائياً. هذا صحيح، ولكن الكاتب يتيه بينهما أحياناً ويبدأ بالبحث عنهما. باختصار لم يكلفني أي كتاب مثل هذا الجهد الكبير. في البداية، أواخر العام الماضي، كنت أنظر إلى هذه الرواية نظرة متعالية باعتبارها مختمرة ومنتهية. وفيما بعد زارني الإلهام الحقيقي، فأحببتها على غير المتوقع وتشبثت بها بكلتا يديّ. فأخذت أشطب المكتوب منها. ثم حصل في الصيف تبدل آخر، فظهرت شخصية جديدة تطمح إلى تولي دور البطل الرئيسي للرواية، وانسحب البطل السابق إلى مرتبة ثانوية، وهو شخصية تستحق الاهتمام فقط ولا تستحق توصيف البطل. ووقعت في أسر البطل الجديد لدرجة جعلتني أعيد ترتيب الأوراق مجدداً. والآن، حيث أرسلت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» بداية البداية ارتعبت فجأة متصوراً أن الموضوع الذي اخترته أكبر من قابلياتي. أنا خائف حقاً وعلى نحو مؤلم. بينما جئت بالبطل ليس من لا شيء. سجلت سلفاً دوره كاملاً في برنامج الرواية. هذا البرنامج يشغل عدة ملازم طباعية. سجلت دوره بصيغة مشاهد، أي أحداث، وليس تأملات ومحاججات. ولذا أعتقد أنه ستظهر شخصية، وربما شخصية جديدة. آمل في ذلك، لكنني أخشاه. فقد حان الوقت لكتابة شيء ما جدي. وقد أنفجر (قبل ذلك). ومهما يكن من أمر لا بد من الكتابة، لأنني ضيعت وقتاً كثيراً جداً في هذه التغييرات والتعديلات ولم أكتب إلا القليل.

والآن فلنتحدث عن المجلة. قد لا تتصور، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، مدى أسفي للحنث بوعدي «للفجر». لكنني مسرور لأنني كدت أجن ولم أجن. فلم أكن أتوقع فترات التوقف وذلك الانعطاف في عملي.

وما لم أنجز عملاً في البداية لا أستطيع أن أفعل شيئاً لعمل آخر. روايتي في «الفجر» ستنشر في العام القادم، في نهاية السنة، وفي الفاصل الزمني للاستراحة آنذاك أعود إلى بطرسبورغ. فيما يخص القصة الطويلة لا أدري هل سأكون قادراً على الإيفاء بهذا الوعد أيضاً. قبل شهرين عندما تعهدت بذلك كانت أوضاعي تختلف. أنا أؤكد أن كل عواطفي وطموحاتي متجهة نحو «الفجر». وإذا كنت أستطيع أن أخدمها قيد أنملة فسأعتبر نفسي سعيداً. انتظروني قبل أن تصدروا الحكم النهائي عليّ، وحتى ذلك الحين ارأفوا بحالي.

قرأت رسالتك بكل ارتياح. وأعجبني فيها بعض التغيير الذي طرأ على رأيك بشأن أعمالك. أقول لك وأنبهك إنك يجب لزاماً أن تبحث عن مريدين متحمسين، وليكونوا بعدد كبير. ذلك لأنك، على الأقل، تدعو إلى الحقيقة. أنا أنتظر بفارغ الصبر سلسلة مقالاتك للموسم الحالي. فكلمة الحق يجب أن تعلو بهذه الصورة أو تلك (. . .) قرأت في العدد الأخير من «الفجر» مقالتك عن بولونسكي، وتصفحت الباقي، فلا وقت لي. ويخيل إليَّ أن العدد رائع الترتيب (. . .)

كيف صحتك؟ أما أنا فليس في صحتي ما أتباهى به. وفي ذلك أذى كبير. بالنسبة لي يحل الآن فصل الشتاء والعمل خلاله ليل نهار.

أريد أن أنهي كل شيء مع مجيء الربيع. ذلك هو الأسلوب الوحيد الممكن للعمل، بمعنى من دون راحة وإلا قد لا يتسع الوقت لإنجازه. أنا أعيش في ملل رتيب وبانتظام. أتمشى يومياً وأطالع عدة جرائد بينها جريدتان روسيتان. كل الأحداث المثيرة الراهنة سيكون لها، باعتقادي، تأثير مباشر وسريع على حياتنا الروسية، وعلى الأدب بالتالي. الأوقات الحالية غير عادية، ولا أظن أن الأدب خسر من حيث نفوذه وأهميته (. . .)

حبذا لو أجبتني، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش. وسأكون سعيداً. كما أنني أعدك بالكتابة بانتظام.

المخلص فيودور دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

152. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 2 ديسمبر 1870

اعذرني أنت أيضاً، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، لأني لم أرد على رسالتك في الحال. مشاغلي وهمومي فوق طاقتي. أنت تكتب لي عن مقالتك بخصوص روايتي[1] الموعودة إلى «الفجر». كنت من زمان أنتظر سؤالك بخوف. وبماذا يمكنني أن أجيب؟ في الحال الحاضر أنا خنقت نفسي تقريباً. التزامي «للبشير الروسي» كان ديناً في عنقي بالمعنى الحرفي للكلمة. فقد بقيت مديناً للمجلة بمبلغ كبير. لم يزعجوني، بل تصرفوا معي بمنتهى اللياقة والشهامة والأدب. وأقول بكل دقة إن القصة الطويلة[2]، الرواية على الأصح، التي فكرت في تأليفها «للبشير الروسي» بدأت في نهاية العام المنصرم، 69. وكنت آمل في إنهائها مع مطلع شهر يوليو، مع أنها تضخمت وتجاوزت 15 ملزمة.

كنت واثقاً بأن الوقت يكفيني للكتابة «للفجر» أيضاً. فماذا حصل؟ طول السنة كنت أمزق ما أكتب وأعيد الكتابة. حبّرت أكواماً من الورق حتى فقدت نظام الاسترشاد في التسجيلات. غيرت

المخطط كله ما لا يقل عن عشر مرات وكتبت الجزء الأول كله من جديد. واستولى عليَّ اليأس والإحباط قبل شهرين أو ثلاثة. ثم ترتب كل شيء دفعة واحدة، ولن يتغير، ولكن الحجم كان سيبلغ 30 أو 35 ملزمة. ولو كان هنالك وقت للكتابة بلا استعجال، من دون التفات إلى الموعد، لجاءت الثمرة جيدة. إلا أن ما سيحصل على الأرجح هو الإسهاب واستطالة أجزاء على حساب أجزاء أخرى. المكتوب من الرواية يقرب من 10 ملازم أرسلت منها إلى المجلة 5، والـ 5 الأخرى سأرسلها بعد أسبوعين، ثم سأعمل يومياً كالحصان إلى أن أنتهي. هذا هو وضعي، فكيف أرد عليك في هذه اللحظة بالإيجاب؟ صدقني بأن كل ما كتبته لك هو عين الحقيقة حتى آخر كلمة. فما كنت أعلم مسبقاً أنني سأتعذب عاماً كاملاً في معالجة خطة الرواية. أتعذب بكل معنى الكلمة.

ثم لو أنني تركت الرواية وبدأت بكتابة أخرى لأجل «الفجر» كي أفي بالوعد الذي قطعته لها في الصيف فهل كنت سأستطيع القيام بذلك بدنياً؟ ألا توافقني؟ ما كان بوسعي أبداً أن أترك العمل الحالي لأنني تعذبت في التنفيذ. أنا أناشدك، أناشد فهمك الدقيق لأتعاب الكاتب وأتساءل: هل كنت سأستطيع أن أترك؟

إذن، سأكتب، لكنني لا أعرف المستقبل. الشيء الوحيد الذي أعرفه أن النصف الثاني من الرواية سيكون أسهل عليَّ بما لا يقاس من النصف الأول. وإذا انتهيت في الصيف، وهذا أكيد، سأنشر في «الفجر» أواخر العام إما قصة طويلة أو بداية رواية، بمعنى أن تلك البداية تشكل بحد ذاتها رواية. تريد مني العنوان؟ لا أستطيع الآن. والمشكلة أن القصص الطويلة المختمرة والمسجلة جيداً عندي قرابة الست. ولكل منها خاصيتها التي تشجعني على البدء بها بحماس.

ولو كنت حراً متفرغاً لا أحتاج إلى النقود في كل ساعة لما كتبت ولا واحدة من تلك القصص الست، ولعكفت على تأليف الرواية التي أنا مدين بها. الرواية المرتقبة هذه تعذبني منذ ثلاثة أعوام، لكنني لا أشرع بها لأنني أريد أن أؤلفها ليس لموعد محدد، بل كما يكتب مؤلفون مثل تولستوي وتورغينيف وغونتشاروف، لتكون إحدى رواياتي على الأقل حرة طليقة غير مقيدة بموعد مفروض عليّ. أنا أعتبر هذه الرواية كلمتي الأخيرة في سلّم الأدب الذي أرتقيه. وسأكتبها في غضون عدة سنوات على الأقل. وعنوانها «الخاطئ»، وهي بالطبع تتوزع على عدة قصص طويلة. ولكني لا أدري هل أستطيع البدء بكتابتها هذا العام حتى إذا أنجزت ما «للبشير الروسي» في يوليو؟ المشكلة كلها في الوقت. ولا أستطيع الآن تقديم عنوان رواية «البشير». نتفق على كل شيء عندما نلتقي شخصياً في أواخر أبريل أو في مايو من العام القادم. كان بالإمكان أن أتواجد في بطرسبورغ في الخريف لو لم أتأخر في كتابة الرواية، وبالتالي في الحصول على النقود. أما الآن، في ديسمبر، فليس بالإمكان نقل الطفلة، ولذا سأبقى هنا حتى الربيع. ولكي أنهي الرواية في الحال الحاضر لا بد لهيئة التحرير أن تتقبل مني العمل من دون عنوان، فيما أعدها بالإيفاء بوعدي مهما كلف الأمر. وأعترف لك أن العمل صعب عليّ، وقد بدأ الصداع الشديد يداهمني وأنا أخشى ما أخشاه بهذا الخصوص. لقد عذبتني رواية «البشير الروسي» طوال العام.

كتبت لي عن بيسيمسكي وكلوشنيكوف (مؤلف رواية «الغجر»). الأول سيكتب على أية حال شيئاً فيه إثارة. وتقول إن هذين الاسمين لن يجلبا الانتباه. فاكتبْ أنكم في العام القادم ستنشرون حتماً للمؤلفين التالية أسماؤهم، واذكر الجميع، بمن فيهم تولستوي

وكوخانوفسكايا وبيسيمسكي وكلوشنيكوف وتشايف وأنا وآخرون، وستكون النتيجة لا بأس بها. فأية مجلة تستطيع أن تعد قراءها بأكثر من ذلك في مجال الأدب النثري؟

اتجاه «الفجر» يمكن أن يجلب الانتباه في العام القادم، نظراً للوضع السياسي في أوروبا[3]. على أية حال لن تمر السنوات القريبة القادمة، على ما أظن، من دون البدء بحل مسألة السلاف الشرقيين[4]. وحتى لو لم يتحقق اكتتاب جيد للمشتركين في «الفجر» للعام القادم فلا يجوز لمجلة بمثل هذا الاتجاه أن تنساق لليأس والقنوط. فالمستقبل لها دون ريب، بل وفي وقت قريب. ذلك لأن المستقبل لهذا الاتجاه، فيما سيختفي العدميون رفاتاً منثوراً. كل القضية في تنفيذ المهمة.

أنت تسألني رأيي في الأعداد الأخيرة. لا أستطيع أن أبديه على الماشي. ولو التقينا لتحدثنا طويلاً في هذا الموضوع على ما أظن. فما أشد رغبتي في الإعراب عما في نفسي. «الفجر» عزيزة عليّ. فهي الوحيدة من بين جميع المجلات تقريباً تلتزم الآراء نفسها التي أقدرها أكثر من حياتي والتي لها المستقبل في اعتقادي. وفيما يخص الأداء الحالي أعتقد أنها ليست كما يرام تماماً، ما عدا مقالاتك التي أستمتع بها كثيراً. على أية حال هذا موضوع طويل. (. . .).

ما لا يعجبني في مقالاتك هو فقط أنك نادراً ما تنشرها (. . .) أنا أميل كثيراً إلى مقالتك عن كارامزين لأن فتوتي كانت مثله تقريباً، وقد تربيت على كتاباته. قرأت المقالة متحمساً، كما أعجبتني لهجتها. ويخيل إليّ أنك لأول مرة تعبّر بهذه الحدة عما كنت صامتاً بشأنه. الحدة تعجبني. فإلى المزيد من الجرأة والاعتداد بالنفس. ولن أدهش إذا كانت هذه المقالة ستخلق لك أعداءً. «الملك لير» لتورغينيف لم

تعجبني إطلاقاً. إنها نتاج مزوق فارغ. ولهجتها متدنية. آه من هؤلاء الكتاب الإقطاعيين. أقول ذلك، واللّه العظيم، ليس بدافع من الحسد (...)

الجميع تركوني إن لم يكن قد نسوني. كيف حال أبولون نيكولايفيتش مايكوف؟

كثير من الروس تجمهروا هنا. التقوا هذا الأسبوع بمبادرة منهم، لمناسبة (فسخ معاهدة صلح باريس 1856 الجائرة) في 19 أكتوبر (من العام الحالي) وبعثوا رسالة تهنئة إلى المستشار (وزير الخارجية) الروسي. أنا كتبت لهم نص التهنئة.

إلى اللقاء، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، لا تنسني، ولا تشك في مشاعري الصادقة تجاهك. ألن نلتقي في القريب العاجل؟ ما أشد رغبتي في العودة إلى روسيا. آنّا غريغوريفنا مهووسة بالحنين إلى روسيا، وتبعث إليك تحياتها. إلى اللقاء، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود فكرة رواية «الخاطئ».

(2) الكلام عن رواية «الشياطين».

(3) الحرب البروسية الفرنسية.

(4) فيما بعد كتب دوستويفسكي كثيراً عن هذه المسألة في مجلته «يوميات الكاتب»

153. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 10 فبراير 1871

نيكولاي نيكولايفيتش الموقر الكريم. أتوجه إلى فهمك الطيب الشفاف، والصحيح على الدوام تقريباً، للناس وللأشياء وأرجوك أن تنظر إليّ بعين الطيبة ذاتها كيلا أبقى في حيرة من أمري وعدم ارتياح.

في عدد أكتوبر أو نوفمبر، ولربما في عدد ديسمبر، من مجلة «الفجر» للعام الماضي مقالتان للسيد قسطنطينوف[1]، يؤكد في إحداهما أن مجلة «الوقت» وغيرها من المجلات ذات الاتجاه المعروف لم تحقق نجاحاً كبيراً. وأنا أؤكد أن عدد المشتركين في «الوقت» للسنة الأولى تجاوز 2500 مشترك، وفي العام الثالث الذي مُنعت فيه المجلة بلغ عدد مشتركيها 4500.

أعداد المجلة موجودة حتى الآن. وشهود العيان موجودون. حتى بازونوف يمكن أن يشهد. فلماذا يصار، مثلما يفعل السيد قسطنطينوف، إلى التهجم وتزوير الحقائق؟ إنه لا يعبأ بالوقائع، فهو بحاجة إلى هذا التزوير، ولذا يؤكد على ما لا يعرفه ويعتبره من الحقائق الثابتة. وأعترف لك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، أنني

انزعجت وتألمت عندما رأيت ذلك في «الفجر» بالذات. ليس ما أقوله من قبيل الغرور والاعتداد بالنفس. فعندما نشر بيسيمسكي قبل ثلاث سنوات في روايته في «الفجر» عدة عبارات تنمّ عن الاشمئزاز مني كأديب[2] اكتفيت بأن ضحكت لطباع بيسيمسكي ونفاد صبره، ولم أذنّب المجلة التي رغبت في نشر قصتي وأبلغتني برغبتها تلك وأعلنتها للجمهور، لكنها بدلاً من أن تنشر إعلاناً أو إشارة عن القصة أفردت مكاناً لبصاق كاتب آخر عليّ. أما الآن فيحز في نفسي ما حصل. «الوقت» كانت قضيتي بقدر ما كانت قضية أخي. كلانا كنا نحررها. وقد حققت نجاحاً منقطع النظير. ولم تكن هناك سوى مجلتين حققتا مثل هذا النجاح رأساً، وهما «مكتبة المطالعة» و«المعاصر»[3] في بداياتهما. أنا لا أعتبر اعتزازي بذلك النجاح عيباً أو غروراً. ثم إن الحقيقة المزورة تلحق الضرر بتاريخ الأدب، بمعنى أن لدينا الآن شهادة «الفجر» التي يعمل فيها الكثيرون من منسوبي «الوقت» بأن هذه الأخيرة لم تحقق نجاحاً. ومع أن هذه الواقعة تافهة بالنسبة لتاريخ الصحافة الروسية، لكن البعض قد يحتاجون إليها، على غرار السيد قسطنطينوف الذي احتاج إلى تلك الواقعة ليدلل على رأي من آرائه. (. . .). ويقول هذا السيد في الموضع نفسه إن مقالة «المسألة المصيرية» مكتوبة بفطنة وذكاء، ولكنها مطبوعة بشكل غير لائق. ولكنّ هؤلاء المحررين التعساء الذين لا يتحلون باللياقة حملوا روسيا كلها على قراءة مجلتهم. فكان لمجلة الوقت 4500 مشترك يمثلون روسيا كلها، آنذاك على الأقل. ثم إنك يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم تعرف أفضل من الجميع ملابسات نشر هذه المقالة ولا يزال رأيي على حاله حتى اليوم: عدم اللياقة لم يكن في نشر المقالة، بل في تبليغ (الأمن) عنها من قبل أولئك الذين لم يقرأوها بكاملها رأساً،

بل أكملوا قراءتها فيما بعد[4]. ويبدو أن السيد قسطنطينوف على علم بأنك تعرف كل ملابسات هذه القضية وأنك من المنسوبين الرئيسيين في «الفجر». فهو يعتبر المقالة ذكية، بينما ينهال بالشتائم على المتضررين العزل (الذين لا يستطيعون أن يدللوا علناً بأن المقالة مكتوبة بلياقة).

كان يعرف تماماً أن الآخرين (وأنا منهم) عاجزون عن الرد عليه. يا لها من شطارة.

فمن هو هذا المهاجم الذي وجد لدى «الفجر» حسن الضيافة؟ حسن الضيافة تعدى الحدود بالفعل. ففي مقالته نقرأ أن بلوخر هزم نابليون في واترلو، بينما بلوخر لم يكن هناك. في حين نشرت «الفجر» ذلك كله من دون استدراك أو تعديل. فما أعظم حسن الضيافة. لا مؤاخذه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، على أنيني. فذلك كله يخصني. أعترف. كان ينبغي عليَّ أن أفوت تلك التفاهات بلاأبالية لأنها تفاهات، إلا أن الألم يحز في النفس ولا يريد أن يفارقها. لا أدري هل أن ذلك من الغرور أو ضعف العزيمة، ولكن يؤلمني جداً أن أقرأ بأن نشاطي السابق كصحفي والذي اجتذبت أخي إليه لا أكثر من تفاهات فاشلة بعيدة عن اللياقة.

أردت أن أكتب لك عن ذلك من زمان، منذ أن قرأت المقالة، لكنني كنت مشغولاً جداً. والآن أعكف مجدداً على التأليف، وليس لدي وقت للقراءة تقريباً. ويؤسفني جداً أنني لم أتمكن من قراءة مقالتك عن الأدب الروسي في «الفجر». فقد شطبت هيئة التحرير اسمي من قائمة المشتركين في المجلة لهذا العام ولم ترسل لي العدد. وأنت لا تعرف طبعاً أنني أستلم العدد ليس كهدية، بل على سبيل الاقتراض لحين إجراء الحسابات النهائية لكتاباتي مع هيئة التحرير، ما

يعني أنني كنت مشتركاً في المجلة. ولا أفهم سبب حذف اسمي. وأعتقد أن ثمة توضيحين محتملين لهذه المسالة. إما غياب الثقة بقدرتي على الدفع، لأنني مدين أصلاً بالكثير إلى هيئة التحرير وإما وجود شعور من العداء لدى الهيئة تجاهي لأنني لم أتمكن من الوفاء بوعدي في شأن المقالة[5]. وأعترف بأنني أرفض السبب الثاني (...). هيئة تحرير «البشير الروسي» مثلاً أبدت في نهاية عام 69 وبداية عام 70 شيئاً من الكراهية لي لأنني لم أرسل لهم ما وعدتهم به للعام 70 ولم أفِ بوعدي لأنني أرسلت المادة إلى «الفجر». إلا أنهم، ورغم كوني مديناً لهم بـ 2000 روبل، لم يحرموني من مجلتهم، بل واصلوا إرسالها لي بانتظام.

هل يعقل أنهم (في «الفجر») زعلانون مني لهذا الحد؟ بينما يذكرون اسمي في إعلاناتهم في الصحف على أنني من منتسبي المجلة. ذلك يعني «طالما أنا مدين لن أتملص، ولا بد أن أقدم القصة مهما استخفوا بي». هل يعقل أن الأمر كذلك حقاً؟ وإلا فكيف نفسره؟

أكتب هذا لك وحدك، يا نيكولاي نيكولايفيتش، فلعلك تحترمني لدرجة لا تتصور فيها أنني أريد من خلالك أن أستجدي عدد «الفجر» وليس لدي نقود طليقة للاشتراك في المجلة. وأنا أشعر بالخجل من مفاتحة المجلة بهذا الخصوص، ما يعني أنني سأبقى من دونها حتى الصيف. كل شيء يكلفني أغلى من الآخرين. يا إلهي، كيف يتصرف باقي الأدباء مع رؤساء التحرير؟ يفعلون ذلك عمداً وليس لأن الفاقة تسوطهم أو تضرب أعلى ظهورهم بالفأس، يفعلون هكذا ولا أحد يعترض. والمثال على ذلك تعامل تورغينيف[6] مع كاتكوف أثناء نشر «الآباء والبنون»، ولم يكن دافعه العوز والحاجة، بل الجشع.

أرجو المعذرة مجدداً على هذه الرسالة. فما أبشع الشكاوى والمهاترات. بينما أبعث لك هذه المهاترات بدلاً من الرسالة المألوفة، فلا تزعل. أو الأفضل أن تلومني في البداية ثم تقول مع نفسك: «إنه هو أيضاً على حق بعض الشيء».

كيف صحتك؟ عسى أن تكون بخير؟ حبّر لي شيئاً في وقت ما. فهل يعقل أنك أنت أيضاً زعلان مني لهذا الحد؟

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) الاسم المستعار للكاتب قسطنطين ليونتيف (1831 - 1891).

(2) ورد على لسان بطل رواية بيسيمسكي «أهالي الأربعينات» المنشورة في «الفجر» 1869 قوله عن دوستويفسكي: «كاتب موهوب، لكنه ممل».

(3) أسَّسها بوشكين عام 1836.

(4) المقصود كاتكوف والعاملون في مجلته.

(5) يرى الباحثون أن الأصح «قصة» وليس «مقالة».

(6) استلم إيفان تورغينيف من مجلة «البشير الروسي» 400 روبل للملزمة الواحدة من روايته «الآباء والبنون» (ترجمها إلى العربية أكرم فاضل وذو النون أيوب عن الفرنسية والإنجليزية في بداية الخمسينات، وخيري الضامن عن الروسية في السبعينات).

154. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 2 مارس 1871

الصديق العزيز المحترم أبولون نيكولايفيتش. أبدأ بقضيتنا التي لا تنتهي.

قررت أن أنهيها، أي البدء بإقامة دعوى في المحكمة. فقد كسب البعض دعاوى أصعب. أما حقي بموجب العقد فلا جدال فيه. باختصار، هذا ما أرغب فيه وما عزمت عليه من دون رجعة: ما دامت إقامة الدعوى مسألة مرهقة فلا أستطيع أن ألقيها على كاهلك، ثم إنك لست محامياً، فأرجوك كل الرجاء أن تحيل الوكالة التي خولتك بها إلى أحد المحامين المعروفين (. . .) مهما كلف الأمر، ليبدأ المحامي فوراً إقامة دعوى رسمية قانونية على ستيلوفسكي بشأن ضرورة تسليم النقود[1] (بالإضافة إلى تعويض الأضرار المعنوية) (. . .)

يتلخص طلبي، إذن، في ما يلي: (1. توكيل محام جيد مهما بلغت التكاليف، 2. إطلاع المحامي على رسائلي إليك ليرى وجهة نظري في الموضوع، 3. القيام بآخر محاولة مع ستيلوفسكي بتوجيه رسالة مقتضبة إليه قبل إقامة الدعوى، فلعله يرعوي ويدفع المبلغ).[2]

استحسانك للبداية في روايتي[3] أعجبني كثيراً. فما كان أشد خوفي، ولا يزال، مما ستقوله بعد أن تقرأ النصف الثاني من الجزء الأول في عدد فبراير من «البشير الروسي» على الأرجح. ماذا ستقول؟ أنا في خوف شديد، نعم، في توجس وخوف شديد[4]. وفيما يخص الباقي أنا في يأس وقنوط، فهل سأنجح؟ عموماً ستكون الرواية من أربعة[5] أجزاء في 40 ملزمة. ستيبان تروفيموفيتش شخصية ثانوية، الرواية ليست عنه إطلاقاً. إلا أن قصته ذات ارتباط وثيق بباقي الأحداث الرئيسية، ولذا اتخذت منه حجر الزاوية، إن صح التعبير، في أساس الرواية. ومع ذلك سيأتي حفل تكريم ستيبان تروفيموفيتش في الجزء الرابع، حيث نشهد نهاية أصيلة جداً لمصيره. أنا مسؤول عن هذا الموضع خصيصاً، أما باقي المواضع فلا تهمني مسؤوليتها. ولكنني أكرر من جديد: أنا خائف كفأر مرتعب. الفكرة أغوتني، فأحببتها جداً، ولكن المشكلة هل سأدبر أمر الرواية ولا أفسدها؟

تصور أنني استلمت عدة رسائل من مختلف الجهات تهنئني بالجزء الأول منها. وقد سررت لتلك الرسائل أعظم السرور. وأقول صراحة، ومن دون تزلف إليك، إن رأيك أثمن شيء بالنسبة لي.

لأنك، أولاً، لا تتزلف لي، وثانياً لأن تقييمك تضمن عبارة عبقرية «هؤلاء هم أبطال تورغينيف في الشيخوخة». عظيم. أنا نفسي كنت أفكر في شيء من هذا القبيل، لكنك أوجزت المسألة في عبارة واحدة. أشكرك كثيراً على هذه الصياغة. لقد ألقيت الضوء على القضية كلها.

أشعر بضيق شديد في العمل وبتدهور في الصحة، وستحل قريباً جداً فترة نوبات الصرع المتكررة. أخشى أن أتأخر في تسليم الرواية

في الموعد. ولا أريد أن أفسدها بالتسرع. صحيح أن الخطة مدروسة جيداً، إلا أن الاستعجال يمكن أن يفسد كل شيء.

عزمت على العودة في الربيع حتماً. وسنتحدث يومها حتى الشبع. استلمت (مجلة) «الحديث». (. . .). «الفجر» ليست أسوأ من سائر المجلات. وفي اعتقادي أنها أفضل، إلا أن سوء التحرير سيقودها إلى الهلاك. لا أوافقك في رأيك بخصوص ستراخوف، فهو الناقد الوحيد في الحال الحاضر. النقد المتشدد هو اختصاص «الفجر». وبعد حين من الزمن ومع تحسن قسم التحرير ستأخذ المجلة حقها. أما «الحديث» (التي هي من الاتجاه نفسه) فلن تضر «بالفجر» من خلال المنافسة في اعتقادي. إلى اللقاء. أشكرك على مشاعرك الطيبة تجاهي. البراعم تتفتح عندنا في بداية الربيع الحقيقي. إلى اللقاء القريب.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) استحصال أجرة طبع «الجريمة والعقاب» من الناشر ستيلوفسكي

(2) أجاب ستيلوفسكي أنه لا يمتلك مالاً الآن، فتأجلت القضية.

(3) «الشياطين».

(4) أعرب مايكوف عن استحسانه لهذا القسم من الرواية أيضاً وهنأ الكاتب على الإنجاز الجديد.

(5) النص النهائي «للشياطين» من ثلاثة أجزاء.

155. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 18 مارس 1871

في المقام الأول، اعذرني يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، لتأخري الطويل في الرد على رسالتك. كل ذلك بسبب الملابسات. فقد مرضت لبعض الوقت، والأهم هو الاكتئاب الذي استولى عليَّ بعد نوبة الصرع. عندما تتوقف النوبات أمداً طويلاً، ثم تداهمني فجأة تكتنفني كآبة نفسانية بالغة الشدة. لحد اليأس والقنوط. في السابق كان هذا الاكتئاب يستمر قرابة ثلاثة أيام بعد النوبة، بينما هو الآن يستغرق سبعة أو ثمانية أيام، مع أن النوبات نفسها في درزدن أقل مما في أي مكان آخر. والأمر الثاني هو الحزن بسبب العمل، فقد تعسرت الكتابة إلى أقصى حد. ينبغي السفر إلى روسيا مع أنني تعودت على طقس غير طقس بطرسبورغ. إلا أن العودة ضرورية رغم كل شيء. (. . .)

يا ليتك تعلم بما خطر في بالي من تصورات مرهقة وحزينة بعد قراءة رسالتك. فما أغرب الأمر. كل ما كانت «الفجر» تتميز به من أصالة وما أضفى عليها خصوصية متفردة بين سائر المجلات صاروا

يعتبرونه عقبة أمام النجاح. في حين أنها المجلة الروسية الوحيدة التي بقي فيها قسم للنقد الأدبي. ولأن الجميع تخلوا عن النقد بات ضرورياً الآن. وهو الذي منح «الفجر» هويتها. لقد أرعبتهم الأقاويل والتهكم، بينما ينبغي، على العكس، أن تصر المجلة على فكرتها في كل عدد، فيكون المستقبل لها. أنا لا أعرف موقف الآخرين، ولكنني كلما أستلم «الفجر» أستل منها قبل كل شيء مقالاتك وأنتشي بها. اهتمامي بهذه المقالات عظيم، ولو أنني بالطبع لا أوافقك أحياناً في كل شيء، في الأساليب واللهجة والليونة البالغة، بالإضافة إلى المبالغة في بعض ظواهر الأدب والحياة. مقالتك عن كارامزين عميقة وصريحة صراحة الشجعان، حتى أنني سررت لأنه لا يزال يتعالى عندنا صوت جهوري كصوتك. (. . .).

أكرر هنا أنني أنتظر بفارغ الصبر وبانفعال لحظة اللقاء مع الأعزاء السابقين في بطرسبورغ. وإليك رجاء آخر، لا تخبر أحداً بمجيئي القريب إذا حصل. أريد للدائنين أن لا يزعجوني لأسبوع واحد على الأقل بعد وصولي. فأنا أتوقع أن يهرعوا إليّ، وأخشاهم لأنني لا أملك مالاً ما عدا الآمال.

اكتبْ لي شيئاً يا نيكولاي نيكولايفيتش. فأنا وفيٌّ لك وأحترمك وأقول ذلك بصدق وإخلاص. عنواني هنا ذاته من دون تغيير (. . .).

التأليف متعثر، يا نيكولاي نيكولايفيتش، أو أنه يتم بإجهاد كبير. ولا أدري ما السبب. أعتقد أنه حاجتي إلى روسيا. يجب أن أعود مهما كلف الأمر. أشكرك جزيل الشكر لأنك لم تنس الكتابة لي عن روايتي. وقد أفرحتني كثيراً. (. . .) بسبب العودة إلى روسيا سأضطر حتى إلى وقف التأليف مؤقتاً. على أية حال سأنهي الرواية هذا العام[1] (. . .)

أين ستكون في الصيف؟ في المدينة أم في الريف؟ حبذا لو أبلغتني سلفاً. أظن أنني سأصل في منتصف الصيف.

ما أكثر هموم الانتقال. رحلنا في حينه أنا وزوجتي الشابة وحدنا، وأعود مع الزوجة الشابة نفسها وطفلين. البنت عمرها سنة ونصف، والآخر لم يولد بعد[2]. فما أكثر هموم الانتقال.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) أنهى دوستويفسكي «الشياطين» في نوفمبر 1872.

(2) ولد ابن دوستويفسكي، فيودور (فيديا للتحبيب)، واسمه على اسم أبيه، في 16 يوليو 1871.



156. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 23 أبريل 1871

رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، أثارت عظيم اهتمامي كالعادة، ولكن ما أغرب أخبارها. لا يمكنني أن أتصور أنك انقطعت عن «الفجر» نهائياً. استنتجت ذلك من رسالتك. ثم أنت تقول إنك مسرور لتناول قسط من الراحة، وقد تهيأت للترجمة. كلا، يا نيكولاي نيكولايفيتش، هذا لا يجوز. لا يحق لك أن تترك قضيتك الكبرى، فليس لدينا ناقد غيرك. أنت الناقد الوحيد بالمعنى الحرفي للكلمة. على مدار سنتين كنتُ مسروراً لوجود مجلة تخصصها الرئيسي بين سائر المجلات هو النقد الأدبي. فكيف دمروا ما كان يمثل أصالتهم واستقلاليتهم؟ كنت أتلذذ بمقالاتك، أنا من المعجبين المتحمسين لك، وكلي ثقة بأن لديك غيري كثيراً من المعجبين، وبأنك، على أية حال، يجب أن تواصل. الانسحاب مؤشر على خوَر العزيمة. لا مؤاخذة على هذا التوصيف، ولكنني، نظراً لمعرفتي الطويلة بطباعك الشخصية، على يقين بأنك تتراجع أكثر من اللازم بعد الإخفاق الأول. بيد أن الإخفاق يصادف المرء دوماً وفي أي عمل من

الأعمال. ثم إنك لن تتحمل، ستر تاح وتلهو، كما تقول، لكنك لن تكتفي بالترجمة وستصدر (مقالاتك النقدية) في كراسات[1]. فلماذ لا تلتحق بمجلة «الحديث» الجديدة بدلاً من ذلك لكي تؤمن احتياجاتك المادية؟ وفي اعتقادي أن في هذه المجلة أناساً يمكن أن يقدروا إمكانياتك ويفهموك أكثر مما في «الفجر». (. . .)

في أحد كراساتك وردت فكرة عظيمة غير مسبوقة في الأدب، وهي أن كل كاتب موهوب حقاً إنما يتناول دوماً المشاعر القومية ويغدو في آخر المطاف من دعاة النزعة السلافية. فالشاب اليافع بوشكين، مثلاً، سبق جميع دعاة السلافية، من أمثال كيرييفسكي وخومياكوف، في تدوين أحداث دير المعجزات (دراما بوريس غودونوف) والكشف عن حقيقة أولئك الدعاة وبصورة أعمق كثيراً مما كتبوه. خذ مثلاً هيرتسن. فما أشد حزنه وحاجته إلى سلوك هذا الطريق من دون جدوى، وذلك بسبب الخصال الشخصية السيئة. وحتى هذا قليل، فإن قانون الانعطاف نحو القومية يتجلى ليس فقط عند الشعراء والكتّاب. بل وعند سائر الشخصيات الاجتماعية. ولذا يمكن في الأخير استنباط قانون آخر بأن الشخص إذا كان موهوباً حقاً فإنه سيحاول العودة من الفئة الطائشة الضالة إلى الشعب، أما إذا كان يفتقر إلى الموهبة فيبقى في الفئة الطائشة، بل ويستغلونه هناك فينتقل إلى الكاثوليكية وسواها. الحشرة النتنة بيلينسكي الذي لا يزال يتمتع بالتقدير من جانبك[2] كان موهوباً قليلاً وعاجزاً كثيراً، ولذا لعن روسيا وألحق بها عن سوء قصد ضرراً كبيراً. وسترى أن كلاماً كثيراً سيقال عن بيلينسكي في المستقبل. إلا أن فكرتك هذه قوية لدرجة تقتضي تطويرها خصيصاً. فاكتبْ مقالة في هذا الموضوع وطوِّر الفكرة وانشرها في «الحديث»[3]. ولعلهم هناك سيفرحون بها. وستكون بمثابة نقد أدبي بشكل آخر. ولو نشرت

مقالتين أو ثلاثاً من هذا النوع في السنة أتوقع لك النجاح، ولن ينساك الجمهور، بل سيقول إنك انتقلت إلى الصعيد الذي يفهمك أكثر. «فالحديث» ليست «الفجر». والأهم لماذا تترك الأدب؟

ولكنْ معذرة. لو تحدثنا وجهاً لوجه سنفهم بعضنا بعضاً بشكل أفضل. وللأسف أنني لن أجدك في بطرسبورغ إذا كنت تنوي السفر إلى كييف. فأنا لن أعود إلا في يونيو. هذا ما تمليه عليَّ إمكانياتي المالية. فإلى الخريف، إذن. حبذا لو كتبت لي رسالة موجزة أخرى قبل أن تغادر بطرسبورغ. وإليك ما أقوله عن حكمك الأخير على روايتي (الشياطين): 1. أنت وضعتني في مرتبة عالية بما وجدت من أمور جيدة في الرواية. 2. أشرت بمنتهى الدقة إلى العيب الرئيسي. نعم، كنت ولا أزال أعاني من ذلك. أنا لا أجيد، ولم أتعلم، حتى الآن، التحكم بالوسائل الفنية المتوفرة لدي. يصادف أن تندرج عدة روايات وقصص منفصلة في رواية واحدة على غير المتوقع، فلا تقيد بالمقاييس والأحجام ولا تناسق. لقد ذكرتَ أنت ذلك بكل براعة، فيما أعاني أنا منه على مدار سنين، لأنني أدركته بنفسي. إلا أن ثمة ما هو أسوأ. فأنا نظراً لسوء تقديري لوسائلي الفنية ولشدة ولعي بالحماس الشاعري أحاول أن أعبّر عن فكرة فنية أكبر من طاقتي، وبذلك أقود نفسي إلى الهلاك. ومعروف أن قوة الحماس الشاعري عند فيكتور هيغو أقوى من وسائل الأداء. وحتى عند بوشكين تلاحظ آثار هذه الازدواجية. وأضيف أن الانتقال من مكان إلى آخر والهموم الكثيرة في هذا الصيف تضر كثيراً بالرواية. أشكرك على المشاطرة.

ما أشد أسفي لأننا لن نلتقي في وقت قريب.

ودمتَ للمخلص لك كل الإخلاص

فيودور دوستويفسكي

(1) أصدر ستراخوف كراسات ودراسات عن «الحرب والسلام» لتولستوي و«العالم كيان واحد» و«الصراع مع الغرب في أدبنا» و«في نقد إيفان تورغينيف وليف تولستوي» و«ملاحظات عن بوشكين وشعراء آخرين» وغيرها.

(2) في رسالته الجوابية إلى دوستويفسكي دافع ستراخوف عن بيلينسكي.

(3) لم يأخذ ستراخوف بنصيحة دوستويفسكي هذه.



157. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 18 مايو 1871

نيكولاي نيكولايفيتش الموقر. بدأتَ رسالتك مباشرة من بيلينسكي، كما كنت أتوقع منك. انظر إلى باريس، إلى الكومونة. فهل يعقل أنك أنت أيضاً من الذين يزعمون أن الفشل ناجم هذه المرة كذلك عن الملابسات وقلة المشاركين وما إلى ذلك؟(. . .) حريق باريس فظيع (وطالما فشلت الكومونة فليهلك العالم كله! الكومونة أسمى من سعادة العالم وسعادة فرنسا). هل يعقل أن الحقائق قليلة ولا تكفي للتدليل بأن المجتمع ينبغي أن يُبنى على نحو آخر، وأن السبل المؤدية إلى السعادة ليست كهذه، وأن السعادة لا تأتي من الجهة التي كانوا يظنونها حتى الآن؟ فمن أين تأتي؟ سيؤلفون الكتب الكثيرة ومع ذلك يفوتون الأمر الرئيسي، ألا وهو أن الغرب ضيع المسيح بسبب الكاثوليكية، وهذا هو السبب الوحيد لسقوط الغرب. من الواضح أن المثال الأعلى تبدل. وما أغرب التوافق بين سقوط سلطة البابا إلى جانب سقوط زعيمة العالم الروماني الجرماني فرنسا وأخواتها.

كل ذلك يتطلب خطباً طويلة عريضة، ولكنّ ما أريد أن أقوله هو الآتي: لو أن بيلينسكي وغرانوفسكي وباقي الزمرة التفتوا الآن لقالوا: «كلا، ليس هذا ما كنا نطمح إليه، هذا انحراف، وسننتظر فترة، فيبزغ النور ويحل التقدم وتعيد البشرية بناء نفسها على أسس سليمة وتتمتع بالسعادة». وما كان بوسعهم أن يوافقوا على سلوك هذا الطريق وصولاً إلى الكومونة (ولا شيء غير الكومونة). لقد كانوا من البلادة بمكان، حتى أنهم لن يوافقوا الآن أيضاً، بعد الأحداث، بل سيفضلون أن يواصلوا الأماني والأحلام. لقد هاجمتُ بيلينسكي بوصفه ظاهرة في الحياة الروسية وليس كشخص من الأشخاص. تلك كانت الظاهرة الأكثر عفونة وبلادة وخزياً. والعذر الوحيد هو حتمية تلك الظاهرة. أؤكد لك أن بيلينسكي كان سيتقبل اليوم الفكرة القائلة «بأن فشل الكومونة سببه كونها فرنسية قبل كل شيء، بمعنى أنها احتفظت بعدوى القومية. ولذا ينبغي البحث عن شعب ليس فيه ذرة من النزعة القومية وهو قادر، مثله، على صفع أمه روسيا على خديها». ويشرع والزبد يسيل من فمه في كتابة مقالاته الكريهة جالباً العار لروسيا ناكراً ظواهرها العظمى، (عبقرية) بوشكين، ليجعل من روسيا نهائياً أمة متفرغة لتزعم القضية الإنسانية المشتركة. ومن شأنه أن يعتبر الجزويتية والأكاذيب عند محرضينا الطليعيين سعادة ما بعدها سعادة. ثم إنك لم تكن تعرفه أبداً قدر معرفتي به. فقد رأيتُه وعرفته والآن أدركت حقيقته تماماً. كان يشتم المسيح أمامي بأقذع الشتائم، بينما هو عاجز عن وضع نفسه وجميع المحرضين والمحركين في العالم كله في كفة تقابل كفة المسيح. ولم يلاحظ كم في نفسه شخصياً وفيهم من الغرور التافه والحقد والتطيّر والانفعال والدناءة، الغرور على وجه الخصوص. وعندما كان يشتم المسيح لم يسأل نفسه

ماذا لدينا مما يمكن أن نضعه محله؟ هل يعقل أن نضع أنفسنا بدلاً من السيد المسيح؟ ذلك يعني أننا من الدناءة والخسة بمكان. كلا، لم يفكر أبداً أنه، هو شخصياً، خسيس. كان راضياً عن نفسه لأقصى حد. وكان ذلك مؤشراً على غباء شخصي شائن نتن. أنت تقول إنه موهوب. كلا أبداً. أعوذ باللّه من الكذب الذي ورد عنه في مقالة غريغوريف الشاعرية. أتذكر دهشتي في شبابي عندما استمعت إلى بعض أحكامه الفنية الصرف عن «النفوس الميتة» مثلاً. كان سطحياً جداً عندما استخف بالنماذج الفنية عند غوغول، وكان مسروراً جداً لقيامه «بفضح» هذا الكاتب. هنا قرأت خلال هذه الأعوام الأربعة مقالاته النقدية: تهجم على بوشكين عندما تخلى الشاعر عن اللهجة الزائفة[1] وظهر بمؤلفيه «قصص بيلكين» و«وصيف القيصر بطرس الأكبر». ولم يجد في قصة غوغول «العربة» وعياً فنياً متكاملاً، بل مجرد تنكيت. وقد رفض خاتمة (ملحمة) «يفغيني أونيغين». وهو أول من طرح فكرة كون بوشكين موظفاً صغيراً في البلاط. وهو الذي قال بعد قراءة قصة تورغينيف القيمة «ثلاث صور نصفية» إن هذا الكاتب لن يكون فناناً. يمكنني أن أورد الكثير جداً من هذه الأمثلة التي تدلل على خطأ حسه الانتقادي وخطل «الحس الرهيف» الذي زعم غريغوريف بوجوده عند بيلينسكي (. . .) نحن لا نزال نحكم على بيلينسكي وعلى العديد من ظواهر حياتنا من خلال كمٍّ هائل من الأوهام الطارئة.

ألم أكتب لك بخصوص مقالتك عن تورغينيف؟ قرأتها، كما أقرأ جميع مقالاتك، بإعجاب كبير، ولكن بشيء من الأسف. إذا كنت ترى أن تورغينيف فقد نقطة الارتكاز وبات يترنح ولا يعرف ماذا يقول عن بعض ظواهر الحياة الروسية، وأنه يسخر منها على أية حال، فلا بد

لك أن تعترف بأن قدرته الفنية العظيمة ضعفت، وكان لا بد أن تضعف، في نتاجاته الأخيرة. وهذا ما حصل بالفعل. لقد أصيب بالهزال كفنّان. تقول «الصوت» إن ذلك يعود إلى إقامته في الخارج. لكن السبب أعمق.

فهل تعترف بتوفر قدرته الفنية السابقة في مؤلفاته الأخيرة؟ هل هذا صحيح؟

على أية حال، ربما أكون مخطئاً، ليس في آرائي وأحكامي عن تورغينيف، بل في شأن مقالتك. ولربما أنك جانبت الدقة في التعبير. الحقيقة أننا أمام أدب إقطاعي. أدب قال كل ما لديه، وبشكل رائع عند ليف تولستوي. إلا أن هذه الكلمة الإقطاعية الصرف كانت الكلمة الأخيرة. ولم يتسع الوقت لظهور كلمة جديدة تحل محلها. أمثال ريشيتنيكوف(2) لم يأتوا بجديد. ومع ذلك يعبّرون، وإنْ بشكل مقرف، عن فكرة ضرورة التجديد في الأدب الفني، على أن لا يبقى أدباً إقطاعياً (محصوراً بنبلاء الريف).(3)

ما أشد رغبتي في أن أجدك في بطرسبورغ. أنا لا أدري متى سأعود. أحلم بالعودة بعد شهر، وليبق ذلك سراً بيننا. وإذا لم تصل النقود وأفوت الموعد فسأضطر إلى البقاء من جديد فترة أطول. إلا أن ذلك شيء فظيع لا معنى له.

الرواية إما أن أفسدها لحد التلوث المعيب، وقد بدأت أفسدها، وإما أقوى عليها وأتمكن منها، فأحصل بالنتيجة على شيء ما جيد. أنا وحظي. هذا هو شعاري الآن. ورجائي أن يبقى كل ذلك سراً بيننا، باللّه عليك.

كم كنت أتمنى أن أراك في بطرسبورغ أول الجميع. لا شك أن تبديل الجو من أهم الضروريات بالنسبة لك. ولكن لا تبق في كييف

إلى الأبد. رسائلك باتت تخيفني فيما يخصك. فأنت من الأشخاص الذين انعكسوا على حياتي بكل قوة. وأنا أحبك بإخلاص وأشاطرك مشاعرك. أنت في حزن واكتئاب، وإلا فلماذا أخذت تتكلم عن الموت؟ يا ليتنا نلتقي. فما أجمل اللقاء.(. . .)

قرأت بكل ارتياح ما ورد في رسالتك عن تورغينيف. هذا الخبيث وفيٌّ لنفسه فقط من الناحية الفنية. أنا أعرفه بكل مساماتي. يمكنني أن أوضح الكثير بهذا الخصوص. لكنني أترك ذلك حتى نلتقي.

المخلص

ف. دوستويفسكي

اكتبْ لي إذا استطعت على العنوان نفسه. زوجتي تبلغك تحياتها.

---

(1) دوستويفسكي يلمّح إلى تأثير بايرون على بوشكين في تلك الفترة.

(2) يقصد دوستويفسكي بأمثال الروائي ريشيتنكوف تحديداً الكاتب الديمقراطي سالتيكوف شيدرين.

(3) في رسالة جوابية اعترض ستراخوف على مصطلح «الأدب الإقطاعي» في ما يخص ليف تولستوي.

158. إلى بربارة أوبولينسكايا

بطرسبورغ، 20 يناير 1872

الآنسة الكريمة الأميرة بربارة دميتريفنا.

تشرفت باستلام رسالتكم المؤرخة في 6 ديسمبر هذا الأسبوع فقط، ذلك لأن العنوان غير صحيح، وإلى ذلك كنت في موسكو شهراً كاملاً، ولذا ظلت رسالتكم تنتظرني على مكتبي في بطرسبورغ كل هذه الفترة. أشكركم جزيل الشكر على اهتمامكم بروايتي («الجريمة والعقاب») وأقدر رفيع التقدير تقييمكم الصادق لها وكذلك ثناءكم الذي يسرني كل السرور. أنا أعيش وأكتب لأبلغ مثل هذا التقييم، في حين أن كل شيء في عالم الأدب عندنا، على العكس، اصطلاحي متكلف ومبطن يحتمل معنيين متناقضين، وبالتالي ممل وذو طابع رسمي، وخصوصاً الثناء والإطراء والتقييمات المتزلفة. بخصوص نيتكم في مسرحة روايتي فأنا بالطبع موافق تماماً، وقد اتخذت لنفسي قاعدة هي عدم رفض أية محاولة من هذا النوع. ولا يسعني من هذه الناحية إلا أن أحيطكم علماً بأن المحاولات التي جرت في هذا المضمار أخفقت[1] على الدوام تقريباً.

ثمة سر فني يمنع الشكل الروائي من تقمص لبوس الشكل الدرامي. وأنا متيقن بأن مختلف أشكال الفن لها ما يطابقها من أصعدة الأفكار الشاعرية، ولذا لا يمكن للفكرة أن تصاغ في شكل آخر لا يناسبها.

ولكنّ الأمر يختلف إذا أمكن تغيير الرواية وإعادة بنائها من خلال الاحتفاظ بمشهد واحد منها تتم مسرحته أو استخدام الفكرة الأساسية مع تغيير الحبكة تماماً. إلا أنني أرجوكم أن لا تعتبروا كلامي هذا نصيحة بعدم مسرحة الرواية. أكرر أنني أشاطركم نواياكم تماماً، علماً بأن رغبتكم في السير بالمسألة حتى النهاية تملأني فخراً... معذرة مرة أخرى لتأخري في الجواب، لكنني مذنب من دون ذنب.

عنواني على أية حال: بطرسبورغ، شارع سيربوخوفسكايا، دار رقم 15.

وتقبَّلوا، يا حضرة الأميرة، أعمق آيات الاحترام.

خادمكم المطيع
فيودور دوستويفسكي

---

(1) أول محاولة ناجحة لعرض «الجريمة والعقاب» على خشبة المسرح تمّت في بطرسبورغ عام 1899، ثم توالت عروض الرواية الممسرحة في روسيا وفي الخارج.

158(أ). إلى ألكسندر رومانوف (ولي العهد)

بطرسبورغ، 28 يناير 1872[1]

حضرة صاحب السمو الإمبراطوري الكريم

أتجرأ على الكتابة مرة أخرى[2] لمقامكم السامي، إلا أنني أكاد أخشى التعبير عن حقيقة مشاعري. ذلك لأن من الصعب على المستعين أن يجد الكلمات ليعبّر صراحة ومن صميم القلب عن امتنانه الصادق للمعين. مشاعري مختلطة، فمن جهة أشعر بالخجل من جرأتي السابقة، ومن جهة أخرى يملأني الآن الاعتزاز والإعجاب اللامتناهي بالاهتمام الغالي الذي أبديتموه سموّكم بالتماسي المرفوع إليكم. إنه أعز عليّ وأغلى بالنسبة لي حتى من المعونة التي تكرمتم بها وأنقذتني من مصيبة كبرى.

بشعور من الولاء الخالص أبقى لسموّكم الإمبراطوري

الخادم المطيع

فيودور دوستويفسكي

(1) نشرت هذه الرسالة لأول مرة بعد أكثر من مئة عام، في أعمال دوستويفسكي الكاملة بثلاثين مجلداً.

(2) رسالة دوستويفسكي الأولى إلى ولي العهد (قيصر روسيا ألكسندر الثالث لاحقاً) مفقودة. ومن الصعب التكهن بمضمونها تحديداً ولا بأسباب التعبير عن الامتنان في الرسالة الحالية. يرجح الباحثون أن دوستويفسكي تلقى مكرمة من ولي العهد نظراً لملاحقة الدائنين له بعد عودته من الخارج. في تلك الأيام كتب دوستويفسكي إلى صوفيا إيفانوفا أنه استلم «مبلغاً محترماً» سيخبرها بمصدره فيما بعد.



159. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، أواخر مارس- أوائل أبريل 1872

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش الموقر

لم أرد على رسالتكم في انتظار صدور عدد مارس (من «البشير الروسي»). تأخذون عليّ أن رواية («الشياطين») تأخرت كثيراً. ما العمل؟ يبدو أنني مذنب من دون ذنب، أنا مذنب على أية حال. وأعترف بأن لكم الحق كل الحق في الغضب الشديد. ثم إنكم تحددون لي مواعيد مضبوطة على حد تعبيركم: «عندما تكتمل الكتابة من جانبي أو يتم إنجاز قسم كبير منها على الأقل» تواصلون الطباعة.

أعتقد أن بإمكاني أن أقترح ما يلي، وهو أيضاً عبارة عن رجاء إليكم، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم. عندي فكرتان بخصوص مواصلة النشر: 1) بين أيديكم ملزمتان ونصف، وبعد يوم سيكون جاهزاً فصل آخر مستقل. فيكون المجموع لعدد أبريل 4 ملازم. إذا كان يروق لكم أن تنشروا شيئاً من الرواية في أبريل بلغوني ولو بسطر واحد حتى أبعث لكم الفصل من دون تأخير. وأؤكد أن الإرسال سيجري بعد ذلك بلا انقطاع حتى نهاية الجزء الثالث، أي ختام

الرواية. صحيح أن وجبات الإرسال لن تكون بأربع ملازم، وسأحاول أن لا تقل عن ملزمتين ونصف إلى ثلاث ملازم للعدد الواحد من المجلة. وأكرر أن ذلك سيتم بالتأكيد. لقد خالفت الأصول مراراً حتى قررت هذه المرة أن أجند كل طاقاتي لتصحيح ما سلف.

والفكرة الثانية: إذا كنتم مصرّين على البدء بنشر الجزء الثالث بعد أن يكون جاهزاً بكامله أو بمعظمه، كيلا تحصل فترات انقطاع، فإنني أرجوكم كل الرجاء أن تبدأوا بنشره اعتباراً من عدد أغسطس. عندذاك يمكن أن ننتهي من هذا الجزء دفعة واحدة في عددي أغسطس وسبتمبر بست أو سبع ملازم في كل من العددين، ولا أكثر من ذلك نظراً لحجم الجزء الثالث، أو في 3 أعداد لأشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر. باختصار الأمر لكم. (. . .) وأعتقد أنني ربما سأنتهي من الكتابة قبل ذلك، وبأسرع مما كنت أتوقع. إلا أننا إذا بدأنا بالنشر مبكراً، من عدد يونيو، مثلاً، على أن ننتهي قبل حلول الخريف فإن ذلك سيلحق، من ناحيتي، ضرراً بالرواية. وأقول من دون تفاخر مبتذل إن الجمهور مهتم بالرواية بعض الشيء. ففي الآونة الأخيرة كتب وتحدث عنها الكثيرون بعد صدور كل عدد من المجلة، عندنا في بطرسبورغ على الأقل. ثم إن الوقت حتى شهر أغسطس طويل جداً ومضر بالنسبة لي، فالقراء سينسون الرواية. إلا أن تذكيرهم بها بنشر الجزء الثالث دفعة واحدة آمل أن ينعش انطباعاتهم، في الوقت الذي يبدأ فيه فصل الشتاء حيث تغدو روايتي النبأ الأول رغم كونه من الأنباء القديمة. وإلى ذلك أعتقد، وأنا أعرف خاتمة الرواية، أن الجزء الثالث سيكون من حيث مزاياه أفضل من الجزءين الأول والثاني. علماً بأن الجزء الثاني هو الذي خلق انطباعاً جيداً في بطرسبورغ في فصل الشتاء. وبالتالي ستتجدد الرواية، وفي ذلك نفع

كبير لي فيما يخص طبعتها الثانية الآن فور الانتهاء من نشرها (في المجلة).

ولذا أرجوكم كل الرجاء أن تبلغوني هل أنتم موافقون على النشر في أغسطس، إذا لم ترغبوا البدء في أبريل؟ وإذا كان البدء في أبريل فسأوافيكم بالفصل (الجديد) حالاً (. . .)

وتقبَّلوا من صميم القلب فائق الاحترام الصادق، ومعذرة على لطخة الحبر في أعلى الصفحة، فلا تعتبروا عدم استنساخ الرسالة تهاوناً مني.

خادمكم الدائم
فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: في كل الأحوال أرجو أن تبلغوني بقراركم فوراً.

160. إلى ألكسندر رومانوف (ولي العهد)

بطرسبورغ، 10 فبراير 1873

حضرة صاحب السمو الإمبراطوري الكريم

اسمحوا لي أن أتشرف وأسعد بعرض كتابي[1] على مقامكم السامي. وهو عبارة عن لوحة تجريبية تاريخية تقريباً أردت من خلالها أن أوضح ظواهر فظيعة في مجتمعنا العجيب، مثل جريمة نيتشايف. نظرتي إلى تلك الظواهر تتلخص في اعتبارها ليست من بنات الصدفة، وليست حالات فردية، ولذا لا تتضمن روايتي أحداثاً مستنسخة ولا شخوصاً مستنسخين (من الواقع المعاش). هذه الظواهر نتيجة مباشرة لانفصال التربية الروسية طوال القرون عن البدايات والجذور الوطنية الأصيلة لحياة روسيا. وحتى الأكثر موهبة بين ممثلي تطورنا الأوروبي المزعوم تحولوا من زمان إلى الاعتقاد بأننا، نحن الروس، لا يحق لنا أن نطمح إلى الأصالة القومية، وأننا إذا حلمنا بها فتلك جريمة لا تغتفر. وأفظع ما في الأمر أنهم على حق تماماً، ذلك لأننا عندما وصفنا أنفسنا بالأوروبيين وبكل اعتزاز إنما تخلينا عن روسيتنا. وفي ظل الحيرة والخوف من تخلفنا الكبير عن

أوروبا من حيث التطور الفكري والعلمي نسينا بأننا، في أعماق الروح الروسية ومهماتها، نمتلك، كروس، القدرة على أن نحمل النور ربما إلى العالم الجديد فيما لو حافظنا على أصالة تطورنا. لقد نسينا، في أوار الرضا بإهانة كرامتنا، قانون التاريخ الحتمي الذي يقول إننا لن نتمكن أبداً من تولي دور الأمة العظمى ولن نحتفظ بشيء من الأصالة لمنفعة البشرية جمعاء ما لم نعتز بكرامتنا وأهميتنا العالمية كأمة. لقد نسينا أن جميع الأمم العظمى جسدت قواها الهائلة من خلال «الكبرياء» في وعيها الذاتي، وبذلك باتت نافعة للعالم وحملت كل منها له شعاعاً واحداً من النور على الأقل، وظلت على الدوام مستقلة شامخة لا تتنازل عن كبريائها.

عندما يفكر المرء عندنا الآن ويعرب عن فكرته على هذا النحو إنما يختار لنفسه مصير المنبوذ. والحال أن أكبر دعاة اللاأصالة القومية يمكن أن يكونوا أول المتنصلين بفزع عن جريمة نيتشايف. فإن بيلينسكي وغرانوفسكي ومن لفَّ لفهما لن يصدقوا إذا قيل لهم إنهم بالذات عرابو وآباء نيتشايف المباشرون. صلة الرحم هذه، توارث الفكر هذا الذي يتعمق منتقلاً من الآباء إلى الأبناء، هو ما أردت أن أعبّر عنه في روايتي. ولم يتسنَّ لي أن أنجز المهمة كاملة، مع أني عملت كما يمليه الضمير.

ومما يشرفني ويرفع معنوياتي أنكم، يا صاحب السمو، ولي عهد أحد أعلى وأثقل الكواكب في العالم، زعيم الأرض الروسية وحاكمها المرتقب، ربما تلتفتون أدنى التفاتة إلى محاولتي الضعيفة، وأنا أعرف أنها ضعيفة، لكنها نزيهة لرسم صورة فنية لإحدى أخطر العلل في حضارتنا المعاصرة، تلك الحضارة العجيبة المصطنعة وغير الأصيلة، لكنها لا تزال حتى الآن تتحكم في الحياة الروسية.

واسمحوا لي، يا صاحب السمو الكريم، أن أتقدم لحضرتكم بأسمى مشاعر الاحترام الصادق والامتنان الخالص من خادمكم المخلص المطيع

فيودور دوستويفسكي

---

(1) «الشياطين».



161. إلى ميخائيل بوغودين

بطرسبورغ، 21 فبراير 1873

السيد ميخائيل بيتروفيتش المحترم

قرأت الآن مقالتك عن بيلينسكي. لماذا ترفض توقيع هذه المقالة الرائعة باسمك الحقيقي؟ وما معنى «قارئ المجلات العجوز»؟

أرسلنا المقالة إلى التنضيد رأساً. اليوم هو الأربعاء، وغداً ستستلمها. باللّه عليك اكتبْ لنا ثلاثة سطور حول موافقتك على توقيعها باسمك: م. بوغودين. أقسم لك أن القراء سيظنون أنني أنا صاحب المقالة (إذا بقيت باسمك المستعار) ويتصورون أنني كتبتها لأثبت آرائي بشأن بيلينسكي، فالكثيرون هنا اتهموني في ما يخص هذه المقالة.

ثم إنني حاولت عدة مرات أن أرد على تحياتك بكلمات أدفأ.

لكنني مرضت في الأسبوعين الأخيرين، والأسوأ من ذلك أنني منفعل عصبياً، حتى أنني لازمت المنزل ولم أذهب إلى هيئة تحرير («المواطن») لبعض الوقت. ولذا كنت أنتظر فرصة الكتابة إليك ولم أكتب حتى الآن.

بشأن مقالاتك الموجودة في هيئة التحرير سأكتب لك خصيصاً. والآن أكثر ما أتمناه هو أن تتقبل احتراماتي العميقة ووفائي الصادق لك.

المخلص ف. دوستويفسكي



162. إلى ميخائيل بوغوين

بطرسبورغ، 26 فبراير 1873

السيد ميخائيل بيتروفيتش المحترم. ليس معك حق، عندما تقول إنني «أجبتك بحكم الضرورة». أكرر من صميم القلب: كلا، لقد كتبت لك الحقيقة عندما قلتُ إنني أريد أن أوجه لك كلمات أكثر دفئاً. استجابتك ومصافحتك عزيزتان عليّ، لكنني لم أرد لأنني لم أكن قادراً على الرد.

ليس لدينا سكرتير، وأنا مصر على تعيينه، لأني أرى ضرورة لذلك. وحتى لو كان عندنا سكرتير أنا أعرف بتجربتي الشخصية أن من الضروري أن أتكلم شخصياً مع كتّاب المقالات والذين يحملون لنا دراسات جديدة، وأن أقرأ تلك المقالات، وهذا كثير عليّ، وأطلع على أكداس الكتابات المتروكة من رئيس التحرير السابق. قراءة المقالات تأخذ مني وقتاً هائلاً، وتربك صحتي لأنني أدرك أنها تقتطع من وقت عملي الحقيقي. ثم، عندما آخذ المقالة وأقرر نشرها، فإنني غالباً ما أعيد قراءتها من البداية حتى النهاية. (. . .) ثم لا بد من قراءة سقط المتاع من الصحف. وما يحز في نفسي أكثر من غيره هو الكم

الهائل من المواضيع التي أرغب في الكتابة عنها بنفسي.(. . .) ولا يندر أن أتشبث في ليل الخميس بمقالة جديدة وأكتبها في يوم واحد لأن استلام المقالات عندنا يتوقف في ليل الجمعة. كل ذلك يؤثر فيّ، وأكرر، بشكل أليم. فمتى أستطيع أن أكتب رسالة إذا أردت أن أعبّر عن شيء ما فيها؟

ثمة أمور كثيرة تؤرقني. منها خلو قسم التعريف بالكتب من الموظفين. هذا الأسبوع عاد ستراخوف من القرم ففرحت له، حيث ستكون لدينا مقالات نقدية، لكنه مرض فجأة.

ثم أريد أن أتحدث كثيراً عن أسباب التحاقي بالمجلة. ولكنني أجد صعوبة في التعبير عنها. هدفي وفكرتي يتلخصان في الآتي: الاشتراكية التهمت الجيل كله تقريباً عن عمد وبشكلٍ أخرق لاواعٍ، بشكلِ حذلقة دنيئة. الوقائع جلية وخطيرة. فنقرأ في الصحف أن أبسط ساذج غير متعلم يدلي قطعاً بكلمة حمقاء، لكنها حتماً منتزعة من المعسكر الاشتراكي. لا بد من الكفاح، لأن كل شيء أصيب بهذه العدوى. فكرتي أن الاشتراكية والمسيحية على طرفي نقيض. وبودّي أن أدلل على ذلك في سلسلة مقالات، لكنني لم أبدأ بكتابتها[1].

ومن ناحية أخرى، تتزاحم في ذهني وترتسم في فؤادي صور وشخوص القصص والروايات. أتمعن فيها وأسجلها، وأضيف كل يوم إلى المخطط المسجل مزيداً من الخصال والتوصيفات الجديدة، وأدرك في تلك الأثناء أن وقتي كله يمضي في المجلة، وأنني لن أتمكن من الكتابة أكثر، فأصاب بالإحباط والقنوط.

تلك هي بإيجاز لوحة معيشتي. وبودّي أن أسافر إلى موسكو. عندها سأتحدث معك كثيراً ومن صميم القلب. وقد آتي في الربيع لفترة قصيرة، لكنني لست متأكداً. أنت تسأل عن صحتي. لعلك

سمعت بأنني مصاب بالصرع. نوبات الصرع تنتابني بمعدل مرة واحدة في الشهر ومن عدة سنين، من عهد سيبيريا، مع فارق واحد هو أنني أحتاج الآن إلى خمسة أيام لأعود إلى وضعي الطبيعي بعد النوبة، وليس ثلاثة أيام كما كان الحال طوال العشرين عاماً الأخيرة تقريباً. والغريب أن خمسة شهور تصرمت على آخر نوبة صرع داهمتني. لقد توقفت النوبات. ولا أدري ما السبب. أخشى أن يحصل تأزم.. إلا أنني قليل التفكير في صحتي.

ليست لدي بطاقة شخصية، وسأحصل عليها وأبعثها لك مع روايتي «الشياطين» الصادرة حديثاً. فإذا قرأتها أعطني رأيك، يا ميخائيل بيتروفيتش الموقر.

(تسألني عن بيلينسكي)، تعرفت عليه في يونيو 45، وعلى نكراسوف في الوقت نفسه. سأبلغ مايكوف بما تسأل عنه. أنا لم أره من زمان، منذ أسبوع.

«المواطن» تنتشر بصورة لا بأس بها، نسبياً. عدد المشتركين 1800، أي أكثر من العام الفائت. إلا أن الاكتتاب لا يزال متواصلاً بالانتظام المعهود نفسه. وأظن أن عدد المشتركين لن يكون كبيراً هذا العام، قد يصل إلى 2500 لا أكثر. إيفان سرغييفيتش أكساكوف كان الشهر الماضي في بطرسبورغ، ويقول إن عدد المشتركين في جريدته («النهار») في العامين الأولين لم يكن أكبر من هذا العدد. أما نقاط توزيع المجلة فقد ازدادت خمس مرات، إن لم يكن أكثر، عما كان في العام المنصرم (...) (...)

أنا لا أعرف إطلاقاً كيف سأقضي الصيف.

يخيل إليَّ أحياناً أنني قمت بحماقة كبيرة عندما توليت أمر «المواطن». على سبيل المثال، أنا لا أستطيع أن أعيش من دون

زوجتي وطفليّ. وهم بحاجة إلى الريف في الصيف بعيداً عن بطرسبورغ على قدر الإمكان، فيما يتعين عليّ أن أبقى مع «المواطن»، ما يعني مفارقة العائلة، وهذا أمر لا يطاق. أشد على يدك بحرارة. في أمان اللّه وحفظه.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) عرض دوستويفسكي في «يوميات الكاتب» عام 1881 فهمه الطوباوي لمفهوم الاشتراكية الروسية: «اشتراكية الشعب الروسي ليست في الشيوعية والأشكال الميكانيكية. فهو يؤمن بأن خلاصه سيأتي في آخر المطاف بالوحدة العالمية الشاملة من أجل المسيح. تلك هي اشتراكيتنا الروسية».



163. إلى ميخائيل فيودوروف

بطرسبورغ، 19 سبتمبر 1873

السيد الفاضل ميخائيل بافلوفيتش.

أرجو المعذرة لأنني لم أرد عليك طويلاً. في البداية، بعد رسالتك الأولى، حددت بعض المواضع في الكوميديا[1] بهدف تعديلها ولو قليلاً، لكنني كنت متردداً أتأمل طويلاً، ولذا تباطأت في الجواب. والآن، بعد رسالتك الثانية، مرضت ولازمت السرير، رغم ضرورة تأدية واجباتي في هيئة التحرير. ولذا لم أجد قبل الآن تقريباً الوقت اللازم للرد عليك. إليك ما أقوله بصورة نهائية: لن أقوى ولا أستطيع أن أقوم بالتعديلات. طوال 15 سنة ما أعدتُ قراءة «حلم العم». وعندما قرأتها الآن وجدت أنها رديئة. ألفتها آنذاك في سيبيريا، لأول مرة بعد الأشغال الشاقة، وبهدف بدء العمل مجدداً في مضمار الأدب لا غير، وكنت أخشى الرقابة لحد الفزع كوني منفياً في السابق. ولذا ألفت تلقائياً قصة بطيبة الحمائم وبسذاجة رائعة. يمكن تحويلها إلى مقطوعة فكاهية، لكن مضمونها لا يكفي للكوميديا، حتى

شخصية الأمير (العجوز) التي تتولى الدور الجدي الوحيد في القصة كلها لا تكفي.

ولذا أترك الأمر لك، فإذا شئت أن تمسرحها على الخشبة فافعل، لكني أتنصل من المشروع ولن أصحح بنفسي ولا سطراً واحداً. وإلى ذلك أرجوك بإلحاح وإصرار أن لا يظهر اسمي على ملصق الإعلانات من قبيل: «مسرحة قصة «حلم العم» للسيد دوستويفسكي» وما شابه. وإذا كان لزاماً الإعلان عن ذلك اكتبوا ببساطة «مسرحة قصة طويلة». المهم من دون اسمي. والأفضل بالطبع عدم عرضها على خشبة المسرح أصلاً. تلك هي نصيحتي. ولكنْ طالما وعدتك في البداية وبذلت أنت جهوداً معينة فليس بيدي حيلة. القرار لك[2]. (. . .) (وأذكر هنا على أية حال) أنني لم أكتب للمسرح، ويفضل التلخيص، فما يصلح للقصة لا يصلح للمسرح. خشبة المسرح ليست كتاباً، ولذا كلما كثر التلخيص جاءت النتيجة أفضل في اعتقادي. (. . .).

ولك مني كل الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود مسرحة «حلم العم» من قبل كاتب السيناريو فيودوروف

(2) يبدو أن فيودوروف أخذ بنصيحة دوستويفسكي.

164. إلى فلاديمير ميشيرسكي

بطرسبورغ، 3-4 نوفمبر 1873

من المطبعة

حضرة الأمير[1] الموقر. أنا موافق تماماً على تنقيحكم للرد على «وقائع سان بطرسبورغ» (فالصياغة الجديدة) تدل على مهارة فائقة. كل المطلوب وارد فيها بأروع مما في الاتهام المباشر الذي لن يصدق به أحد من القراء، ومن شأنه أن يكون مجرد إطلاقة خلّب من جانبنا.

إلا أنني حذفت 7 سطور حجبتها عن أنظار الرقابة أو ما تسميه أنت جهود الرقابة الحكومية. فأنا أعتز بسمعة الأديب، وإلى ذلك لدي طفلان، ولا أريد أن أروح في داهية.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) الأمير فلاديمير بيتروفيتش ميشيرسكي (1839-1914) كاتب يميني متطرف، مؤسس مجلة «المواطن».

165. إلى أناتولي كوني

بطرسبورغ، (. . .) فبراير 1874

السيد الفاضل أناتولي فيودوروفيتش[1]

اسمحوا لي أن أشكركم من صميم القلب على إرجاء مذكرة اعتقالي أولاً، وثانياً- على كلمة الثناء التي ذكرتموها عني في رسالتكم إلى السيدة الطيبة الموقرة كوليكوفا التي أسعدت بالتعرف عليها بكل ارتياح. إلا أن من الضروري أن تعرفوا متى أستطيع أن أنفذ الحكم. ففي الحال الحاضر أنا أذهب يومياً للعلاج بالهواء المضغوط، فضلاً عن الأشغال الأخرى. وأعتقد أن العلاج سينتهي في مارس. ولذا سأكون على استعداد تام، كما أظن، للتنفيذ في الأيام الأولى من الشهر المذكور، إذا لم يكن ذلك يتعارض مع توجيهاتكم.

كما أنني على استعداد دائم، بلا شك، إذا اقتضى الأمر تنفيذ الحكم قبل ذلك الوقت. وقد حصلت على ما فيه الكفاية لأنني تحررت لعدة أيام بفضل جهودكم، وأكرر شكري لكم على ذلك.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير. خادمكم المطيع

فيودور دوستويفسكي

---

(1) المدعي (النائب) العام. بناءً على أمره دخل دوستويفسكي السجن يومين في 21–22 مارس 1874.



165 (أ.ب) إلى لوبوف دوستويفسكايا

موسكو، 25 أبريل 1874

حبيبتي ليليا. بابا يحبك كثيراً ويكتب إليك من موسكو. اسرحي وامرحي والعبي. أنا أفكر فيك وأقبّلك.

بابا



ابنة دوستويفسكي
(لوبوف دوستويفسكايا)

165 (أ.ب.ج) إلى فيودور ف. دوستويفسكي

موسكو، 25 أبريل 1874

حبيبي فيديا.

ولدي العزيز. أقبّلك بحرارة. اسرح وامرح والعب.

بابا

165 (أ). إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 5 يونيو 1874

سمعت اليوم صدفة، في متجر بازونوف، بوصولكم إلى بطرسبورغ. ولما كنت سأغادرها غداً فقد رجوت الأمير فلاديمير بتروفيتش (ميشيرسكي) أن يسلمكم، عندما يلتقيكم، مبلغ الخمسين تالير التي أقرضتموني إياها عام 64 تلبية لطلبي العاجل من فيسبادن. وأنا إذ أعيد لكم هذا الدين بأعظم قدر من الامتنان لا أجد لنفسي عذراً في تأخير التسديد كل هذه المدة. علماً بأنني حتى وقت قريب لم أتذكر المبلغ الذي استدنته منكم في فيسبادن على وجه التحديد، هل هو مئة تالير أم خمسون. وهذا بالطبع لا يبرر جريرتي، بل على العكس يعمقها. وقبل شهرين كنت أبحث بين أوراقي القديمة فوجدت رسالتكم إليّ آنذاك وفيها إشارة إلى المبلغ وهو 50 تالير.

في كل الأحوال تقبّلوا مني فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع
(دوستويفسكي)

166. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 12 يونيو 1874

ها أنا في أيمس، يا عزيزتي الغالية آنّا، وصلت يوم أمس ظهراً. إلا أنني تعبت من السفر والمشاغل في هذه المدينة حتى عجزت عن الكتابة إليك ليلة البارحة كما كنت أريد. ألمّ بي الصداع والطنين في الأذنين. غادرت بطرسبورغ صباح الجمعة، في يوم بارد مطير. ووصلت إلى أيدكونين (النمسا) منتعشاً نشيطاً حتى تمكنت في الليل أن آخذ قسطاً من النوم مستلقياً أربع ساعات. وكان البرد في أيدكونين أشد مما في بطرسبورغ. استمر الحال على هذا المنوال حتى برلين، حيث كان الجو بارداً في اليوم الأول وأردت أن أرتدي المعطف المبطن. في الليلة الثانية لم أنم تقريباً في العربة. وفي الطريق كانت هناك مغامرات كثيرة، بعضها مضحك. سأحدثك عنها عندما نلتقي. وصلت إلى برلين يوم الأحد، ومكتب مندلسون للصيرفة الذي ينبغي أن أستلم حوالة فينيكن منه مغلق. والأطباء لا يعملون هم أيضاً في الآحاد. وكان عليَّ أن أتحمل الملل والضجر طول النهار. ولم أنم. وصلت في السابعة صباحاً، ومضيت إلى المتحف الملكي لمشاهدة

(جداريات) كاولباخ، ولم أجد هناك سوى لوحة مجازية فاترة. إلا أن باقي اللوحات القديمة من مختلف المدارس معتبرة. وللأسف أننا لم نشاهدها سابقاً عندما كنت معك هنا. يا إلهي ما أشد الملل في مدينة برلين. شعرت بالضجر والحنين الشديد إليكم. طول الوقت أتطلع في صورة لوبا (. . .) الألمان يوم الأحد يملأون الشوارع وهم في ثياب العطل والأعياد. الناس يتميزون بالخشونة وقلة الأدب. أحد الشبان في حانوت المخبوزات نصحني أن أذهب إلى مسرح كروليا وراء متنزه تيرغارتين، حيث توجد حديقة ترفيه ودار أوبرا. وبالفعل كانوا يقدمون أوبرا «فيديليو» (بتهوفن). فرغبت جداً في الذهاب إلى هناك. لكنني شعرت بتعب شديد حينما عدت إلى البيت، فهويت على السرير. في الصباح ذهبت إلى مكتب مندلسون وراجعت فريوريخس. إنه من مشاهير العلماء الألمان ويقيم في قصر عامر. خلال الانتظار سألت أحد المراجعين المرضى كم يدفعون له؟ فقال: «المبلغ غير محدد. أنا أدفع خمسة تاليرات». فقررت أن أدفع ثلاثة. وهو يفحص المريض ثلاث دقائق إلى خمس. فحصني في دقيقتين فقط، حيث لمس صدري بالسماعة ثم نطق كلمة واحدة «أيمس». وجلس صامتاً ليكتب سطرين على قصاصة ورق. «هاك عنوان الطبيب في أيمس. قل له إنك من طرف فريوريخس». وضعت الثلاثة تاليرات على الطاولة وانصرفت. فالمراجعة تستحق. في ذلك اليوم فتحت المتاجر أبوابها، ومضيت لأشتري طرحة لأجل آنّا غافريلوفنا. شغلتني كثيراً. وبحثت عنها طويلاً. (. . .) اشتريتها واشتريت سجائر كثيرة، وبقي لدي وقت فذهبت إلى حديقة كروليا. كان الجو صحواً، والحديقة رديئة للغاية، لكن الناس فيها كثيرون، يتنزهون بارتياح. تذكرة الدخول بـ 10 قروش، وبضمنها زيارة المسرح، ولكن من دون مقعد في قاعته.

فوقفت في الرواق. قاعة المسرح هائلة معتمة، تتسع لألف شخص. خشبة المسرح بطول عشر خطوات، والأوركسترا مؤلفة من 12 شخصاً. وهو عدد ليس قليلاً. تصوري، يقدمون أوبرا «روبرت الشيطان» (جاكومو ميربير). استمعت إلى نصف المشهد الأول وهربت من أصوات المغنين الألمان المرعبة إلى البيت، لأن موعد السفر إلى أيمس قد حان. وأخيراً تحرك القطار في العاشرة مساءً. الليل هنا مظلم كما في الشتاء. في تلك الليلة لم أذق طعم النوم. كنا قابعين كالسردين المكدس في برميل. ولكنْ، يا عزيزتي آنّا، عندما انبلج الفجر رأيت ما لم أر مثله من قبل. حتى سويسرا، حتى فارتبورغ، هل تتذكرين؟، ليست أجمل من النصف الثاني من الطريق إلى أيمس. كل ما يمكن تصوره مما يسر الأنظار من المناظر الخلابة الرقيقة المنقطعة النظير في العالم كله، التلال والجبال والقلاع والمدن مثل ماربورغ وليمبورغ بأبراجها الباهية إلى جانب الالتقاء العجيب بين الجبال والوديان. لم أر في حياتي مثل هذا الجمال. وصلنا إلى أيمس في صباح حار يسبح في أشعة الشمس. المدينة ذات جمال باهر. وكان يوم أمس رائعاً. أيمس مدينة صغيرة في شِعب عميق بين هضاب مرتفعة (. . .) تكسوها الأشجار. وهي تتكئ على صخور جبلية ذات مناظر خلابة هي الأجمل في العالم. وتتكون في الحقيقة من كورنيشين فقط لنهر غير عريض. والتوسعة متعذرة لأن الجبال تضايقها. هناك متنزهات وحدائق، وكلها رائعة. أنا مأخوذ بسحر هذا الموقع. ولكنْ يقال إن الموقع نفسه يتغير عندما تكفهر السماء ويتساقط المطر، فتخيم عليه كآبة حالكة تثير مزاجاً سوداوياً حتى عند الإنسان السليم. إلا أن وسائل الراحة لا تبعث الدهشة أبداً. الأسعار فظيعة. كل ما كنا نتخيله من استئجار شقة خاصة لي في أيمس غير

وارد. فلا وجود لشقق خاصة. ولا واحدة. قبل خمس سنوات لم تكن لأيمس قيمة كبيرة، ولكن الآن حيث اشتهرت المدينة ويتقاطر عليها الأوروبيون من كل حدب وصوب أدرك أصحاب المنازل ما ينبغي أن يفعلوه، بمعنى تحويل منازلهم إلى فنادق. ولذا يوجد نوعان من الفنادق: 10 دور هي فنادق رسمية حقيقية، وباقي المنازل، كلها، تسمى فنادق أهلية. وفيها الحجرات نفسها والخدم أنفسهم، بل وفي جميعها تقريباً مطاعم.

في أصغر منزل قرابة 20 حجرة. وجميعها تقريباً عبارة عن غرف صغيرة. نزلت في «Hôtel de Flandre» جنب سكة الحديد، فأسكنوني مقابل 25 قرشاً حجرة ضيقة تفتقر إلى أبسط الأثاث، من دون خزانة ثياب ولا صوان، وعلى الجدار ثلاثة مسامير لأعلق عليها ثيابي. ثم ما أفظع الخدم. مضيت في الحال أبحث عن غرفة، ودخلت لهذا الغرض 15 داراً تقريباً. الأسعار ذاتها في كل مكان. مقابل 25 قرشاً، ولا وجود لسعر أقل من هذا، ومقابل تالير واحد عرضوا عليَّ غرفاً أوسع وأريح، لكنها، على أية حال، صغيرة أيضاً، والأهم هناك كثير من النزلاء، هذا يغني، وذاك يصفق الأبواب، وأنا أريد أن أكتب رواية[1]. الموائد المشتركة في كل مكان. (. . .) في الساعة الرابعة بعد الظهر، ولم أكن قد تناولت طعام الغداء، مضيت إلى الطبيب لأعرف نهائياً على الأقل كم أسبوعاً يريدني أن أقضي في أيمس؟ ذهبت إلى الدكتور أورت بتوصية بريتسيل، وليس إلى غودينتاغ بتوصية فريوريخس. سلمته رسالة بريتسيل، وهو يقيم أيضاً في شقة فارهة ولديه طابور من المراجعين. قرأ الرسالة وفحصني بدقة وقال إنني مصاب بالتهاب القصبات الهوائية الموقت، وليس هناك مؤشر على التدرن الرئوي. إلا أن هذا المرض مؤثر، ويمكن أن يقود إلى

عسر التنفس وإلى مضاعفات في ارتباك عمل المعدة والحمى وما إلى ذلك إذا لم يتم علاجه (. . .). وقد كتب له بريتسيل أنني ميال إلى الإسهال، بينما أنا ميال إلى الإمساك أكثر. ونسيت أن أبلغه بذلك. أخشى أن يكون هناك خطأ في نوعية منبع الماء الذي أوصاني بشربه. بعد 5 أيام سأذهب إليه مرة أخرى وأوضح هذه المسألة (. . .) وأخيراً استأجرت شقة عند عجوز (حسنة المعشر، لكنها مراوغة. الإيجار 12 تالير في الأسبوع). نسيت أن أخبرك أن أورت قرر أن أتعالج 4 أسابيع وليس 6 (. . .)

في الختام بضع كلمات عن أيمس. الازدحام شديد هنا. والجمهور من مختلف أرجاء العالم بشتى الأزياء. ومع ذلك ثلث غرف الفنادق فارغة. باعة المتاجر في منتهى الدناءة. أردت أن أشتري قبعة فلم أجد سوى حانوت واحد البضاعة فيه مثلما عندنا في الأسواق الرخيصة. وهي معروضة باعتزاز، والأسعار جهنمية، والباعة يسلطون نظراتهم على المشترين.

ملاكي آنّا، اكتبي لي أكثر، أنا المسكين. الرسالة منكم يمكن أن تصل بعد غد. ليتك تصدقين كم أنا قلق وأتشوق لمعرفة أخبار الصغيرين. أعصابي متوفزة من السفر. مساء أمس، عندما بقيت وحدي، كدت أبكي. أتذكر ملاكيَّ الصغيرين لوبا وفيديا. وأخشى عليهما، فاعتني بهما يا عزيزتي، واكتبي لي عن كل شيء بصراحة. حافظي على نفسك كيلا تمرضي. ليلة الأمس كنت أنتفض طول الوقت، ولليلة الثالثة على التوالي أراك في المنام. وداعاً. أعانقك وأقبّلك بحرارة وأبارك ملاكيَّ الصغيرين. غداً سأنهض من النوم في السادسة صباحاً وأذهب لأشرب الماء (من النبع). ولذا سأنام في العاشرة مساءً. فمتى أكتب الرواية يا ترى؟ هل أكتبها في النهار حيث

اللمع وأشعة الشمس وصخب الشوارع يغريني بالتمشي والتجول؟ يا ليتني أبدأ الرواية وأرسم شيئاً من ملامحها. فالبداية نصف العمل. ما يعني أنني يجب أن أعود إليكم قبل المقرر. سأكتب المزيد عن ذلك في الرسالة القادمة، بعد ثلاثة أو أربعة أيام من استلام رسالتك. تحياتي إلى الجميع وإلى الحاضنة. أقبّلك ألف مرة وأحبك بلا نهاية. تصوري، قبل ثلاثة أيام في برلين رأيتك في المنام وكأننا تزوجنا تواً وكأنني أرافقك إلى الخارج وأحبك حباً جماً، ولكن لوبا وفيديا كأنما موجودان في مكان ما، ليس معنا، ونحن نتكلم عنهما.

إلى اللقاء.

محبك دوستويفسكي

---

(1) «المراهق».



167. إلى نيكولاي نكراسوف

ستارايا روسا، 20 أكتوبر 1874

نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

استلام «مذكرات الوطن» في الحال الحاضر فيه إغراء كبير، يكاد يكون من الضروريات. ففي العام الحالي لم أقرأ سوى الأعداد الأولى من المجلة. ثم أردت في مايو أن أشترك فيها، إلا أنني أرجأت المسألة حتى أستقر في الإقامة. والآن أقيم هنا لفترة طويلة، ولن أرتحل طول الشتاء، ولذا أنا ممتن لك على اقتراحك بإرسال المجلة في الحال[1].

لا شك أنني كمؤلف لا أستطيع أن أقول شيئاً عن نجاح أو فشل عملي، من وجهة نظري على الأقل. أنا أكتب، واللّه يعلم ماذا تكون النتيجة. وسأحاول أن أظهر في عدد يناير[2]. إلا أنني سأخبرك سلفاً، في أواخر نوفمبر، عن سير العمل على أية حال. وسأرسل (الجاهز من الرواية) أو أجلبه بنفسي لا أبعد من 10 ديسمبر.

أشكرك على تمنياتك لي بالصحة وطيب المزاج. وأعترف لك أن

سوء الصحة يؤذيني أكثر من تعكر المزاج. نوبتان متواليتان من الصرع يعتكر لهما المزاج بشدة حالياً على وجه التحديد.

أتمنى لك أنت أيضاً كل خير وكثرة المبادرات. هل تعد شيئاً للعدد الأول؟ سيكون ذلك مبعث سرور كبير إذا جاء في العدد الأول[3].

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) في رسالة إلى دوستويفسكي وعد نكراسوف بإرسال مجلة «مذكرات الوطن» إليه اعتباراً من بداية 1875 أو قبل ذلك.
(2) في عدد يناير 1875 نشرت المجلة الفصول الخمسة الأولى من «المراهق».
(3) افتتحت المجلة عددها الأول لعام 1875 بقصيدة نكراسوف «الكآبة».



168. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ[1]، 6 فبراير 1875

عزيزتي آنيا

أول ما فعلته أمس أنني مضيت إلى نكراسوف. كان ينتظرني على أحر من الجمر، لأن القضية لا تقبل الانتظار. استقبلني بمنتهى المودة والترحاب. وهو راضٍ جداً على الرواية، مع أنه لم يقرأ الجزء الثاني بعد. إلا أنه ذكر رأي سالتيكوف الذي قرأه وامتدحه كثيراً[2]. نكراسوف يقرأ في العادة البروفة الأخيرة بعد التصحيح. صحة سالتيكوف متدهورة جداً. يقول عنه نكراسوف إنه يحتضر تقريباً. تصفحت قسماً من البروفة عند نكراسوف وأخذت الباقي معي إلى البيت. الرواية في البروفة لم تعجبني كثيراً. وعدني نكراسوف بالدفع مقدماً وأعطاني حتى الآن 200 روبل، أردت أن أرسل لك منها 75 روبلاً، وسأفعل غداً أو بعد غد، ولكنْ ليس لدي وقت على الإطلاق.. ذهبت إلى (الدكتور) سيمونوف وأخذت كوبوناً لسبعة أيام. جلسات العلاج (بالهواء المضغوط) من الثالثة حتى الخامسة.

وهو وقت غير مناسب تقريباً. تلك هي ساعات العمل بالنسبة لي، وبدلاً منه عليَّ أن أتعالج. ثم عرجت على هيئة تحرير «المواطن»، وعلمت بأسف شديد أن الأمير (ميشيرسكي) سافر إلى باريس في 4 فبراير بعد أن استلم برقية بوفاة أخيه الضابط المرافق. وقد يقضي هناك قرابة شهر. وبالتالي لم يبق لدي في بطرسبورغ معارف تقريباً. عرفت من بوتسيكوفيتش من الذي يكتب في «وقائع بطرسبورغ» بالاسم المستعار Sine ira[3] تصوري: من هو؟ إنه فسيفولود سيرغييفيتش سولوفيوف! ثم عرجت على بازونوف ولم أجده، وأخذت من هناك «البشير الروسي». وبعد الغداء مضيت في الساعة السابعة إلى مايكوف. (زوجته) آنّا إيفانوفنا ذهبت إلى المسرح. وقد استقبلني بترحاب حسب الظاهر، لكنني سرعان ما لاحظت تغضن جبينه. وجاء ستراخوف أيضاً، ولا كلمة منهما عن روايتي ربما كيلا يسببا لي خيبة أمل.[4] كما دار كلام قليل عن رواية تولستوي[5]، إلا أن كلامهما عنها جاء بإعجاب يبلغ حد الضحك. حاولت أن أقول إذا كان تولستوي قد نشر (مقالته عن التعليم العام) في «مذكرات الوطن» فلماذا يلومونني (وحدي)؟. إلا أن مايكوف عبس وحوّل مجرى الحديث. ولم أواصل أنا الموضوع. باختصار، أرى أن شيئاً ما يحدث هنا، وهو تحديداً ما تحدثنا عنه أنا وإياك، أي أن مايكوف نشر هذه الفكرة عني[6]. عندما انصرفت قال لي ستراخوف إنني يمكن أن أمر على مايكوف ثانية فنلتقي، إلا أن مايكوف الموجود معنا لم ينبس ببنت شفة ولم يقل إنه سيكون مسروراً لرؤيتي. وعندما قلت لستراخوف أن يأتي إليّ في فندق زنامينسكايا لنحتسي الشاي يوم الجمعة قال سنأتي أنا وأبولون نيكولايفيتش (مايكوف)، إلا أن الأخير

اعتذر في الحال قائلاً إنه لا يستطيع الجمعة وإننا يمكن أن نلتقي السبت عند (الكاتب إيفان) كورنيلوف. باختصار، النفور مني واضح للعيان. كما أن أفسيينكو انتقد «المراهق» (بتحيز شديد) في «العالَم الروسي». إلا أن مايكوف قال إن هذا الانتقاد أحمق. وأنا لم أر مقالات «العالم الروسي».

تصحيحات البروفة كثيرة. أويت إلى النوم في ساعة متأخرة، لكنني أخذت قسطاً من الراحة. الآن الساعة الثانية بعد الظهر، ويجب أن لا أتأخر على الطبيب. كما ينبغي أن أعرج على «المواطن» لأستلم رسالتك. جلبوا لي الآن بقية البروفة، الفصلين الأخيرين بكاملهما، سالتيكوف لم يقرأهما، وعليّ أن أراجعهما بكل التفاصيل. ولذا لن أذهب اليوم إلى أي مكان ما عدا الحمام. إلى اللقاء، يا عزيزتي، أعانقك مع طفلينا. لا تأملي في بلاغة الرسالة، ليس لدي وقت، ولا أدري هل سيكون لدي وقت في ما بعد.

إلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

تصوري، بورفيري لامانسكي مات منتحراً، طعن نفسه بخنجر في القلب. دفن، على فكرة، وفقاً للطقوس المسيحية.

---

(1) زوجة الكاتب تقيم مع طفليها في شقة مستأجرة بضاحية ستارايا روسا (نوفغورود)، حيث الطقس أدفأ بعض الشيء مما في بطرسبورغ. وكانت المراسلات بين الزوجين يومية تقريباً.

(2) سالتيكوف شيدرين غيَّر رأيه فيما بعد ووصف الرواية «بالجنونية».

(3) وتعني باللاتينية «بلا غضب». نشر الروائي فسيفولود سولوفيوف، شقيق

الفيلسوف فلاديمير سولوفيوف، بهذا الاسم المستعار مقالتين في «وقائع بطرسبورغ» عن رواية «المراهق» بإطراء وتقويم رفيع.

(4) يرى الباحثون أن سبب ذلك البرود هو نشر دوستويفسكي رواية «المراهق» في مجلة نكراسوف «مذكرات الوطن» ذات التوجه الديمقراطي.

(5) «آنّا كارينينا» التي نشرت في«البشير الروسي» عام 1975.

(6) ربما المقصود «فكرة المساومة» بشأن التقارب بين دوستويفسكي ومجلة «مذكرات الوطن».



169. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 9 فبراير 1875

عزيزتي آنيا، مساء أمس استلمت رسالتيك دفعة واحدة. ويبدو أن الرسالة الأولى قضت يوماً زائداً في بريد ستارايا روسا. اطلبي من دائرة البريد أن لا يؤخروا الرسائل، وإلا سأشعر بالقلق من دون موجب. خبر انهيار (إفريز) سقف الشقة أفزعني. فالطفلان كان يمكن أن يتواجدا تحته. ثم إن صاحبة البيت لن تصبر علينا حتى مايو، ستنتظر حتى أبريل فقط، ولن يخيفها تهديدنا بإخلاء الشقة، نظراً لكثرة المستأجرين في بداية الصيف. ولن يكون الأمر على غير ذلك. لأن شقتها المرممة تقع قرب السوق وإيجارها لن يكون أقل من 200 روبل لفصل الصيف. اكتبي لي، يا آنيا، كل يوم، لأنني لا أستطيع أن أتحمل الكآبة هنا من دون أخبارك وأخبار الصغيرين. أمس، حالما فرغت من كتابة الرسالة إليك دخل عليَّ نكراسوف. جاء، كما قال، «ليعبّر عن الإعجاب العميق بخاتمة الجزء الأول. . . انهمكت طول الليل بقراءته مع أن أشغالي وحالتي الصحية لا تسمح بذلك. ما



منزل دوستويفسكي في ستارايا روسا

أجمل الطراوة والجدة عندك يا شيخ. هذه الطراوة لم تعد موجودة في مثل سننا، وهي ليست موجودة لدى أي كاتب آخر. رواية ليف تولستوي الأخيرة[1] مجرد تكرار لما قرأته له سابقاً، بل إن السابق أفضل». هكذا تكلم نكراسوف. وقد أعجبه بخاصة المشهد الأخير مع ليزا، كما يعتبر مشهد انتحار (أوليا) وحديث (المراهق عنها) «ذروة الروعة». وأضاف: «أضعف ما في الرواية الفصل الثامن، ففيه أحداث عادية كثيرة». والحقيقة أنني عندما قرأت البروفة لم يعجبني الفصل الثامن بالذات، فحذفت منه الكثير. عموماً نكراسوف راضٍ عن الرواية تماماً، وقال: «جئت لأتفق معك على ما تبقى. باللّه عليك لا تستعجل، فتفسد الباقي، ذلك لأن البداية أكثر من جيدة». وعرضت عليه خطتي بالمناسبة: نفوّت مارس ثم ننشر الجزء الثاني في أبريل ومايو، ثم نفوّت يونيو وننشر الجزء الثالث في يوليو وأغسطس وهلمجرا[2]. وقد وافق على الخطة بارتياح. (كما حُلت المسائل المالية بالتراضي). وتأكد لي أن المجلة تقدرني كثيراً، وأن نكراسوف

(صديق الطفولة) يريد أن يبدأ علاقات ودية تماماً. تحدثنا ساعة ونصفاً، وكدت أتأخر على الطبيب. طوال نهار أمس كنت كالمريض متوتر الأعصاب بسبب قلة النوم. (. . .) مساء أمس كنت عند كورنيلوف (رئيس الاتحاد السلافي) ودفعت له بدل عضويتي في الاتحاد (. . .) استقبلني الرجل بترحاب مدهش، وسألني عن أحوالي وحدثني عن الكثير وعرّفني على الكثيرين، بمن فيهم شقيقه الأكبر. كان الحضور قرابة عشرين شخصاً من مختلف الشرائح الاجتماعية، ومايكوف لم يحضر. كان هناك ستراخوف، وقد طلب مني أن آتي إليه مساء الاثنين (. . .) أنا قلق عليكم، إلى اللقاء، يا ملاكي، أحبك، وإلى ذلك أشعر بحاجة ماسة إليك. أقبّل الصغيرين وأباركهما. أفكر في الرحيل من هنا في الخامس عشر من الشهر، بل وربما قبل ذلك إنْ أمكن. أعانقك يا عزيزتي، وأتمنى لك موفور الصحة. خبريني عن كل شاردة وواردة.

تحياتي للجميع.

المخلص زوجك الذي يغرقك بالقبل

ف. دوستويفسكي

---

(1) «آنّا كارينينا»

(2) الجزء الثالث من «المراهق» نشر في أعداد «مذكرات الوطن» لأشهر سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر 1875.

170. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 12 فبراير 1875

عزيزتي آنيا، استلمت رسالتك المؤرخة في العاشر من الشهر، الاثنين، وفيها خوف شديد (من التيفوئيد في بطرسبورغ). لا تقلقي بشأني، باللّه عليك. إذا كنت أشعر بسوء فالسبب هو الأعصاب، لأنني في الفندق، ولست في مكاني، والمشاغل القادمة تمنعني من النوم بما فيه الكفاية. فلا تخافي. كل شيء سيكون على ما يرام. أنا بالطبع لن أبقى هنا يوماً واحداً إلا بمقتضى الضرورة. مشفى سيمونوف التهم كل أوقاتي. ولا يمهلني لأنجز أي عمل. أكتب لك على عجل، وسأمضي الآن إلى نكراسوف، وآخذ منه نقوداً إذا كان ذلك بالإمكان. تطلبين أن أرسلها، أقسم لك أنني لا أمتلك دقيقة واحدة من الوقت. كل ما سأستلمه من نكراسوف سأبعثه إليك رأساً. وحتى ذلك الحين اقترضي من القسيس. يوم أمس عندما كان معي (أخي) كوليا دخل علينا كورنيلوف، في زيارة جوابية، وكان لطيف المعشر جداً، وبقي عندنا أكثر من نصف ساعة. يا له من إنسان مهذب. ثم مضيت بعد الطبيب إلى مايكوف لتناول طعام الغداء.

والقضية أنني أعربت أمام ستراخوف، عندما كنا عند كورنيلوف، عن رأيي بأن مايكوف استقبلني بمنتهى البرود، ولذا أظن أنه زعلان، والأمر سواء بالنسبة لي. فدعاني ستراخوف عندئذٍ لزيارته يوم الاثنين، وجاءت رسالة مايكوف ودعوته لي نتيجة لما أبلغه به ستراخوف. كان مايكوف وآنّا إيفانوفنا والآخرون مستبشرين، إلا أن ستراخوف كان عبوساً لسبب ما. ثم إن مايكوف، عندما أخذ يتساءل عن نكراسوف وحدثته عن مجاملة الرجل لي اكتأب، فيما ظل ستراخوف في برود شديد. نعم، يا آنيا، إنه تلميذ خبيث ولا شيء آخر. تركني مرة في حياتي عندما احتجبت «العصر» ولم يعد إلا بعد نجاح «الجريمة والعقاب». مايكوف أفضل منه بكثير. وسيشعر بالأسف ويبدأ بالتقارب من جديد. فهو، على أية حال إنسان طيب، وليس تلميذاً خبيثاً. الآن، بعد أن تركت مايكوف، مضيت إلى عائلة سنيتكين، ولم أجد ألكسندر نيكولايفيتش في البيت، ثم جاء (. . .) وقضيت الوقت عندهم بكل ارتياح حتى الحادية عشرة. وسأذهب مرة أخرى من أجل الطرحة النسائية.

إذا لم أتمكن من السفر إليكم يوم السبت فسأحاول جهدي يوم الأحد. إلى اللقاء يا عزيزتي، لن أكتب الكثير، فسأحدثك بنفسي فيما بعد. أعانقك وأقبّلك بحرارة، أنا بحاجة ماسّة إليك.

أعانق الصغار جميعاً وأقبّلهم وأباركهم.

المخلص المحب

ف. دوستويفسكي

(. . .)

لم أستلم جواز السفر حتى الآن. لا تقلقي بخصوصه.

171. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 24 مايو 1875

حماتي العزيزة آنيا، وصلت أمس على أية حال (من ستارايا روسا) ولا أدري هل سأتمكن من المغادرة غداً، الأحد، أم لا. هناك قطار يتوجه إلى برلين في الحادية عشرة من صباح الغد ويصل إليها الاثنين، في منتصف ليل اليوم التالي. وهذا هو الأفضل، لكنني أخشى أن يؤخروني غداً، وإلى ذلك قد لا آخذ كفايتي من النوم هذه الليلة. في محل خياطة شارمر[1] أرجأوا البدلة يوماً واحداً للتعديلات الأخيرة، ولم يجلبوها اليوم حتى الآن كما وعدوني. وإلى ذلك بادروا بأنفسهم لخياطة صديري لي بـ 8 روبلات، على أن ينجزوه مساء اليوم أو صباح الغد. وإذا جاؤوا غداً بعد التاسعة لن أتمكن من السفر لأن القطار يتحرك في الحادية عشرة. أخذت الجزمة. وزرت بوتسيكوفيتش وميشيرسكي. ولم يحضر مايكوف مأدبة الغداء، فقد اعتذر سلفاً وقال إنه مدعو لتناول الطعام في مكان آخر. من الواضح تماماً أنه لا يريد اللقاء معي. ولذا لن أمر عليه[2]. زرت الزوجين كاشبيريف، فاستقبلاني بالترحاب وأعربا عن إعجابهما الشديد

«بالمراهق». (. . .) مررت على (ابن أخي) ميشا في البنك، ليس لديه جديد. إنه مستعد لعدم رهان الضيعة وموافق على الانتظار. ألكساندرا ميخائيلوفنا قدمت من جديد طلباً وتريد المرافعة وفقاً لتعليمات المحكمة. ولا أحد يعلم لماذا سافر بولياكوف إلى محافظة ريازان (حيث تقع إحدى ضياع كومانين)[3].

بالأمس كنت متعباً جداً ومع أنني نمت هذه الليلة جيداً، ولكنْ حبذا لو غفوت ساعة إضافية أو ساعتين. الشمس ساطعة هنا، لكن الجو بارد. كل النساء هنا، يا آنيا، بلا استثناء تقريباً، يرتدين السواد، وهو منظر جيد. ولا أدري هل هي الموضة أم شيء آخر غيرها. خبري فيديا بأنني كنت أنظر إليه طويلاً من على متن الباخرة. وكذلك ليليا وهي تنحني لي مودعة. حقاً رأيتكم جميعاً وأنتم تتركون الرصيف. عزيزتي آنيا، باللّه عليك احرصي عليهم وصونيهم. وأنا أحبك بلا نهاية. رأيتك في المنام ليلة البارحة. اكتبي لي عن أحوالك حتى أصغر التفاصيل (. . .) إلى اللقاء يا عزيزتي، سأكتب لك في المرة التالية من إيمس. من المحتمل جداً، ربما بخمسين في المئة، أنني لن أغادر غداً، وسيحتجزونني (في العمل)، وعندها سأكتب لك من هنا. الشقق الفارغة هنا كثيرة جداً، لكنّ إيجارها جميعاً باهظ الثمن. اشتريت سوفورين[4]، مطالعته في الطريق متعبة. وسيبعثون لي «البشير الروسي»[5] إلى أيمس. أقبّل عينيك، وكل أطفالنا.

المخلص زوجك الأبدي الذي لا يتغير

ف. دوستويفسكي.

الأصح الذي يتغير نحو الأفضل.

(1) شارمر خياط مشهور في بطرسبورغ ورد اسمه عند دوستويفسكي في «الجريمة والعقاب» و«الشياطين»، وفي مسودة «المراهق».
(2) يبدو أن ميشيرسكي كان ينوي في مأدبة الغداء عنده أن يصلح ما بين دوستويفسكي ومايكوف.
(3) دوستويفسكي يتحدث في هذه السطور عن تقسيم تركة خاله كومانين.
(4) المقصود على الأرجح كتابه «لمحات وصور» الذي صدر بمجلدين عام 1875.
(5) كانت هذه المجلة تواصل آنذاك نشر «آنّا كارينينا» لتولستوي.



172. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 10 يونيو 1875، الثلاثاء

عزيزتي آنيتشكا، استلمت رسالتك الرقيقة يوم الأحد، أقصد الرسالة التي كتبتِها يوم الثلاثاء الثالث من يونيو، في السابعة صباحاً كما أشرت فيها. إلا أنها لم ترسل من ستارايا روسا في اليوم نفسه، لأن على الظرف ختم بريد المنشأ ليوم 4 يونيو، ذلك لأن دائرة البريد عندكم تتعمد تأخير الرسالة ليوم واحد لتتمكن أولاً في 3 من الشهر من إرسال الرسالة السابقة المؤرخة في 28 مايو والتي ظلت تنتظر في دائرة البريد خمسة أيام. ولو أنهم بعثوا الرسالتين في وقت واحد لافتضح إهمالهم. عاتبيهم، يا آنيا، بحدة كيلا يكرروا هذه الحماقات. يقلقني جداً أنك تكتبين عن توتر أعصابك وحدّة انفعالك، فإلامَ يقودنا ذلك؟ أنا هنا أشعر بالقلق من كل شيء. لأنني نفسي سريع الانفعال. باللّه عليك لا تنظري إلى الأمور بمنظار قاتم. هناك من هم أسوأ منا بألف مرة. فيما يمكننا أن نفرح للأطفال على الأقل. لقد سررت عندما قرأت ما تكتبينه عنهم. لكنني مشغول البال

بهم ليل نهار، وبنا جميعاً. كل شيء على ما يرام، ما عدا المصادفات. أخشى ما أخشاه هو المصادفات.

سنلتقي قريباً على أية حال. ولا أظن أنني سأمكث هنا طويلاً. ومع أنني لن أتمكن من كتابة شيء من («المراهق») فسآتي قبل الأوان. ولا أدري هل سيعود العلاج عليَّ بالنفع هذه المرة؟ حتى الآن لا أرى مؤشراً على ذلك. صحيح أنني لا أزال في اليوم العاشر فقط من العلاج.

القشع يتجمع أكثر مما في ستارايا روسا. وأتلمس بوضوح أن الجرح لا يلتئم. ثم إن الطقس يتقاطع مع العلاج تماماً. المطر يهطل مدراراً وبلا انقطاع منذ رسالتي الأخيرة حتى هذا اليوم. فما نفع العلاج في مثل هذا البلل؟ وأنا مستبرد قليلاً طول الوقت. لعن اللّه الرطوبة والملل. أظن أنني سأجن من الضجر في آخر الأمر أو أقدم على تصرف أحمق. لا يمكن تحمّل ما أتحمله. إنه العذاب بعينه. إنه أسوأ من السجن. ولو كنت أعمل لانشغلت عن ذلك بالكتابة. لكنني لا أستطيع، لأن الخطة لم تنتظم، وما أراه هو الصعوبة البالغة. وما لم تختمر الفكرة يتعذر الشروع بالكتابة، ثم إن الإلهام غائب في جو الملل والضجر. وهو الأهم. (. . .)

ما عدا المطالعة لا توجد هنا أية وسيلة للترفيه. لا شيء سوى الموسيقى تعزف مرتين في اليوم عند منابع المياه (المعدنية). وقد تعطلت هي أيضاً، فنادراً ما يعزفون شيئاً ممتعاً. كل ما يعزفونه هو ألحان خليطة أو «مسيرة الأمجاد الألمانية» أو شتراوس أو أوفينباخ وحتى رقصة بولكا «أقراص أيمس»، ولذا تعاف النفس الاستماع إليها. وإلى ذلك تزعجني الجموع الغفيرة، قرابة خمسة آلاف، في مساحة ضيقة نسبياً. يتزاحمون ويتمشون بلا انتظام كالدجاج. وهم

أكثر تحاشكاً في هذه الأيام المطيرة، ويتدافعون مبللين حاملين مظلاتهم المنقعة ملتجئين إلى رواق ما. والمهم أنهم يأتون دفعة واحدة، لأنهم جميعاً يشربون ماء (الينابيع) في مواعيد محددة. في تلك الأثناء تعزف الأوركسرا بولكا «أقراص أيمس». ولا جرائد روسية هناك سوى اثنتين. استلمت «البشير الروسي» وهي مليئة بالترهات. عدد الروس قليل، وكلهم، كما في المرات السابقة، ليسوا من معارفي. قرأت في (أنباء المنتجع) أن البروفيسور إيلوفايسكي وصل من موسكو مع ابنته، وهو البروفيسور نفسه الذي ترأس اجتماع جمعية عشاق الأدب الروسي عندما تلي فيه فصل عن رحلة آنّا كارينينا في القطار. فهتف إيلوفايسكي أن أعضاء الجمعية ليسوا بحاجة إلى الروايات الكئيبة مهما كانت موهوبة، وهو يقصد رواياتي، بل هم بحاجة إلى نتاجات خفيفة الظل مرحة مثلما عند الكونت تولستوي. أنا لا أعرفه شخصياً، ولا أعتقد أنه يرغب في التعرف عليّ. وأنا بالطبع لن أبادر بنفسي. (. . .) أنا قلق جداً (بخصوص مواصلة كتابة الرواية). لأني وحدي هنا. كنت في ستارايا روسا منزوياً وحدي أيضاً، لكنني أعرف على الأقل أن في الغرفة المجاورة أولادي ويمكنني أن أخرج من غرفتي إليهم أحياناً، حتى أنني أسفت لعدم سماع صياحهم الذي كان يزيدني قوة وحيوية. والأهم أنني كنت أعرف أن بقربي آنيا التي هي بالفعل النصف الثاني من كياني، ولا يمكن بالفعل مفارقتها، كما تأكد لي الآن، بل يغدو ذلك مستحيلاً أكثر كلما مر الزمن.

هذا كل ما أردت أن أقوله عن نفسي. عدلت عن فكرة الانتقال وبقيت في فندق «Luzern»، وإليك العنوان على أية حال (. . .) أصحاب الفندق أناس مهذبون، كما يتضح لي يوماً بعد يوم. (. . .).

في الطابق التحتاني تقيم عائلة ألمانية نازحة، الأم فيها امرأة بدينة نسبياً وشاردة الفكر لدرجة أنها تصعد أحياناً درجات ثلاثة طوابق بدلاً من طابقين، فترتطم بباب غرفتي مباشرة. تفتح الباب بحدة ثم تقف لثلاث ثوانٍ مشدوهة لا تعرف أين هي. ثم تصرخ «يا إلهي» وتركض إلى غرفتها في الطابق الذي تحت. حصل لها ذلك مرتين، مرة في الصباح والمرة الأخرى في المساء. على فكرة، أنا أيضاً شارد الفكر مثلها. بالأمس دخلت في فندق «Genz» المجاور لفندقي وأخذت مفتاح الغرفة رقم 10 وصعدت إلى الطابق الثالث وأخذت أفتح بابها، وهي تقع في مثل موضع غرفتي تماماً، إلا أن صاحبة الفندق والخادمة هرعتا إليّ وأوضحتا لي أنني أقيم في الفندق المجاور. ومن حسن الحظ أنهما تعرفانني، وإلا كان من الممكن بالطبع أن تعتبراني لصاً.

آنيا، عزيزتي، اكتبي لي كل ثلاثة أيام، وبأكبر قدر من التفصيل. أنا أنتظر الرسائل كنعمة من السماء.

ولا تزعلي مني، يا ملاكي، لأنني سوداوي المزاج في رسائلي. سأعكف على العمل، إن شاء اللّه، وأنسى السوداوية. وعندذاك ربما يسير العلاج بنجاح. الشمس مشرقة اليوم والجو دافئ. الشيء الوحيد الذي أعرف أنني لن أتخلص منه هو الكآبة. إنها بسبب الحنين إليكم. طول الوقت أخشى أن يحصل لكم مكروه. لقد تخنثت، يا آنيا، من ملازمة البيت طوال ثماني سنوات. ولم أعد قادراً على فراقكم حتى لأمد قصير. إلى هذا الحد وصلت. آنيا، عزيزتي، أنا أفكر في المستقبل طول الوقت. المستقبل القريب والبعيد. الشيء الوحيد الذي أتمناه أن يطيل اللّه في عمري وسنبني وإياك عندئذٍ شيئاً ما للأطفال.

حمامتي، عيشي بفرحة ومسرة، تجولي، تنزهي، وأبعدي عنك أفكار السوء. هل لديك طبيب؟[1] ينبغي دعوته ليتردد عليك. (. . .)

أعانقك وأبارك للأطفال. ما رأيك هل نسمي المولود آنّا إذا كانت أنثى؟ فلتكن في العائلة آنيا ثانية. هل توافقين؟ أنا راغب في ذلك جداً.

أعانقك، وأعانقكم جميعاً مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

تحياتي للجميع.

أراك في المنام كثيراً. وقد بدأت تلاحقني الكوابيس، بفعل المياه (المعدنية). أخشى ما أخشاه نوبات الصرع. فهي لم تحدث من زمان بعيد. ما يعني أنها ستتكرر، إذا حدثت، ثلاث مرات في الشهر. هكذا يحصل دوماً بعد الانقطاع الطويل. فماذا سأفعل للرواية عندئذٍ؟

(1) آنّا غريغوريفنا حامل.

173. إلى ألكسي بليشييف

ستارايا روسا، 21 أغسطس 1875

العزيز ألكسي نيكولايفيتش المحترم

معذرة لإزعاجك. أرسلت 3 فصول من أصل خمسة لعدد سبتمبر، من الجزء الثالث لروايتي («المراهق»). ولا أدري ما إذا كان نيكولاي ألكسييفيتش (نكراسوف) موجوداً في بطرسبورغ أم لا؟ أظنه غير موجود. ولذا أتوجه إليك كصديق قديم كي تخبر أحداً (من هيئة تحرير «مذكرات الوطن») أن لا يتهاونوا في إرسال البروفة لي إلى هنا بأسرع ما يمكن. أعتقد أنني سأكون في بطرسبورغ في الخامس من سبتمبر. إلا أن إرسال البروفة لن يعيقني. والأهم أن تؤكد على عدم حذف شيء منها. فكل واحد من شخوص الرواية يتكلم بلغته ومفاهيمه. علماً بأن «المتعبد» الذي ينطق من الإنجيل إنما يتكلم بمنتهى الحذر. وقد توليت بنفسي دور الرقابة على كل كلمة يتفوّه بها. باللّه عليك، يا ألكسي نيكولايفيتش، ساعدني ولو قليلاً إذا استطعت.

المخلص ف. دوستويفسكي

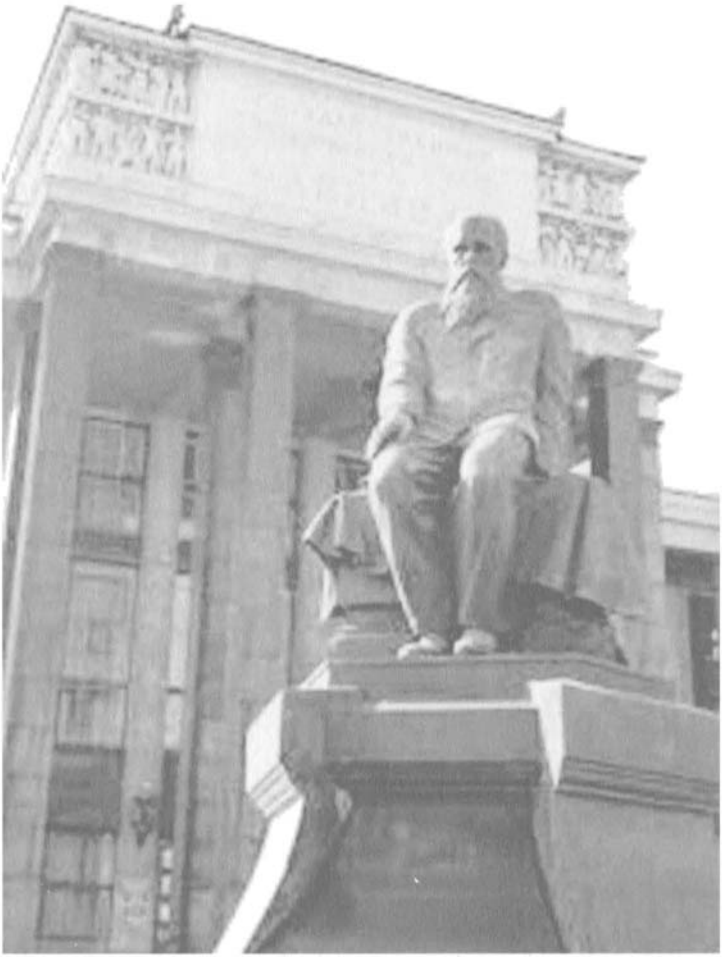


تمثال بوشكين في موسكو

سادساً:

ما قبل «الأخوة كارامازوف»

(1880)



تمثال دوستويفسكي في موسكو

174. إلى يعقوب بولونسكي

بطرسبورغ، 4 فبراير 1876

السيد يعقوب بتروفيتش المحترم

أشكرك على التحية ويسرني أنها جاءت منك. كنت أنوي زيارتك منذ ثلاثة أشهر[1]، إلا أن المشاغل التي تبلغ حد العذاب أعاقتني. مجلتي «يوميات الكاتب» لا تعجبني كثيراً. بودّي أن أتحدث فيها أكثر بمئة مرة. كنت ولا أزال شديد الرغبة في الكتابة عن الأدب وعما لم يكتب عنه أحد منذ الثلاثينات، وأعني الجمال الخالص. ولكنني أخشى أن أَغرق في هذه المواضيع وأُغرق المجلة معي. في أربعة أيام بيع منها في بطرسبورغ 3000 نسخة. ولا أدري في ما يخص موسكو وسائر المدن، هل بيعت هناك ولو نسخة واحدة؟ هذه المسألة لا انتظام فيها. وإلى ذلك لا يفهم الجميع تحديداً هل «اليوميات» مجلة أم كتاب[2]. سنتحدث عنها فيما بعد. ولكن قل لي كيف يجوز أن تعاني من المرض طول الوقت؟ أنا لم أرك من زمان، وسأمر عليك حتماً هذه الأيام: والآن أكرر شكري على الرسالة.

المخلص ف. دوستويفسكي.

(...)

---

(1) كان الشاعر بولونسكي طريح الفراش.

(2) أخذ الناقد بوبريكين على دوستويفسكي غموض التسمية والخلط بين اليوميات المعتادة وبين المجلة الأدبية.



175. إلى كريستينا ألتشيفسكايا

بطرسبورغ، 9 أبريل 1876

الفاضلة كريستينا دانيلوفنا الموقرة

أرجو المعذرة لأنني لم أرد على رسالتكم في الحال. عندما استلمتها كنت مشغولاً بالعمل[1]، ومع أنني أنهيه في حدود الـ 25 من الشهر، إلا أن هناك الكثير من المشاغل المتعلقة بالمطبعة والتوزيع وما شابه. وإلى ذلك أصبت بالرشح هذا الشهر، ولم أتعافَ حتى الآن.

قرأت رسالتكم بمنتهى الارتياح، وخصوصاً الفصل المرفق بها من يومياتكم الرائعة. وأستنتجت أنكم من الذين يمتلكون موهبة «رؤية الطيبة وحدها».

بخصوص مدرسة السيدة تشيرتكوفا (للمشردين) أنا لا أعرف شيئاً عنها. وسأستفر في أول فرصة سانحة. وإنني على يقين من صحة ما كتبتموه (. . .) أنا لا أعرف إلى أين سيرسلني الأطباء في الصيف. إلى أيمس أغلب الظن. وقد كنت فيها مرتين، وربما إلى يسينتوكي في القوقاز. وسأعرج على خاركوف في طريق العودة. أنا أنوي من زمان

زيارة جنوب بلادنا الذي لم أكن فيه بعد. وعندها، إن شاء اللّه، سأتعرف عليكم شخصياً إذا شرفتموني باللقاء.

أبلغتموني بالفكرة القائلة إنني انشغلت بصغائر الأمور، في «يوميات الكاتب»، (بدلاً من الروايات). لقد سمعت مثل هذا الكلام من البعض هنا أيضاً. إلا أنني أقول لكم، بهذه المناسبة، إنني توصلت إلى نتيجة لا محيد عنها، وهي أن الكاتب الروائي، بالإضافة إلى الحبكة، يجب أن يعرف بمنتهى الدقة وبأصغر التفاصيل، الواقع التاريخي والمعاصر الذي يصوره. ليس عندنا، في اعتقادي، سوى كاتب واحد يمتلك هذه الميزة وهو الكونت ليف تولستوي. أنا أقدر فيكتور هيغو رفيع التقدير كروائي. حتى أن المرحوم فيودور توتشيف، تصوروا، زعل مني ذات مرة (بسبب هذا التقدير) وقال إن «الجريمة والعقاب»، روايتي، أعلى مستوى من «البؤساء». لقد قدم هيغو، رغم الاسترسال المفرط أحياناً في التفاصيل، مشاهد ولوحات مدهشة ما كان العالم ليعرفها لولاه. ولذا رأيت، وأنا أستعد لكتابة رواية ضخمة[2]، أن أغوص خصيصاً ليس في دراسة الواقع بذاته، فأنا ملم به أصلاً، بل في تفاصيل المجريات. ومن أكبر المهمات بالنسبة لي في تلك المجريات، مثلاً، جيل الشباب، ومعه الأسرة الروسية المعاصرة، التي هي، كما أتلمس ذلك، بعيدة كل البعد عما كانت عليه قبل عشرين عاماً. وثمة أمور كثيرة أخرى بالإضافة إلى ذلك.

في الثالثة والخمسين من العمر (الأصح في الـ 54) يسهل التخلف عن الجيل لدى حصول أبسط تهاون. قبل أيام التقيت غونتشاروف، وسألته بلا مواربة هل يفهم كل ما يجري في الواقع المعاش أم أنه لم يعد يفهم بعض جوانبه؟ فأجابني بصراحة إنه لم يعد يفهم الكثير. بالطبع أنا أعرف بنفسي أن هذا المفكر الكبير يفهم، بل ويعلّم

الفاهمين، إلا أنه بالمعنى الذي تساءلت فيه وفهمني قبل أن أكمل كلامي، لا يريد أن يفهم ما يجري. وأضاف قائلاً: «مُثلي العليا عزيزة عليّ، وأريد أن أقضي ما تبقى من عمري مع ما أحببته في الحياة ومن الصعب عليَّ أن أدرس تصرفات هؤلاء ولا أريد أن أضيع وقتي الثمين معهم». وأشار بيده إلى المارة في جادة نيفسكي. لا أدري هل عبّرت لكم، يا كريستينا دانيلوفنا، عن ذلك بشكل مفهوم؟ إلا أنني مهتم بأن أكتب شيئاً بكامل المعرفة بالموضوع، ولذا سأقضي بعض الوقت في الدراسة إلى جانب تسيير أمور «يوميات الكاتب» كيلا تضيع سدى انطباعات كثيرة. كل ذلك بالطبع في المثال الأعلى المرتجى. هل تصدقون بأنني لم أتمكن بعد من استيضاح شكل «اليوميات». ولا أدري هل أتمكن من تنظيم ذلك في زمن ما. ولذا مع أن «اليوميات» ستستمر عامين، إلا أنها تبقى على أية حال غير موفقة. على سبيل المثال، عندما أشرع بالكتابة يكون في ذهني ما لا يقل عن 10-15 موضوعاً. إلا أن المواضيع التي أحبها أكثر أرجئها عفوياً، لأنها تشغل مكاناً أكبر وتتطلب جهداً أكثر (. . .) وهي تضر بعدد المجلة، حيث يختفي التنوع نظراً لقلة المقالات. ولذا أكتب ليس ما أردت أن أكتب. ومن جهة أخرى، ظننت بمنتهى السذاجة أن تلك ستكون يوميات حقيقية. فاليوميات الحقيقة متعذرة تقريباً. على سبيل المثال، على مدار ثلاثة أشهر أستلم رسائل كثيرة من مختلف الأرجاء، بعضها موقَّع من مرسليها وبعضها مهمل. وكلها تعبر عن المشاطرة. وبعضها مكتوبة بشكل مثير وأصيل. وهي إلى ذلك من جميع الاتجاهات القائمة الآن.

وقد أردت أن أكتب مقالة عن جميع هذه الاتجاهات المتنوعة التي التقت في تحيتها لي. أردت أن أعبّر عن الانطباعات التي خلفتها

تلك الرسائل دون أن أذكر أسماء مرسليها. وإلى ذلك ثمة فكرة تشغل بالي أكثر فأكثر: «فيمَ تكمن وحدتنا، وما هي النقاط التي يمكننا، نحن ممثلي مختلف الاتجاهات، أن نتوافق عليها؟» وفجأة أدركت وأنا أهمّ بكتابة المقالة أنه لا تجوز كتابتها مطلقاً بمنتهى الإخلاص والمصداقية، وإذا كان من دون مصداقية فهل من موجب لكتابتها؟ وإلى ذلك لن تتضمن المشاعر الحماسية المطلوبة. (. . .)

معذرة إذا كنت قد أسهبت في الكلام. ثم إنني لا أجيد كتابة الرسائل. كما أعتذر عن خربشة خطي، فأنا الآن أعاني من الإنفلونزا والصداع، وهذا اليوم أشعر بألم في العينين، ولذا أكتب دون أن أرى الحروف تقريباً.

اسمحوا لي أن أشد على يدكم، وأتشرف بأن تعتبروني من الكثيرين الذين يكنّون لكم أعمق الاحترام والتقدير.

خادمكم فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود إصدار مجلة «يوميات الكاتب».

(2) كان لدى دوستويفسكي مخطط رواية بعنوان «الآباء والبنون»، ولم ينفذه، بل نقل مضمونه إلى «الأخوة كارامازوف».

176. إلى صوفيا لوريه

بطرسبورغ، 16 أبريل 1876

الفاضلة صوفيا يفيموفنا[1] المحترمة

يصعب عليَّ جداً أن أبعث إليك في الرسالة مباشرة عدة عناوين للكتب التي تلزمك. ألا تريدين أن تأتي إليّ بنفسك للحظة في أوقات الدوام من الثالثة إلى الرابعة بعد الظهر؟ فمع أنني مشغول، لكنني سأجد بضع دقائق احتراماً لثقتك الغالية بي والتي أجيد تقديرها حق قدرها. اختيار الكتاب، أي كتاب، ينبغي أن يتم طبقاً لطبيعة الذكاء. ولذا الأفضل أن نتعرف بعضنا على بعض.

أنا في الانتظار.

ف. دوستويفسكي

---

(1) شابة من المعجبات بدوستويفسكي في التاسعة عشرة من العمر.

177. إلى فاسيلي ألكسييف

بطرسبورغ، 7 يونيو 1876

السيد الكريم (فاسيلي ألكسييفيتش)[1]

معذرة لأنني أرد اليوم فقط على رسالتكم المؤرخة في 3 يونيو، ذلك لأنني كنت في نوبة الصرع.

أنتم تطرحون سؤالاً حكيماً الإجابة عليه تستغرق وقتاً في الواقع. القضية بحد ذاتها واضحة.

في غواية إبليس تجلت ثلاث أفكار عالمية هائلة. وها قد مر 18 قرناً ولا تزال تلك الأفكار هي الأصعب والأكثر تعقيداً، ولا أحد يستطيع حلها.

«الحجر والخبز»[2] مسألة اجتماعية راهنة من صلب الوسط الاجتماعي. إنها ليست نبوءة، هكذا كان الوضع على الدوام. أليس إطعام الجياع أكثر إلحاحاً من تبشيرهم بملكوت السماء؟

4 : 1 أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس وكان يقتاد بالروح في البرية

4 : 2 أربعين يوماً يهرب من إبليس ولم ياكل شيئاً في تلك الأيام ولما تمت جاع أخيراً

4 : 3 وقال له إبليس إن كنت ابن اللّه فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً

4 : 4 فأجابه يسوع قائلاً مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من اللّه(3)

5 : 2 ففتح فاه وعلمهم قائلا

5 : 3 طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات

5 : 4 طوبى للحزانى لأنهم يتعزون

5 : 5 طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض

5 : 6 طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون

5 : 7 طوبى للرحماء لأنهم يرحمون

5 : 8 طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون اللّه

5 : 9 طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء اللّه يدعون

5 : 10 طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات

5 : 11 طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين

5 : 12 افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم

5 : 13 أنتم ملح الارض ولكن أن فسد الملح فبماذا يملح لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس

5 : 14 أنتم نور العالم لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل(4)

«قل لهذا الحجر أن يصير خبزاً»!

تلك هي الفكرة الأولى التي طرحها الروح الشرير على يسوع. ألا توافقونني أنها صعبة التنفيذ؟ الاشتراكية الحالية في أوروبا، بل وعندنا أيضاً، تبعد المسيح وتهتم في المقام الأول بالخبز وتستعين بالعلوم وتؤكد أن سبب جميع مصائب البشرية واحد، هو الفقر، الصراع من أجل الوجود، «فالوسط الاجتماعي التهم كل شيء». وقد أجاب يسوع على ذلك: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». أي أنه ذكر بديهية الأصل الروحي للإنسان. فكرة الشيطان لا تناسب إلا الشخص البهيمة، فيما يعلّم المسيح أنك لن تعيد الإنسان إلى الحياة بالخبز وحده. وإذا انعدمت الحياة الروحية والمثال الأعلى للجمال يكتئب الإنسان، يموت، يجن، ينتحر أو ينساق لخيالات الوثنية. وطالما أن المسيح في ذاته وفي كلمته هو مثالنا الأعلى فقد رأى أن الأفضل أن يُسكن في أرواح الناس المثال الأعلى للجمال، فالجميع، إذا كانت أرواحهم تحتضن الجمال، يغدون أخوة وعضداً بعضهم لبعض، وعندذاك يغدون بالطبع أغنياء يعملون أحدهم للآخر. في حين أنك إذا أعطيتهم الخبز وحده قد يغدون بسبب الضجر أعداء بعضهم لبعض.

ولكنْ ماذا لو أعطيتهم الجمال والخبز معاً؟ عندذاك ينتزع العمل من الإنسان، تنتزع الشخصية والتضحية بالخيرات من أجل الأقربين، باختصار، تنتزع الحياة كلها، ومثالها الأعلى، ولذا الأفضل نشر النورانية الروحية وحدها.

والدليل على هذه الأفضلية هو أن الكلام في هذا المقتطف الموجز من الإنجيل يدور حول هذه الفكرة تحديداً وليس فقط عن كون يسوع جائعاً وإبليس تحداه بأن يحول الحجر إلى خبز. الدليل أن

يسوع أجاب بالكشف عن سر الطبيعة: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» كالبهيمة.

ولو كان الحديث يدور فقط عن سد رمق يسوع فما الموجب للتطرق إلى الطبيعة الروحية للإنسان عموماً؟ ثم إنه كان حتى من دون نصيحة إبليس يستطيع أن يحصل على الخبز قبل ذلك لو أراد. تذكروا، على فكرة، نظريات داروين والآخرين الحالية بشأن أصل الإنسان من القرد. يسوع لم يبحث عن النظريات عندما أعلن مباشرة أن في الإنسان عالماً روحانياً إلى جانب العالم الحيواني. (...) والمزعج أن الإنسان بخطاياه يمكن أن يتحول إلى بهيمة من جديد.

خادمكم المطيع ف. دوستويفسكي

(...)

---

(1) عازف أحادي في مسرح مارينسكي (بطرسبورغ).
(2) فكرة «الحجر والخبز» من الأفكار الأساسية في «الأخوة كارامازوف».
(3) إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع.
(4) إنجيل متى، الإصحاح الخامس.

178. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 15 يوليو 1876، الخميس

صديقتي العزيزة آنيا، استلمت أمس رسالتك المقتضبة الثانية المؤرخة في 9 يوليو، وأجيبك عليها في الحال من دون انتظار مواعيدنا المعتادة. فالرسالة تركت في نفسي انطباعاً أليماً. بمعنى أن من الصعب عليك تحسين صحتك. وإلا لماذا تكتبين أن من اللازم الاستحمام 15 مرة فقط. ولربما لا يستغرق الحيض 10 أيام، بل يسير بالشكل الطبيعي في الجو الجيد وفي ظروف المعيشة الجديدة، وبالتالي يبقى لديك أكثر من شهر للاستحمام، فهل تستحمين بين يوم ويوم؟ ألا يجوز الاستحمام كل يوم؟ يا ملاكي أنا هنا أحلم بأن تتحسن صحتك أخيراً في (ضاحية) روسا[1] بعد عام من الوضع والرضاعة والعمل المضني في «يوميات الكاتب». آه، يا عزيزتي، فؤادي يتألم لك، فكرت هنا في كل معاناتك في عملك، ومن أجل ماذ؟ يا ليتنا، على الأقل، نستلم نقوداً أكثر. لكنها ليست متوفرة، وإذا كنا نأمل أن تتوفر ففي العام القادم. وذلك عصفور من العشرة التي على الشجرة. لقد وقعت في غرامك، يا آنيا، لدرجة لم تبق في

ذهني أية فكرة سواك. أحلم بالشتاء القادم، وعندما تتحسن صحتك في روسا وننتقل إلى بطرسبورغ لن تعملي كاتبة اختزال ولن تستنسخي كتاباتي بعد الآن. هكذا قررتُ. وإذا اكتتب عدد كبير من المشتركين يجب أن تجدي لك معاونة، حتى ولو (صديقتك) نيكيفوروفا. إلا أنني سأعرض عليك تفاصيل أفكاري عندما نتحرك. سأكون مسروراً لصحة الأطفال، لو كانت جيدة. أحبي ليوشا، وأنا أتوق إلى رؤية فيديا. ولا تهملي ليليا، علميها القراءة شيئاً فشيئاً إن أمكن. أعتقد أن طباعها من طباعك. وستكون طيبة القلب وفطينة ونزيهة، وواسعة الصدر في الوقت ذاته. أما فيديا فطباعه طباعي. وبساطته بساطتي. وهذا، ربما، هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أتباهى به، مع علمي بأنك ربما ضحكت مع نفسك أكثر من مرة على سذاجتي. أليس كذلك، يا آنيا؟ على أية حال، كل شيء مسموح به لك. فأنت سيدتي الآمرة الناهية، ويسعدني أن أنصاع لك. بمعنى أنني أترك لك ما هو لي، وأنا عاجز عن التخلص من تقلب الأطوار والاكتئاب، إلا أنك ما كنت تعرفين أبداً مدى حبي لك رغم ذلك. أما الآن فأنا أشعر وكأنني تجددتُ وبدأت أحبك ثانية، ولم يكن حبي قد بلغ في أي وقت مضى مستوى ما هو عليه اليوم. تمهلي يا ملاكي، وسأكرس نفسي لك، ولعلك تجدين فيّ حينئذٍ شيئاً جيداً.

ليس لدي تقريباً أي جديد أكتبه لك عن نفسي. يقتلني الملل هنا، ويقتلني أكثر لأنني من دونك. علاجي يسير حتى الآن بشكل رديء. أعصابي مضطربة جداً. يصادف عندي تشنج في الحنجرة. وكان ذلك نادراً جداً في السنوات الأخيرة، ما عدا حالات الانفعال العصبي الشديد. يوم أمس وقبل ثلاثة أيام شعرت بمؤشرات نوبة الصرع، أي انقباض الصدر كما يحصل في اللحظات الأخيرة قبيل الصرع.

احتمال النوبات يرعبني. ماذا سيحصل «اليوميات الكاتب» التي لم أبدأها بعد؟[2] وهل سأكتب شيئاً وأنا أشعر بالانفعال والتراخي؟ على أية حال، أنا أتمشى وأتنزه، وشهيتي جيدة. لكن نومي قليل. ثلاث أو أربع ساعات في الليلة الواحدة، لأن العرق يتصبب مني طول الوقت. كما أنه يتصبب كثيراً في النهار أيضاً. وليس ذلك بسبب الحر، بل بسبب أزمة المياه (المعدنية). أنا أعرف ذلك. من يدري، ربما لن تفيدني المياه هذه المرة، ذلك لأن مفعولها الجيد لا يتم إلا بشرط هدوء الأعصاب. في الليل، عندما أتصبب عرقاً، يتتابني سعال جاف مزعج للغاية. ورغم روعة النهار هنا هذه الأيام لا يمر يوم من دون عاصفة مباغتة بكل معنى الكلمة تستمر ساعات. وقبل ثلاثة أيام اجتاحتنا زوبعة رهيبة. الاستبراد أثناء هذه العواصف مع التبخر الشديد من السهولة بمكان.

في سياق التحضير للكتابة أعيد قراءة مقالاتي السابقة في الأعداد المطبوعة، وإلى ذلك أقرأ كل المكاتبات التي جلبتها معي. سجلت اسمي في المكتبة العامة البائسة واستعرت زولا[3] لأنني في السنوات الأخيرة استهنت كثيراً بالأدب الأوروبي. تصوري، وجدت صعوبة في قراءته لرداءة السرد، بينما يعتبرون زولا عندنا كاتباً شهيراً من أساطين الواقعية.

أما بخصوص حياتي المعيشية فالطعام سيئ، وليس بوسعي أن أقول إنني أعيش في هدوء. النزلاء لا يتحلون باللياقة مطلقاً، يطرقون على السلالم ويصفقون الأبواب ويتصايحون. لا أدري ماذا سيقول (الدكتور) أورت؟ كل همه أن يتخلص من المريض بأسرع ما يمكن. وهو لا يفحص المرضى تفصيلاً إلا في المرة الأولى (. . .). على أية

حال ربما سأتعافى. المهم أن تهدأ الأعصاب، وعندها يكون العلاج ناجعاً (. . .)

أبارك الأطفال وأقبّلهم وأقبّلك. حدثيهم عني، يا آنيا. أقبّلك مرة أخرى، وفي كل لحظة، حتى رسالتك الثانية هذه قبّلتها 50 مرة.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) في هذه الضاحية حمامات للمياه المعدنية.

(2) المقصود عدد يوليو - أغسطس.

(3) رواية «أحشاء باريس» لإميل زولا.



179. إلى فسيفولود سولوفيوف

أيمس، 16 يوليو 1876

العزيز الغالي فسيفولود سرغيفيتش. بالأمس فقط استلمت هنا، في أيمس، رسالتك الودية المؤرخة في 3 يوليو من بطرسبورغ. لقد كنا في ستارايا روسا، ولكي نصدر عدد يوليو من «يوميات الكاتب»، جئنا، أنا وزوجتي، إلى بطرسبورغ وتركنا الأولاد هناك في عهدة جدّتهم. بقينا في شقتنا ببطرسبورغ حتى الخامس من يوليو نعمل لإصدار العدد. وكانت الأعمال يومها كثيرة، وإلى ذلك انشغلت آنّا غريغوريفنا بتجهيز مستلزمات سفري إلى الخارج. وارتحلتُ في 5/ 7. (تم تحويل رسالتك إليّ في أيمس). وأقول لك، كلمة شرف، إنني كنت، كما وعدتك، أنوي زيارتك في بيترهوف قبل أن أغادر ستارايا روسا إلى الخارج. إلا أنني لم أتمكن من الإيفاء بوعدي لانشغالي الفظيع في مختلف الأمور الطارئة، فضلاً عن إصدار المجلة. وقد غادرت دون أن أحل بعض المسائل الملحّة المتعلقة بي شخصياً. أما الآن، هنا في منطقة المياه المعدنية، فقد أنعشتني رسالتك الرقيقة ومسَّت شغاف فؤادي، وإلا لكنت أغرق في الضجر،

ذلك لأني لا أعرف لماذا أتعذب من الملل والمزاج السوداوي حالما أصل إلى أيمس، وفي بعض الأحيان لا لسبب ملموس. ولا أدري هل السبب هو العزلة بين ثمانية آلاف متعالج متنوعي اللغات، أم هو طقس المنطقة. إلا أن الملل ينتابني هنا أكثر من أي شخص آخر. تقول إنك تريد أن تلقاني، فما أشد رغبتي أنا أيضاً في لقياك.

إذن، أعجبك عدد يونيو من «اليوميات» كما تقول. أنا مسرور جداً لإعجابك به، ولدي سبب وجيه بهذا الخصوص. أنا لم أسمح لنفسي مرة في كتاباتي أن أسير ببعض معتقداتي حتى نهايتها، فأقول آخر كلمة فيها. وقد لامني أحد المراسلين الأذكياء من مدينة أخرى على أنني أتناول الكثير من الأمور وأتطرق إلى العديد من المسائل في «اليوميات» دون أن أتحدث عن خواتيمها وعواقبها. وها أنا أقول كلمتي الأخيرة من معتقداتي، وأعني أمنياتي فيما يخص دور روسيا ورسالتها بالنسبة للبشرية، وقد ذكرت أن ذلك الدور سيتحقق في المستقبل القريب، بل هو بدأ يتحقق. فما كانت النتيجة؟ لقد حصل ما كنت أتوقعه. حتى الجرائد والمطبوعات التي تربطها مودة بي أخذت تتشدق بأن المفارقات تتوالى عندي بلا نهاية، مفارقة إثر مفارقة، في حين أن المجلات الأخرى لم تُبدِ أي اهتمام بالموضوع، مع أنني تناولت أهم مسألة، على ما أعتقد. ذلك هو ما يعنيه السير بالأمور إلى خواتيمها ! فأنت إن طرحت أية مفارقة دون أن تسير بها إلى خاتمتها تحصل على نتيجة حصيفة عفيفة معتبرة، (في رأيهم) إما إذا سرت بكلمة (أو عبارة) غير موثوقة إلى منتهاها، كأن تقول، مثلاً، بكل صراحة وبلا أدنى تلميح: «هذا هو المهدي المنتظر» فإن أحداً لن يصدقك لسذاجتك ولأنك سرت بالأمور إلى خواتيمها وقلت كلمتك الأخيرة. على فكرة، من ناحية أخرى، لو أن الكثيرين من مشاهير

النابهين، مثل فولتير، رأوا أن يقولوا كل ما يؤمنون به، من دون مزاح ولا تلميح ولا تورية، لما حققوا، صدقني، عشر معشار ما حققوه من نجاح وتأثير. والأكثر من ذلك، ربما سخر منهم الساخرون وضحك عليهم الضاحكون. الإنسان عموماً لا يحب الكلمة الأخيرة، ولا الفكرة «المنطوقة» ويرى أن «الفكرة المنطوقة شهادة زور»(1).

احكم بنفسك، إذن، هل تعز عليَّ أم لا كلمة الثناء منك على عدد يونيو؟ ذلك يعني أنك متفهم لكلمتي ومتقبل لها بالشكل الذي كنت أحلم به عندما كتبت مقالتي تلك. شكراً لك على ذلك، وإلا كنت محبطاً بعض الشيء وأخذت ألوم نفسي على التسرع. وإذا تواجد بين الجمهور عدد من المتفهمين مثلك وإن كان قليلاً فقد بلغت مبتغاي وكلي قناعة، ما يعني أن الكلمة المنطوقة لم تتبدد سدى، فيما تعالت الشماتة من «توالي المفارقات»، وبين الشامتين تحديداً أولئك الذين تخلو أدمغتهم دوماً من الأفكار.

على فكرة، محطة القطار هنا تستلم من الصحف الروسية «الوقائع الموسكوبية» و«الإنفاليد» و«الصوت» و«Journal de St. Pétersbourg»، وليس بينها «العالَم الروسي». ولو كنتَ قد كتبت صدفة شيئاً ما «في العالم الروسي» عن عدد يونيو (من اليوميات) أرجوك أن تسعدني، في ظلامي الحالك هنا، بإرسال المقالة في مظروف عادي، وستصلني على عنواني (. . .) أنا باقٍ هنا حتى السابع من أغسطس بتقويمنا. أشرب المياه (العلاجية)، وإلا ما كنت سأتحمل عذاب المعيشة هنا أبداً لو لم يكن العلاج بالمياه ناجعاً حقاً. لا شيء في أيمس يستحق أن أصفه لك. إطلاقاً. وعدت القراء بإصدار عدد أغسطس من «اليوميات» مزدوجاً وبعدد مضاعف من الصفحات (عن يوليو أيضاً). لكنني لم أبدأ بالتحضير له بعد. ثم إن

الملل قاتل، والعزوف عن العمل يجعلني أنظر إلى الكتابة بتقزز كما أنظر إلى مصيبة لا مفر منها. وأتوقع أن يأتي العدد رديئاً. على أية حال اكتبْ لي إلى هنا، يا عزيزي. أعانقك بحرارة قلبية.

المخلص ف. دوستويفسكي

تحياتي لزوجتك وتمنياتي الصادقة لها بكل خير.

---

(1) استشهد دوستويفسكي مراراً، في «الأخوة كارامازوف» و«المراهق» و«يوميات الكاتب»، بهذا البيت من قصيدة «محراب الصمت» للشاعر الروسي فيودور توتشيف (1803-1873).



180. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 21 يوليو 1876 الأربعاء

عزيزتي آنيتشكا. استلمتُ أمس رسالتك المؤرخة في 15 يوليو. أولاً، وقبل كل شيء، قبِّلي فيديا وهنئيه بعيد ميلاده. أنا لم أكتب لكم بهذا الخصوص قبل الآن، لكنني هنا تذكرت عيد ميلاد الصبي مع نفسي وهنأته به غيابياً. ثانياً اكتبي للوالدة واشكريها بالنيابة عني على مكاتيبها والتهنئة (بعيد ميلاد فيديا).

عزيزتي إذا كانت الوالدة سافرت وليس لديك حاضنة لحد الآن فأنا أتصور مدى صعوبة بقائك وحيدة مع الأطفال ومع خادمة رديئة (...) ذلك يقلقني كثيراً، صدقيني يا آنكا. سررت جداً لأنك قررت أن تقيمي القداس[1]. فهذا هو الواجب. أحن طول الوقت إلى المزيد من رسائلك التي أستلمها مرة واحدة فقط كل ثلاثة أيام، بل وأربعة. أمر صعب. ألا يمكنك، يا حمامتي، أن ترسليها بين يوم ويوم؟ حتى وإن كانت الرسالة لا تحتوي على جديد، حتى ولو بسطر واحد. فعندما أقرأ عبارتك «نحن بصحة جيدة» أطمئن وأشعر بالاستقرار (...) صرت ألاحظ أنني ملتصق بكم أكثر ولم أعد أتحمل فراقكم

مطلقاً كما في السابق. (. . .) في ليلة 18 على 19 رأيت في المنام كابوساً فظيعاً وكأنما فقدتك. ليتك تعلمين، يا آنيا، بمدى عذابي. تذكرت كل حياتك معي، ووبخت نفسي على تقصيري تجاهك. هل تصدقين أن الكابوس استمر طول النهار منذ أن استيقظت من النوم وظل يرافقني حياً. طوال يوم الـ 19 كنت أفكر فيك وأحن إليك. ولكنت سعيداً بلا حدود لو أني استطعت أن أراك ولو لعشر دقائق. اكتبي لي حتماً هل حصل لك شيء في 18 أو 19 من الشهر؟ وفي الليلة التالية، في الخامسة فجراً، عندما نهضت من الفراش، أصبت بدوار شديد ولم تقو قدماي على حملي، فهويت على الأرض لثلاث دقائق. ثم استمر الدوار طول النهار رغم خفوت حدته. كنت في النبع ثم حضرت صلاة الظهر، لكن الصداع ظل يلازمني. وعندما أخذت أقرأ كانت الحروف تومض خافتة مع أنني أستطيع أن أقرأ. وفي المساء مضيت إلى الدكتور أورت. وقد غيرت رأيي فيه جزئياً، فهو إنسان لطيف، وعندما تقتضي الضرورة يبدي اهتماماً كبيراً، ولا أحد هنا يرتاب بمعارفه كطبيب، بل إن لديه شهرة. طلبت منه أن يفحصني ويخبرني عن احتمال سكتة دماغية. ففحصني بأدق صورة (. . . ونفى أي احتمال). كما نفى تدفق الدم إلى الدماغ، وقال إن ما حصل هو بسبب مرض الرئتين. والحادث عرضي مؤقت (. . .) وأضاف أن المياه تفعل فعلها هذه المرة بأشد من السابق بعض الشيء. والدوار سينتهي بعد يومين أو ثلاثة. وأعطاني مستحضراً للأعصاب والمعدة، وأمرني أن أستعمله من دون عشاء. وأضاف: «ستغط في النوم وينتهي كل شيء» وفعلت بما أوصاني، فنمت جيداً، واليوم الـ 21 من الشهر أشعر بأن حالي كالعادة. الدكتور ضحك عندما سألته عن مضاعفات مرضي وهل سأموت قريباً؟ وقال ستعيش ليس 8 سنوات، بل 15،

«إذا كان الطقس جيداً وإذا لم تستبرد ولم تسئ استثمار طاقاتك، وإذا لم تخالف عموماً الحمية والحذر». أكتب لك كل هذه التفاصيل، يا ملاكي وعزيزتي، كيلا تقلقي بخصوصي، كما يتضح لي من رسالتك. إذن، كل شيء يبقى كما في السابق، ومع أن المرض لن يتلاشى، إلا أن مفعوله سيكون بطيئاً، بشرط التقيد ببعض المحظورات المعتادة. وسيكون ذلك بالإمكان رويداً رويداً.

التقيت هنا أمس في منطقة الينابيع معقب الشؤون الداخلية في «مذكرات الوطن» يليسييف. وهو هنا مع زوجته، يتعالج. بادرني بالتحية وتقدم إليَّ بنفسه. على أية حال، أنا لا أعتقد بأني سأعود إليهم. «فالرافض» العجوز لا يثق بأحد، ويرد على الجميع بالتساؤلات والمجادلات، والأدهى من ذلك تعاليه وغروره الشبيه بغرور تلاميذ الثانويات. (. . .). هذا اليوم لم أصادف يليسييف وزوجته عند الينابيع، وقد يكون زعل مني لأنني غمزت أمس تلاميذ الثانويات (في إشارة إلى رئيس تحرير المجلة). زوجته أكيد زعلت مني. فقد دخلت في جدال معي عن وجود اللّه، فيما قلت لها إنها تكرر آراء زوجها ولا شيء آخر. وقد أغاظها هذا الكلام كثيراً (. . .).

عزيزتي، لم أباشر العمل بعد. وأقسم لك، يا آنيا، أنك أنت جزء من السبب. فأنا طول الوقت أفكر فيك وأتمناك، وأنتظر رسائلك، ولا رغبة لي في العمل. هل يمكن العمل في الكآبة التي انتابتني في التاسع عشر من الشهر؟ باللّه عليك، اكتبي لي عن كل ظروفك ولا تخفي عني شيئاً في رسائلك مما يؤذيك ولا يسرك. وإلا سأتعذب وأبالغ في التصورات. هل استأجرت حاضنة أخيراً؟ يا ملاكي، ما أصعب الأمر عليَّ هنا من دونكم. بالمناسبة أنا أتقيد

بكل التوصيات: أشرب الماء (العلاجي) وأتنزه. لكنني لا أستطيع أن أذلل الطعام: أطباقهم رديئة للغاية. عبثاً، يا عزيزتي، إنك لم ترسلي لي رسالة الشخص الذي يلومني من مدينة أخرى. فهي ضرورية جداً «لليوميات». سيكون في المجلة ركن للرد على الرسائل التي تصلني. ولذا أرسليها في أول بريد إن أمكن، ولا تبخلي بطوابع البريد ولا تختصري رسالتك.

اكتبي لي بوضوح وبدقّة عن معطفي: أين سأجده إذا وصلت إلى بطرسبورغ؟ إلى اللقاء، يا ملاكي، أقبِّلك حتى آخر ذرة، وخصوصاً قدميك الرائعتين. أنت سيدتي الآمرة الناهية، أنا لا أستحقك، لكنني أؤله زوجتي الحبيبة ولن أتنازل عنها لأحد، مع أنني لا أستحقها. أقبِّل الصغار، فيديا ولوبا وليوشا بخاصة، وأباركهم.

المخلص لك بكل شغاف الفؤاد

ف. دوستويفسكي.

---

(1) لمناسبة عيد ميلاد فيديا وشراء منزل في ضاحية ستارايا روسا.

181. إلى لوبوف غولوفينا

أيمس، 23 يوليو 1876

الفاضلة لوبوف فاليريانوفنا المحترمة

أكتب إليك في مدينة غادياتش[1]، ولست واثقاً بأنك حددت لي هذه المدينة بالضبط عندما سمحت لي بمراسلتك. تلك هي ذاكرتي الضعيفة. عولت عليها ولم أسجل عنوانك آنذاك. فيا للمصيبة فيما لو أخطأت العنوان، خاصة وأنني عندما وجدت نفسي وحيداً في أيمس شعرت بحاجة فعلية أن أذكّر بشخصي جميع الذين تلمست فيهم مشاطرة صادقة لي وعزيزة عليّ. أنا هنا من أسبوعين. أما في بطرسبورغ، وخصوصاً في الشهر الأخير، فقد كنت مشغولاً ولدي من الهموم ما يجعلني حتى الآن أتذكرها باكتئاب. بالمناسبة، الحال هنا ليست أفضل. ولا أستطيع أن أعتكف. الجمهور الصاخب بآلافه المؤلفة تقاطر من كل حدب وصوب لتلقّي العلاج. ومع أن الروس بينهم كثيرون، حتى أني وجدت معارف لي منهم، إلا أن ذلك ليس هو المطلوب. ولذا أشعر بملل قاتل، حتى أن المناظر الطبيعية الخلابة والمناطق والمدن الرائعة تزيد من وحشتي وضجري. أمتع أنظاري معجباً ولا أحد أتقاسم معه انطباعاتي.

إنني أتحدث عن نفسي طول الوقت، ولكن كيف صحتك؟ هل أنت في مرح وحبور؟ عندما كنت أحدق وأتبحر فيك طويلاً تأكد لي أنك أم حنون، تحبين بيتك، وإلى ذلك تحبين «مالايا روسيا»[2]. حدثتِني بارتياح وسرور عن الصيف الذي ستقضينه في غادياتش. ولا أفضل من ذلك، أقصد لا أفضل من هذه المشاعر والميول. ولكن هل يعقل أنك حقاً لست سيدة من علية المجتمع؟ لو كنتُ بدلاً عنك لاتخذت لنفسي، ولو لحين من الوقت، موقعاً في المجتمع الراقي، مع أن ذلك بالفعل شغلة مملة. وحتى لو كانت في ذلك تضحية لاعتبرت نفسي ملزماً بتقديمها. على أية حال لن أواصل هذه المسألة، ثم إنني أعتبر مقارنة نفسي بسيدة من المجتمع الراقي شيئاً مضحكاً، مع أن هذه الفكرة خطرت في بالي فعلاً.

أنا أيضاً أتمنى لك أكبر قدر ممكن من السعادة، يخيل إليَّ أن السعادة ترافقك أكثر من أي شيء، وهي تليق بك تماماً. أنا رغم انطوائيتي أعرف عدة نساء، بل ليس قليلاً من النساء، يثقن بي في صدق وإخلاص. وطالما أنا أحب الصدق والإخلاص أكثر من أي شيء آخر فغالباً ما أتذكر بصورة عفوية أصدقائي عندما أفارقهم، كما هو الحال الآن مثلاً.

وأتصفح في الذهن وفي القلب كل هذه الوجوه المعروفة المليحة وأتمنى لكل منهن شيئاً ما كل مرة، أتمنى للواحدة منهمن ما يناسبها ويليق بها أكثر من غيره في اعتقادي. وقد تمنيت لإحداهن أن تمر بهزة شعورية شديدة قد تقرب من المصيبة، حيث خيل إليَّ أنها بحاجة ماسة إلى هذا الشعور، ولكن للحظة عابرة بالطبع. أما أنت فقد تمنيت لك في تصوراتي عدة مرات سعادة لا حدود لها، من دون أدنى سحابة، مدى العمر. هكذا أتصورك. وعندما أتذكر صورتك

ومحياك، لا يمكنني إلا أن أراك ترفلين في السعادة. فهي تليق بك وترافقك تحديداً، ولا أدري لماذا؟ لكنني أدري أنني أتمنى لك السعادة ليس فقط لأنها تليق بك وتناسبك، بل وكذلك بدافع من صميم قلبي الصادق، أتمنى لك الكثير الكثير، وليباركك اللّه.

التقيت هنا البارون غان، هل تتذكرينه؟ جنرال المدفعية الذي تعالج معنا في ردهة الهواء المضغوط. كان من المحتمل أن لا أعرفه. فقد جاء بالزي المدني. وبادرني قائلاً: «كيف لا تعرفني وقد جلسنا معاً نتنشق في ردهة الهواء المضغوط؟». بعد هذا الكلام تذكرته بالطبع. وحدثني أن (الدكتور) فريوريخ حَكم عليه بالموت مشدداً أن مرضه عضال لا علاج له. فسافر في الحال إلى «السيدة الخارقة» في ميونيخ. وأنت تعرفين أنها تعالج بسر خصوصي ويتقاطر عليها المرضى من كل أنحاء العالم، وأنها أسعفته تماماً وأضاف: «كان ذلك في العام الفائت. أما في هذا العام فقد طردتني، تصور، ولم ترغب في علاجي. وها أنا هنا من جديد». وقد تعالج هنا، في أيمس، ليس بالهواء المكثف، بل المخفف، وأكد أن «الساحرة» ساعدته. وقلت له أنا أيضاً محكوم عليَّ ومرضي عضال، وشعرنا بالأسف على مصيرنا، ثم قهقهنا. وبالفعل، كلما حرصنا على البقية الباقية من الحياة، متوقعين النهاية الوشيكة، أمكن بالفعل تجويد الحياة وتحسين الذات، أليس كذلك؟ ومع ذلك أنا متعنّت صامد لا أصدّق الأطباء. ورغم ما أجمعوا عليه وقالوه من أني مصاب بمرض عضال، إلا أنهم كانوا يطيّبون خاطري بأنني سأعيش طويلاً نسبياً بشرط أن أتقيد بالحمية طول الوقت وأتحاشى الإفراط وأهتم قبل كل شيء بتهدئة الأعصاب ولا أنفعل أبداً ولا أجهد دماغي وأسعى إلى أقل قدر من الكتابة، أي التأليف، ولا أخذ برداً، والعياذ باللّه.

حينئذٍ، وبالتقيد بكل هذه التوصيات، «يمكنك أن تعيش فترة طويلة أخرى»، على حد قولهم. وهذا ما أنعش آمالي بالطبع.

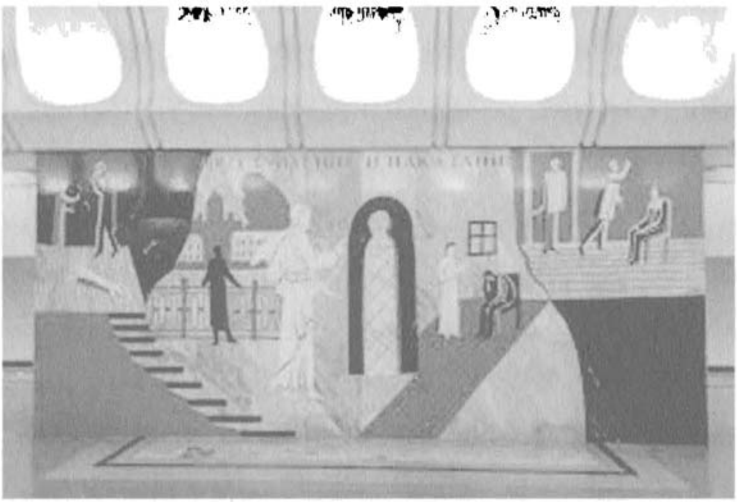
على فكرة، البارون غان لا ينوي أن يموت بالمرة. بدلته المدنية رشيقة للغاية، وهو يرتديها بارتياح واضح. وكنت قد لاحظت أن جنرالاتنا يرتدون البدلات المدنية بزهو كبير عندما يسافرون إلى الخارج. وإلى ذلك نرى هنا الكثير من «الحسناوات» من شتى أرجاء العالم يرتدين أزهى الثياب. أظن أنه سيلتقط صورة هنا في بزته المدنية ويهديها إلى أصدقائه في بطرسبورغ. إنه إنسان في منتهى اللطف.

أنت تحبين الأسرة والمنزل والوطن، ما يعني أنك وطنية. وطالما أنت وطنية أحبي، إذن، القضية العزيزة على روسيا، القضية الروسية الصرف لتحرير السلافيين. هنا، في صالة المنتجع، كثير من الصحف، وبينها بضع جرائد روسية. ساعةُ وصول البريد مناسبة ترفيهية كبيرة نتلقف خلالها الجرائد في الحال وننكب على المطالعة، بخصوص السلافيين في المقام الأول طبعاً. وإذا كنت تتابعين ملحمة السلافيين هذه أنصحك بقراءة «الوقائع الموسكوبية»، فهذه الجريدة تقدم كل ما يتعلق بالمسألة الشرقية بوضوح أكثر مما في سائر الجرائد. وفيها الفهم الأسمى والأمثل للقضية. ها أنا أحبّر أربع صفحات، بينما أردت أن أقول لك الأفضل نوعاً، وليس الأكثر كماً. وكالعادة، أنا لا أجيد كتابة الرسائل إطلاقاً. فلا تلوميني، يا لوبوف فاليريانوفنا الطيبة الموقرة، وتيقني من احترامي العميق لك ومن المشاعر الرقيقة التي تنبعث من صميم قلبي كلما أتذكرك.

المخلص لك كل الإخلاص فيودور دوستويفسكي

(1) أوكرانيا. تعرَّف دوستويفسكي على غولوفينا وهي تتعالج في مشفى التدرن الرئوي في بطرسبورغ. وكتبت في مذكراتها فيما بعد عن لقاءات مؤثرة بينهما.

(2) «روسيا الصغرى» مصطلح أطلق على أوكرانيا في العهد القيصري..



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

182. إلى قسطنطين ماسليانيكوف

بطرسبورغ، 5 نوفمبر 1876

السيد الكريم ك. إ. م.[1] المحترم

أخشى أن أكون قد تأخرت في الرد عليك، وأنك لن تأتي مرة أخرى إلى متجر إسحاقوف لتأخذ رسالتي (التي تنتظرك هناك).

أشكرك، أولاً، على استحسانك لمقالتي (في «يوميات الكاتب»)، وثانياً على رأيك الطيب بخصوصي أنا.

على فكرة، أنا نفسي أرغب في زيارة كورنيلوفا[2] من دون أمل في تقديم مساعدة لها. فيما وجهتني رسالتك في الطريق المستقيم. مضيت في الحال إلى المدعي العام فوكس. استمع إلى طلبي بشأن مقابلة كورنيلوفا وبشأن رفع التماس إلى صاحب الجلالة (الإمبراطور) للعفو عنها وأجابني أن ذلك بالإمكان، ودعاني للحضور إلى الديوان في اليوم التالي، وسيتدبر الأمر حتى ذلك الحين. في اليوم التالي بعث كتاباً إلى مدير السجن ليسمح لي بمقابلة كورنيلوفا عدة مرات، ووعدني بالمساعدة فيما بعد أيضاً. إلا أن المشكلة في عدم جواز تقديم التماس العفو حالياً، لأن محامي دفاع كورنيلوفا قدم قبل يومين

طلباً إلى مجلس السينات بشأن تمييز الحكم، ولذا لم تتخذ الدعوى شكلها النهائي. ولن يكون بالإمكان رفع التماس العفو إلى المقام السامي إلا بعد أن يصدر رفض من المجلس.

ولما كان وقت زيارة السجن في ذلك اليوم قد تأخر، مضيت في اليوم التالي. وكان رأيي الذي استحسنه المدعي العام أن أتأكد في البداية مما إذا كانت كورنيلوفا راغبة في العفو أم لا؟ بمعنى العودة إلى زوجها وما إلى ذلك. رأيتها في مستوصف السجن في اليوم الخامس من الوضع. وأعترف لك بأنني دهشت أشد الدهشة لنتيجة الزيارة. فقد اتضح أنني، في مقالتي، حزرت بكل شيء تقريباً. زوجها يتردد عليها، ويبكيان معاً. حتى أنه أراد أن يصطحب البنت، «لكن الميتم لا يسمح بخروجها» كما أبلغتني كورنيلوفا حزينة. إلا أن ثمة اختلافاً طفيفاً عن اللوحة التي رسمتها في المقالة، فهو فلاح حقيقي لكنه يرتدي سترة ألمانية طويلة ويعمل موظفاً في (دائرة حكومية متواضعة) براتب قدره 30 روبلاً في الشهر. هذا هو الفارق الوحيد على ما أظن.

تحدثت مع كورنيلوفا على انفراد قرابة نصف ساعة. وهي لطيفة للغاية. في البداية أوضحتُ لها عموماً أنني أتمنى أن أساعدها. وسرعان ما محضتني ثقتها، وذلك بالطبع لقناعتها بأن المدعي العام ما كان سيسمح لي بمقابلتها لغرض تافه. ذهنها يتميز بالصفاء والعزم. إلا أن عقليتها روسية ساذجة، بل وسمحاء. كانت خيّاطة، وعندما تزوجت واصلت هذا العمل لأجل الكسب. محياها يبدو فتياً يافعاً. وهي مليحة. تعلو وجهها مسحة من الهدوء النفساني الرائع. ولا يخيل إليّ أنها تنتمي إلى تلك الفئة من النساء المرحات الأريحيات. إنها الآن هادئة تماماً، لكنها «تشعر بالضجر» راغبة في «البت السريع»

بقضيتها. وسألتها قبل أن أتناول حالة الحمل التي كانت فيها: كيف حصل ذلك؟ فأجابت بصوت خانع حزين إنها لا تعرف. «شعرت بأن إرادة غريبة عليَّ كانت في داخلي». وثمة نقطة أخرى تسترعي الانتباه. قالت: «عندما ارتديت ثيابي ما كنت أنوي الذهاب إلى دائرة الشرطة. وما إنْ خرجت إلى الشارع حتى جئت إليها ولا أدري كيف». ورداً على سؤالي هل تريد العودة إلى زوجها مجدداً، أجابت: «آه. نعم». وانتحبت. ثم أضافت بصوت مؤثر وبتلميح إلى أن زوجها رجل طيب القلب: «زوجي يأتي إليَّ ويبكي عليها». وأجهشت في البكاء من جديد عندما تذكرت إفادة مأمور السجن ضدها، حيث زعم أنها قالت له: من بداية الزواج كانت تكره زوجها وابنته. «هذا كذب. أنا لم أقل له مثل هذا الكلام مطلقاً». «في الأخير شعرت بمرارة العلاقة مع زوجي، فكنت أبكي دوماً، وهو يقرعني». وفي صباح الحادث ضربها زوجها.

لم أخفِ عليها إمكان رفع التماس إلى المقام السامي بشأن العفو إذا فشلت دعوى الاستئناف. استمعت إليَّ بمنتهى الاهتمام وطغت عليها مسحة من المرح: «ها أنت الآن تؤملني، وإلا فما أشد الضجر».

وسألتها بشيء من التلميح: هل هي بحاجة الآن إلى شيء؟ ففهمتني بكل بساطة ومن دون غيظ، وقالت بصراحة إن كل شيء متوفر لديها، وعندها نقود، وهي ليست بحاجة. على السرير بجانبها ترقد رضيعتها. اقتربت منها قبل أن أغادر وألقيت عليها نظرة وامتدحتها. وكان ذلك مبعث سرور كبير للمرأة. وعندما ودعتها بعد ذلك بادرتني قائلة: «بالأمس عمدناها، وسميناها يكاترينا» (. . .)

باختصار، ليس بالإمكان توصيف كل شيء، ولا التفريق بين

الأشياء. ولكنني الآن واثق أكثر من السابق بأن سبب الحادث هو المرض (النفساني). ورغم أنني لا أمتلك حقائق نهائية، إلا أن مقابلتي معها كأنما أكدت لي كل تصوراتي.

إذن، لا يمكن التفكير في رفع التماس العفو قبل أن صدور قرار محكمة الاستئناف. ولا أدري متى يصدر. فيما بعد، وفي حال صدور قرار ليس في صالحها، سأكتب لها نص الالتماس. وقد وعدني المدعي العام بالمساعدة. وأنت أيضاً وعدت. ما يعني أن ثمة أملاً.

5 : 2 وفي أورشليم عند باب الضان بركة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا لها خمسة أروقة

5 : 3 في هذه كان مضطجعاً جمهور كثير من مرضى وعمي وعرج وعسم يتوقعون تحريك الماء

5 : 4 لأن ملاكاً كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه

5 : 5 وكان هناك إنسان به مرض منذ ثمان وثلاثين سنة

5 : 6 هذا رآه يسوع مضطجعاً وعلم أن له زماناً كثيراً فقال له أتريد أن تبرا

5 : 7 أجابه المريض يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء بل بينما أنا آتٍ ينزل قدامي آخر

5 : 8 قال له يسوع قم احملْ سريرك وامشِ

5 : 9 فحالاً برئ الإنسان وحمل سريره ومشى. . . (إنجيل يوحنا، الإصحاح الخامس).

فهمت من مغزى رسالتك أنك تريد أن تكون ذاك الإنسان الذي يساعد مريضتنا أن تبرأ. فلا تفوت لحظة تحريك الماء. وسيجزيك

اللّه على ذلك خير جزاء. وأنا أيضاً سأعمل (لهذا الغرض) حتى النهاية.

وتفضل بقبول فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) قسطنطين إيفانوفيتش ماسليانيكوف موظف في مديرية الإستئناف بوزارة العدل.

(2) أم حامل رمت ربيبتها الصغيرة من نافذة الطابق الرابع وحكم عليها بالأشغال الشاقة. أطلق سراحها بفضل جهود ماسليانيكوف.



183. إلى أ. غيراسيموفا

بطرسبورغ، 7 مارس 1877

الفاضلة الكريمة غيراسيموفا.[1]

رسالتك آذتني لأنني لم أتمكن من الإجابة عليها فترة طويلة. فما سيكون رأيك فيّ؟ بالنسبة لمزاجك النفساني العصيب لعلك تعتبرين صمتي إهانة.

لكنني غارق في العمل. فبالإضافة إلى الأشغال العاجلة المرتبطة بإصدار «يومياتي» تكاثرت عليَّ أكداس المكاتبات. ففي كل يوم تحديداً تصلني عدة رسائل مكتوبة كما تكتبين. ولا يمكن الرد عليها بسطرين. لقد تحملت ثلاث نوبات من الصرع لم أشهد مثلها في السنوات الأخيرة من حيث الشدة والكثرة. إلا أنني بعد النوبات لا أعمل يومين أو ثلاثة، فلا أستطيع أن أكتب، ولا حتى أن أقرأ لأنني منحلّ بدنياً ونفسياً. ولذا أرجوك، وقد عرفت ذلك الآن، أن تسامحيني على تأخر الرد.

لا يمكنني أن أعتبر رسالتك طفولية أو حمقاء كما تصفينها. المهم أنها تعبّر عن المزاج العام، وثمة كثير جداً من الفتيات اللواتي يعانين

مثلما تعانين. إلا أنني لن أكتب لك الكثير في هذا الموضوع، بل أكتفي بأفكاري الأساسية المتعلقة بهذه المسألة عموماً وبك خصوصاً. فلو طلبت منك أن تهدأي وتظلي في بيت أبيك وتشغلي نفسك بعمل ذهني، في تخصص تعليمي وما إلى ذلك، لن تعيريني أذناً صاغية على ما أظن. ولكن، لماذا أنت مستعجلة لهذا الحد؟ تريدين أن تكوني نافعة بأسرع ما يمكن. والحال فإن المرأة التي في مثل طموحاتك الروحية، وأتصور أنها صادقة، يمكنها أن لا تتسرع في التوجه إلى المجهول، بل تهتم بتعليمها الشخصي على نحو صحيح وتهيئ نفسها لنشاط أكثر نفعاً بمئة مرة من الدور الغامض التافه الذي تؤديه الممرضة أو الصيدلانية أو القابلة. أنت تستعجلين في دخول الدورة الصحية المحلية. وأنا أنصحك، واثقاً، بعدم الدراسة في مثل هذه الدورة. فهي لا توفر أدنى قدر من التعليم، بل وهي أسوأ من ذلك. فما الفائدة مما إذا صرت قابلة أو صيدلانية؟ هذا التخصص المزعوم، إذا كنت تريدينه بإصرار، يمكنك أن تحصلي عليه فيما بعد. أليس الأفضل الآن السعي إلى مقاصد أخرى والحصول على التعليم العالي؟ انظري إلى جميع اختصاصيّينا، حتى أساتذة الجامعات، مم يعانون وكيف يلحقون الضرر بقضيتهم ورسالتهم بدلاً من تقديم المنفعة؟ ذلك لأن معظم اختصاصيّينا يفتقرون إلى التعليم، إنهم أميّون، خلافاً لما في أوروبا. هناك تجدين غومبولت وكلود- برنارد وغيرهما من ذوي التفكير الشامل والتعليم الهائل والمعارف الجمة ليس في مجال اختصاصهم فقط. أما عندنا، فحتى الأشخاص من ذوي المواهب الهائلة إنما هم أناس غير متعلمين في الواقع، ولا يعرفون إلا القليل خارج اختصاصهم. سيتشينوف، على سبيل المثال، لا يعرف شيئاً عن خصومه الفلاسفة، ولذا يلحق من خلال استنتاجاته العلمية ضرراً أكثر

مما يحمل من فائدة. وأغلبية الطلبة والطالبات من دون أي تعليم. فما نفعهم للبشرية؟ كل ما يشغل بالهم أن يحصلوا بأسرع ما يمكن على وظيفة براتب.

هنا، في بطرسبورغ، في حي جزيرة فاسيليفسكي، وبجهود بعض المتنفذين بدأت في إحدى الثانويات دورة جامعية للنساء. ويسعى العديد من هؤلاء المتنفذين بلا كلل إلى جعل الحكومة تمنح هذه الدورة حقوقاً تضاهي، على قدر الإمكان، الحقوق التي تقدمها الجامعة للذكور بعد أداء الامتحانات، أي فرصة القبول والخدمة وما إلى ذلك. وقد تكلمت بخصوصك مع إحدى السيدات المتنفذات كثيراً والساعيات لتأمين الحقوق الجامعية لهذه الدورة. فتقبلت طلبي بحماس ووعدتني بقبولك في الدورة بعد حين من الزمن إذا إستطعت الإنتقال إلى بطرسبورغ، ولكن ينبغي الانتظار قليلاً. صدقيني بأنك سوف توسعين وترفعين تعليمك هنا، ولربما تستفيدين من الحقوق التي يسعى من أجلها رعاة الدورة. وعندذاك يكون بإمكانك أن تختاري اختصاصاً أو وظيفة بعد أداء الامتحان. أنا لم أتمكن، من خلال رسالتك، أن أفهم وضعك العائلي، ولا أدري كيف أفسر عبارتك بشأن الفرار من الوالد، لأنني لا أفهم لم لا يوافق والدك ولن يسمح لك بمواصلة تحصيلك العلمي في الدورة الجامعية التي افتتحت في جزيرة فاسيليفسكي. إنها ليست أكاديمية طبية، ولا دورة لتدريب القابلات يمكن أن تخيفه تماماً، كما تخيفني على ابنتي، لأنني أريد لها تعليماً عالياً متسامياً ونشاطاً نافعاً للبشرية، وليس مكانة وضيعة متدنية. ثم إن والدك يستطيع أن يستفسر بنفسه عن هذه الدورة من إحدى راعيات المشروع، وأعني السيدة الفاضلة الطيبة القلب التي ناشدتها أن تزكيك. إنها آنّا بافلوفنا فيلوسوفا، عقيلة المستشار

الحكومي فيلوسوف. ومن ناحيتي أعدك بأنها سترعاك تماماً وتعمل بصدق ومودّة من أجل جميع الشباب التواقين إلى التعليم، وخصوصاً الإناث.

ليس من الإنصاف طبعاً أن تكوني، بميولك وآرائك، زوجة لتاجر ما. ولكنْ أن تكوني زوجة طيبة وأماً حنوناً فإن تلك هي قمة رسالة المرأة (. . .) تقولين إنك لا تحبين خطيبك. لا يجوز أن تشوهي حياتك مهما كان الهدف. فلا تتزوجيه إذا كنت لا تحبينه. اكتبي لي مجدداً إذا أردت. وهذه السيدة التي أرجو أن يبقى اسمها سراً بيننا، ويمكنك أن تخبري والدك به على أية حال، ستساعدك أيضاً. لا مؤاخذة إذا كانت رسالتي هذه لا تطابق ما كنت تتوقعينه، فأنت طرحت أسئلة كثيرة جداً، وليس من السهل الإجابة عنها.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) ابنة أحد كبار التجار.

184. إلى صوفيا لوريه

بطرسبورغ، 11 مارس 1877

العزيزة صوفيا يفيموفنا المحترمة

الحقيقة أنني لا أعرف ولا أستطيع أن أتصور ما ستظنينه بي نظراً لصمتي وعدم الإجابة عن سؤالك المهم. والحال أنني واجهت مصادفة غريبة. عندما جاؤوني برسالتك كنت على الغداء. جلبت الخادمة حزمة فيها أربع رسائل، فأنا الآن أستلم رسائل كثيرة. وأمرتُها بأن تحملها إلى مكتبي وتضعها في الصينية التي على الطاولة، حيث توضع كل الرسائل والوثائق التي تصلني. وبعد الغداء رأيت رزمة الرسائل وقرأتها، فكانت ثلاثاً. والآن فقط أتصور أنها كانت أربعاً. إلا أنني لم ألمسها عندما جلبتها الخادمة أثناء الغداء. وقد تكدس في الصينية قرابة خمسين رسالة، وكنت قد قرأتها جميعاً. ثم مرضتُ. تكررت عليّ نوبات الصرع ثلاث مرات. وبعد ذلك حل موعد إصدار «اليوميات» فتأخرتُ عليه. والآن فقط أخذت أقلّب الرسائل التي قررت أن أرد عليها في هذا الشهر. أما الرسائل الملحّة فأنا أرد عليها في الحال. وفجأة رأيت رسالتك بين كومة

الرسائل الأخرى. وهي غير مفتوحة وقد ظلت مركونة شهراً كاملاً. يبدو أنها اندسّت على نحو ما في وسط الكومة وظلت هناك وقتاً. أما الآن، وقد قرأت رسالتك، فإنني في حيرة. فما أجمل هذه الرسالة. سأستفيد من (قضية) طبيبك (المرحوم) غيندينبورغ ومن رسالتك حتماً في «اليوميات»، من دون ذكر الاسم. ففيها ما يستحق الكلام.

أتصور ما تشعرين به من ملل. اكتبي عن مسألة الدكتور، فهي مهمة. واصمدي، يا عزيزتي، ولا تتزوجي من دون حب. ولكنْ فكّري وتأملي، ربما هو من الأشخاص الذين يمكن أن يستحقوا الحب فيما بعد. فإليك نصيحتي: حاولي لبعض الوقت أن تتجنبي الجواب القطعي. اطلبي من أمك مهلة للتفكير ولا تعدي بشيء تحديداً. وتابعي سلوك هذا الشخص. باختصار، اعرفي عنه كل شيء. وإذا اقتضت الحاجة تقاربي معه بمزيد من المودة، على أن تلمّحي له، بنزاهة، أن لا يأمل في الكثير. وبعد عدة شهور من التحليل الدقيق اتخذي قرارك سلباً أو إيجاباً. الحياة مع شخص غير محبوب وغير لطيف هي التعاسة بعينها. ها قد مر شهر، ولعلك حزمت أمرك من زمان، فتأتيك نصيحتي متأخرة. فارق السن بين الـ 35 والـ 19 لا يبدو لي كبيراً. بل هو ليس كبيراً على الإطلاق. ولا أدري لماذا أرغب شخصياً أن يعجبك هذا الرجل حتى تتزوجيه. لكنك لم تكتبي لي إلى أي (شريحة اجتماعية) ينتمي؟ وهل هو يهودي؟ إذا كان يهودياً فكيف يتولى منصب المستشار المدني؟ يخيل إليَّ أن اليهود حصلوا من وقت قريب جداً على حق التوظيف، بينما تتطلب وظيفة المستشار خدمة 15 عاماً في أقل تقدير.

إلى اللقاء يا صديقتي.

أتمنى لك موفور السعادة بكل أنواعها. لا تنسيني، ولا تلوميني، وبلغيني عن أحوالك. أنا مشغول جداً، ومهموم جداً لنوبات الصرع.

أشد على يدك بحرارة.

المخلص دوماً فيودور دوستويفسكي



185. إلى صوفيا لوريه

بطرسبورغ، 17 أبريل 1877

الفاضلة الطيبة صوفيا يفيموفنا المحترمة

صحتي لا تزال متدهورة وقد خارت قواي، وأنا غارق في المشاغل. ظننت أنني سآخذ قسطاً من الراحة بعد إصدار عدد المجلة وأجيب على رسائل الجميع، وأنت في مقدمهم. ولكن ما أكثر الرسائل الجديدة التي تتطلب رداً عاجلاً لمختلف الأسباب التي لا تتحمل أي تأخير، وما أكثر المراجعين الجدد، وبعضهم غريبو الأطوار لدرجة تعذر معها الفكاك منهم سريعاً، فصرفت جل وقتي عليها وعليهم، وجازفت بصحتي، والآن فقط تحينت الفرصة لدقائق معدودات كي أرد عليك. فشكراً، في المقام الأول، على تواصلك معي. وثانياً- كتبتُ عن (الدكتور) غيندينبورغ وفقاً لرسالتك، فهل ألحقتُ ضرراً بسمعتك في الوسط الاجتماعي الذي تعيشين فيه؟ خطر في بالي هذا التساؤل الآن فقط. عندما كتبتُ المقالة ونشرتها كنتِ أنت وحدك في تصوراتي. والآن صرت أفكر في وسطك الاجتماعي كله. بلغيني، وإذا كنتُ قد أزعجتك في شيء أو أغضبتك فسامحيني.

رسالتك مثيرة ومؤثرة. والأهم أنك تتساءلين ماذا عليك أن تفعلي في ظل الخلافات العائلية، وخصوصاً بشأن الامتحانات. رأيي أن لا تكوني قاسية مع الوالدين ولا تقاطعيهما، فلن تستطيعي في كل الأحوال أن تصمدي بوجه آرائهما. ثم إنهما أبواك على أية حال ولا يمكنك أن تقسي على الأم والأب وتفطري قلبيهما. إذا كنت تحبين الفقراء التعساء وتريدين أن تخدمي من أجل الرأفة ومحبة الإنسان فاعلمي أن أفظع تعاسة تكمن في كون الناس الطيبين الأريحيين لا يفهمون أو لا يعودون يفهمون، بسبب من بيئتهم الاجتماعية وحياتهم السابقة، تلك الأفكار التي لا جدال فيها، ويدخلون في تقاطع واضح مع الذين يرغبون في حبهم وإسعادهم. ويلاحظ ذلك، أكثر ما يلاحظ، بين الآباء والبنين. ثم إنك، ولا شك، لا تستطيعين أن تضحي بكل ما لديك وبأعز الأفكار عليك، ومع ذلك يجب أن تكوني متسامحة ومتعاطفة مع الوالدين لأقصى حدود التسامح والتعاطف. وفي ذلك تكمن المأثرة الحقيقية للرأفة بالإنسان. ولا موجب للذهاب بعيداً من أجل الرفق بالإنسان إذا كان جنبك وأمام ناظريك في البيت والدان يستحقان الرأفة. أنا لا أعرف طبيعة علاقاتكم الحالية، أفلا تستطيعين أن تلتزمي المزيد من اللين تجاههما؟ هذا أولاً، وثانياً- ألا تستطيعين أن تعديهما بشيء ليس الآن، وتقنعيهما بأنك في حاجة إلى البقاء وحيدة عاماً آخر على الأقل (. . .) فبعد عام تتغير أمور كثيرة (. . .) والمهم هل يعجبك (خطيبك) وهل تتوافق آراؤكما أم لا؟ إذا كان العكس فلا تتزوجي منه طبعاً، ولكنْ تذكّري أن في مثل عمرك يصعب ويستحيل الحكم على الناس من دون خطأ.

بخصوص فيكتور هيغو أعتقد أنني حدثتك. إلا أنني أرى أنك لا تزالين في مقتبل العمر طالما أنت تضعينه في خانة واحدة مع غوته

وشكسبير. أنا نفسي أحب «البؤساء» كثيراً. وقد صدرت في الفترة نفسها التي صدرت فيها «الجريمة والعقاب». بالتحديد قبل عامين من صدور روايتي. ورأى شاعرنا الكبير المرحوم فيودور توتشيف وكثيرون غيره آنذاك أن «الجريمة والعقاب» أرقى من «البؤساء» بما لا يقاس. إلا أنني تجادلت معهم بصدق، ومن صميم القلب، ولا أزال واثقاً حتى الآن برأيي الذي يخالف رأي جميع حكمائنا (بهذا الخصوص). إلا أن إعجابي بـ«البؤساء» لا يحول دون رؤيتي للنواقص الكبيرة فيها. شخصية (جان) فالجان رائعة، وثمة الكثير جداً من المواضع المميزة والممتازة. وقد كتبت عنها العام الماضي في «يومياتي». إلا أن العشاق في الرواية يثيرون الضحك. وهم من البرجوازيين الفرنسيين بكل ما في الكلمة من خزي ودناءة. وما أكثر ما تثيره من ضحك تلك الثرثرة المتواصلة واللهجة الخطابية في بعض ثنايا الرواية. والأكثر مثاراً للضحك بخاصة شخوصها الجمهوريون المزيفون المنتفخو الأوداج. النصّابون عند الكاتب أفضل بكثير. وعندما يكون هؤلاء الساقطون صادقين نتلمس لدى فيكتور هيغو نزعة إنسانية وحباً وشهامة. وحسناً فعلتِ حين لاحظت هذه الجوانب وأحببتِها. وخصوصاً حبك لشخصية l'abbé Myriel فقد أعجبني ذلك كثيراً من جانبك. (...)

أتمنى لك أن لا تشعري بالضجر، وأن تصمدي لبعض الوقت، ومن ثم قد ترتحلين إلى بطرسبورغ مجدداً أو إلى موسكو التي فيها دورة دراسية أيضاً. أنا واثق بأن في الوقت متسعاً أمامك، لأن لديك عزيمة.

في منتصف مايو أنتقل من بطرسبورغ إلى الريف، ولعلك تكتبين لي حتى ذلك الحين. وعندها أخبرك بعنواني الصيفي.

المخلص بكل صدق ف. دوستويفسكي

186. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 6 يوليو 1877

صديقتي وعزيزتي آنيا. أعانقك وأقبّلك. كما أقبّل الأطفال فرداً فرداً. كيف كانت سفرتكم (إلى كييف)؟ أنتظر رسالتك بفارغ الصبر. لا همّ لي إلا التفكير فيكم.

وصلت أمس منهكاً من وعثاء الطريق. ولن أكتب لك التفاصيل، لأنني في عجلة من أمري كالمسعور. تراكمت الأعمال والمشاغل عليّ أكثر من المستطاع. وصل القطار في الحادية عشرة صباحاً. وعندما دخلت الشقة كانت بروخوروفنا قد غادرتها تواً بعد أن انتظرتني من يوم أمس. وبعثت في طلبها...

حالما وصلتُ توجهت إلى المطبعة دون أن أنتظر بروخوروفنا بعد أن أرسلت الكناس في طلبها. وقال لي ألكساندروف إنهم فرغوا من تنضيد العدد، لكنهم لم يطبعوا شيئاً منه، لأنه لم يمر عبر الرقابة. راتينسكي سافر في إجازة إلى محافظة أورلوف، فيما ذهب ألكساندروف إلى بوتسيكوفيتش ليرجوه أن يتوسط لي في لجنة الرقابة

لاختيار رقيب. ثم ذهب بنفسه إلى اللجنة. استمع إليَّ السكرتير ولم يتحدث طويلاً، بل اكتفى بالقول إنه ما دامت الرقابة عليّ شخصياً قد رُفعت، فالمفروض أن أصدر «اليوميات» أيضاً من دون عرضها على الرقابة. (. . .) واتضح بعد مراجعة البروفة أن خمس صفحات بقيت خالية، ما يعني لزوم الكتابة لملئها. (ثم وجدنا مادة منسية) وفرحت لأنني لن أكتب شيئاً لملء الفراغ. وبعد ذلك مضيت مسرعاً إلى اللجنة الرقابية (. .) تراكمت عليَّ التصحيحات. راجعت أمس ملزمة واحدة، ولم أتمكن أكثر (. . .) ليس لدي وقت إطلاقاً.

سأذهب الآن إلى المطبعة وإلى الرقابة. ثم أنكبّ على المراجعة والتصحيح وما إلى ذلك. لم ألتق أحداً. نيكولاي عرج عليّ أمس، ولم أكن موجوداً، كما جاءني قبل ثلاثة أيام. الكل يظنون أن لديّ متسعاً من الوقت، وينبغي أن أتردد عليهم من أجل الثرثرة (. . .)

بعد غد، وربما غداً، سأكتب لك بمزيد من التفصيل. أما اليوم فلا أدري كيف سيكون القرار بشأني. وذلك ما يشغل بالي ويؤذيني. أقبِّلكم جميعاً. رأيتك في المنام وأنا في عربة القطار. كما رأيتك ليلة البارحة. أقبِّلكم جميعاً ألف مرة.

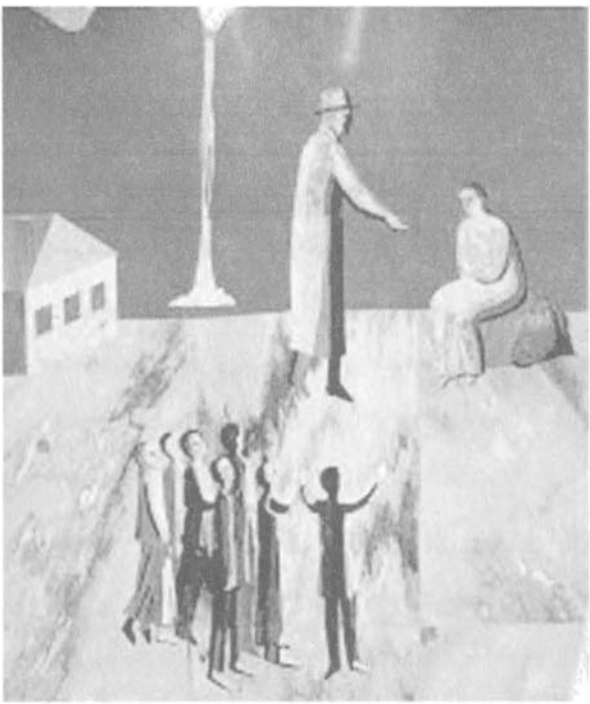
المخلص الأبدي الثابت على العهد
ف. دوستويفسكي

تحياتي للجميع.

ملاحظة: جاءني الآن عامل التجليد. من أين لهم أن يعلموا بأنني وصلت؟ وهو يمارس العمل رغم مرضه. وقلت له إنني سأبلغه عندما أحتاج إليه. ثم دخل عليَّ أحد الراغبين في الاشتراك، واشترك. فكم

كان عدد الذين جاؤوا لهذا الغرض عبثاً في غيابي؟ وقبل فترة طرق الباب بإصرار فتى أرسله أحد التجار مع نقود ليشتري له نسخة من «مذلون مهانون» أيقظني من النوم، ولم ألب طلبه.

اكتبي لي بالتفصيل عن الأولاد. واصبري عليهم. أقبّل قدميك، وباقي جسدك، أي كل موضع فيه. أنا أفكر في ذلك كثيراً.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

187. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 15 - 16 يوليو 1877

15 يوليو 77

صديقتي العزيزة آنيا. غداً، الـ 16 من يوليو، أنوي مغادرة بطرسبورغ بالقطار السريع مساءً. منذ الـ 8 من يوليو حيث استلمت رسالتك المؤرخة في 6 يوليو من كييف، لم أستلم ولا سطراً واحداً غيرها. فماذا حصل لكم؟ لا أستطيع أن أفهم ماذا حدث. هل ضاعت الرسالة في البريد؟ (إذا كان الأمر كذلك) فلم لم تضع ولا رسالة واحدة منك لا إلى الكناس ولا إلى كوليا ولا ماريا نيكولايفنا طول الصيف. كيف لا أفكر ولا أرتاب؟ من ثلاثة أيام أسير كالمصعوق. أنام في الليل لا أكثر من 4 ساعات تعج بالكوابيس. سفرتي كانت عجيبة، حالما وصلت تراكمت عليَّ المشاغل، والإخفاقات، ونوبة الصرع الآن. وفي هذه الحالة المرضية كان ينبغي إصدار عدد المجلة. وحالما صفا ذهني بعض الشيء انهال عليَّ عذاب التفكير فيكم، فيك وفي الأولاد. لم أعد أتحمل، وغداً سأركب القطار إليكم. سأنتظر حتى الثانية بعد الظهر. فإن لم تصل

منك رسالة فسأبعث برقية مع توصيل، فيما لو قبلوا مني برقية يتم توصيلها إليكم (. . .) في «مالي بريكول». (وإذا لم أستلم منك برقية جوابية أتوجه إليكم مباشرة عبر موسكو). فماذا عساي أن أفعل، يا آنيا؟ الأمر صعب عليَّ الآن. هذا اليوم بدأ خفقان القلب منذ المساء ولم يهدأ. وأنا أفكر وأطيل التفكير، واللّه وحده يعرف ماذا يدور في خاطري. يخيل إليَّ طول الوقت أن فيديا أو ليليا سقطا على القضبان تحت العربة وأنت في أسوأ حال.

وهكذا ربما تصلك هذه الرسالة معي، في وقت وصولي، ولذا لن أكتب لك عن تفاصيل إصدار عدد المجلة وما إلى ذلك، لا سيما وأننا سنلتقي قريباً، ونتحرك على أية حال.

قبيل المساء هذا اليوم عرجت على ماريا نيكولايفنا لأسلمها أعداد «اليوميات». وقالت لي إنك كتبت لها عن نيتك في السفر إلى خاركوف بالإضافة إلى كييف. ففكرتُ في أنك يمكن أن تكوني قد سافرت إلى خاركوف فعلاً، لا سيما وانك، على ما أتذكر، كنت راغبة في زيارتها. وهكذا كنت مشغولة في السفر مع الأولاد، فتعبت، وتعبوا هم أيضاً، ولم ترغبي في الكتابة إليَّ من خاركوف. ثم عدت إلى بريكول في وقت متأخر (. . .) ولذا لم تصلني الرسالة الموعودة منك يوم السبت، وينبغي أن تصل الاثنين أو الثلاثاء. ولكنها كان يجب أن تصل حتى بهذا التأخير. سأنتظر ليوم غد، كما سأبقى في موسكو أنتظر برقيتك، وأقتني كل ما هو ضروري، أي سأبقى حتى يوم الاثنين (. . .) وأشتري 8 قنان من مياه «يسينتوكي» كما نصحني ميخائيل سنيتكين. وإذا استلمت برقيتك في موسكو أعرج ليوم واحد على داروفويه (لأشاهد أماكن طفولتي)

وإذا كنتِ في خاركوف فليس في ذلك أي خير، لأنك تصرفت، كعادتك، خفية عني. نعم، يا آنيا، لقد كنتِ طوال عشر سنوات من حياتنا لا تثقين بي. ولا أدري هل أنا المذنب في ذلك؟ لا أعتقد. فالريبة كامنة في طباعك. أما بخصوص السفرة إلى خاركوف فأنت تعرفين أنني لن أعترض. كل ما تفعلينه جيد. وأنا من زمان أثق لحد كبير بفطنتك وحساباتك. لكنك أنت لا تثقين بي. ولو كنت تثقين لكتبت لي من خاركوف من دون انتظار العودة إلى بريكول. ولما تعذبتُ أنا كل هذا العذاب. لا أدري لماذا، ولكني أرغب جداً في تصديق رواية ماريا نيكولايفنا بشأن سفرك إلى خاركوف. وإلا فلا محيص عن افتراض وقوع مصيبة، افتراض وفاة أحد الأطفال. (. . .)

(. . .) غداً، الـ 16 من الشهر، عيد ميلاد فيديا. قبِّليه وباركيه، هو وليليا وليوشا. أنا أهنئهم جميعاً، وأهنئك بخاصة. يا ملاكي العزيز آنيا، أركع أمامك مستعطفاً وأقبِّل قدميك. أنا زوجك المتيم بك، وأنت (رفيقة حياتي). منذ عشر سنين وأنا مغرم بك أكثر فأكثر. ورغم أنني تشاجرت معك أحياناً، إلا أنني أحبك حتى الموت. والآن أفكر طول الوقت كيف سألقاك وأعانقك. فهل تفكرين أنت فيّ ولو قليلاً؟ إلى اللقاء القريب. لن أذهب إلى كنيسة الثالوث لو استلمت برقية منك. فأنا أريد أن أراكم بأسرع ما يمكن. أما داروفويه فبودّي أن أذهب إليها، فيما لو استلمت برقيتك، ليوم وليلة لا أكثر. وإلا أخشى أن لا أستطيع أن أرى هذه الأماكن بعد الآن. أعانقكم جميعاً مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

السبت، 16 يوليو، الساعة الثانية بعد الظهر.

انتظرت الرسالة حتى الثانية بعد الظهر. رسالتك من كييف وصلتني تلك المرة في الظهر. ولم أستلم هذه المرة شيئاً. وها أنا عرضة للشكوك، فقررت أن لا أسافر اليوم.، بل غداً، لسبب واحد هو أن إرسال البرقية الآن قد تأخر في اعتقادي. لأنها يمكن أن تصلك في منتصف الليل، فتوقظك من النوم، فتزعلين مني. والأفضل أن أرسلها غداً. (. . .) إذا تحركتُ غداً أصل إلى موسكو الاثنين ويتسع الوقت لأزور سالايف وأشتري قناني يسينتوكي، بل ولربما ألتقي أكساكوف. وإذا لم أستلم البرقية أتحرك صباح الثلاثاء إذا لم أتمكن من السفر مساء الاثنين. الأمر يتوقف على القطار. وأكون عندكم الأربعاء. وإذا استلمت البرقية وعرفت أنكم بخير، أتوجه إلى داروفويه. عزيزتي، اليوم هو الثامن وأنا لم أستلم منك خبراً. وهو العاشر منذ أن كتبت لي من كييف. تلك مدة طويلة جداً، ولا أستطيع أن أنفض الهواجس. ففي هذه الفترة كان يمكن أن تصلني رسالتان، وليس رسالة واحدة[1]. إلى اللقاء، يا ملاكي، في أمان اللّه وحفظه. سأتعذب اليوم من جديد. عسى ولعل الرسالة ستصل في ما تبقى من النهار أو غداً. أقبّلك وأقبّل الأولاد، أقبّلك بكل حرارة. وأهنئ فيديا.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) كانت عائلة دوستويفسكي بخير. إحدى رسائل زوجته ضاعت، فيما تأخر وصول الأخرى.

188. إلى دميتري أفيركييف

بطرسبورغ، 5 نوفمبر 1877

الفاضل دميتري فاسيليفتش المحترم[1]

عندما قرأت رسالتك رغبت بكل ارتياح في تلبية طلبك بخصوص الكتابة عن الملهاة. فما قلتَه عنها، وأعني موضوع «عفة» الأثرياء حديثي العهد بالنعمة و«مستواهم الثقافي الرفيع» والحسد الذي يتآكل المحامين وما إلى ذلك، بدا لي أمراً في منتهى الحيوية، لأن ظهوره على خشبة المسرح الآن ضروري للغاية.

ولم أرد عليك لحد الآن لسبب وحيد هو أنني أردت أن أجيب بعد النتيجة، أي بعد أن أذهب إلى هناك وأستشف المسرحية. إلا أنني لازمت الفراش مصاباً بالحمى، ولم يُسمح لي بمغادرة المنزل، وأتناول الكنين وغيره. ولكنني أعتقد أن الإقامة الجبرية ستنتهي قريباً وسأذهب إلى سالتيكوف شيدرين (بخصوصك)، لا سيما وأنني ملزم أصلاً بأن أرد على زيارته لي. علماً بأنني لا أعرف جميع العاملين في هيئة تحرير «مذكرات الوطن». أنا أعرف فقط نكراسوف وشيدرين وبليشييف، أما الباقون فمعرفتي بهم تقتصر على المجاملة ونادراً ما

ألتقيهم. وبسبب مرضه يساهم نكراسوف قليلاً جداً في إدارة شؤون المجلة. وبليشييف ليست له أية مشاركة، ما يعني أن سالتيكوف يتولى كل مهام التحرير. وهو، في اعتقادي، الشخص الوحيد الذي يصدر المجلة، ويتمتع بصداقة نكراسوف وثقته اللامحدودة، وأعتقد أنه من المساهمين في رأس المال. والقرار بيده. على فكرة، أقول لك صراحة إن ثمة مسألة واحدة لا غير، بالإضافة إلى مزايا الكوميديا، ألا وهي «إلى أي مدى يعتبر اسمك رجعياً حتى ليرفضوا نشر مسرحيتك؟» هذا هو رأيهم حتى لو جاءهم موليير، ويمكن أن يرفضوه إذا ارتابوا في توجهاته. وهكذا كشفت لك السر. بالطبع أنا لا أستطيع أن أبت في المسألة، لكنني سأتكلم مع شيدرين في أقرب فرصة، وأعرض عليه مسرحيتك بالنيابة عنك بحيث لا تتضرر سُمعتك. وسأكتب لك عن النتيجة.

فتقبَّل مني، أنت وعقيلتك، فائق الاحترام والتقدير. وأشد على يدك.

ف. دوستويفسكي

---

(1) مؤلف مسرحي يميني.

189. إلى دميتري أفيركييف

بطرسبورغ، 18 نوفمبر 1877

الفاضل دميتري فاسيليفيتش المحترم

قبل ثلاثة أيام التقيتُ نكراسوف وسالتيكوف وتحدثتُ معهما عن (مسرحيتك). نكراسوف يلازم السرير وكأنه جثة هامدة. ونادراً ما يهمس بكلمة. سيموت قريباً. إلا أنه يدير شؤون «مذكرات الوطن». وقد وجدته مع سالتيكوف في اجتماع مخصص لإصدار العدد الجديد. وخلال الكلام معهما سألتهما، كأنما من دون قصد، عن رأيهما فيك ككاتب. فقال نكراسوف صراحة، ومنذ الكلمة الأولى: «أي رأي في شخص يجأر ويتكلم من سنين ضدنا وضد الاتجاه الذي نخدمه في كل ما يكتبه؟» قال ذلك بحدة وحزم. ولما أيده سالتيكوف رأساً في قوله هذا رأيت أن لا أتطرق إطلاقاً لا إلى مسرحيتك ولا إلى الاقتراح الذي بقي مجهولاً بالنسبة لهما.

وأظن أني لم أشوه سمعتك. فأنت ترى أن الحكم الذي طرحاه لا يمتّ بصلة إلى الأدب، وإنما يخص التوجهات.

وأنا، إذ أبلغك بذلك، أنصحك أن لا تبتعد عن «البشير

الروسي»، لكنني أعرف أن الرأي في ذلك رأيك والإرادة إرادتك، وأنك ستتصرف، بالطبع، كما يحلو لك.

وفي الختام تقبّل مني فائق الاحترام والتقدير، لك ولعقيلتك الكريمة. أشد على يدك بحرارة.

ف. دوستويفسكي



190. إلى نيكولاي أوزميدوف

بطرسبورغ، فبراير 1878

السيد الطبيب الكريم نيكولاي لوكيتش[1]

أولاً، أرجو المعذرة على تأخري المستهجن في الرد على رسالتكم، نظراً لتدهور صحتي ومختلف المشاغل. وثانياً- كيف لي أن أجيبكم؟ وأي رد يمكنني أن أقدمه على السؤال المصيري الأبدي الذي تطرحونه (عن خلود الروح)؟ وهل تتسع سطور الرسالة لقضية كهذه؟ لو كنا قد تحدثنا أنا وإياكم بضع ساعات لاختلف الأمر. وحتى في هذه الحال يمكن أن لا نصل إلى نتيجة، فمن الصعب على غير المؤمنين أن يقتنعوا بالكلمات والمحاجات. أليس الأفضل لكم أن تقرأوا بمزيد من الانتباه كل رسائل بولص الرسول (الأربع عشرة)؟. ففيها كلام كثير جداً عن الإيمان لا أحد يستطيع أن يقول أفضل منه. وحبذا لو قرأتم الإنجيل كله مترجماً (إلى الروسية). فهذا الكتاب يترك على العموم انطباعاً مدهشاً. وستخرجون من دون شك بالفكرة التالية على سبيل المثال: إن البشرية لا تعرف ولا يمكن أن تعرف كتاباً آخر كهذا الكتاب، بصرف النظر عما إذا كنتم من المؤمنين أم لا.

لا موجب هنا للتلميح. وأكتفي بقول كلمة لا غير: كل كائن عضوي على وجه البسيطة موجود لكي يعيش لا لكي يبيد نفسه وينقرض.

هذا ما حدده العلم. وقد استنبط قوانين دقيقة لإثبات هذه المسلَّمة. البشرية، بمجملها، إنما هي كائن (حي). ولهذا الكائن بلا ريب قوانينه المعيشية. العقل البشري يبحث عنها ويجدها. فتصوروا الآن عدم وجود الإله وعدم خلود الروح. الخالق وخلود الروح يمثلان وحدة (متداخلة)، ويشكلان فكرة واحدة. فما حاجتي إلى حياة النعيم وعمل المعروف إذا كنت سأموت على هذه الأرض وأقضي نهائياً؟ من دون الخلود لا يبقى لي إلا أن أستنفد عمري، وليكن من بعدي الطوفان. إذا كان الأمر كذلك فما الذي يمنعني من أن أطعن شخصاً أو أسلبه وأنهبه إذا كنت واثقاً بشطارتي وفطنتي وقدرتي على التملص من القانون؟ ما الذي يمنعني من أن أعيش وأعتاش مباشرة على حساب الغير، إنْ لم أقتله؟ فأنا سأموت وتموت معي كل الموجودات. وبالتالي فإن الكائن البشري هو الوحيد الذي لا تشمله تلك المسلَّمة العامة ويعيش ليبيد نفسه وليس ليبقى ويسلم بجلده. فما قيمة المجتمع إذا كان أفراده أعداءً بعضهم لبعض؟ تلك حماقة مرعبة. أضف إلى ذلك (دور) الأنا الشخصية التي أدركت كل هذه الأمور. فإذا كانت الأنا قد أدركت كل الأمور، بمعنى أنها أدركت الأرض وما عليها من مسلَّمات، فذلك يعني أن أناي أعلى من كل تلك المسلَّمات، أو أنها، في أقل تقدير، لا تنحصر فيها وحدها، وكأنما تقف عن كثب، فوق كل تلك الأمور، وتدركها وتحكم عليها. وفي تلك الحالة لا تخضع هذه الأنا لمسلَّمة المعمورة، لقانون الأرض، بل تتجاوزهما، ويكون لها قانون أعلى منهما. فأين هذا

القانون يا ترى؟ إنه ليس على الأرض التي انتهى كل شيء فيها ومات من دون بعث أو نشور[2]. أليس في ذلك تلميح إلى خلود الروح؟ ولو لم يكن الخلود وارداً على العموم فهل كنتم، يا نيكولاي لوكيتش، ستشغلون بالكم به وتحررون الرسائل بحثاً عنه؟ ما يعني أنكم لا تستطيعون أن تسيطروا على أناكم. فهي تضيق بنظام الأرض وتبحث عن شيء آخر، غيره، لتنتمي إليه. على أية حال، لن نصل إلى نتيجة مهما كتبنا عن ذلك. أشد على يدكم بحرارة، وأودعكم. لا تقللوا من اهتمامكم، ابحثوا، فلعلكم تجدون المبتغى.

متمنياً لكم كل خير

خادمكم ف. دوستويفسكي

---

(1) مزارع من المعجبين بدوستويفسكي وليف تولستوي.

(2) أبدى دوستويفسكي اهتماماً كبيراً بهذه المسائل طوال حياته، وجسّدها بخاصة في الكتاب الثاني من «الأخوة كارامازوف».

191. إلى فلاديمير ميخائيلوف

بطرسبورغ، 16 مارس 1878

السيد فلاديمير فاسيليفيتش المحترم(1)

كنتُ قد استلمت رسالتك الرقيقة الذكية الرائعة في الـ 19 من نوفمبر العام الماضي، ونحن اليوم في 16 مارس 1878. الآن فقط نويت أن أرد عليها، فهل ستسكت على ذلك؟ صحيح أنني وجهت إليك بضع كلمات في عدد ديسمبر من «يوميات الكاتب» الذي صدر في يناير، إلا أن ذلك لا يخفف من المسألة ولا يبرر تقصيري. وأورد هنا سببين على الأقل. حالة المرض والارتباك الشديد حتى العدد الأخير من «اليوميات» جعلتني آنذاك لا أرد على أحد ما لم أصدر العدد. وبعد ذلك ولحد اليوم تقريباً تدهورت صحتي أكثر. تواترت نوبات الصرع وما يرافقها من سوء المزاج. هذا هو السبب الأول. أرجو أن تصدقه. والسبب الثاني هو نفوري الشديد البغيض من كتابة الرسائل. أنا نفسي أحب استلام الرسائل لكنني لا أطيق كتابتها وأعتبر تحبيرها عملاً لا جدوى منه، فأنا لا أجيد التعبير عن أفكاري في رسالة. أكتب رسالة ما أحياناً فيأتيني رأي أو اعتراض على آراء

كأنما كتبتها في تلك الرسالة لكنني لا أتصور مطلقاً أنني يمكن أن أفكر فيها. وإذا دخلتُ الجحيم فسيكون حسابي عسيراً على خطاياي في كتابة ما لا يقل عن عشر رسائل يومياً. هذا هو السبب الثاني، وأرجو أن تصدقه أيضاً.

رسالتك تركت في نفسي انطباعاً طيباً للغاية وبعثت شعوراً بالمودة تجاهك. أنا أستلم الكثير جداً من الرسائل الودية، إلا أن المراسلين من أمثالك قليلون. ولدي شعور بأنك شخص قريب لي، واللقاء مع القريب يبعث الفرح ويقوي الأمل في زماننا، حيث العمر يمر وتزداد الرغبة في الحياة والعمل. ما يعني أن في روسيا العريقة أناساً يشكلون قوّتها الحقيقية، وهم الذين سينقذونها (إذا دارت عليها الدوائر)، ولا يبقى أمامهم سوى أن يوحدوا الكلمة. ومن أجل توحيد الكلمة أرد عليك وأشد على يدك بحرارة من صميم القلب.

قرأت رسالتك عدة مرات، وقرأتها، لا مؤاخذة، على آخرين، وسأقرأها على غيرهم. لأنني أريد أن أنقل هنا وجهة نظرك، وأضخ أنفاسك الروسية الحقيقية في قلوب البعض عندنا. بالمناسبة، قرأت رسالتك على أبولون نيكولايفيتش مايكوف، وهو شاعر، فأبدى إعجاباً كبيراً بها، حتى أنه أخذها مني مؤقتاً. وأنا متفق مع هذا الإنسان في الكثير من أفكاره.

أنا لن أكتب عن التفاصيل الواردة في رسالتك (. . .) ومما أثار اهتمامي فيها أنك تحب الأطفال كثيراً. عشت معهم طويلاً، وتتواجد الآن أيضاً بينهم. ولذا عندي رجاء إليك، يا فلاديمير فاسيليفيتش. فقد فكرت في كتابة رواية مطولة[2]، سأبدأها قريباً، ومن شخوصها أطفال عديدون في سن مبكرة، من السابعة حتى الخامسة عشرة على وجه التقريب. أنا أدرس الأطفال، دأبت على ذلك طول عمري.

وأحبهم حباً جماً. ولدي أطفال أيضاً. إلا أن متابعات إنسان مثلك ذات قيمة بالغة بالنسبة لي. وأنا أفهم قيمتها. فاكتبْ لي، إذن، ما تعرفه عن الأطفال. عن أطفال بطرسبورغ الذين ينادونك «عمو»، وعن أطفال يليزافيتوغراد، كل ما تعرفه عنهم: الأحداث والعادات والأجوبة والكلمات والتعابير والخصال والأحوال العائلية والإيمان والشرور والعفة والطباع والمعلمين والموقف من اللغة اللاتينية وما إلى ذلك. وسيكون هذا عوناً كبيراً من جانبك لي. وسأكون شاكراً جداً لك، وسأنتظر على أحر من الجمر. سأبقى في بطرسبورغ ربما حتى الـ 15 من مايو، ثم سأكون على الأغلب في ستارايا روسا مع أولادي. عنواني يبقى من دون تغيير حتى ذلك الحين.

أرفق طياً صورة فوتوغرافية لي. وأعتذر منك مجدداً (على التأخير). إنني أحبك، رغم قلة اللياقة التي بدرت مني تجاهك.

والآن إلى اللقاء، وتقبَّل موفور إخلاصي القلبي وفائق احترامي وتقديري.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) أحد المربّين المتعاونين مع الصليب الأحمر في رعاية الأطفال المشردين.

(2) «الأخوة كارامازوف».

192. إلى نيكولاي بيترسون

بطرسبورغ، 24 مارس 1878

السيد الكريم نيكولاي بافلوفيتش[1]

بخصوص الكتب لمكتبة (مدينة) كيرينسك أوعزت بإرسالها من زمان، ولعلكم استلمتموها الآن بالطبع. أما بخصوص المخطوطة في رسالة ديسمبر غير الموقعة فلم أرد بشيء في «اليوميات»، ذلك لأنني أردت أن أبحث عن عنوانك في سجل المشتركين، لأتراسل معك شخصياً، إلا أنني كنت أرجئ المسألة يوماً بعد يوم بسبب الانشغال والمرض. وأخيراً وصلت رسالتك المؤرخة في 3 مارس، فوضعت النقاط على الحروف. ولم أجب على الفور، لأنني مرضت من جديد. ولذا أرجو مسامحتي على التأخير.

في المقام الأول أسألك: مَن هذا المفكر الذي كتبت لي عنه؟[2] أعطني اسمه الثلاثي إن أمكن. فقد أثار اهتمامي كثيراً. أو على الأقل أخبِرني شيئاً مفصلاً عن شخصه إن أمكن.

ثم أقول لك إنني موافق على هذه الآراء تماماً. وتصورتها آرائي عندما قرأتها. وقد تلوتها هذا اليوم، مهملة الاسم، على فلاديمير

سرغييفيتش سولوفيوف، فيلسوفنا الشاب الذي يلقي محاضرات عن الدين يحضرها جمهور يكاد يبلغ الألف. انتظرته خصيصاً لأقرأ عليه آراء المفكر التي لخصتها في رسالتك، لأنني وجدت الكثير من التشابه مع آرائه. وأمضينا ساعتين من الوقت الرائع. وهو يشاطر مفكركم بعمق، ويريد أن يطرح الآراء نفسها تقريباً في المحاضرة التالية، وقد بقيتْ أمامه 4 محاضرات من 12. ثم إليك السؤال المحدد الأكيد الذي أردت أن أطرحه عليك في ديسمبر الفائت:

أهم ما في ملخص آراء المفكر، من دون ريب، هو وجوب البعث والنشور أو القيامة، ذلك الوجوب الذي لو تحقق لآل بالأمور إلى وقف التناسل ومجيء من وصفه الإنجيل وسفر الرؤيا «بالأول والآخر الذي كان ميتاً فعاش». إلا أن الملخص في رسالتك لا يشير إلى نوعية فهمك لقيامة الأموات والشكل الذي تتصورها فيه وهل تؤمن بها؟ بمعنى هل تفهمها ذهنياً، مجازياً، كما يفهمها (إرنست) رينان (في كتابه «حياة يسوع»)، على سبيل المثال، باعتبارها الوعي الإنساني الذي يتجلى في نهاية حياة البشرية لدرجة يغدو فيها واضحاً منتهى الوضوح في أذهان بشر المستقبل، وما مدى تأثير هذا السلف، مثلاً، على البشرية وكيف فعل فعله فيها وبأية وسيلة، وما إلى ذلك، وإلى أي مدى سيتجلى دور أي شخص متوفى واضحاً بحيث يستشف الناس أعماله من خلال العلم أو قوة القياس والمقارنة، وبحيث ندرك نحن بالطبع مدى تأثير الأموات علينا، وقد تجسد كل واحد منهم فينا وتقمص كياننا، وبالتالي كيان أولئك البشر النهائيين المتطورين العارفين بكل شيء والذين ستنتهي بهم البشرية؟

ثم إن مفكركم يتصور مباشرة وبالمعنى الحرفي للكلمة، مثلما يلمح الدين، أن البعث سيكون فعلياً، شخصياً، وأن الهوة التي

تفصلنا عن أرواح أجدادنا ستردم، وستقهر تلك الأرواح الموت المندحر، وتقوم ليس في وعينا فقط، ليس بصورة مجازية، بل فعلياً، شخصياً في الواقع، في الأبدان. بالطبع ليس في أبدان البشر الحاليين، لأن حلول الخلود وتوقف الزواج والإنسال بحد ذاته يدل على أن الأبدان في البعث الأول المقرر على الأرض ستكون غير الأبدان الحالية، بمعنى أنها ستكون مثل بدن المسيح أثناء صعوده (. . .).

الجواب على هذه المسألة ضروري، وإلا فلن نفهم شيئاً. وألفت هنا إلى أننا، أنا وسولوفيوف على الأقل، نؤمن بالبعث الفعلي، الشخصي بكل معنى الكلمة، وبأنه سيتحقق على الأرض.

بلّغني إذا أردت، وإذا كنت تستطيع، يا نيكولاي بافلوفيتش، ما رأي مفكركم بهذا الخصوص، وبالتفصيل إن أمكن.

أما بشأن المهمات والدور الذي ينبغي أن تؤديه المدرسة الشعبية فأنا بالطبع متفق معك تماماً.

عنواني باق على حاله (. . .) لحين 15 مايو، وبعده أيضاً، لأن الرسائل ستحول إليّ.

مع فائق الاحترام والتقدير.

ف. دوستويفسكي

---

(1) باحث من ثوريي الستينات.

(2) الفيلسوف الطوباوي الروسي نيكولاي فيودوروفيتش فيودوروف (1828-1903).

193. إلى سيدة مجهولة

بطرسبورغ، 27 مارس 1878

السيدة الفاضلة

الآن فقط، أي بمرور شهر، أجيب على رسالتك المؤرخة في 20 فبراير، وذلك بسبب الانشغال والمرض، ولذا أرجوك كل الرجاء أن لا تزعلي.

أنت تطرحين أسئلة يقتضي الجواب عنها كتابة دراسات بدلاً من الرسائل. ثم إن الأسئلة لا تحل إلا من خلال الحياة بمجملها. حتى لو كتبت لك عشر صفحات قد تبقى نقطة غير مفهومة، إلا أن بالإمكان توضيحها حالاً في الحوار وجهاً لوجه، وتبقين غير متفهمة لرأيي ولا توافقينني عليه، فترفضين الصفحات العشر برمّتها. فهل يجوز تناول هذه المواضيع من قبل أناس غير متعارفين من خلال المراسلات؟ أعتقد أن ذلك متعذر تماماً، بل هو يضر بالقضية.

لقد استنتجتُ من رسالتك أنك أم طيبة حنون مشغولة البال بطفلك الذي يترعرع. إلا أنني لا أفهم ما حاجتك إلى حل الأسئلة التي بعثتِها إليّ. أنت تطرحين الكثير بشيء من الألم والقلق. بينما يمكن معالجة

الأمور بشكل أبسط. ما الموجب لطرح سؤال كهذا: «ما هو الخير وما لا خير فيه؟» مثل هذه الأسئلة إنما هي أسئلة بالنسبة لك فقط، كما بالنسبة لأي إنسان من الباطن، ولكن ما علاقتها بتربية إبنك؟ كل القادرين على إدراك الحقيقة يتحسسون من خلال ضميرهم ما هو الخير وما لا خير فيه. فكوني أماً طيبة وليفهم ابنك من تلقاء ذاته، ومن دون تلقين، أنك أم طيبة وليتذكر أنك كنت أماً طيبة، وبذلك، صدقيني، تؤدين واجبك تجاهه مدى العمر، لأنك ستعلمينه مباشرة على أن الطيبة خير. وسيظل مدى حياته يتذكر محياك باحترام فائق، ولربما بإعجاب كبير. ولو أنك اقترفت الكثير من المساوئ، أو على الأقل الحماقات الأليمة بل والمضحكة، فإنه سيسامحك عليها من دون ريب في ذكرياته آجلاً أم عاجلاً جزاء الطيبة التي يتذكرها عنك. واعلمي أنك لن تستطيعي أن تفعلي له أكثر من ذلك. وهذا بحد ذاته كثير. إن تذكر الطيبة عند الوالدين، تذكر الخير والحقانية والنزاهة والمشاطرة والمواساة وغياب الخجل الزائف وانعدام الكذب قدر الإمكان، كل ذلك يجعل من الابن إنساناً آخر عاجلاً أم آجلاً، كوني على ثقة بذلك. ولا تظني، على أية حال، أن ذلك قليل. فالأغصان الصغيرة تتبرعم على الشجرة الكبيرة، والثمار تتغير.

ابنك في الثامنة من العمر. عرِّفيه على الإنجيل، علّميه الإيمان باللّه وفقاً لقانونه. هذا شرط لا بد منه. وإلا فلن يكون إنساناً طيباً، وفي أحسن الأحوال يغدو تعيساً متألماً، وفي أسوأها يتحول إلى مخلوق لاأبالي مترهل، بل وأردأ من ذلك. ولن تجدي سبيلاً أفضل من درب المسيح، صدقيني.

تصوري أن ابنك عندما يبلغ الـ 15 أو الـ 16 من العمر يأتيك، من شلة أصحاب السوء في المدرسة مثلاً، ويطرح عليك أو على أبيه

السؤال التالي: «ما الذي يجعلني أحبك؟ وما فائدتي من اعتبار ذلك واجباً عليّ؟» صدقيني، لن تسعفك آنذاك أية معارف أو تساؤلات، ولن يكون لديك ما تردّين به على سؤاله. ولذا ينبغي أن تعملي على أن لا يطرح مثل هذا السؤال أبداً. ولن يكون ذلك بالإمكان إلا إذا أحبك مباشرة بحيث لا يخطر في باله سؤال كهذا. وإذا خطر على أية حال بفعل تقبل مختلف العقائد والمفارقات في المدرسة فمن السهل التفريق بين الحقائق والمفارقات، ولا يبقى عليك إلا أن تبتسمي، رداً على سؤال الصبي، وتواصلي عمل المعروف لأجله.

ثم إن الإفراط الموجع في الوصاية على الأطفال يمكن أن يحطم أعصابهم ويجعلهم يملّون ويضجرون من الآباء، رغم المحبة المتبادلة. ولذا ينبغي الإحساس الدقيق بالحدود وعدم المغالاة. ويخيل إليَّ أن إحساسك بها ضعيف. تقولين في رسالتك إنك لو لم تعيشي من أجل زوجك وابنك لكانت حياتك الشخصية مفعمة بالإنانية. وإنك لا تملكين الحق في حياة كهذه ما دام هناك من يحتاج إلى مساعدتك. هذه فكرة عجيبة غريبة لا موجب لها. فمن يمنعك من العيش لأجل الآخرين وأنت زوجة وأم؟ بالعكس، فلأنك تعيشين أيضاً من أجل الغير، المحيطين بك، وتمنحينهم طيبة قلبك، تتحولين إلى قدوة نيرة بالنسبة لابنك، وتصبحين أعز مرتين بالنسبة لزوجك. ولكنْ طالما خطر في بالك مثل هذا السؤال فذلك يعني أنك تعتقدين بلزوم الالتصاق والتعلق بالزوج والابن ناسية الدنيا كلها، أي بإفراط ومن دون شعور بالحدود. والحقيقة أنك بذلك تجعلين الطفل يمل منك حتى وإن أحبك. ثم لاحظي أنك قد تتصورين مجال فعلك ضيقاً، فترغبين في توسيعه حتى يكاد يغدو عالمياً. ولكن هل يحق لكل فرد أن يبدي مثل هذه الرغبة؟ صدقيني أن بالإمكان تحقيق القدوة الحسنة حتى

في المجال الضيق من الأعمال، وذلك أمر نافع للغاية لأنه يؤثر في عشرات ومئات الناس. الرغبة الثابتة في تجنب الكذب وفي العيش السليم إنما تخجل الطائشين من المحيطين بك دوماً، وتؤثر فيهم إيجاباً. وفي ذلك مأثرة. هنا أيضاً يمكن فعل الكثير. فلا يجدر بالمرأة أن تسافر إلى بطرسبورغ وتتسكع في معهد الطب أو الدورات النسائية بحثاً عن أجوبة عن الأسئلة التي تخطر في بالها. أنا أرى هؤلاء النسوة هنا كل يوم. فيا لها من حماقة، واللّه العظيم. (. . .)

أنا في الحقيقة لا أدري كيف أجيب عن الأسئلة التي طرحتِها. ذلك لأنني لا أفهمها. بالطبع تقع مسؤولية مساوئ الطفل في الوقت ذاته على سوء ميوله الطبيعية طالما يولد الإنسان معها بالفطرة من دون ريب، كما تقع على المربين الذين عجزوا أو تهاونوا في التحكم بالميول الطبيعية السيئة في الوقت المناسب ليوجهوها الوجهة الصحيحة الخيرة بالقدوة الحسنة. وثانياً، تؤثر في الطفل الصغير، كما في الإنسان الراشد في معظم الحالات، البيئة الاجتماعية التي يتواجد فيها، ويؤثر فيه أشخاص معينون لحد التحكم الكامل في تصرفاته. وليس في ذلك أي غموض. والأمر هنا يتوقف على الظروف والملابسات، فيما يتعيَّن عليك أن تسيطري على تلك الملابسات لأنك أمٌّ هذا من واجبها، ولكن ليس بالآلام وحدّة المشاعر والحب الثقيل، بل بالقدوة النموذجية الحسنة. أما مسألة العمل فلا أريد الكلام عنها. اغرسي المشاعر الطيبة في نفس الطفل وسيحب العمل. ولكنْ كفاية. كتبت الكثير حتى تعبت، لكن ما قلته قليل، ولذا لن تفهميني بالطبع.

مع فائق الاحترام والتقدير.

خادمك فيودور دوستويفسكي

كان بوسع بطرس الأكبر أن يقيم في قصره العامر في موسكو، فيعيش حياة دسمة مستقرة، وعائداته من خزينة الدولة تبلغ مليوناً وخمسمئة ألف. إلا أنه كان يمارس العمل طول حياته ويدهَش للعاطلين.



194. إلى إدموند آبو

بطرسبورغ، 2 أبريل 1878

سيدي الرئيس[1]

دعوتكم لحضور المؤتمر الأدبي العالمي الذي يقيمه إخوتنا أدباء باريس شرف عظيم لي. والهدف الذي تطرحونه قريب من مصالح الأدب لدرجة لا يسعني فيها إلا أن ألبي دعوتكم الكريمة[2]. وإلى ذلك يجتذبني شخصياً إلى هذه الاحتفالية الأدبية كونها تفتتح برئاسة فيكتور هيغو، الشاعر الذي تركت عبقريته أثراً عميقاً في نفسي منذ الطفولة.

ومع ذلك ينبغي لي أن آخذ بالاعتبار أن حالتي الصحية يمكن أن تخلق لي مشاكل. فيجب عليَّ أن أتلقى وجبة علاج بالمياه المعدنية ولا أعرف حتى الآن ما سيقرره أطبائي بخصوص المكان والزمان.

وسأبذل قصارى جهدي للتوفيق بين هذه الضرورة ورغبتي الشديدة بالمشاركة في المؤتمر. وبما أنني لا أمتلك حرية التصرف الكامل فعليَّ أن أحيطكم بذلك لكي تقرروا ما إذا كان من اللازم إرسال بطاقة مندوب المؤتمر في ظل هذا المجهول.

وتفضلوا، أيها السيد الرئيس، بقبول فائق الاحترام والتقدير لشخصكم الكريم.

فيودور دوستويفسكي

---

(1) إدموند آبو كاتب فرنسي (1828–1885). رسالة دوستويفسكي في الأصل بالفرنسية. والنسخة الأصلية مفقودة.

(2) دوستويفسكي لم يحضر المؤتمر لوفاة ابنه أليوشا. تورغينيف ألقى كلمة في إحدى جلسات الافتتاح 30 مايو 1878، كما حضر المؤتمر عن روسيا بوبريكين وكوفاليفسكي وغيرهما.



195. إلى فيودور راديتسكي

بطرسبورغ، 16 أبريل 1878

عزيزنا جميعاً، نحن الروس، وصديقنا القديم الذي لا ينسى الجنرال فيودور فيودوروفيتش.

ربما أنت لا تتذكرني كرفيق قديم في ثانوية الهندسة الرئيسية، كنتَ أنت في الصف الثاني عندما التحقت أنا بالثانوية، بعد أداء امتحانات الصف الثالث. لكنني أتذكرك وكأنما لم يمر على ذلك خمسة وثلاثون عاماً بالتمام والكمال. وعندما بدأت مآثرك في العام الماضي، والتي أذاعت اسمك أخيراً في عموم روسيا، كنا نحن، رفاقك القدامى، وبعضهم من أمثالي تركوا الخدمة العسكرية من زمان، نتابع من هنا نشاطاتك العزيزة على قلوبنا، والتي تمسنا شخصياً، ليس فقط لأننا روس. وعندما التقيت مرة هذا الشتاء ألكسندر إيفانوفيتش[1] المحترم وتطرق الحديث إلى الحرب تذكرناك بإعجاب كبير وتذكّرنا انتصاراتك. وأصر ألكسندر إيفانوفيتش عليَّ أن أكتب إليك حتماً عندما أخبرته أنني أنوي مراسلتك. وفجأة اتضح أنك، أنت الإنسان الروسي العزيز علينا جميعاً، تتذكرنا أيضاً. ونحن

شاكرون لك على ذلك جزيل الشكر. نحن هنا نرتجف من الهلع بخصوص مآل الحرب، نرتجف أمام «الغربويين» الذين بيننا. كل الآمال معقودة على القيصر وعلى الرجال من أمثالك. وفقك اللّه وجزاك خيراً. ومن ناحيتي أزف إليك تحية روسية حارة مع أعمق الاحترام والتقدير. حالياً نحن في عيد الفصح المنير. المسيح قام، حقاً قام. ولتعد الروح إلى القبيلة السلافية العظيمة، المكدودة المرهقة، ولتقم مرفوعة الرأس بفضل الرجال الصناديد من أمثالك الذين يخدمون القضية الروسية العظيمة المشتركة.

ومعها فليسلك «الغربويون» الروس طريق المسيح الجديد الأرثوذكسي الوضاء. ولا جدال أن أفضل جزء من روسيا يقف إلى جانبكم الآن، هناك في (الحرب) وراء البلقان. وعندما يعود إلى الديار مكللاً بالأمجاد سيحمل معه من المشرق نوراً جديداً. الكثيرون هنا يؤمنون بذلك الآن وينتظرونه.

تقبَّل مني، يا فيودور فيودوروفيتش الموقر، هذه التحية مع فائق الاحترام والتقدير تعبيراً قلبياً صادقاً عن المشاعر من رفيق قديم ومن روسي ممتن هو

خادمك المطيع

ف. دوستويفسكي

---

(1) سافيليف، أستاذ دوستويفسكي في ثانوية الهندسة.

197. إلى نيكولاي دوستويفسكي

بطرسبورغ، 16 مايو 1878 الثلاثاء

عزيزي وأخي الكريم نيكولاي ميخائيلوفيتش. اليوم توفي (ابني) أليوشا بنوبة مفاجئة من الصرع لم تكن قد أصابته من قبل. بالأمس كان مرحاً مستبشراً، يتراكض ويغني، واليوم مسجى على الطاولة. بدأ الصرع في التاسعة والنصف صباحاً، وفي الثانية والنصف بعد الظهر قضى أليوشا الحبيب نحبه. سنواريه الثرى في مقبرة أوختينسكويه الكبرى يوم الخميس الـ 18 من الشهر. إلى اللقاء يا كوليا، ترحم على أليوشا، فأنت كثيراً ما رعيته. هل تتذكر كيف كنت تمثل أمامه شخصية فانكا السكلان (السكران)؟ ما أشد حزننا. الجميع يبكون[1].

أخوك ف. دوستويفسكي

ملاحظة: هل تعرف عنوان (ابن أخينا) فيودور ميخائيلوفيتش. لا بد من تبليغه.

---

(1) معاناة دوستويفسكي المفجوع بابنه أليوشا انعكست في «الأخوة كارامازوف».

198. إلى بافل عيسايف

بطرسبورغ، 16 مايو 1878 الثلاثاء

عزيزي بافل ألكساندروفيتش

اليوم توفي أليوشا بنوبة صرع مفاجئة لم تكن قد حصلت له من قبل. صباح هذا اليوم كان مرحاً بشوشاً، وقد نام جيداً. وفي التاسعة والنصف ضربه الصرع، وفي الثانية والنصف بعد الظهر قضى أليوشا نحبه. سنواريه الثرى في مقبرة أوختينسكويه الكبرى يوم الخميس الـ 18 من مايو. ترحم على ابني أليوشا، يا بافل. الصحة والعافية لابنتيك والتحية لزوجتك.

المخلص دوماً ف. دوستويفسكي

199. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 20 - 21 يونيو 1878 مساء الثلاثاء

مرحباً عزيزتي آنيا. كيف حالك؟ صحتك هي الأهم. وهل فيديا وليليا بصحة جيدة؟ باللّه عليك، راقبيهما. ها أنا أكتب إليك الأهم، دون أن أخوض في التفاصيل التي سأتطرق إليها عندما نلتقي. في الطريق تعبت كثيراً، ولا أزال متعباً حتى الآن، وإلى ذلك انتابني سعال شديد في عربة القطار لا أتذكر له مثيلاً. الريح تهبّ من كل الشقوق. وصلنا إلى موسكو في الثانية عشرة ليلاً. أخذت عربة إلى «فيكتوريا» على ستراسنوي بولفار. وسألت الحوذي: «هل الفندق جيد؟» فقال: «كلا، يا سيدي، إنه سيئ». دهشت لهذا الجواب القطعي النادر. «وما السبب»؟ - «ليس هناك ضيف يحترم نفسه وينزل فيه»- «كيف؟» - «المظهر الخارجي جيد فقط، ولا أحد ينزل فيه، إلا الذين لا يعلمون. غرفه كحجرات الحمامات. وحالما يحل الظلام يأتي القوادون ببنات الهوى من ستراسنوي بولفار لساعة من الزمن، فيمارسن ما يمارسن. الجميع يعرفون ذلك، والفضائح كثيرة». وسألته: أي فندق أفضل؟ فامتدح كثيراً فندق «أوروبا» مقابل مسرح

مالي تياتر، ليس بعيداً عن ستراسنوي بولفار. فتوجهت إلى «أوروبا». وبالفعل نزلاؤه من العوائل المحترمة على ما يبدو. أفردوا لي غرفة بروبلين وخمسين كوبيكاً، باهظة الثمن بعض الشيء وعلى الطابق الثالث. تصورت أن من الصعب عليَّ أن أصعد إلى الطابق الرابع، فاستأجرت هذه الغرفة. لم أنم الليل كله بسبب السعال المتقطع الخانق. ونهضت في العاشرة صباحاً. وكان السعال قد انتهى، إلا أنه سيعود في المساء.

في الساعة الواحدة ظهراً مضيت إلى كاتكوف، فوجدته في هيئة التحرير. وهو يقيم في المنزل الصيفي، ويتردد على المجلة بين الحين والآخر. استقبلني بترحاب، وبشيء من الحذر. أخذنا نتحدث عن الأمور المشتركة، وهبَّت فجأة زوبعة شديدة. وفكرت أنه سيرفض لو تحدثت عن أموري، في حين أن العاصفة لن تهدأ قريباً، وسأضطر إلى البقاء هناك مذلاً مهاناً إلى أن يتوقف المطر المدرار. لكنني مضطر إلى الكلام في موضوع (البدء بنشر «الأخوة كارامازوف»). فأعربت عنه ببساطة وصراحة. تفتحت أسارير الرجل منذ الكلمات الأولى عن رغبتي هذه، ولكن ما إنْ تكلمت عن الـ 300 روبل للملزمة وعن مبلغ الدفع مقدماً حتى تشنج وجهه. وقال: «الحقيقة أننا اجتمعنا الأسبوع الماضي لنقرر ما إذا كنا سنواصل إصدار «البشير الروسي» أم نتوقف في العام القادم. لأنني، ولأسباب صحية، لا أستطيع متابعة الطبعتين: «الوقائع الموسكوبية» و«البشير». ولذا اسمح لي أن أفكر في الرد عليك، لأن ذلك يتطلب المضي في إصدار المجلة والإنفاق الكبير عليها». وحينما علم بأنني سأبقى في موسكو لثلاثة أو أربعة أيام فقط وعدني بالجواب غداً، الأربعاء 21 من الشهر وطلب مني أن آتي إليه في هيئة التحرير لهذا الغرض في الساعة الثانية بعد الظهر.

والآن، في العاشرة من مساء الثلاثاء 20 من الشهر، أظن أنه سيرفض غداً من دون شك. وإذا لم يرفض فسيركز على تقليص مبلغ الـ 300 روبل كثيراً. سأبعث إليك هذه الرسالة (. . .) بعد أن التقي كاتكوف، وسأضيف إليها ملاحظة تفهمين منها كل شيء.

هطل المطر مدراراً لوقت قصير. وبين هطوله في المرة الأولى والثانية تمكنت أن أذهب إلى شقيقتي فيرا، وانتظرت عندها تحسن الجو قرابة خمس ساعات. ثم عدت إلى الفندق. تناولت طعاماً وتوجهت في الساعة السابعة إلى (فسيفولود) سولوفيوف في منطقة متنزه نيسكوتشني. أجرة الحوذي روبلان ذهاباً وإياباً. وجدت سولوفيوف على غير حاله، عابساً متجهماً متهالكاً (. . .) وقررنا أن نسافر معاً يوم الجمعة إلى (الدير) في «خلوة النسّاك أوبتينا» بمحافظة كالوغا على الحدود مع محافظة تولا. غداً سيأتيني سولوفيوف إلى الفندق في الخامسة بعد الظهر.

سأعرّج غداً على موزعي الكتب وعلى يلينا بافلوفنا. وداعاً يا آنيا، أعانقك. غداً أكتب التذييل أو الملاحظة التي تقرر الكثير في مصيرنا. أنا متعب جداً. قبّلي الصغيرين وقولي لهما هذه القبلات من بابا. (. . .)

الأربعاء، 21 يونيو، الحادية عشرة صباحاً

تذييل:

بعث لي كاتكوف الآن رسولاً من هيئة التحرير يحمل اعتذاراً بأنه لا يستطيع اليوم أن يرد عليّ، لأن الملابسات حتمت عليه أن يمضي فوراً إلى الضيعة في الريف، ولذا طلب مني المجيء إليه غداً الخميس لأحصل على الجواب منه في هيئة التحرير. بمعنى أنه سيعود غداً من القرية. وأنا لا أرى في ذلك خيراً. أبداً.

إلى اللقاء يا حمامتي. غداً سأكتب لك عن النتيجة، وأبعثها إليك مساءً. أما الآن فأبعث هذه الرسالة. وسأمر اليوم على موزعي الكتب. أقبّل الصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: هذه الليلة أيضاً نمت أربع ساعات فقط. أعصابي محطمة. ومعدتي أيضاً.



200. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 22 يونيو 1878 الخميس

عزيزتي آنيا. أكتب لك على عجل، المشاغل الكثيرة والتراكض وما إلى ذلك اختلطت عليّ، ولا وقت لي. استلمت منك رسالة الآن، واسمحي لي أن ألومك على قصرها. كان بوسعك أن تكتبي بشيء من التفصيل ولو قليل. قبّلي لوبا، وكذلك بالطبع فيديا. كنت عند كاتكوف اليوم، ولا أدري ماذا أكتب لك. ينبغي أن أعيد عليك الكلام، لكنه طويل جداً، لا تكفي الرسالة لتحتويه. باختصار، هو مسرور ولا مانع لديه من الدفع المقدم والـ 300 روبل (للملزمة) وما إلى ذلك. لكن القرار لم يتخذ بعد، هل ستنشر روايتي في «البشير الروسي»، بل وهل ستستمر المجلة نفسها بالصدور؟ القرار سيتخذ في أكتوبر، وقد وعدتُ بالمجيء إلى موسكو آنذاك.[1] وسيقدم كاتكوف النقود، بل إنه عرض عليَّ مقدماً 2000 روبل الآن، و2000 في أكتوبر أو في أواخر سبتمبر. ولم أرفض العرض. عموماً سأحدثك بكل شيء وجهاً لوجه عندما نلتقي. (. . .)

زرت أكساكوف والتقيت بوتسيكوفيتش. كل شيء ممتع،

وسأحدثك عندما نلتقي. صباح الغد سأتوجه مع سولوفيوف إلى خلوة النساك في أوبتينا. وفي يوم الثلاثاء أكون في موسكو أغلب الظن. (. . .)

خلاصة القول: علاقاتي مع كاتكوف على أفضل ما يكون، في أي زمان.

وقد طلب أن أنقل تحياته إليك بخاصة. تجاذبنا اليوم أطراف الحديث أكثر من ساعتين. بالمناسبة لديه رجاء إليك. في المدرسة العالية تلاميذ من يتامى الطبقة الفقيرة يتمتعون بمنحة لومونوسوف الدراسية. والمدرسة توفر لهم التعليم العالي مجاناً. أحدهم، واسمه ألكساندروف، يعاني من تدرن العقد اللمفية ومن ألم في الساق وما إلى ذلك. الصبي في الخامسة عشرة من العمر. وقد أوصى الأطباء بفصله من المدرسة، فيما تعهد كاتكوف لطيبة قلبه أن يرسله على حسابه الخاص إلى ستارايا روسا (غداً) من دون أن يفصل. إلا أنه لا يعرف إلى من وكيف يرسله. ولذا سيُرسَل كتاب رسمي من المدرسة العالية، وليس من كاتكوف، إلى (الطبيب) روخيل يحيل التلميذ ألكساندروف إلى عهدته ليسهل استضافته ويعالجه ويبعث فاتورة التكاليف. إلا أن كاتكوف يرجوني وإياك خصيصاً أن نشارك في رعاية الصبي، بمعنى أن ندعو روخيل، في اعتقادي، أو أن تذهبي أنت إليه لتبلغيه بلزوم تربية الصبي وتنبهيه كي يأخذ كتاب المدرسة في الاعتبار، فليس من مصلحته أن يغيظ كاتكوف. وما دام الكتاب لا يقتصر على طلب علاج ألكساندروف، بل يؤكد على تأمين إقامته وتغذيته فعليك أن تستفسري من روخيل عن الإيعازات التي سيصدرها لإيواء الصبي ورعايته. وأضاف كاتكوف: هل توجد إمكانية لاستئجار شقة للصبي عند أحد القساوسة ليتولى مهمة مراقبته وما إلى ذلك أثناء

تلقّي العلاج؟ والمهم أن التلميذ ليس أرستقراطياً، بل من الفئة الشعبية الأكثر فقراً. وقال كاتكوف: حبذا لو قدم روخيل فاتورة متواضعة، فلا أحد عند الصبي يدفع بدلاً منه، ما عدا كاتكوف نفسه. وعندما أصل إليكم سأتكلم مع السيد روخيل بهذا الخصوص(2).

هذا كل شيء، يا آنيا. سأعود إلى موسكو يوم الثلاثاء أو الأربعاء، فلدي مختلف الأشغال. أعصابي متوترة. أتوق للعودة إلى ستارايا روسا. وسأحدثك بكل ما تبقى. والآن وداعاً. أقبّلك. أنا أراك في المنام. قبّلي الطفلين، ولتكوني مسرورة.

صليت أمام إيقونة إيفيريا(3).

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

أعانق الصغيرين، وأقبّل يديك وقدميك مع أنك لا تستحقين تلك القبل لقصر رسائلك!

---

(1) جلب دوستويفسكي الكتابين الأول والثاني من «الأخوة كارامازوف» إلى موسكو في 7 نوفمبر 1878.

(2) تعالج ألكساندروف في ستارايا روسا وتعرَّف على دوستويفسكي وكتب فيما بعد مذكرات عن عمل الكاتب في تأليف «الأخوة كارامازوف».

(3) نسخة طبق الأصل من أيقونة «عذراءِ البوابة» في دير إيفيرون في جبل آثوس، جلبت إلى موسكو عام 1648 وظلت محفوظة في كنيسة بوابة الكرملين التي اندثرت فيما بعد.

201. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 29 يونيو 1878 مساء الخميس

حمامتي العزيزة آنيا. عدت تواً من (دير) خلوة النساك في أوبتينا. سافرت إلى هناك مع فسيفولود سولوفيوف الجمعة المصادف 23 من يونيو. الشيء الوحيد الذي كنا نعرفه هو السفر بقطار موسكو - كورسك حتى محطة سيرغييفو، الواقعة على بُعد خمس محطات بَعد (مدينة) تولا، قرابة 300 كيلومتر من موسكو. وهناك قيل لنا إن المسافة من سيرغييفو إلى أوبتينا 35 كيلومتراً، وفي الطريق قيل لنا إن المسافة 60 وليس 35. والمشكلة لا أحد يعرف الموقع على وجه التحديد، فبقي الأمر مجهولاً بالنسبة لنا منذ البداية. وعندما وصلنا إلى سيرغييفو علمنا أن الطريق 120 كيلومتراً وليس 60. ليس بطريق عربات البريد، بل إن نصف الطريق ريفي طويل، بمعنى لزوم ركوب عربة بثلاثة جياد مع توقف لإطعام الخيول. وعزمنا على ذلك وأمضينا في الطريق يومين. كنا نبيت الليل في القرى وتهز المركبة الفظيعة أحشاءنا. وبقينا يومين آخرين في خلوة أوبتينا. ثم توجهنا في طريق العودة على تلك الخيول نفسها وقضينا يومين آخرين، وبلغ المجموع سبعة أيام بلياليها. ولذا لم أكتب لك فترة طويلة (. . .) وسأحدثك

بالتفصيل عندما أعود.[1] حينما رجعت إلى موسكو نزلت في فندق «أوروبا» نفسه ومضيت في الحال إلى يلينا بافلوفنا لأستلم رسائلك. ولم أجدها هي طبعاً. والرسائل حسب الاتفاق عند البواب. هكذا استلمت رسائلك الثلاث وأنا شاكر لك عليها، وأقبّلك. ليس ثمة ما يبعث السرور ما دامت النقود ليست في الجيب حتى الآن. الأمور هناك، عند كاتكوف، غير واضحة تماماً. فهو لربما غيّر رأيه خلال الأسبوع المنصرم. غداً سأذهب إليه. حينما أستلم النقود أترك مبلغاً منها عندي، وأطلب من فيرا أن تخيطه في باطن القميص على الصدر، والباقي أحوله إليك بالبريد. إلا أنني، حسب تقديري، لن أتمكن من إنهاء كل الأشغال قريباً، ولذا سأرتحل إلى ستارايا روسا على الأرجح في الثامنة والنصف من صباح الأحد، وأصل إليكم الاثنين المصادف 3 يوليو، الساعة الواحدة بعد الظهر. وإذا لم أستلم النقود آتي إليكم قبل ذلك. عموماً، يا عزيزتي، هناك الكثير من الأمور غير المفهومة بالنسبة لك، أقصد غير المعروفة. إلا أنني أترك كل التفاصيل لحين مجيئي. أقبّلك مع الصغيرين. ربما ستستلمين هذه الرسالة يوم الأحد، مع أنني ذاهب الآن، في مساء الخميس، لأضعها في صندوق البريد. أقبّلكم جميعاً من جديد وبحرارة، تحياتي إلى آنّا نيكولايفنا. وأقبّلك مرة أخرى، وخصوصاً يديك وكل الباقيات.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

أشعر بإنهاك شديد. لم تحصل نوبات صرع، لكنني أخشى أن تحصل، فقد حان وقتها.

---

(1) ألّف دوستويفسكي الكتاب الأول من «الأخوة كارامازوف» بتأثير مباشر من انطباعات الرحلة إلى خلوة النساك.

202. إلى سرغي يوريف

ستارايا روسا، 11 يوليو 1878

السيد الكريم سرغي أندريفيتش

استلمت رسالتك من ثلاثة أيام. كنت تعرفت عليك وأخذت أحترمك منذ أن صدرت «الحديث» التي تتولى تحريرها. ومنذ ذلك الحين سمعت من البعض أنك أنت أيضاً تعرب عن مودتك لي. وسيكون من دواعي سروري أن أتعرف عليك شخصياً. كتبت في رسالتك تقول إنني احتفظت برأيي عنك «على الرغم من أننا لم نلتق من زمان». فهل كنا قد التقينا وتعارفنا في زمن ما؟ أنت لا تصدق بمدى تأثير هذا النوع من التذكير بالأحداث عليّ أحياناً. المشكلة أنني منذ ربع قرن أصبت بمرض الصرع المكتسب في سيبيريا. وقد انتزع هذا المرض مني شيئاً فشيئاً ذاكرة الأشخاص والأحداث لدرجة جعلتني أنسى بالمعنى الحرفي للكلمة كل حبكات وتفاصيل رواياتي، وطالما أنني لم أعد قراءة بعضها من زمن صدورها فقد بقيتْ مجهولة تماماً بالنسبة لي. ولذا لا تزعل لأنني نسيت الملابسات والأوقات التي كنا نلتقي فيها ونعرف بعضنا بعضاً. هذا كثيراً ما يحدث لي مع

أشخاص آخرين. فتكرم عليَّ بتذكيري، إذا توفرت الفرصة، بزمان وظروف تعارفنا سابقاً. أما بخصوص روايتي فإليك الحقيقة كاملة رداً على دعوتك المشكورة:[1]

شرعت في تأليف الرواية وأواصل كتابتها، ولكن العمل لا يزال في بدايته. والحال معي هكذا دوماً. أبدأ بكتابة رواية مطولة، أحجام رواياتي تتراوح بين 40 و45 ملزمة، في منتصف الصيف، وأصل بها إلى النصف تقريباً مع بداية العام الجديد حيث يظهر الجزء الأول منها في هذه المجلة أو تلك اعتباراً من شهر يناير. ثم أنشر الرواية في تلك المجلة طول العام على فترات حتى شهر ديسمبر. وكل مرة أختتم الرواية في السنة التي يبدأ فيها نشرها. ولم يحصل ولا مرة واحدة ترحيل الرواية إلى عام آخر من أجل طباعتها.

عندما نشرت روايتي «المراهق» في مجلة نكراسوف («المعاصر»)، نزولاً عند طلبه، بعد تعاون طويل الأمد مع مجلة «البشير الروسي» التي كان (صاحبها) ميخائيل كاتكوف ينتظر أن أنشر «المراهق» أيضاً في مجلته، أبلغته بأنني أعتبر نفسي، رغم ذلك، من منتسبي مجلة «البشير» على الأكثر. وهذا ما جعلني أتفاهم معه فيما يخص روايتي الحالية، حتى أنني استلمت مقدماً من هيئة تحرير «البشير» 2000 روبل، مثلما كنت أفعل دائماً بخصوص الاتفاق على الدفع مقدماً. ورغم ذلك لم نبتّ نهائياً في شأن نشر روايتي لأسباب يصعب شرح تفاصيلها في رسالة، وهي في الحقيقة تتوقف على ملابسات جانبية لا علاقة لها بالجوهر الأدبي للرواية، لكنها يمكن أن لا تتوضح إلا في نهاية سبتمبر من العام الحالي، 1878.

وبالتالي لا يمكنني أن أعطيك جواباً دقيقاً على اقتراحك بنشر

الرواية في «الفكر الروسي» إلا في شهر أكتوبر إذا كنت ستتواجد في موسكو آنذاك. حينئذٍ يتضح أين سأنشر روايتي.

وفيما يخص مجلة «الفكر الروسي» ذاتها فإن نبأ البدء بصدورها أثلج صدري وأثار في نفسي شعوراً من الاستحسان والمشاطرة الفائقة، لكوني أتذكر مجلتك «الحديث» (1871-1872)، وسيشرفني أن أخدمها مستقبلاً على قدر المستطاع[2].

إذا أردت أن تبلغني بشيء فأنا باق هنا، في ستارايا روسا، حتى الـ 25 من أغسطس.

/ ف. دوستويفسكي /

(1) لنشر رواية «الأخوة كارامازوف» في مجلة «الفكر الروسي».
(2) استمرت هذه المجلة بالصدور من 1880 حتى 1892.

203. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 9 نوفمبر 1878

حماتي العزيزة آنيا. يوم أمس، وبعد أن بعثت إليك الرسالة، مضيت إلى موزع الكتب إ. سولوفيوف، فوجدته في البيت. وكان قد هيأ فاتورة الحساب والنقود. قال لي شيئاً لم أفهمه عن الفاتورة، فطلبت منه أن يكتب إليك أفضل، وسلمني 109 روبلات و90 كوبيكاً. علما بأن حصة «الجريمة والعقاب» وحدها من المبلغ 87 روبلاً. أما بخصوص «الشياطين» فلا تزال لديه حوالى مئتي نسخة وبودّه لو أعاد لنا مئة نسخة. كما أن لديه 300 نسخة من «منزل الأموات» مما آل إليه (بعد إفلاس متجر) بازونوف. وسألني هل هنأت كاتكوف (بعيد شفيعه الملاك ميكائيل)، فأجبت كلا (. . .) ومضيت إلى هناك. (كان في منزل كاتكوف عدد كبير من أقربائه المتقدمين في السن، وليس بينهم سوى سيدتين). ثم توجهت إلى لوبيموف في حوالى الخامسة. ولم أجده في البيت. (فتحدثت إلى زوجته)، ثم جاء هو، وقد احتفى بي كثيراً. وتحدثنا عن «الأخوة كارامازوف». كاتكوف رغب في قراءة الرواية بنفسه ولم يسلم المخطوطة إلى

لوبيموف رغم إلحاح الأخير، بل احتفظ بها لنفسه. وقد عرض كاتكوف على لوبيموف خطة الرواية وكل ما أبلغته به عنها باختصار أثناء لقائي معه، ما يعني أنه مهتم بها كثيراً. ووعدني لوبيموف بتنظيم تلاوة علنية بناءً على طلبي. وقال: «سألح عليه». ثم دعاني بإصرار لتناول طعام الغداء «مما مَنَّ اللّه به على عباده» (ويقصد الموجود، من دون تحضير مسبق) فوافقت. ولا أدري هل يتناولون الطعام على هذا النحو دوماً، أم أنه كانت لديهم وليمة قبل ذلك. تناولتِ الطعام معي سيدتان من الضيوف وكذلك البروفيسور أرخيبوف. على المائدة متبلات ونبيذ و5 أطباق بينها حفش طازج مطهي على الطريقة الموسكوبية. إذا كانوا يقتاتون على هذا النحو يومياً، فذلك يعني أنهم في نعيم. كان الجو منعشاً ومنتعشاً حول المائدة. وأكد لوبيموف أن كاتكوف لم يدعُ أحداً خصيصاً على الغداء.(. . .). تلك هي أخباري لحد الآن. غداً ربما أكتب إليك مرة أخرى. الآن الساعة الثانية ولا رسالة منك (. . .) يوم غد أنوي زيارة مسرح «مالي تياتر» (العرض الأول لمسرحية ألكسندر أوستروفسكي «عروس بلا مهر»).

أنا قلق عليكم. كيف حالك أنت يا عزيزتي، وكيف حال الصغيرين؟ يا ليتني أستلم منك رسالة بأسرع ما يمكن. لا أدري هل سأتوجه إليكم يوم السبت؟ كلا، على الأكثر. ولا أعتقد أنهم سيؤخرونني إلى ما بعد الأحد. أعانقكم وأقبِّلكم جميعاً. وأنت بخاصة، والصغيرين بخاصة. رأيتك في المنام من جديد. إلى اللقاء، يا ملاكي.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

204. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 10 نوفمبر 1878

عزيزتي الغالية آنيا، استلمت رسالتك الرقيقة في السادسة من مساء أمس، فأفرحتني كثيراً وهدأت من روعي. الحمد للّه على سلامتكم.

قبّلي الصغيرين واشكري ليليا على رسالتها وفيديا على اجتهاده (. . .) وقتي ضيق جداً. بالأمس جاءني لوبيموف في الساعة السادسة ليرد الزيارة ويتجاذب أطراف الحديث. قال إن مسألة النقود محلولة. وإن كاتكوف سلمه مخطوطة (الكتابين الأول والثاني من «الأخوة كارامازوف») دون أن يتسع له الوقت لإكمال قراءتها. فيما قرأ لوبيموف نفسه ثلث المخطوطة ويرى أن كل ما فيها مبتكر تماماً. إلا أن المزعج أن تسليم النقود يتوقف أساساً على أمين الصندوق عندهم، شيرمان، الذين يتصرف شخصياً بكل الأمور حتى أن إيعازات كاتكوف بشأن الصرف تتوقف عليه بالكامل. فإذا قال: «الصندوق خال» لن يتمكن أحد من الاعتراض. على أية حال سيدفعون لي ألفاً، ولكنني لا أريدهم أن يؤخروني لكي أسافر السبت، إن لم يكن غداً،

أو الأحد في أبعد تقدير. وإلى ذلك توعكت صحة كاتكوف، كما يقول لوبيموف. الآن الساعة الواحدة بعد الظهر. وسأذهب إليه لأعرف قراره النهائي (. . .) كنت ذهبت إلى فيرا، فوجدت جميع الأهل عندها، وجلست معهم حتى منتصف الليل. فيرا في منتهى الطيبة واللطف. لم تكن تعرف بنبأ وفاة (ابننا) أليوشا. تلك هي كل أشغالي. بالأمس أقدمت على حماقة، اقتنيت تذكرة للمسرح حيث يقدم العرض الأول لمسرحية أوستروفسكي («عروس بلا مهر»). إذن، يا ملاكي الحبيب، ربما سأغادر يوم الأحد رغم رغبتي في السفر غداً، السبت. أقبِّلك بحرارة، لا تكتبي رسائل أكثر. كما أقبِّل ليليا وفيديا. أعانق الجميع، وأرغب في رؤيتك بأسرع ما يمكن إضافة إلى كل الأسباب الأخرى. على أية حال أشعر هنا بضجر شديد. قبلاتي من جديد. كيف حالكم؟ هل أنت في صحة جيدة، يا ملاكي؟

المخلص الأبدي ف. دوستويفسكي

204 (أ). إلى نيكولاي دوستويفسكي

بطرسبورغ، 17 ديسمبر 1878

أخي العزيز، أبعث إليك الـ 7 روبلات (الشهرية المعتادة)، ويؤسفني جداً أنك مريض طول الوقت. أنا أيضاً. في حين يتكاثر عليّ القلق والعمل من جديد. أقبِّلك. أتمنى لك الشفاء. تعال إلينا. إلى اللقاء.

أخوك ف. دوستويفسكي

204 (ب). إلى نيكولاي دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 يناير 1879

أهنئك بالعام الجديد وأرسل ما أستطيع إرساله. فأنا في ضائقة شديدة. إلى اللقاء، أتمنى لك الصحة والعافية. أنا نفسي أسعل كاليهودي (المسلول).

طياً 7 روبلات.

المخلص ف. دوستويفسكي

205. إلى فيكتور غايفسكي

بطرسبورغ، 10 مارس 1879

السيد فيكتور بافلوفيتش المحترم

أنا مستعد ببالغ الارتياح لتلاوة يوم الجمعة إذا كنتم بحاجة إليّ. ولذا أبلغكم. ولكن ماذا عليَّ أن أقرأ (في الأمسية)؟ لم أقرر بعد، لم يتسع الوقت لذلك. على فكرة إذا كان جمهوركم جديداً فهذا يعني أن أشخاصاً آخرين سيقتنون التذاكر، فلمَ والحال هذه لا نكرر ما تلوته في التاسع من مارس؟ أم أن من الضروري تقديم المادة إلى الرقابة مسبقاً إذا قرأت شيئاً آخر؟ وإذا لم تكن هناك ضرورة لعرض مادة التلاوة على الرقيب، ولا بد من تقديم التسمية الدقيقة لتلك المادة لأجل النشر فيمكن أن أكتب أقصوصة أو أقدم مقتطفاً من رواية أو أي شيء من هذا القبيل من دون تحديد دقيق لحين من الوقت. عموماً القرار لكم. وسأحاول اختيار شيء مما هو منشور. أما إذا كان بالإمكان تكرار فصل «القصة السرية» الذي سبق أن قرأته (من «الأخوة كارامازوف» في 9 مارس) فسيكون الأمر أهون.

وتقبَّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع ف. دوستويفسكي

206. إلى فيكتور بوتسيكوفيتش

بطرسبورغ، 12 مارس 1879

السيد فيكتور فيوفيلوفيتش المحترم

استلمت رسالتك أمس. معنوياتك متردية، فلا تسمح للملابسات أن تفرض نفسها عليك. صدقني: كل شيء سيهون، ويكون على ما يرام.

ما تكتبه عن ميخائيل نيكيفروفيتش (كاتكوف) غير معقول. ولا بد أن يكون السبب سوء تفاهم. فلو أنه غيّر رأيه ولم يرغب في قبول طلباتك ومقترحاتك لأبلغك بذلك دون أن يتملص. ولذا يصعب التكهن بشيء حتى استيضاح الأمر (بشأن استئناف إصدار «المواطن»).

«الأخوة كارامازوف» تحظى بإعجاب الجميع، في القصر ولدى الجمهور وفي أمسيات التلاوة، بحسب كتابات «الصوت» و«النداء» وغيرهما. إلى اللقاء، فأنا مستعجل جداً، ومشغول جداً. حاول أن تستشف جواب كاتكوف. الآن يمكنك بالطبع أن تعود قريباً. وإذا استلمت نقوداً من (موزع كتبي) بتروف وكنت بحاجة إليها، من أجل العودة، فيمكنك أن تستخدمها. أنا أقدمها لك كقرض وقتي.

المخلص ف. دوستويفسكي

207. إلى الأمير قسطنطين رومانوف

بطرسبورغ، 15 مارس 1879

صاحب السمو الإمبراطوري

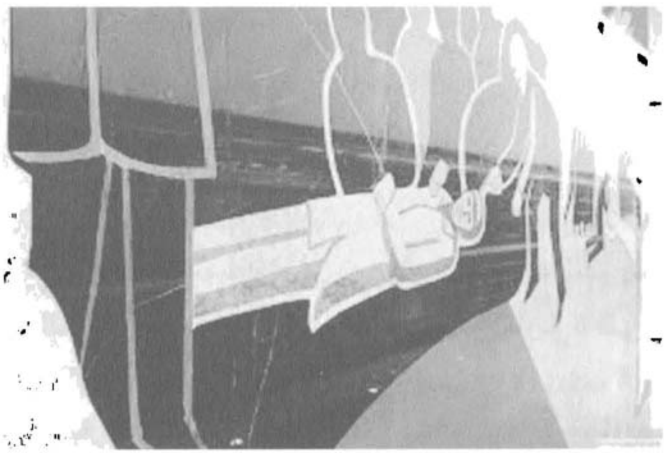
أنا في منتهى التعاسة لعجزي عن تلبية رغبة سموّكم والتشرف بدعوتكم الكريمة للحضور غداً الجمعة الـ 16 من مارس. ففي الساعة الثامنة مساءً، ولسوء الصدف، عليَّ أن أقدم تلاوة لمنفعة الصندوق الأدبي.

وقد اقتنى الجمهور التذاكر حتى قبل الإعلان عن الأمسية في الجرائد. وإذا لم أحضر للتلاوة المعلنة في برنامج مؤسسي الصندوق فإنهم سيضطرون، بسبب امتناعي عن الحضور، إلى إعادة أثمان التذاكر لمقتنيها.

وأكرر هنا يا صاحب السمو أنني أشعر بالتعاسة البالغة. وكنت أتذكر طول الوقت وبمنتهى السرور الدعوة التي وجّهتموها لي، في ضيافة صاحب السمو الإمبراطوري سرغي ألكساندروفيتش، للمجيء إليكم. وها هي الصدفة المؤسفة تباغتني بهذه المفاجأة الأليمة.

فسامحوني ولا تلوموني. وتقبّلوا مني فائق مشاعر المودة، وسأبقى إلى الأبد الخادم المطيع المخلص لسموّكم الإمبراطوري

فيودور دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

208. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 10 مايو 1879

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أرسلت اليوم على عنوانك في هيئة تحرير «البشير الروسي» ملزمتين ونصفاً في أقل تقدير من نص «الأخوة كارامازوف» لعدد مايو المنتظر من المجلة.

هذا النص يمثل الكتاب الخامس المعنون «مع وضد»، إلا أنه ليس الكتاب بكامله، بل نصفه فقط. النصف الثاني سأوافيكم به في حينه لأجل عدد يونيو، ويتكون من ثلاث ملازم طباعية. كنت مضطراً إلى تقسيم الكتاب الخامس من روايتي إلى كتابين لأنني حتى وإنْ كرست له كل طاقاتي فلن أتمه قبل نهاية مايو، لكوني تأخرت كثيراً بسبب التهيئة للانتقال إلى ستارايا روسا وبسبب الانتقال نفسه، وذلك يعني أنني ما كنت سأستلم البروفة لتصحيحها، وهو الأهم بالنسبة لي. هذا أولاً، وثانياً- الكتاب الخامس في اعتقادي يمثل ذروة الرواية، ولذا لا بد من إنهائه على أفضل ما يكون من حيث دقة السرد. فكرته،

كما سترى من النص الذي بعثته إليكم مؤخراً، هي تصوير الكفر والتجديف المفرط بحق الخالق وبذور التهديم الفوضوي المعاصر في روسيا لدى الشباب المنقطعين عن الواقع، إلى جانب التفنيد الذي أعده حالياً على لسان شيخ الدين المحتضر زوسيما، وهو أحد شخوص الرواية، في آخر كلماته قبيل الموت[1]. ولما كانت صعوبة المهمة التي أخذتها على عاتقي لا جدال فيها فإنك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، ستفهم بالطبع وتسامحني لأنني آثرت الإطالة وتقسيم السرد إلى كتابين كيلا أفسد فصل الذروة بالتسرع. عموماً سيكون هذا الفصل مفعماً بالحركة. وفي النص نفسه الذي بعثته إليكم أنا أصور فقط طباع أحد أهم شخوص الرواية وهو يعبّر عن معتقداته الإساسية التي تتلخص ليس في إنكار الخالق، بل في رفض مغزى ما خلق. وأنا أعتبر تلك المعتقدات تركيبة مختلطة للفوضوية الروسية المعاصرة. فالاشتراكية كلها انبثقت وانطلقت من إنكار مغزى الواقع التاريخي، حتى وصلت إلى منهاج الفوضوية الهدامة. وكان كبار الفوضويين، في حالات عديدة، من ذوي المعتقدات الصادقة. بطلي، على ما أظن، يتناول موضوعاً لا جدال فيه، وهو لاجدوى آلام الأطفال، ويستنتج من تلك اللاجدوى لامعقولية الواقع التاريخي بمجمله.

ولا أدري هل جاء أدائي جيداً أم لا. لكنني أعرف أن شخصية بطلي واقعية إلى أبعد الحدود.

في «الشياطين» كثير من الشخوص الذين تعرضتُ للملامة بسببهم على اعتبار أنهم من نسج الخيال. وهل تصدق أن الواقع فيما بعد دلل على وجودهم، بمعنى أنني كنت مصيباً في تشخيصهم. (فالحقوقي)

قسطنطين بوبيدونوستسيف، مثلاً، أبلغني عن حالتين أو ثلاث من حالات اعتقال فوضويين يشبهون لحد مدهش الشخوص الذين صورتهم في «الشياطين». كل ما يقوله بطل روايتي في النص الذي بعثته إليكم قائم على الواقع. النكات المتعلقة بالأطفال حصلت، وهي منشورة في الصحف، وأستطيع تحديدها، فأنا لم أبتدع شيئاً. الجنرال الذي أطلق الكلاب على الطفل حادث وقع بالفعل، ونشرته هذا الشتاء «الأرشيف»، على ما أتذكر، وتناقلته صحف عديدة أخرى. تجديف بطل الرواية على المقام الإلهي سيلقى تفنيداً علنياً في عدد يونيو المرتقب. وأنا أعمل عليه الآن بخوف وتوجس وإجلال، معتبراً مهمتي هذه، في تقويض الفوضوية، مأثرة وطنية. فتمنَّ لي النجاح، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر.

أنتظر البروفة بفارغ الصبر، على العنوان التالي: ستارايا روسا، ليد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

في النص الأخير، على ما أظن، لا توجد ولا كلمة نابية واحدة. ما عدا معاقبة طفلة في الخامسة من العمر لُطخ وجهها بغائطها لأنها خرئت في الفراش ليلاً. أرجوكم كل الرجاء أن لا تشطبوا كلمات هذا المشهد. إنه مقتبس من مرافعة جنائية في إحدى المحاكم. وفي كل الجرائد، قبل شهرين،(. . .) وردت كلمة «الغائط». ولا يجوز تهذيب التعبير، يا نيكولاي ألكسييفيتش. فذلك من شأنه أن يكون مبعثاً للحزن. نحن لا نكتب لأطفال في العاشرة من العمر. إلا أنني واثق بأنك ستبقي السرد على حاله حتى من دون رجائي (. . .)

كيف حال ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف). هلا تكرمت بنقل احتراماتي العميقة له؟

واحتراماتي لعقيلتك.

وتقبَّل، يا نيكولاي ألكسييفتش، أجمل مشاعري الصادقة تجاهك.

خادمك المطيع ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) فيما بعد أفرد دوستويفسكي الكتاب السادس من «الأخوة كارامازوف» لشيخ الدين زوسيما.



209. إلى قسطنطين بوبيدونوستسيف

ستارايا روسا، 19 مايو 1879

السيد الكريم عزيزنا المحترم قسطنطين بيتروفيتش[1].

مع أن اليوم هو الـ 19 من مايو، إلا أن رسالتي لن تصلك قبل الـ 21 من الشهر، ولذا أسارع لتهنئتك بعيد ملاكك الشفيع. وأتذكر أنني كنت قبل عام من هذا التاريخ في ضيافتك في صباح اليوم نفسه، ويخيل إليَّ أن ما مر على ذلك لا يزيد عن أسبوعين أو ثلاثة، أو شهر في أبعد تقدير. لهذا الحد الرهيب يسرع الزمن مبتعداً عنا.

أنا هنا منذ شهر في عزلة تامة مع عائلتي، ولم ألتق أحداً تقريباً. الطقس جيد على العموم، وقد انتهت من زمان فترة ازدهار بطمة الشمال والتفاح، فيما يواصل الليلك ازدهاره البهيج. عكفت على العمل، لكنني لم أنجز الكثير. ومع ذلك أرسلت إلى «البشير الروسي» نصف النص اللازم لعدد مايو، ملزمتين ونصفاً. أنتظر البروفة، ولا أعرف النتيجة، ذلك لأن الكتاب الحالي (الخامس من «الأخوة كارامازوف») هو الذروة في الرواية، وعنوانه «مع وضد». ويتناول

التجديف بالألوهية وتفنيده. أنجزت التجديف وأرسلته إلى المجلة، أما التفنيد فسأرسله لعدد يونيو. تناولت التجديف كما أتلمسه وأفهمه، بصورة أشد، أي كما يجري عندنا في روسيا لدى الطبقة العليا بأسرها تقريباً، وخصوصاً الشباب، وأقصد أن الدحض العلمي والفلسفي لوجود الخالق بات مهملاً، لا يهتم به الاشتراكيون الحاليون الجادون، كما كانوا يهتمون به طوال القرن الماضي وفي النصف الأول من القرن الحالي. إلا أنهم ينكرون بكل ما لديهم من قوة ما خلقه الخالق، أي دنيا اللّه ومغزاها. فالحضارة المعاصرة تعتبر الخليقة لغواً فارغاً. وأنا أعلل نفسي بالآمال في كوني لم أتنكر للواقعية عموماً حتى في موضوع تجريدي كهذا. ذلك لأن تفنيد هذه التصورات يأتي ليس بصورة مباشرة عبر خطاب بين شخصين، بل في آخر كلمة لشيخ الدين قبيل مماته. وقد لامني العديد من النقاد مدّعين بأنني أتناول في رواياتي عموماً موضوعات ما أنزل اللّه بها من سلطان، موضوعات غير واقعية وما إلى ذلك. فيما أنا، على العكس، لا أعرف موضوعات أكثر واقعية من هذه. . .

لقد أرسلت المادة، ولكنْ يخيل إليَّ أنهم في «البشير الروسي» قد لا ينشرونها لسبب ما.[2]

ولكن يكفينا الكلام عن ذلك. كلٌّ يغني على ليلاه.

أنا أقرأ الصحف هنا ولا أفهم شيئاً.

بالأمس قرأت في «العصر الجديد» توجيه وزير التعليم العام بأن يتولى الأساتذة تفنيد الاشتراكية. ألا يعني ذلك دخولهم في جدال مع الطلبة؟ تلك فكرة تنطوي على خطر يفوق التصور.

عندما وصلت إلى هنا كان حديث الناس يدور عن الضابط

دوبروفين الذي أعدم شنقاً حتى الموت. يقال إنه تظاهر بالجنون، حتى وصل إلى عمود المشنقة، وما كانت به حاجة للتظاهر بالجنون طالما هو مجنون أصلاً. عندما نحكم على الأمور من الحوادث الماثلة أمام الأنظار ندهش للمرة المئة من حقيقتين لا يريد أحد عندنا تغييرهما. فإذا تناولنا الفوج الذي يخدم فيه دوبروفين من جهة والرجل نفسه من جهة أخرى نرى الفارق الهائل بينهما وكأنهما كائنان قادمان من كوكبين مختلفين. فيما عاش دوبروفين وتصرف في اعتقاد راسخ بأن الفوج كله سيغدو مثله في نمط التفكير والمحاجة. إلا أننا نقول صراحة إن ذلك جنون. لكن لدى هؤلاء المجانين منطقهم الخاص وتعاليمهم وقوانينهم الخاصة، بل وحتى إلههم الخاص، ويؤمنون بهذا أرسخ إيمان. ولا أحد يلتفت إلى ذلك، بل يعتبره الجميع تفاهة ما بعدها تفاهة. نحن، يا عزيزي قسطنطين بيتروفيتش، نفتقر إلى الثقافة في كل مكان. وسبب افتقارنا إليها يعود إلى العدمي بطرس الأكبر. لقد تم اجتثاث الثقافة من الجذور. وطالما ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان فإن الأمي المسكين عندنا يضطر مكرهاً إلى ابتداع شيء يغوص في الخيال وبمزيد من التفاهة الخرقاء بحيث لا يتضمن أي قدر من المعقول، ذلك لأنه رغم تبنيه الاشتراكية الأوروبية بقضّها وقضيضها، إلا أنه غيّرها لحد اللامعقول.

ها قد حبّرت أربع صفحات، ولكنني، تصور يا عزيزي قسطنطين بيتروفيتش، كتبت لك فيها ما لم أكن أرغب في كتابته! ولا حيلة في الأمر. أشد على يدك بحرارة، وأتقدم إليك بأصدق التمنيات في العمر الطويل وبكل خير. ومن دواعي سروري أنك ستستلتم كلماتي هذه وتقرأها.

ولو كتبت لي، حتى نصف كلمة، فستكون دعماً كبيراً لمعنوياتي الروحية، وكنت قد جئت إليك في الشتاء أيضاً لتعالج الروح الأسيانة.

فليهبك اللّه هدوء الفكر والبال. ولا أدري هل ثمة أمنية أكبر من هذه لأتمناها للإنسان في زماننا هذا.

أخلص التحيات لعقيلتك المحترمة.

خادمك المخلص دوماً

ف. دوستويفسكي

عنواني: ستارايا روسيا. ف. م. دوستويفسكي

---

(1) مسؤول كبير في الدولة بسط حمايته على دوستويفسكي إعجاباً بأدبه.

(2) سبق للكاتب أن اختلف مع الناشر المحافظ كاتكوف حينما طلب الأخير تعديل روايتي «الجريمة والعقاب» و«الشياطين».

210. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 25 مايو 1879

. . . .

جميع ملاحظاتك على البروفة أخذتها بالاعتبار ونقحت كل شيء وفقاً لها، وبالمقابل أرجوك أن تلتفت إلى التوضيحات الواردة في أدناه.

(لست أنا المتمادي في المبالغة والإفراط في الأصباغ والتلاوين). فذلك يعود إلى بطل الرواية إيفان كارامازوف، تلك كلماته وليس كلماتي، حماسته وليس حماستي. إنه شاب انفعالي متشائم، ميّال للصمت في معظم الأحيان. وما كان سيتكلم أبداً لولا تعاطفه الفجائي مع أخيه ألكسي. (. . .) أما أنا فقد أردت أن أرسم صورته بحيث يلاحظ القارئ وجه الغرابة في تصرفه (. . .)

ثم إنك لا ترى ضرورة لتفاصيل حادثة الطفلة التي لم تتعلم الذهاب إلى المرحاض ليلاً. ربما لا موجب لهذه التفاصيل لو كانت صادرة عني. إلا أنها عبارة عن لمسة في رسم طباع شخصية الشاب في الرواية. فما أكثر الطباع المماثلة لهذه، ولا ضرورة لها. (. . .) إلا أن صاحبنا، وهو في الثالثة والعشرين من العمر، أعلن ذلك بشكل

بداية للدفاع عن الأطفال (المظلومين). ومهما كان إيفان يتظاهر بغياب العواطف إلا أن مؤاساته القلبية للأطفال أقوى من حب الآخرين لهم. إيفان هذا يقترف في الرواية، فيما بعد، جريمة ضمنية غير مباشرة ليس بدافع من الطمع في التركة، بل من أجل المبدأ إن صح التعبير، من أجل الفكرة التي يعجز عن التحكم بها لاحقاً ويفضح نفسه ربما لأنه لم يفوّت تفاصيل ذلك الحادث القذر الطفيف على ما يبدو، (حادث البنت الصغيرة في الفراش). تلك التفاصيل بحد ذاتها ليست قذرة، لأن كل ما يتعلق بالأطفال طاهر نظيف، ورائع وضاء. تذكر الملاك الصغير آمور الذي يبول على رؤوس الأشهاد. ذلك المشهد الكلاسيكي الشهير (. . .)

أما بخصوص الجنرال فقد عدلت الصياغة حسبما طلبتَ.

حقاً، فهي عندي كأنما تنسحب على جميع الجنرالات. فخففت تلك الواقعة. ولعلك تتذكر أن هذا الجنرال، والي سيبيريا، أراد أن يعلن عن استقلاله سياسياً. ثم ماذا؟ تلك قضية باتت طي التاريخ.

أنا متفق معك بشأن قاطع الطرق قاتل الأطفال. فالصورة غير واضحة. وقد باتت واضحة تماماً بعد التصحيح. رجائي إليك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، أن تلتفت مستقبلاً في الحالات المشكوك فيها، إن وجدت، إلى المتكلم، إلى عائدية الخطاب. لأن بعض الشخوص لا يستطيعون الكلام على نحو غير النحو الذي يتكلمون به، وذلك لأسباب تعود إلى طبيعتهم. أما أنا فسأحاول إبداء المزيد من الانتباه.

ثم إن عائدية القول بأن الذنوب موجودة والمذنبين غير موجودين واضحة تماماً. فهو لبطل الرواية وليس لمؤلفها.

. . . .

211. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 11 يونيو 1879

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

منذ ثلاثة أيام أرسلت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» بقية «كارامازوف» لعدد يونيو. وهي خاتمة الكتاب الخامس «مع وضد». وفيها نهاية ذاك (الوحش) الذي «أعطي فماً يتكلم بالعظائم والتجديف. . .»[1] العدمي الرافض المعاصر المسعور يعلن عما ينصح به الشيطان ويزعم أن ذلك أصلح من المسيح لسعادة البشر. ذلك توجيه نشيط، على ما يبدو، إلى اشتراكيتنا الروسية الحمقاء، والفظيعة في الوقت ذاته، لأن الشباب منضوون تحت رايتها. العدمي الملحد المستميت يجد السبيل إلى الخبز وبرج بابل، أي مملكة الاشتراكية المرتقبة، والتقييد التام لحرية المعتقد، ذلك ما يتوصل إليه العدمي الملحد المستميت من خلال هذا التوجيه. والفارق في كون اشتراكيينا، وأنت تعرف أنهم لا يقتصرون على العدميين السريين، جزويتيين مغرضين وكذابين لا يعترفون بأن مثالهم الأعلى هو مثال العنف المسلط على الضمير البشري والهبوط بالبشرية إلى مستوى

قطيع البهائم، بينما بطل روايتي الاشتراكي إيفان كارامازوف إنسان صادق يعترف صراحة بأنه موافق على رأي «الجلاد الكبير» بخصوص البشرية وأن الإيمان المسيحي كأنما رفع الإنسان إلى أعلى مما يستحق. ويطرح السؤال نفسه: «هل تزدرون البشرية أم تحترمونها يا منقذيها المرتقبين؟»

إنهم يفعلون ذلك كأنما حباً بالبشرية وحرصاً عليها زاعمين «أن الشريعة المسيحية ثقيلة وتجريدية يصعب على الضعفاء تحمّلها». وبدلاً من شريعة الحرية والتنوير يحملون لهم شريعة السلاسل وعبودية الرغيف.

في الكتاب التالي يقضي شيخ الدين زوسيما نحبه، ونستمع إلى كلامه مع الأصدقاء قبيل الممات. تلك ليست موعظة منه، وإنما حديث عن الذات وقصة الحياة. وإذا وفقت فسأفعل حسناً، سأرغم (القارئ) على الاعتراف بأن المسيحي التقي النقي ليس ظاهرة تجريدية، بل صورة واقعية ممكنة ومرئية بأم العين، وأن المسيحية هي الملاذ الوحيد للأرض الروسية من جميع شرورها. وأبتهل إلى اللّه أن يوفقني. وستكون الرواية ملحمة وطنية حماسية إذا كان الإلهام يكفيني لجعلها بهذا التوصيف. المهم أن موضوعها لا يخطر في بال أحد من الكتّاب والشعراء المعاصرين أبداً، وبالتالي، يعني أنه مبتكر وفي منتهى الأصالة. الرواية بكاملها مكرسة لهذا الموضوع، وكل ما أريده ويقلقني الآن أن تأتي موفقة ناجحة. سأبعث (الوجبة التالية) حتماً لعدد يوليو، وكالعادة في موعد لا يتعدى العاشر من الشهر المذكور. سأوظف كل طاقاتي لهذا الغرض.

استلمت رسالتك، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم، بشأن تحويل المبلغ، وأنتظر بفارغ الصبر الألف الموعود. أنا من دون نقود تقريباً،

ولا أرغب في الاقتراض من أحد. لذا أرجوكم كل الرجاء تحويل الألف روبل بأسرع ما يمكن، ومن دون إبطاء، لأنني في حاجة ماسّة إليها.

أين ميخائيل نيكيفوروفيتش؟ هل هو في موسكو أم في الضيعة؟ وكيف صحته؟ بلغه تحياتي الحارة واحتراماتي.

والآن، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم، ألا تقدم لي خدمة، إن استطعت، وإذا كان لديك شيء من المودة تجاهي؟ ذات مرة كتبت لك في السياق عن بوتسيكوفيتش، ناشر مجلة «المواطن» السابق. وقد كتب لي أن ميخائيل نيكيفوروفيتش وعده بأن يبعث له مبلغاً شهرياً إلى برلين لقاء المراسلة، وقد اشتدت به الحاجة في برلين وبات، كما كتب لي، في فقر مدقع.

وهو إنسان طيب جداً. وقد استقر رأيه الآن على فكرة فيها مخاطرة، كما تبدو للوهلة الأولى، إلا أنها فكرة جيدة بشأن إصدار «المواطن» في برلين بأعداد شهرية. وينوي المجازفة بإصدارها على سبيل الاقتراض، لأنه لا يملك نقوداً حتى للطعام. وهو لن يكتب أبداً ما فيه دناءة، في حين أن صدور مطبوعة روسية إضافية بالاتجاه المنشود ولو في الخارج أمر يستحق التقدير. ولو كان بالإمكان عونه بأصغر مبلغ، حتى مئة أو مئتي روبل، لأصدر العدد الأول، فتتضح النتيجة بعد ذلك. ويمكن بالتالي توجيهه وإرشاده. وهو يأمل في اكتتاب للاشتراك وإن كان قليلاً في البداية. فأرجوك كل الرجاء أن تفاتح كاتكوف في الموضوع وتبلغني برأيه عن بوتسيكوفيتش وهل وعده فعلاً بمبلغ شهري لقاء المراسلة من برلين؟ فهو، على الأقل، كتب لي ذلك مؤكداً. في انتظار أخبارك بهذ الخصوص. أرجوك،

يا نيكولاي ألكسييفيتش الطيب القلب، أن تنتزع لحظة من وقتك وتكتب لي كلمتين عن ذلك. أنا أشفق على بوتسيكوفيتش هذا، بل وأوده أيضاً. فهو على وشك أن يهلك، وقد استولى عليه القنوط.

وتقبّل فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

تذييل: احتراماتي إلى عقيلتك الموقرة.

عنوان بوتسيكوفيتش:

Berlin, Dorotheen-Strasse, 60, Victor Putzykovitch

---

(1) سفر الرؤيا، الإصحاح 5: 13.



212. إلى يلينا شتاكينشنيدر

ستارايا روسا، 15 يونيو 1879

الفاضلة يلينا أندرييفنا[1] المحترمة

أشكرك من صميم القلب على رسالتك الرقيقة المؤرخة في 23 مايو. ولم أرد عليها حتى الآن بسبب المشاغل والاكتئاب. الطقس معتكر طول الوقت والبرد والعواصف والمطر الفظيع. وإلى ذلك أصاب السعال الطفلين، وهذا ما يقلقنا أشد القلق. نخشى من السعال الديكي.

أشغالي تتلخص في تأليف الرواية. العمل عليها يجري بطيئاً. كل شهر أسلم ما لا يزيد عن ملزمتين طباعيتين ونصف.

إلا أن الجهد صعب وأليم، وأنا أتألم دوماً عندما أكتب. أبعث الناتج (إلى المجلة) في العاشر من الشهر. كل شهر.

اليوم هو الخامس عشر، ما يعني أنني يجب أن أعكف على العمل غداً، وبالنتيجة لم آخذ قسطاً من الراحة والتنزه في الشهر الحالي إلا لخمسة أيام. وأي تنزه هو؟ الريح العاتية المصحوبة بالأمطار تعول اليوم بالمعنى الحرفي للكلمة وتقتلع الأشجار المعمرة

مقابل النوافذ. ومع اجتثاث الغابات سيتغير مناخ روسيا جذرياً، فلن يبقى هناك ما يحتجز الهواطل ولا ما يقف في وجه الرياح.

صحتي عموماً ليست على ما يرام. وأفكر في السفر إلى أيمس. وإذا عزمت على السفر فسأسافر ليس قبل منتصف يوليو القادم. حينئذٍ سأبقى هناك حتى سبتمبر. ولن يعيقني ذلك عن العمل. هذا كل ما أردت أن أقوله عن أموري، ما عدا المشاعر الروحية الباطنية، فالرسالة لا تصلح للتعبير عنها. ولذلك بالذات أكره كتابة الرسائل.

أوصيك أن تحافظي على صحتك أنت أيضاً وتتهيئي للشتاء بموفور العافية. وفي الشتاء لعلنا نلتقي، فعمَّ سنتكلم؟ وعن أيٍّ من المسائل الملحة؟

أتوقع أن نكون جميعاً مشتتين فكرياً أكثر مما في أي وقت مضى. كلٌّ لحاله. بودّي أن أعمل أيضاً، لكن قواي تخونني.

أقرأ الجرائد يومياً وأرى فيها العجب العجاب أكثر فأكثر. حفر الأنفاق تحت البنوك، جنون لاندسبيرغ وأمثاله. وجريمته التي لا تصدق وينسبونها إلى جنونه. إذا كتب شخص عن ذلك تقوم القيامة عليه فيتهمونه بالافتراءات والميول المريضة وما شاكل. والحقيقة أن المرض والميول المريضة قابعة في أصل مجتمعنا، ومن يلاحظ ذلك ويشخصه يتعرض لغضبة الجميع.

على فكرة، أنت تكتبين عن انتقاد يفغيني ماركوف (لرواياتي). أمامي على الطاولة كلا مجلدي أعداد «الخطاب الروسي»، لكنني لم أقرأ ذلك الانتقاد. أشعر بالتقزز منه. وكل ما أعرفه عن مغزى مقالات الرجل آخذه من الجرائد. أفضل رد عليه هو أن أنهي «الأخوة كارامازوف» كما يرام. وبعد الفراغ من الرواية في العام القادم سأرد

على جميع النقاد دفعة واحدة. فلا بد لي من توضيح الأمور في الأخير، بعد 33 عاماً من النشاط الأدبي.

بخصوص يفغيني ماركوف: في العام الماضي جاءني نافروتسكي ينشد النصح بشأن إصدار المجلة المرتقبة وأبلغني بأنها تعول على ماركوف، فقلت له دون أن أتقيد بالحذر إن ماركوف فستان عتيق من الشيت تعرض للغسيل مرات وفقد رونقه من زمان.

ولما كان نافروتسكي غير ملزم بحفظ الأسرار فقد نقل رأيي إلى ماركوف على ما أعتقد. (...). تلك تفاهات، والمهم، أكرر، هو اكتناز الصحة. وأوصيك يا عزيزتي، مجدداً، أن تفعلي ذلك قبل كل شيء. سنلتقي في الخريف. آنّا غريغوريفنا تبعث تحياتها إليك وإلى ذويك جميعاً. وأنا أيضاً أبعث تحياتي العميقة. وانقلي عني كلمة طيبة إلى بوكروفسكي[2]، إلا أن إهداءه مؤلفاتي لك بمناسبة عيد الملاك شفيعك شرف عظيم لي. أشد على يدك بحرارة. اكتبي لي، لا تنسيني.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) صاحبة صالون أدبي في بطرسبورغ.

(2) ميخائيل بوكروفسكي زميل دوستويفسكي من عهد النشاط الثوري.

213. إلى فريدريك ثوماس

ستارايا روسا، مطلع يوليو 1879

السيد الكريم[1]

مؤتمر رابطتكم الأدبية الدولية شرفني بانتخابي لعضوية لجنتها الفخرية. وأنا شاكر لكم من صميم القلب. كيف لا أفتخر واسمي بات من بين الأسماء المكللة بالأمجاد، بين أبرز مشاهير الأدب المعاصر؟

من نافل القول إنني متحمس بكل حرارة لدفع القضية التي تخدمها الرابطة بكل ما أستطيع من قوة. وآمل أن تسمح لي حالتي الصحية في هذا العام أن أكون بينكم وأشارك في أعمالكم.

فتفضلوا، يا سيدي الكريم، وزميلي المحترم، بتبليغ مندوبي المؤتمر امتناني الخالص على إجماعهم على الاعتراف الذي شرفوني به، كما أرجوكم شخصياً أن تتقبلوا مني فائق الاحترام والتقدير.

(دوستويفسكي)

(1) في الأصل بالفرنسية. رداً على رسالة الرابطة الأدبية الدولية ورئيسها الفخري فيكتور هيغو بتاريخ 3 يوليو 1879. في الوقت ذاته انتُخب ليف تولستوي عضواً فخرياً للجنة، فيما كان إيفان تورغينيف قد انتُخب لعضويتها قبل ذلك.



214. إلى آنّا فيلوسوفا

ستارايا روسا، 11 يوليو 1879

العزيزة الغالية آنّا بافلوفنا المحترمة.

قبل شهر استلمت رسالتك الرقيقة ولم أرد عليها حتى الآن، فلا تلوميني ولا تقرعيني. ثم هل ستحكمين عليّ أنت الطيبة المتفانية بلا حدود، بقلبك الكبير الذكي الرائع؟ كنتُ طول الوقت هنا، في (ستارايا) روسا، في حالة نفسانية عصيبة لا تطاق. ورغم توفر الوقت للحديث إليك، إلا أن حالتي كانت متدهورة لدرجة جعلتني أرجئ الحديث كلما هممت بالتقاط ريشة الكتابة. المهم صحتي تدهورت والصغيران مريضان. في البداية أصيب الصبي بالتيفوئيد، والآن كلاهما يعانيان من السعال. والطقس فظيع لا يطاق، المطر يهطل مدراراً من الصباح حتى المساء، والبرد شديد في الليل، والجو رطب بسبب الاستبراد. طوال شهر كف المطر لثلاثة أيام فقط، ولم نشهد سوى يوم مشمس واحد. في هذه الحالة النفسانية وفي هذه الظروف واصلت الكتابة طول الوقت، وعملت ليلاً، وأنا أسمع فحيح الريح وهي تطيح بالأشجار المعمرة. كتبت القليلَ القليل، ولاحظت من زمان أن العمل يزداد صعوبة كلما تقدمت في العمر. وبالتالي كل

الأفكار كئيبة لا سلوى فيها، بينما أريد أن أتحدث معك في مزاج غير هذا المزاج.

شعرنا، أنا وزوجتي، بمنتهى الارتياح لأنك تنوين السفر إلى القوقاز. فالفائدة من العلاج هناك لا ريب فيها، أنا واثق من ذلك، بشرط أن لا تراجعي طبيباً رديئاً. واحذري الأطباء المشهورين، فقد جُنوا جميعاً بسبب الغرور والغطرسة. وهم يقودون إلى الهلاك. اختاري دوماً طبيباً من الفئة المتوسطة، ألمانياً متواضعاً على سبيل المثال. لأن الألمان في الطب، أقسم لك، أفضل من الروس. أقول ذلك وأنا من دعاة السلافية. هذا أولاً، وثانياً - الرحلة البعيدة إلى مكان مميز كالقوقاز تروّح عنك كثيراً وتصرفك عن التفاهات المملة والابتذال الرتيب في واقعنا في بطرسبورغ رغم المظاهر الباهرة على ما يبدو للوهلة الأولى. وتأخذين قسطاً من الراحة، ولكن ينبغي أن تتمكني من نسيان الماضي القريب ومن الاسترخاء المباشر والانسياق للانطباعات أمام الطبيعة والأماكن الجديدة عليك. وبعد ذلك، في أغسطس، تعودين إلى الأطفال الرائعين في الريف. فما أجمل وجودهم لديك. إنهم يضفون مسحة إنسانية على الوجود بأسمى معنى للكلمة. الأطفال وجع لا بد منه، ومن دونهم ينتفي هدف الحياة.

في حين يروّج الاشتراكيون الأوروبيون دوماً لدور الرعاية والتربية. أنا أعرف أشخاصاً رائعين أريحيين متزوجين ولا أطفال لديهم. وماذا بعد؟ إنهم بمثل هذا الذكاء وهذه الأريحية يفتقرون إلى شيء ما، إنهم واللّه لا يفقهون في مهمات الحياة وقضاياها السامية، وكأنهم يتعكزون.

كتبتِ سطوراً مريزة عن قساوة الناس ووقاحة أولئك الذين ضحيت من أجلهم حباً لهم ربما طول عمرك من خلال نشاطك كله. هذا الكلام ينطبق عليك تماماً. ولكن لا تندهشي ولا تتأسفي، فليس

بالإمكان انتظار أكثر من ذلك من أي كان. ولا تلوميني على لهجتي المهنية المتحمسة على ما يبدو. فأنا نفسي مهان من طرف كثيرين، صحيح أن لا جريرة لي في الإهانة من بعضهم، وصحيح أيضاً أن الإهانة من طرف البعض الآخر ناجمة عن طباعي. ذلك لأنني قلت لهم كلمتي الصريحة، نزولاً عند طلبهم، فجاءني الجزاء منهم أليماً على تلك الكلمة الصادقة. ثم ماذا؟ أنا ربما تألمت وغضبت أكثر منك. صحيح أن ما تحمَّلتِهِ أنت من أولئك وهؤلاء يندر أن يحصل مثله، فأنا نفسي كنت شاهد عيان وسمعت اسمك يتردد كثيراً في تهم زور وبهتان على لسان أولئك وهؤلاء. ومن حسن الحظ أن ثمة شلة من الناس الذين يقدّرون دوماً ويتمعنون ويشاطرون الآخرين حتماً وعلى الوجه الصحيح. ولديك أناس يشاطرونك ويتفهمون نشاطك ويحبونك بصراحة تقديراً لهذا النشاط. لقد صادفتهم وأشهد أنهم موجودون. أما أنا فأرجو أن تعتبريني من أكثر المتحمسين احتراماً لك والمقيّمين لقلبك الرائع الحكيم والعزيز علينا جميعاً. في حين أن زوجتي أحبتك رأساً مع أنها أقل مني معرفة بك.

أشعر بتدهور كبير في الصدر، فقررت أن أسافر إلى أيمس في السابع عشر من يوليو لمدة ستة أشهر، حتى سبتمبر. فما أفظع أن أتحمل كل ذلك الملل في عزلة العلاج. اكتبي لي عندذاك ولو سطراً واحداً على عنوان أيمس (. . .)

احتراماتي العميقة لزوجك، وإلى اللقاء يا آنّا بافلوفنا العزيزة. أشد على يدك وأقبّلها. آنّا غريغوريفنا تحبك حباً جماً وتعبّر لك عن فائق الاحترام.

المخلص ف. دوستويفسكي

ذكّري أولادك الأعزاء بي.

215. إلى نيكولاي لوبيموف

أيمس، 7 أغسطس 1879

السيد الكريم

نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أبعث إليكم طياً الكتاب السادس من «الأخوة كارامازوف» كاملاً لكي تنشروه في عدد أغسطس، الثامن، من «البشير الروسي». عنونت هذا الكتاب السادس بـ «الراهب الروسي»، وهو عنوان جريء مشحون بالتحدي، وسيزعق كل النقاد الذين يكرهوننا: «هل الكاهن الروسي هكذا؟ وكيف يجرؤ على وضعه فوق قاعدة تمثال كهذا؟». فليزعقوا، سيكون هذا أفضل، أليس كذلك؟ أنا أعرف بالطبع أنهم سيفقدون صوابهم. وأعتقد أنني لم أتقاطع مع الواقع. فذلك حق ليس فقط كمثال أعلى، بل إنه حق كواقع أيضاً.

إلا أنني لا أدري هل وفقت. أعتقد أنني لم أعبّر عن عشر معشار ما أردت أن أعبّر عنه. لكنني أعتبر هذا الكتاب السادس ذروة الرواية. طبيعي أن الكثير من مواعظ شيخ الدين زوسيما، والأصح أسلوب التعبير عنها، يعود إلى صورة الشيخ نفسه، أقصد التصوير

الفني لشخصيته، ومع أنني أدين تماماً بالأفكار نفسها التي يطرحها، لكنني لو عبّرت عنها باسمي شخصياً لجاءت بشكل آخر وبلغة أخرى. أما هو فما كان يستطيع أن يعبّر عنها لا بلغة أخرى ولا بروحية أخرى غير التي أضفيتها عليه. وإلا لما ارتسمت الصورة الفنية الروائية لشخصيته. تلك هي، على سبيل المثال، محاججات شيخ الدين عن هوية الكاهن وماهيته، وعن العبيد والأسياد، وعما إذا كان يجوز للمرء أن يحكم على غيره وما إلى ذلك. وقد اقتبست شخصيته وملامحه من صور الكهنة والرهبان والقديسين الروس القدماء بما يميزهم من تسامح عميق وآمال ساذجة غير محدودة بشأن مستقبل روسيا وبخصوص رسالتها الأخلاقية وحتى السياسية. ألم يضع القديسون المطارنة سرغي وبولص وألكسي روسيا في محط أنظارهم من هذه الناحية؟

أرجوك كل الرجاء، يا نيكولاي ألكسييفيتش، وأستعطفك أن تكلف مصححاً أميناً بمراجعة البروفة، لأنني نفسي لا أستطيع أن أصحح الكتاب لعدم توفره تحت يدي هنا. وأرجوك بخاصة أن تلتفت إلى تصحيح الصفحات من 10 إلى منتصف 17، الفصل الفرعي بعنوان «الكتاب المقدس في حياة الأب زوسيما». هذا الفصل شاعري حماسي قائم على بعض مواعظ (القديس) تيخون زادونسكي، فيما اقتبست سذاجة السرد من كتاب رحلات الراهب بارفينيوس. راجعه بنفسك وستكون بمثابة الأخ العزيز عليّ. وعندما يتم فحص كل تصحيحات الكتاب بلّغ ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف). بودّي لو قرأ الكتاب وأبدى لي رأيه فيه، فأنا أعتز برأيه كثيراً.

آمل أن لا تجد في هذا الكتاب ما يستدعي الشطب أو التعديل أثناء المراجعة. لن تجد ولا كلمة واحدة. أتعهد لك.

كما أرجوك كل الرجاء أن تبقي على توزيع الكتاب بشكل فصول وفصول فرعية كما وزعتها أنا. وأذكر هنا أنني أدرجت ضمن الرواية نصاً كأنما غريباً عليها، وهو لألكسي كارامازوف، وطبيعي أن يأتي مكتوباً كأنما بخط الرجل. كما ألاحظ باستياء ما يلي: في فصل «الجلاد الكبير» بعدد يونيو ورد إخلال في توزيع الفقرات وتشويش في 10 صفحات متوالية. وهذا ما يزعجني كثيراً، ويجعلني أتشكى لك بأسف شديد.

وسوف أبعث إليكم الكتاب التالي، السابع، المعنون «غروشينكا» والذي ينتهي به خلال هذا العام الجزء الثاني من «الأخوة كارامازوف» في العاشر من سبتمبر على وجه التقريب. سأرسله حينئذٍ من ستارايا روسا. وقد خصصت هذا الكتاب السابع لعددين من «البشير الروسي» في سبتمبر وأكتوبر. ويضم الكتاب إجمالاً 4 ملازم، ما يعني أن عدد سبتمبر لن يحتوي أكثر من ملزمتين. ولا حيلة في الأمر. ففي هذا الكتاب السابع مشهدان منفصلان وكأنهما قصتان مستقلتان (. . .)

أشكرك جزيل الشكر على تنفيذ طلبي بشأن كيفية إرسال النقود إلى زوجتي في ستارايا روسا. وقد أبلغَتني بهذا الخصوص.

وأتقدم إليك سلفاً بطلب آخر هو أن توعز لمن يهمه الأمر أن يبعثوا لي عدد أغسطس من «البشير الروسي» إلى ستارايا روسا. فأنا سأعود إلى منزلي هناك عندما يصدر العدد المذكور.

وتقبَّل مني فائق الاحترام وخالص التقدير.

خادمك الدائم

فيودور دوستويفسكي

(. . .)

215 (أ). إلى لوبوف دوستويفسكايا

أيمس، 7 أغسطس 1879

ملاكي وحبيبتي ليليتشكا. أقبّلك وأبارك لك وأحبك كثيراً. أشكرك على ما تكتبينه إليّ، سأقرأه وأقبله، وسأفكر فيك كلما استلمت منك شيئاً. أشعر هنا بالضجر من دونكم، وليس لدي معارف. لذا أنا صامت طول الوقت، وأخشى أن أنسى الكلام. سأعود إليكم بعد ثلاثة أسابيع تقريباً. عزيزتي ليليا، أطيعي ماما ولا تتشاجري مع فيديا. لا تنسيا كلاكما التعلم والدراسة. أدعو اللّه أن يحفظكم جميعاً ويعطيكم الصحة والعافية. بلّغي تحياتي للأب (روميانتسيف) وقبّلي فيديا بالنيابة عني. رجاءً أطيعا ماما في كل شيء ولا تغيظاها. إلى اللقاء يا عزيزتي ليليتشكا، أحبك كثيراً جداً. قبّلي ماما.

أبوك ف. دوستويفسكي



ابنة دوستويفسكي (لوبوف) وابنه (فيودور)



لوبوف وفيودور وبينهما الوالدة آنّا

215 (ب). إلى فيودور ف. دوستويفسكي

أيمس، 7 أغسطس 1879

ولدي العزيز وحبيبي فيديا. أقبِّلك وأبارك لك، وكثيراً ما أفكر فيك. ماذا تفعل الآن؟ بمَ تلعب؟ إذا كنتم ستسافرون إلى (دير) نيل ستولبينسكي أطيعا ماما في الطريق. صغيري فيديتشكا، أرجوك تعلم واستمع لماما. لا تتشاجر مع ليليتشكا. أحبا أحدكما الآخر كما أحبكما. قبّل ليليا وماما بالنيابة عني. تعلم القراءة. هنا أولاد كثيرون يترددون على المدرسة. كل يوم أصادفهم. بعضهم في الخامسة من العمر ويدرسون. الصبية هنا أيضاً يصطادون السمك في النهر. فهل اصطدت شيئاً يستحق الذكر، يا فيديا؟ أقبِّلك وأحتضنك وأبارك لك.

أبوك ف. دوستويفسكي

216. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 13 أغسطس 1879

صديقتي العزيزة آنيا. استلمت الآن رسالتك الرقيقة المؤرخة في 8 أغسطس، وها أنا أرد عليها بالترتيب. تقولين إنك قلقة عليّ، على علاجي. لا أدري ماذا أقول عن نجاحه. غداً ينتهي الأسبوع الثالث للعلاج. وبقي أسبوعان. هذا ما قرره (الدكتور) أورت اليوم. بمعنى أن العلاج سينتهي في 28 أغسطس حسب تقويمنا، وفي الـ 29 أغادر. الطريق 5 أيام، وسأصل إلى ستارايا روسا، أغلب الظن، في الثالث، وربما الثاني من سبتمبر. الثالث منه على الأرجح. ولذا يمكنك أن ترسلي آخر رسالة في 23 أو 24 أغسطس، وإلا لن تجدني رسالتك هنا. على أية حال، أمامنا أسبوعان، ويمكن أن تطرأ تبدلات. حالياً، في هذه المرحلة من العلاج، أشعر بمزيد من القوة والنشاط. النعاس، مثلاً، زايلني تماماً. والسبب يعود من دون ريب إلى المياه (المعدنية). إلا أنني لم أكتنز بدنياً، ولا زيادة في الوزن. السعال المتقطع الحاد خفت كثيراً، بل انتهى تقريباً. ومع ذلك أسعل مع وخز شديد في الحلق، لكن القشع خفيف جداً، وإلى ذلك بدأ

السعال العادي بالخفوت. نومي مضطرب في الليل، أستيقظ عدة مرات، ولا يزال العرق يتصبب مني، ولكن ليس بالقدر السابق. شهيتي لا بأس بها. إلا أن المعدة ليست على ما يرام. هذا كل ما أستطيع أن أخبرك به عن أحوالي، سوى أن العلاج يسير، على ما يبدو، بنجاح. إلا أن ذلك مسكّن وقتي، فالمرض يبقى ملازماً لي، فيما أنفقت (لحد الآن) 700 روبل. ثم إن الطقس المحلي يعيق العلاج. فالجو رطب رغم الدفء الكبير، والشمس الساطعة، إلا أن المطر يتساقط ثلاث مرات في اليوم، وخصوصاً أثناء الليل. ويصادف أن يهطل طول الليل بلا انقطاع، بينما الرطوبة هي عدوي الأول. ولو كان الطقس أفضل لكان العلاج أنجع.

خبرُ المسكينة إميليا فيودوروفنا أحزنني جداً. صحيح أنها كانت تسير نحو تلك النهاية. مرضها ما كان ليسمح بعمر طويل. وبوفاتها انتهى بالنسبة لي كل ما بقي على الأرض من صلة بذكرى أخي. لم يبق سوى (ابنه) فيديا، فيودور ميخائيلوفيتش، الذي رعيته واحتضنته صغيراً. فيما ترعرع باقي أبناء أخي كأنما بغيابي. اكتبي لفيديا عن أسفي الشديد، فأنا لا أعرف إلى أين أكتب له، وأنت لم تذكري لي عنوانه. لا تنسي كتابة العنوان في الرسالة القادمة. تصوري أي حلم رأيت في الخامس من الشهر: رأيت أخي راقداً في الفراش مقطوع الحنجرة والدم يسيل، وهممت مرتعباً أن أهرع إلى الطبيب، لكنني توقفت لفكرة أنه سينزف كل دمائه قبل وصول الطبيب. حلم فظيع. والمهم أنه حصل في الخامس من أغسطس، عشية وفاتها.

لا أعتقد أنني كنت مذنباً جداً بحقها، فقد ساعدتها حيثما أمكن، وكففت عن المساعدة الدائمة حينما ظهر لديها معاونان، ابنها (الراشد) وصهرها. وفي سنة وفاة شقيقي ضحيت بعملي من أجلهم

دون تردد ولا أسف، ضحيت بـ 10000 إضافة إلى طاقاتي وشهرتي الأدبية، وتجللت بالعار بعد فشل المجلة وعملت كالحصان، حتى المرحوم أخي ما كان ليستطيع أن يلومني من العالم الآخر. ولكن كفاية في هذا الموضوع. أنا نفسي، يا عزيزتي، أفكر دوماً في الموت، أفكر فيه جدياً هنا. وأفكر كيف أتركك مع الطفلين. الكل يتصورون أن لدينا مالاً، ولا مال لدينا. وعلى كاهلي الآن «الأخوة كارامازوف»، ولا بد من إنهائها جيداً وصقلها كما يفعل الصاغة، فيما هي صعبة ستستنزف الكثير من القوى وفيها مخاطرة كبيرة. إنها عمل مصيري أيضاً يجب أن يعيد إليّ اسمي وشهرتي، وإلا فلن يكون هناك أمل. سأنهي الرواية وأعلن في آخر العام القادم عن اكتتاب الاشتراكات في «يوميات الكاتب»، وسأشتري بعائدات الاكتتاب ضيعة، فيما نعيش على أية حال وأواصل إصدار «اليوميات» حتى الاكتتاب التالي اعتماداً على مبيعات الكتب. لا بد من اتخاذ إجراء نشيط، وإلا لن نحصل على نتيجة. ولكن يكفي الآن، سيكون لنا متسع من الوقت للخوض في الموضوع وسنتجادل أنا وإياك لأنك لا تحبين القرية، بينما أنا مقتنع بأن القرية رأسمال سيتم تنظيمه عندما يكبر الصغيران. هذا أولاً، وثانياً- أن من يمتلك قطعة أرض يشارك أيضاً في التسلط السياسي على الدولة. في هذا ضمانة مستقبل الصغيرين وتحديد ما سيكونان عليه: هل سيكونان مواطنَين مستقلين يعتمدان على النفس، ليس أسوأ من الآخرين؟ أم تافهين تركبهما الموجة ولا يركبانها[1]. ولكن كفاية. تقولين إن فيديا يتردد طول الوقت على الصبيان. إنه في السن التي تحدث فيها أزمة الانتقال من الطفولة الأولى إلى الوعي والتفكير. وأنا ألاحظ في طباعه الكثير جداً من السمات العميقة، ومنها شعوره بالضجر الذي لا يشعر به الطفل

العادي في تلك المواقف. المشكلة هي السن التي تستبدل فيها المشاغل والألعاب والميول السابقة بغيرها. كان ينبغي من زمان أن يأخذ الكتاب ليهوى المطالعة المتأملة شيئاً فشيئاً. أنا في سنه كنت أقرأ. والآن وبسبب غياب المشاغل يمكن أن يتهاوى في الحال. لكنه سيبدأ قريباً في البحث عن وسائل أخرى للهو ستكون رديئة إذا ظل الكتاب غائباً. وهو لحد الآن لا يجيد القراءة. ليتك تعرفين كم أفكر في هذا الأمر هنا، وكم يقلقني. ومتى سيتقنها؟ إنه يتعلم ويتعلم دون أن يجيد القراءة!(. . .) (. . .)

إلى اللقاء يا عزيزتي، ولا تزعلي من إرشاداتي. أقبِّلك بحرارة، أنت و«الاثنين». أقبِّلك 1000 مرة، لا أكثر. غداً يبقى أسبوعان من صمتي هنا. ذلك ليس مجرد عزلة، بل هو الصمت بعينه. لقد نسيت الكلام تماماً. حتى صرت أتكلم مع نفسي كالمجنون. ما أشد أحزاني هنا. بدأتُ الكتابة كيفما اتفق، إلا أن الملل يقتلني ويقتل كل شيء.

إلى اللقاء.

المخلص لك دائماً وأبداً ف. دوستويفسكي

آنيا، تقولين إن المصروفات كثيرة، اكتبي لي كم لديك من النقود حالياً. أريد أن أعرف المبلغ المتبقي فقط، وليس تقريراً عن النفقات. لن أقطع المراسلة، سأواصل الكتابة إليك مرة كل ثلاثة أيام.

تحياتي للجميع. بوتسيكوفيتش أصدر أخيراً عدد «المواطن الروسي» (في برلين) وبعث لي نسخة. وهو ينتظر اكتتاب الاشتراكات ووعد بتسليمي الـ 40 ماركاً. سيغدو هذا العدد طبعاً من نوادر المطبوعات. وينبغي الاحتفاظ به. الرسالة (التي خصصتها لهذا العدد وهي منشورة فيه) كتبتها بلهجة يخيل إليّ أنها ستجعل السلطات تمنع

دخول المجلة إلى روسيا. وعندها لن يسدد بوتسيكوفيتش الـ 40 ماركاً.

أقبّل الصغيرين وأبارك لهما، وأشكر ليليا (لوبوف) على ملاحظتها الرقيقة (في رسالتك)، كما أتمنى على فيديا أن يبعث السلوى في نفسي ويتعلم القراءة. ثم أريد لكما يا صغيريّ أن تطيعا ماما. أقبّلكم بحرارة.

---

(1) ابن دوستويفسكي فيديا تخصص في تربية الخيول الأصيلة وجمع مالاً، فيما غدت لوبوف من أدباء المهجر تكتب باللغة الألمانية. ولها مذكرات عن أبيها، مترجمة إلى الروسية ولغات أخرى، رغم أنها كانت في الثالثة عشرة من العمر عندما توفي.



217. إلى قسطنطين بوبيدونوستسيف

أيمس، 24 أغسطس 1879

السيد الكريم قسطنطين بيتروفيتش المحترم. استلمت رسالتيك هنا، وأنا شاكر لك من صميم القلب عليهما، وبخاصة على الرسالة الأولى التي تتحدث فيها عن حالتي النفسانية.

فأنت على حق تماماً، وأفكارك سند وعون لي. إلا أنني وسواسي مريض نفسانياً. وقد استولى عليَّ الاكتئاب عفوياً وأنا قابع هنا في عزلة مؤسفة تامة. بيد أني أتساءل هل يمكن للمرء أن يبقى هادئاً في زماننا هذا؟ انظر إلى ما تشير إليه بنفسك في رسالتك الثانية من وقائع لا تطاق تجري على الساحة. أنا مشغول الآن بالرواية، ولن أفرغ منها إلا في العام القادم، لكن ما يؤرقني هو الرغبة الشديدة في مواصلة «اليوميات»، ذلك لأن لدي حقاً ما أستطيع أن أقوله، كما تريد أنت، من دون جدالات تعميمية عقيمة، بل من خلال الكلمة الصامدة التي لا تخشى في الحق لومة لائم. والمهم الآن حتى الذين لديهم ما يستحق الكلام يخشون التفوّه به. فماذا يخشون يا ترى؟ يخشون الشبح لا غير. أفكار العلوم والتعليم «الأوروبية العامة» تهيمن على

الجميع عنوة. فلا يتجرأ أحد على إبداء رأيه. وأنا أفهم تماماً لماذا لقي غرادوفسكي، من خلال مقالاته الأخيرة التي اعتبر فيها الطلبة جزءاً من فئة المثقفين، استحساناً بالغاً لدى الغربويين عندنا. فالقضية، كل القضية، في كونه يرى علاج جميع فظائع الارتباك الحالي لحياتنا في أوروبا وحدها.

وضعي الأدبي، وأنا لم أحدثك عنه يوماً، إنما يشكل باعتقادي ظاهرة نادرة تقريباً، كشخص يكتب أصلاً ضد التوجهات الأوروبية وقد «أساء» إلى نفسه طول عمره «بالشياطين»، أي بالرجعية والانهزامية. فكيف اعترفَ بهذا الشخص شبابنا، خلافاً لجميع الغربويين ومجلاتهم وجرائدهم ونقادهم؟ كيف اعترف به هؤلاء الشباب العدميون المتأرجحون المتذبذبون؟ لقد أعربوا لي شخصياً عن ذلك زرافات ووحداناً من مختلف الأرجاء. وأبلغوني بأنهم ينتظرون مني وحدي كلمة صادقة جميلة، وأنهم يعتبرونني وحدي كاتبهم ومرشدهم. تصريحات الشباب هذه معروفة لدى رجالات الأدب عندنا، لدى قراصنة الكتابة ولصوص الصحافة، وقد أثارت دهشتهم إلى أبعد الحدود، وإلا لما كانوا يسمحون لي بحرية التأليف، ولكانوا سينهشونني كالكلاب، لولا خوفهم الذي يدفعهم إلى ترقب ما سيحصل في حيرة وارتباك. أنا هنا أقرأ «الصوت» المتجلدة. يا إلهي، ما أكثر الحماقات والتكاسل المقرف والتحجر المتحشف في ما يكتبون. هل تصدق بأن الغضب يتحول عندي أحياناً إلى قهقهة عالية كما حصل لي عندما قرأت، مثلاً، مقالات يفغيني ماركوف، المفكر الذي يتأمل من 11 عاماً بخصوص المسألة النسائية. فما قرأته حماقة ما بعدها حماقة. تقول في رسالتك إن العدد الذي أصدره بوتسيكوفيتش لم يعجبك. نعم، صحيح. فهذا الإنسان لا يتقبل

الكلام ولا النصيحة، إنه واثق بنفسه لحد الغيظ على الآخر. لكن المهم بالنسبة له هو الاكتتاب. وفيما عدا ذلك سيقوم بكل شيء دون وازع من ضمير. رأيك عما قرأته في «الأخوة كارامازوف» أثلج صدري بخصوص الشحنة والزخم في الرواية. إلا أنك تطرح في الحال السؤال الأهم، ألا وهو غياب الرد على كل هذه الأحكام الإلحادية، ولا بد من وجوده. تلك هي الآن وجهة اهتمامي ومبعث قلقي. ذلك لأنني افترضت أن يكون هذا الكتاب السادس «الكاهن الروسي» رداً على كل الجوانب السلبية. وسينشر في 31 أغسطس. ولذا أخشى عليه أن لا يمثل رداً شافياً. لا سيما وأن الرد غير مباشر وغير قائم على الأحكام المذكورة سابقاً، في فصل «الجلاد الكبير» وقبله. فهو سيأتي في صورة فنية مجازية، إن صح التعبير. وهذا ما يقلقني. بمعنى هل سأكون مفهوماً وهل سأتقدم ولو شبراً من الهدف؟ وإلى ذلك ثمة واجبات الإبداع الفني. فقد دعت الحاجة إلى رسم صورة لشخصية متواضعة وجليلة، فيما الحياة ملأى بالمضحكات، وهي جليلة رصينة فقط بمعناها الباطني، ولذا كنت مضطراً بسبب المتطلبات الفنية، ومن دون حرية الإختيار، أن أتطرق في سيرة حياة كاهني إلى أكثر الجوانب تفاهة كيلا أسيء إلى الواقعية الفنية. ثم هناك عدة مواعظ للكاهن سيستقبلها البعض بالنعيق مدّعين أنها عبثية لامعقولة، لأنها تثير الإعجاب والاستغراب. وهي بالطبع عبثية بالمعنى العادي للكلمة، لكنها تبدو ذات مصداقية بالمعنى الآخر، بالمعنى الباطني. على أية حال أنا قلق جداً وأرغب كثيراً في سماع رأيك لأنني أقدره وأحترمه تماماً. وقد كتبتُ بولع كبير.

إلا أنني أرى الإسهاب والإطناب في روايتي. سأكون في بطرسبورغ في الأول أو الثاني من سبتمبر، فأنا مسرع إلى عائلتي في

ستارايا روسا. وسأعرّج عليك، لا أدري في أي ساعة، وإذا حالفني الحظ سأجدك ولو للحظة. إلى اللقاء يا قسطنطين بتروفيتش الطيب الذي أحترمه بكل صدق وإخلاص. يعطيك اللّه طول العمر، ولا أفضل من هذه التمنيات في زماننا، لأن الرجال من أمثالك يجب أن يعيشوا. تخطر في بالي أحياناً فكرة حمقاء هي الخطيئة بعينها: ماذا سيحصل لروسيا إذا متنا نحن البقية الباقية من العشيرة؟ إلا أنني أضحك من نفسي حالما تتبادر إليَّ تلك الفكرة. ومع ذلك يجب علينا أن نعمل من دون كلل. ألست أنت من العاملين من دون كلل؟ على فكرة: بوتسيكوفيتش عندما سمع مني محتوى رسالتك بخصوص تسفير المجرمين إلى سخالين ألح عليّ أن أسلمه رسالتك لينشرها في «المواطن». ولم أسلمها طبعاً.

المخلص ف. دوستويفسكي

218. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 16 نوفمبر 1879

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أرسلت إليكم يوم أمس خاتمة الكتاب الثامن من «الأخوة كارامازوف»، ولعل هيئة التحرير قد استلمتها الآن. وأعتذر مرة أخرى على التأخير. في هذا الكتاب الثامن ظهرت شخوص عديدة، جديدة تماماً، على غير المتوقع. ومع أنها ظهرت لفترة عابرة، إلا أن من اللازم رسم كل شخصية منها بأكمل ما يمكن، ولذا بات الكتاب أكبر حجماً مما ارتأيت له في بادئ الأمر، واستغرق وقتاً أطول، فجاء تأخري هذه المرة مفاجئاً لي أنا أيضاً. وأرجوك كل الرجاء، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، أن يكون تصحيح البروفة رائعاً كما هو لحد الآن.

كتبت لك أنني سأنتهي في نوفمبر، وأتوقف عن العمل حتى العام القادم، إلا أن الملابسات اقتضت غير ذلك. لأنني سأرسل لأجل عدد ديسمبر كتاباً آخر هو التاسع في التعداد وبه ينتهي هذا الجزء. وقد ظهر الكتاب التاسع فجأة وعلى غير المتوقع. ففي البداية كنت أريد أن

أكتفي بمرافعة واحدة في المحكمة. لكنني استشرت أحد المدّعين العامين من ذوي الممارسة والاختصاص واتضح لي أن موضعاً متعثراً في مرافعات محاكمنا لم ينعكس في روايتي نهائياً. ولذا رأيت أن أتطرق إليه في الكتاب التاسع بعنوان «التحقيق الأولي». وسأوافيكم به في ديسمبر، وربما قبله إن أمكن. وإلى ذلك سأركز على طباع ميتيا كارامازوف القوي الشكيمة، فهو يغدو بقلب طاهر وضمير حي في مواجهة المصيبة وتهمة الزور. ويتقبل العقوبة نفسانياً ليس جزاءً على ما فعل، بل لأنه كان على درجة من سوء التصرف بحيث يحتمل أن يقدم على اقتراف الجريمة التي اتُّهم بها زوراً نتيجة لخطأ قضائي. تلك طباع روسية صرف، فالروسي لن يتحرك ما لم تحل المصيبة بالفعل. وتبدأ طهارة البطل الأخلاقية خلال ساعات التحقيق الأولي الذي كرست الكتاب التاسع له. وذلك شيء عزيز جداً عليّ كمؤلف للرواية. والشيء الوحيد غير المريح أن الكتاب التاسع لن يملأ سوى ملزمة طباعية ونصف[1]، لكنه سيأتي مكتملاً تماماً.

وهكذا سأبعث إليكم الكتاب التاسع في ديسمبر، كما سأوجه آنذاك رسالة اعتذار إلى هيئة التحرير لتنشر في المجلة بخصوص ترحيل خاتمة الرواية إلى العام القادم. وأنا أريد أن أنشر هذه الرسالة (التوضيحية) التي كتبت إليك عنها في الصيف، فهي لا تزال ديناً في رقبتي (...)

إذن، سأرسل ما وعدت به في ديسمبر.

وتقبَّل، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، خالص احترام

عبدك المطيع ف. دوستويفسكي

(...)

(1) في صيغته النهائية جاء هذا النص بخمس ملازم تقريباً.

219. إلى فاسيلي صامويلوف

بطرسبورغ، 17 ديسمبر 1879

السيد الكريم

فاسيلي فاسيليفيتش[1] المحترم

أشكرك جزيل الشكر على رسالتك الرائعة. وأنا مسرور جداً لمراسلة شخص مثلك. رأيك بخصوصي أعز وأثمن من جميع الآراء والتقاريظ التي تسنى لي أن أقرأها بشأن مؤلفاتي. فأنا أستمع إلى رأي خبير نفساني عظيم حظي بإعجابي منذ سني فتوتي وشبابي حينما كنت أنت ذلك الخبير في بدايات مأثرتك الفنية. وكان لموهبتك العبقرية بالطبع وبالتأكيد تأثير غير قليل عليّ، على روحي وعقلي. ويسرني وأنا في نهايات مسيرة حياتي أن أشهد لك بهذا الفضل. فليمنحنا اللّه أنا وإياك عمراً مديداً. أشد على يدك بحرارة.

وتقبَّل مني خالص الاحترام وعميق التقدير لك ولموهبتك الرائعة.

ف. دوستويفسكي

---

(1) من أبرز ممثلي مسرح ألكسندرينسكي في بطرسبورغ.

220. إلى أ. كورنوسوفا[1]

بطرسبورغ، 15 يناير 1880

بداية أرجو أن تسامحيني على تأخير الجواب (. . .) وبماذا عساي أن أجيب على رسالتك؟ أسئلتك لا يمكن الإجابة عنها في رسالة. أنا أغلب الأحيان في البيت من الثالثة حتى الخامسة بعد الظهر. أغلب الأحيان وليس كل يوم.

فتعالي إليَّ إذا أردت وسنتحدث وجهاً لوجه بأكثر مما في الرسالة المجردة رغم ضيق وقتي. رسالتك متهيجة ساخنة. وأنت تعانين حقاً ولا يمكن أن تتخلصي من المعاناة، ولكن لمَ تفقدين معنوياتك؟ فلست أنت الوحيدة التي فقدت إيمانها، ثم وجدت طوق النجاة فيما بعد. تقولين إنهم قوضوا إيمانك بالمسيح، فلمَ لمْ تسألي نفسك قبل كل شيء: من هم هؤلاء الذين ينكرون المسيح المخلّص؟ أنا لا أقصد هل هم أخيار أم أشرار. بل أقصد هل يعرفون المسيح على حقيقته؟ صدقيني إنهم لا يعرفونه. لأنهم لو عرفوه ولو قليلاً لرأوا فيه كائناً استثنائياً لا يشبه خيرة الناس وأطيبهم. ثم إن كل هؤلاء الأشخاص لا وزن لهم، ولا يمتلكون أي تحصيل علمي في معرفة ما

ينكرونه. إنهم ينكرون على قدر عقولهم. فهل لهم عقول صافية نقية؟ وقلوب نيرة وضاءة؟ وأنا لا أقصد هنا أيضاً ما إذا كانوا أخياراً أم أشراراً. وإنما هم مصابون بعدوى المرض العام الراهن لجميع المثقفين الروس، عدوى الموقف المستهتر بالأمور والغطرسة البالغة التي لا تتقبلها أذكى العقول في أوروبا، إلى جانب الجهل المطبق بما يحكمون عليه. في اعتقادي أن هذا بحد ذاته كان يمكن أن يمنعك من الرفض والإنكار، أو، على الأقل، يحملك على التأمل والتفكير والارتياب في ما يقولون. أنا أعرف الكثيرين من الروافض الذين توجهوا بكل كياناتهم نحو المسيح في آخر الأمر. بيد أنهم كانوا يتعطشون إلى الحقيقة غير المزيفة، حتى اكتشفوها. فمن جد وجد.

أشكرك كثيراً على كلماتك الدافئة تجاهي. أشد على يدك، وإلى اللقاء إنْ كنت ترغبين في اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

(1) لعلها من مستمعات الدورة النسائية العليا.

221. إلى يكاترينا يونغيه

بطرسبورغ، 11 أبريل 1880

السيدة الكريمة يكاترينا فيودوروفنا[1] المحترمة

معذرة لتباطؤي في الجواب على رسالتك الودية الرائعة. فلا تعتبري ذلك التباطؤ إهمالاً مني. كنت أريد أن أرد عليك بصدق وأريحية، إلا أن حياتي تمر، واللّه، في غليان واضطراب، بل في تشويش نادراً ما يسمح لي أن أعود إلى نفسي وأهتم بأموري. والآن أيضاً، حيث انتهزت الفرصة لأكتب إليك، لا أعتقد أنني أستطيع أن أكتب ولو جزءاً ضئيلاً مما يريد الفؤاد أن أنقله إليك. ولا يسعني إلا أن أقدّر رأيك بخصوصي. فالسطور التي عرضتها عليّ والدتك الكريمة من رسالتك إليها مست شغاف قلبي، بل وأدهشتني. أنا أعرف أن لدي، ككاتب، كثيراً من العيوب والنواقص، لأنني نفسي أول من لا يرضى عن نتاجي دوماً. ويمكنك أن تتصوريني في حالات المحاسبة الذاتية المتشددة وأنا أدرك غالباً أنني لم أعبّر عن عشر معشار ما أردت، وما أستطيع أن أعبّر عنه على الأرجح. ولا ينقذني سوى أملي اليوم بأن اللّه قد يمنحني في وقت ما قدراً من الإلهام

والطاقات لكي أعبّر أكثر، والأصح لكي أعبّر عن كل ما في فؤادي وخيالي. في المناقشة الأخيرة لرسالة (الدكتوراه) للفيلسوف الشاب فلاديمير سولوفيوف ابن المؤرخ (المعروف) سمعت منه العبارة التالية: «إن البشرية باعتقادي تعرف أكثر بكثير مما عبّرت عنه حتى الآن في علومها وفنونها». وهذا ما يحصل لي. فأنا أشعر أن في داخلي أكثر بكثير مما استطعت أن أعبّر عنه ككاتب حتى الآن. ومع ذلك أقول بلا تواضع متكلف إن في ما عبّرت عنه كثيراً من الصدق النابع من القلب. وأقسم لك أنني تلقيت مشاطرة واستحساناً كبيرين، ربما أكثر مما أستحق. إلا أن المقالات المنشورة في النقد الأدبي، حتى وإن كانت تمتدحني، في حالات نادرة، إنما تتحدث عني بسطحية واستخفاف وكأن أصحابها لم يلاحظوا مطلقاً ما تمخض عنه فؤادي وروحي بصدق وألم. ويمكنك أن تستخلصي من ذلك مدى ارتياحي للتقويم الرهيف العميق لنتاجي ككاتب في رسالتك عني إلى والدتك الموقرة.

ها قد أطلت الكتابة عن نفسي، مع أن من الصعب عدم الكتابة في هذا الإطار عندما أتكلم مع ناقدة عميقة مليحة لأدبي، كما هي عليه أنت. ثم إنك تكتبين عن حالتك النفسية الراهنة. أنا أعرف أنك رسامة ممارسة. فاسمحي لي بنصيحة من صميم القلب: لا تتركي محراب الفن، بل انهمكي فيه أكثر من الآن. وأنا أعرف، وسمعت لا مؤاخذة، أنك لست سعيدة جداً. فعندما تعيشين في عزلة وتثقلين على روحك بالذكريات قد تجعلين حياتك كئيبة تماماً. والملاذ الوحيد، والعلاج الناجع هو الفن والإبداع. واعترافك الذي لا تنوين كتابته، الآن على الأقل، قد يكون صعباً جداً عليك. اعذريني على نصائحي، ولكن بودّي أن أراك وأقول لك كلمتين وجهاً لوجه. فبعد الرسالة التي

كتبْتِها إليّ صرتِ بالطبع إنساناً عزيزاً عليّ، وكائناً أقرب لي روحياً، وأختاً شقيقة في الفؤاد لا بد أن أواسيها وأشاطرها مشاعرها.

تكتبين عن الازدواجية في حالتك النفسانية، وهي سمة عادية لدى الأشخاص... غير العاديين.

إنها سمة ملازمة للطبيعة البشرية عموماً، لكنها لا تصادف في طبيعة كل إنسان بالشدة التي لديك. ولذا أنت عزيزة عليّ، لأن انفصام الشخصية الذي عندك هو تماماً مثلما عندي. وكان يلازمني طول حياتي. ذلك أذى كبير، ولكنّه مبعث ارتياح كبير أيضاً. إنه وعي معمق وحاجة إلى مراجعة الذات واحتياج في طباعك إلى الشعور بالواجب الأخلاقي تجاه نفسك وتجاه البشرية. هذا ما تعنيه الازدواجية والانفصام (...) ومع ذلك تنطوي الازدواجية على أذى كبير. عزيزتي يكاترينا فيودوروفنا المحترمة، هل تؤمنين بالمسيح ووصاياه؟ إذا كنت تؤمنين، أو تتوقين جداً إلى الإيمان، فكرّسي نفسك للمسيح، وعندها يخفت ألم الانفصام كثيراً. وتحصلين على متنفس لخلجات الروح، وهذا هو الأهم.

معذرة على هذه الرسالة المشوشة والتصحيحات على النص. يا ليتك تعلمين مدى عدم إجادتي كتابة الرسائل وصعوبة تحبيرها. لكنني سأرد على رسائلك دوماً إذا واصلت الكتابة لي. فأنا لا أريد التفريط بصديق مثلك بعد أن كسبته. والآن إلى اللقاء مع التمنيات القلبية من الصديق المخلص لك والقريب منك روحياً

ف. دوستويفسكي

---

(1) رسامة وناقدة أدبية، زوجة طبيب العيون الذي عالج دوستويفسكي.

222. إلى ألكسي سوفورين

ستارايا روسا، 14 مايو 1880

الفاضل ألكسي سيرغييفيتش[1] المحترم

أشكرك على رسالتك الكريمة. قبيل سفري من بطرسبورغ استلمت من يوريف بصفته رئيساً لجمعية «عشاق الأدب الروسي»، وكذلك من الجمعية نفسها دعوة رسمية للمجيء إلى موسكو لإلقاء «كلمة»، على حد تعبيرهما، في جلسات أعضاء الجمعية في يومي 27 و28 مايو، فيما تقام مأدبة غداء يوم 26 مايو تلقى فيها أيضاً كلمات ويحضرها تورغينيف وبيسيمسكي وأوستروفسكي وإيفان أكساكوف وكثيرون غيرهم على ما يبدو. وإلى ذلك انتدبتني «الجمعية الخيرية السلافية» لأحضر احتفالات إزاحة الستار عن التمثال[2] والمشاركة كممثل عنها في جلسات جمعية «عشاق الأدب الروسي». وقررت أن أغادر ستارايا روسا في 23 من الشهر. ولا أستطيع أن آتي إلى بطرسبورغ مجدداً من أجل التذكرة، وإذا لم أحصل على تذكرة للقطار الخصوصي (إلى موسكو) في محطة تشودوفو فسأقتني تذكرة للقطار العادي. وأشكرك على اقتراحك باقتناء تذكرة لي، إلا أن الأسهل

والأهون أن أقتني التذكرة بنفسي. ويؤسفني جداً أنك ربما لن تحضر، فقد كان من الأريح أن نجتمع نحن الضيوف من بطرسبورغ في شلة أكثر تلاحماً ومرحاً. ولذا ألا يمكنك أن تحاول المجيء؟ حاول رجاءً. ولم يعجبني نبأ سفر بورينين إلى منطقة الفولغا، كنت أتوقع أن يكتب شيئاً عن الجزء الأخير من «الأخوة كارامازوف»، فأنا أعتز برأيه (...)

مع فائق الاحترام والتقدير

المخلص ف. دوستويفسكي

تذييل: أين ستنزل فيما لو قررت المجيء إلى موسكو؟ أنا سأحاول الإقامة في «الفندق الأوروبي» مقابل مسرح مالي تياتر، أو في فندق ديوسو إذا لم أحصل على غرفة هناك. وهو قريب جداً من «الفندق الأوروبي». وسأكون في موسكو على الأرجح مساء 24 من الشهر.

---

(1) رئيس تحرير صحيفة «العصر الحديث».

(2) تمثال بوشكين في موسكو (للنحات ألكسندر أوبيكوشين). للشاعر العبقري حالياً أكثر من 400 تمثال في روسيا وفي 40 دولة أخرى، بما فيها مصر (الإسكندرية 2011، للنحات الروسي غريغوري بوتوتسكي).

223. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 23-24 مايو 1880

صديقتي العزيزة آنيا، لا يمكنك أن تتصوري كم تألمت وأنا في الطريق لوفاة الإمبراطورة[1] رحمها اللّه. صلّي على روحها. بلغني النبأ من الركاب وأنا في عربة القطار حالما غادرنا نوفغورود. وخطر في بالي حالاً أن احتفالات بوشكين ستلغى، ففكرت أن أعود إليكم من (محطة) جودوفو، لكنني امتنعت بسبب المجهول: «فإذا ألغيت الاحتفالات يمكن إزاحة الستار عن التمثال من دونها، من خلال الجلسات الأدبية والخطب». وعندما غادرنا تفير في 23 من الشهر اشتريت «الوقائع الموسكوبية»، وقرأت فيها إشعاراً من الحاكم العام دولغوروكي بأن الإمبراطور أرجأ إزاحة الستار «لحين آخر». ما يعني أنني قادم إلى موسكو بلا موجب. وأنوي مغادرتها في التاسعة من صباح الثلاثاء المصادف 28 مايو. وحتى ذلك الحين سأنتهز فرصة تواجدي في موسكو لأستوضح بعض الأمور وألتقي لوبيموف وأتكلم عن مواصلة نشر «الأخوة كارامازوف»، كما ألتقي كاتكوف وأطوف على موزعي كتبي وهلمجرا. المهم أن يتسع الوقت لذلك. كما

سأطلع على حقيقة الدسائس الأدبية (. . .) كان النهار قائظاً. وأنا لم أذق طعم النوم. فوصلت إلى موسكو متعباً محطماً في العاشرة حسب التوقيت المحلي. وفي المحطة كان في انتظاري يوريف ولافروف وكل أفراد هيئة التحرير ومستخدمي «الفكر الروسي»، أكثر من 10 أشخاص مبتهجين، وبينهم نيكولاي أكساكوف وبارسوف. تعرفت عليهم، ودعوني في الحال إلى تناول طعام العشاء على مائدة أعدها لافروف خصيصاً. إلا أنني كنت مرهقاً من متاعب السفر ولم أكن قد اغتسلت ولا بدلت ثيابي، فرفضت الدعوة. غداً، 24 من الشهر، سأذهب إلى يوريف في الثانية بعد الظهر. قال لي لافروف إن أفضل وأريح فندق في موسكو هو «لوسكوتنايا» على شارع تفيرسكايا قرب الكنيسة التي تحنو على أيقونة عذراء إيفيريا. ومضى في الحال وأحضر حوذياً وصفه بالسائس، إلا أنه، كما خيل إليّ، لم يكن سائساً، بل هو حوذيه الخاص أو شخص جسور آخر. أوصلني إلى الفندق ورفض استلام الأجرة. فأعطيته قسراً 70 كوبيكاً. كل غرف الفندق محجوزة، لكنهم هيأوا لي حجرة بـ 3 روبلات. مؤثثة جيداً، لكن نوافذها لا تطل على الشارع، بل ترتطم بجدار الباحة، وأظن أنها ستكون معتمة نهار غد.

أتوقع أن لا تنشر مقالتي(2) لحين من الوقت. لأن من الغريب أن تنشر الآن. وبالتالي لن أستعيد تكاليف السفرة حالياً. الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل. الأمر صعب جداً عليَّ من دونكم، ثلاثتكم، من دونك ومن دون الصغيرين الجميلين. أقبِّلكم جميعاً بحرارة، أنت في البداية، ثم ليليا، ثم فيديا. قبِّليهما بدلاً مني بكل حرارة، وقولي لهما إنني أحبهما حباً جماً. ربما لن أتمكن من استلام شيء من موزعي الكتب. فلن يتمكنوا من التسديد في يومين. إلى

اللقاء، إذن. لا أدري هل سأستلم منك رسالة. (أظن أن الوقت لن يتسع لرسالة) فأنا أريد أن أصل إلى روسا في الـ 29 من الشهر (. . .) لو حصل مكروه، لا سمح اللّه، ابعثي لي برقية على عنوان الفندق (. . .)

مرة أخرى أعانقكم ثلاثتكم، وأقبّلكم بحرارة.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) ماريا ألكساندروفنا، عقيلة القيصر ألكسندر الثاني، توفيت في 22 مايو 1880، ما أسفر عن إرجاء مراسم إزاحة الستار عن تمثال بوشكين.

(2) المقصود خطاب دوستويفسكي عن بوشكين.



224. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 25 مايو 1880

الأحد. فندق «لوسكوتنايا» على شارع تفيرسكايا.

صديقتي العزيزة آنيا. صباح أمس جاءني في زيارة مجاملة كلٌّ من لافروف ونيكولاي أكساكوف[1] والدكتور زفيريف الأستاذ المساعد في الجامعة. وكان عليّ في ذلك الصباح نفسه أن أرد الزيارة لثلاثتهم. وتطلّب ذلك وقتاً وتنقلات كثيرة. ثم مضيت إلى يوريف، وقد احتفى بي وقبّلنا بعضنا بعضاً. وعلمت أنهم يريدون أن يطلبوا سماحاً بإزاحة الستار عن التمثال في الخريف، في أكتوبر، وليس في يونيو ويوليو كما تصر الرئاسة، على ما يبدو. وعندها ستكون الاحتفالات مجتزأة لحد الصفر، لأن أحداً لن يأتي لحضورها في هذا الخريف. ولم أفهم من يوريف شيئاً على وجه التحديد بخصوص المسألة، فالرجل مرتبك مشوش الأفكار وكأنه صورة جديدة للسيد ريبتيلوف[2]، ولكن بشيء من الدهاء والدسائس. وعندما تطرقت إلى مقالتي قال إنه لم يطلبها مني، فيما أتذكر جيداً أنه طلبها في رسائله إليّ. والقضية أن ريبتيلوف الداهية لا يريد أن يأخذ المقالة ويدفع ثمنها الآن، بينما يقول لي: «في

الخريف لا تعط المقالة لأحد غيرنا، فنحن أول من يطلبها، وسيكون لديك وقت لتنقيحها». ما يعني أنه يعرف أن المقالة غير منقحة بعد. وبالطبع أنهيت الكلام في الموضوع حالاً ولم أعط للخريف سوى وعد غير إلزامي. لم يعجبني ذلك على الإطلاق. ثم مضيت إلى نوفيكوفا، فاستقبلتني ببشاشة وترحاب، ثم قمت بالزيارات (الجوابية)، ثم ذهبت إلى كاتكوف ولم أجده في البيت، كما لم أجد لوبيموف. ومضيت إلى موزعي الكتب. اثنان منهم غيّرا مكان سكناهما. ووعدوا جميعاً أن يقدموا شيئاً يوم الاثنين. ولا أدري هل سيقدمون فعلاً. ومع ذلك سأذهب إليهم الاثنين، وسأحاول تسجيل العناوين الجديدة. ثم عرّجت على إيفان أكساكوف. لا يزال في المدينة، لكني لم أجده في البيت. كان في البنك. عدت إلى الفندق، وتناولت طعام الغداء، ثم مضيت إلى كاتكوف في السابعة مساءً. فوجدته ووجدت لوبيموف واستقبلاني بكل ترحاب. تحدثت مع لوبيموف عن توصيل «الأخوة» إليهم، وكانوا مصرّين على شهر يونيو، وسأضطر إلى العمل كثيراً حينما أعود. ثم ذكرت مسألة المقالة فألح كاتكوف على طلبها. في الخريف على أية حال. فوعدته تقريباً، وأنا أشعر بالغيظ الشديد على يوريف. وبالتالي إذا أرادت «الفكر الروسي» المقالة فسأنتزع منهم مبلغاً باهظاً، وإلا سأسلمها إلى كاتكوف. علما بأنني يمكن أن أوسعها حتى ذلك الحين.

بعد كاتكوف الذي انسكب قدح الشاي على ثيابي عنده فتبللت كثيراً، مضيت إلى بربارة، فوجدتها في البيت، ومع أن الوقت متأخر، حوالى العاشرة، فقد ذهبت معها إلى يلينا بافلوفنا. وكانت بربارة قد استلمت تواً رسالة من أخينا أندريه ومعها وثائق (تسجيل) لقب النبيل، لكي تسلمها إليّ. وأخذت منها رسالة أندريه أيضاً. واتضح أن يلينا بافلوفنا تركت فندقها وانتقلت إلى شقة أخرى. فمضينا إلى هناك

ووجدنا في ضيافتها ماشا ونينا إيفانوفا التي تصالحت يلينا بافلوفنا معها، وكذلك خميروف (. . .) جلسنا قرابة ساعة، وعندما عدت إلى الفندق وجدت رسالة حملها لي نيكولاي أكساكوف شخصياً مع لافروف. وهما يدعوانني لتناول طعام الغداء في 25 من الشهر، أي اليوم، وسيأتيان ليرافقاني في الساعة الخامسة. المأدبة يحييها منسوبو «الفكر الروسي»، كما سيحضرها آخرون. أعتقد سيكون هناك ما بين 15 إلى 30 شخصاً كما لمّح يوريف حينما كنت عنده. أظن أن المأدبة تقام في أحد المطاعم لمناسبة وصولي، أي تكريماً لي. كل أدباء موسكو الشباب هؤلاء يتوقون إلى التعارف معي. الآن الساعة الثالثة، وسيأتون بعد ساعتين. ولا أدري هل يتعين أن أرتدي السترة الطويلة أم سترة السهرة. إلى هنا ينتهي تقريري. لم أطلب نقوداً من كاتكوف، لكنني أبلغت لوبيموف أنني قد أحتاج إليها في الصيف. فأجابني أنه سيرسلها حال الطلب إلى أي جهة أريد. غداً سأطوف على الموزعين، وأعرج على يلينا بافلوفنا، عسى أن تكون قد وصلت رسالة منك. (. . .) وبعد غد الثلاثاء، 27 من الشهر، أتوجه إلى روسا، لكنني لا أعرف حتى الآن بقطار الصباح أو قطار الظهر. أخشى أن لا تسمح لي الأشغال بالسفر غداً. يوريف يزعق طول الوقت أنه يريد أن يتحدث إليّ، وهلمجرا. عموماً أشعر بملل شديد، وأعصابي منهارة. ربما لن أكتب لك أكثر، إلا إذا حصل شيء خارق للعادة. إلى اللقاء، يا عزيزتي، أقبّلك والصغيرين بحرارة، وأنت قبّلي بدلاً مني ليليا وفيديا. أحبكم كثيراً.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) أمين سر جمعية «عشاق الأدب الروسي».

(2) بطل كوميديا غريبويديف «ذو العقل يشقى».

225. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 26 مايو 1880
فندق «لوسكوتنايا» على شارع تفيرسكايا، غرفة 33

صديقتي العزيزة آنيا، هذه رسالة أخرى إليك، أكتبها في الثانية بعد منتصف الليل.

وقد تصلك بعد مغادرتي. لأنني عازم على المغادرة إليكم، على أية حال، يوم الثلاثاء المصادف 27 من الشهر. ولذا أكتب إليك تحوّطاً لما قد يستجد. فالملابسات قد تقتضي أن أبقى لبعض الوقت. ولكن فلأتحدث بالترتيب. في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم جاءني لافروف ونيكولاي أكساكوف واصطحباني في عربتهما الخاصة إلى (مطعم فندق) «أرميتاج». كانا في سترتين طويلتين، وأنا أيضاً جئت في سترة طويلة (وليس في بدلة السهرة) مع أن المأدبة أقيمت تكريماً لي. وكان ينتظرنا في المطعم 22 من الأدباء والبروفيسوريين والعلماء. وأبلغني يوريف أول ما التقاني في المأدبة المهيبة أن الكثيرين أرادوا حضورها، ولو كان الوقت يكفي ليوم آخر لحضرها مئات الضيوف، لكنهم استعجلوا في إحيائها، ولذا يخشون من ملامة

الكثيرين عندما يعرفون بها ولم يدعُهم أحد لحضورها. كان هناك 4 من كبار أساتذة الجامعة، وكذلك بوليفانوف (. . .) صديق عائلة بوشكين، وإيفان سرغييفيتش أكساكوف ونيكولاي أكساكوف ونيكولاي روبنشتين الموسقوفي وغيرهم. كانت المائدة تنوء بما لذ وطاب من طعام وشراب. وقد شغلت قاعة بكاملها، وأكيد أنها مكلفة. أسماك السلمون لا أطول منها، وأسماك طويلة أخرى من الجودة نفسها، وحساء السلاحف وتوت الأرض وطيور السمان، وخضار الهليون اللذيذ والبوظة والكثير من النبيذ الممتاز والشمبانيا. رفعت من أجلي وقوفاً (سبعة) أنخاب رسمية، بعضها خطب عصماء. تكلم يوريف وأكساكوف الأول والثاني وثلاثة من الأساتذة الجامعيين ونيكولاي روبنشتين. ووصلت أثناء تناول الطعام برقيتا تهنئة إحداهما من بروفيسور محترم جداً أضطر لمغادرة موسكو فجأة. ودار الحديث عن أهميتي «العظيمة» كفنان «ذي أريحية عالمية» وككاتب اجتماعي ومواطن روسي. ثم توالت الأنخاب، وكان الجميع ينهضون ويقتربون مني ليقرعوا كؤوسهم بكأسي. سأحدثك بباقي التفاصيل عندما نلتقي. كان الجميع في أحسن مزاج. وجاء ردي عليهم في خطاب موفق تماماً، كان له تأثير كبير، علماً بأنني تطرقت في كلمتي إلى بوشكين خصيصاً، وكان لذلك وقع عميق.

هنالك صعوبة أخرى لا تطاق. زار وفد من جمعية «عشاق الأدب الروسي» اليوم الأمير دولغوروكي، فأعلن له أن إزاحة الستار عن التمثال ستتم ما بين الأول والخامس من يونيو. ولم يذكر الموعد بالتحديد. وها هم في سرور، بمعنى «أن الأدباء وبعض أعضاء الوفود لن يتفرقوا. ومع غياب الموسيقى والعروض المسرحية ستعقد على أية حال جلسات للجمعية، وستلقى خطب، وتقام ولائم». وعندما أعلنت

أنني مسافر في الـ 27 من الشهر ثارت ضجة صاخبة: «لن نسمح بالسفر». وأعلن بوليفانوف، وهو عضو في «لجنة الاحتفالات بإزاحة الستار»، وكذلك يوريف وأكساكوف على الملأ أن كل أهالي موسكو يقتنون تذاكر الجلسة وجميع الذين يقتنون تذاكر جلسات جمعية «عشاق الأدب الروسي» يتساءلون مراراً وتكراراً: هل سيتكلم دوستويفسكي؟ ولما كان من المتعذر تحديد الجلسة التي سأتكلم فيها، هل هي الأولى أم الثانية، فقد أخذ الناس يشترون تذاكر الجلستين. وقال لي ثلاثتهم: «إن موسكو كلها ستشعر بالمرارة والغضب علينا إذا غادرتَ». وتحججتُ بضرورة كتابة «الأخوة كارامازوف» فصاحوا جادين بأنهم سيرسلون وفداً إلى كاتكوف ليمدد لي موعد التسليم. وقلت لهم إنكِ مع الصغيرين ستقلقون عليَّ إذا بقيت هنا كل هذه الفترة الطويلة فاقترحوا جادين بأن يبعثوا إليك برقية ووفداً إلى ستارايا روسا ليطلبوا منك السماح ببقائي (في موسكو). وأجبتهم بأنني سأبت في الأمر غداً، الاثنين.

وها أنا قلق أواجه إحراجاً كبيراً: فمن جهة تعزيز موقعي في موسكو، فضلاً عن بطرسبورغ، يعني الكثير، ومن جهة أخرى يواجهه فراقكم وتعقيدات «الأخوة كارامازوف» والنفقات وما إلى ذلك. ثم إن «خطابي» عن بوشكين سينشر حتماً، لكنني لا أعرف تقريباً أين سينشر. يوم السبت وعدت كاتكوف أن أسلمه الخطاب، ما يعني أن «عشاق الأدب الروسي» ويوريف سيكونون في حزن عظيم. وإذا أعطيتهم الخطاب يزعل كاتكوف. أفكر في الرحيل يوم الـ 28 أو الـ 29، إن لم يكن في الـ 27 من الشهر، حين يأتي إشعار بالموعد الدقيق من دولغوروكي لإزاحة الستار. ربما سأضطر إلى الانتظار حتى معرفة ذلك الموعد. من جهة ثانية دولغوروكي يتكلم عن نفسه، ولم

يستلم الموعد الدقيق بعد من بطرسبورغ. وهو نفسه، كما عرفت، سيسافر إلى بطرسبورغ لبضعة أيام. ولذا فلو افترضنا أنني سأبقى حتى الخامس من يونيو فقد يصدر أمر بإرجاء الاحتفالات حتى العاشر أو الخامس عشر من الشهر، فهل يتعين عليَّ أن أنتظر كل هذه الفترة؟ سأبلغ يوريف غداً بأنني مسافر في 27. وإذا بقيتُ فلأسباب وجيهة ودقيقة. على أية حال أنا الآن في قلق شديد. بعد الغداء مضيت إلى يلينا بافلوفنا، ولم أجد رسالة منك. بالطبع لا يزال الوقت مبكراً لوصولها من ستارايا روسا. وأخشى أن لا أستلمها غداً. ذهبت مع يلينا إلى ماشا إيفانوفا، وحدثتها عن مأدبة الغداء مع روبينشتين، فدهشتْ إعجاباً (. . .)

علماً بأنني انتخبت لعضوية جمعية «عشاق الأدب الروسي» قبل عام، إلا أن أمين السر السابق بيسونوف، وبسبب الإهمال، لم يبلغني بانتخابي، فقدموا اعتذارهم لهذا التقصير. أعانقك، يا عزيزتي، بحرارة، وأقبِّل الصبي والصبية. في المنام أرى أحلاماً غريبة وذات مغزى.

(. . .)

ألقيت كلمة جيدة. أعانقك من جديد. قبِّلي الصغيرين وحدثيهما عن بابا.

(. . .)

تذييل: أفكر في الإصرار على المغادرة يوم 27. صحيح أن الخطاب لن ينشر والحال هذه. فستكون له أهمية ليس كخطاب، بل كمقال. ولا بد من تعديله لهذا الغرض.

كانت المأدبة فاخرة لدرجة أنهم أحضروا مئتين من السيجار الرائع

الثمين على القهوة وشراب الليكور بعد الغداء. ولائمهم أكثر أناقة من ولائم بطرسبورغ.

تذييل:

25 مايو، الثانية بعد الظهر.

عزيزتي آنيا، فتحت مظروف رسالتي إليك بعد أن أغلقته أمس لأضيف إليه ما يلي: صباح اليوم جاءني إيفان سرغييفيتش أكساكوف وألح عليَّ في طلب البقاء حتى الافتتاح، لأنه سيتم، كما يتوقع الجميع، قبل الخامس من الشهر. وقال إنه لا يجوز لي أن أغادر ولا يحق لي أن أفعل، لأن لي تأثيراً على موسكو، والأهم على الطلبة والشباب عموماً، لدرجة أن رحيلي يسيء إلى انتشار معتقداتنا، وإنه عندما سمع على الغداء أمس الأفكار الأساسية في خطابي تيقن من ضرورة مشاركتي وما إلى ذلك. ومن ناحية أخرى أبلغني بأنني لا أستطيع المغادرة لأنني مندوب عن الجمعية الخيرية السلافية، وقد قرر جميع المندوبين الانتظار والبقاء نظراً للشائعات حول قرب موعد إزاحة الستار. وحالما انصرف جاءني يوريف الذي سأتناول طعام الغداء عنده اليوم وقال لي الشيء ذاته. هذا اليوم، الـ 25، سافر دولغوروكي إلى بطرسبورغ ووعد بإرسال برقية من هناك بشأن الموعد المحدد لإزاحة الستار عن التمثال. والمنتظر أن تصل البرقية لا أبعد من يوم الأربعاء، 28 من الشهر، وربما غداً. فقررت أن أبقى في انتظار البرقية، وإذا كانت إزاحة الستار ستجري فعلاً بين الأول والخامس من يونيو، فلن أغادر. وإذا كان الموعد أبعد من ذلك فسأتوجه إلى ستارايا روسا في الـ 28 أو 29 من الشهر. وقد أبلغت يوريف بذلك. والمهم أنني لم أتمكن من معرفة مكان تواجد زولوتاريوف، المندوب الثاني للجمعية الخيرية السلافية. ووعدني

يوريف بالبحث عنه. وعندها أستطيع أن أغادر فيؤدي زولوتاريوف وحده مهمة حضور الاحتفالات. على فكرة، الأكاليل التي ستوضع عند قاعدة التمثال تصنع على حسابنا، ثمن الإكليل الواحد 50 روبلاً... ثم ألح عليّ يوريف أن تنشر المقالة في (مجلته) «الفكر الروسي». فأبلغته بكل شيء، وبأنني وعدت كاتكوف تقريباً بتسليمه المقالة. فانفعل كثيراً وشعر بأسف شديد، واعتذر مشدداً أنني فهمته خطأً، فحصل سوء فهم. وعندما لمحت له بأنني أتقاضى أجوراً على عملي قال مهتاجاً إن لافروف قرر أن يدفع لي كل ما أطلب، ولو 400 أو 500 روبل. وعندها قلت ليوريف إنني وعدت بتقديم المقالة إلى كاتكوف مقابل تأجيل «الأخوة كارامازوف» بحيث تنشر مقالتي عن بوشكين بدلاً من «الأخوة» إرضاءً للجمهور. وإذا سلمتُ المقالة إلى «الفكر الروسي» أكون قد طلبت التأجيل من كاتكوف لأجل العمل في مصلحة منافسه يوريف. تصوري موقفي. إلا أن يوريف هو المذنب. وسيزعل كاتكوف لو فعلت. صحيح أنه لن يدفع، على سبيل المثال، 400 روبل، بل ولا حتى 300 روبل، فهو يعطيني هذا الأجر مقابل «الأخوة كارامازوف» ولن يعطيني مثله على المقالة. ولذا فإن المئة وخمسين روبل الإضافية من يوريف يمكن أن تغطي مصروفاتي على مكوثي هنا حتى إزاحة الستار عن التمثال. باختصار: التعقيدات والإشكالات كثيرة للغاية. ولا أعرف ماذا سيحصل، وكيف. لكنني رأيت أن أبقى حتى الـ 28 من الشهر. وإذا لم يقرروا إزاحة الستار قبل الخامس من الشهر القادم فسأعود إلى روسا في 29 أو 30 بعد أن أحاول نشر المقالة. فاكتبي لي بضعة سطور حالاً. أكرر رجائي من جديد. هل يعقل أنني لن أستلم منك ولا سطراً واحداً؟ اكتبي لي حتماً (...)

أنا ذاهب الآن إلى الموزعين، فإلى اللقاء. أقبّلكم جميعاً مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

يوريف استلم مقالة إيفان أكساكوف عن بوشكين. ولذا تهرّب مني، على ما يبدو، قبل ثلاثة أيام. وعندما سمع ما قلته عن بوشكين في مأدبة يوم أمس رغب في اقتناء مقالتي أيضاً. تورغينيف هو الآخر كتب مقالة عن بوشكين.



226. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 27 مايو 1880 الثالثة بعد الظهر

صديقتي العزيزة آنيا. إليك الأخبار من جديد. عندما وصلتُ رافقني يوريف ولافروف إلى فندق «لوسكوتنايا» (الذي أكتب إليك منه). فحجزت الغرفة رقم 32 بـ 3 روبلات. (وفي اليوم التالي عرض عليَّ صاحب الفندق أن أنتقل إلى الغرفة 33 وهي أفضل بما لا يقاس. فدهشت وتصورتها بثلاثة روبلات أيضاً). وعندما تناولت طعام الغداء في 26 من الشهر عند يوريف قال لي على غير المتوقع إن مجلس البلدية سجلني في الغرفة رقم 33 في الفندق. وسألته مستغرباً: «من أين تعرف البلدية بذلك؟» فقال: «أنت ضيف عليها». فهتفت ممتعضاً، فاعترض يوريف بأنني لا أستطيع أن أرفض الإقامة على حساب البلدية. كل الضيوف وحتى أولاد بوشكين[1] (. . .) يقيمون على حساب البلدية، وإنني إذا رفضت ضيافتها سأهينها وستكون تلك فضيحة كبيرة، في حين أن البلدية تفتخر بأن دوستويفسكي بين ضيوفها. وقررتُ أخيراً أن أتقبَّل الإقامة فقط من البلدية وأرفض الصرف عليّ. (وعندما أبلغت صاحب الفندق برفض الصرف عليّ)

قال: إنك بهذا تهين موسكو كلها وليس البلدية وحدها. فماذا عليَّ أن أفعل يا آنيا؟ إذا رفضت أتحول إلى أضحوكة، إلى فضيحة، وسيقول القائلون إنه لم يتقبل حسن الضيافة من مدينة موسكو بكاملها، وما إلى ذلك. وفي المساء سألت لافروف ويوريف، فأبديا استغرابهما من استنكافي وقالا صراحة إنني أهين موسكو كلها وهذه الإهانة تبقى عالقة في الأذهان وستسري عنها الأقاويل. وبالتالي أرى بوضوح أن عليّ أن أتقبّل حسن الضيافة كاملاً. لكنني متضايق جداً من ذلك. من الآن فصاعداً سأتناول الطعام في المطاعم عمداً، لكي أقلل على قدر الإمكان فاتورة الحساب التي سيقدمها الفندق إلى البلدية (. . .) أنا متضايق جداً. ومهما بقيت في موسكو لن أتعود على الإقامة فيها.

استلمت البارحة من ثلاثة موزعين إجمالاً 170 روبلاً (. . .).

عُلم في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم أمس، من أقوال دولغوروكي الأكيدة، أن إزاحة الستار ستتم في 4 يونيو. على هذا الموعد يصر المسؤولون في بطرسبورغ. البرقية النهائية من دولغوروكي بشأن الموعد الدقيق لإزاحة الستار لن تصل قبل يوم غد. إلا أن الجميع هنا واثقون من الرابع من الشهر كموعد نهائي. وإلى ذلك وصلت رسائل من بطرسبورغ بهذا الخصوص. وفود كثيرة من مختلف المدن والمؤسسات تنتظر ولا تتفرق. ويعم الانتعاش البهيج في كل مكان. لا يسمحون لي بالمغادرة أبداً. لذا رأيت أن أبقى على الأرجح، وإذا بدأت الاحتفالات في الرابع من الشهر فسأغادر إلى روسا في الثامن منه وأكون عندكم في اليوم التاسع. جاءني هذا الصباح غريغوروفيتش ثم يوريف وقالا إن موسكو ستعتبر غيابي تصرفاً غير سوي، وإن الجميع سيستغربون، ذلك لأن موسكو كلها تتساءل هل سأحضر، وإن سفري سيطلق المسخرة والنكات، وإن البعض سيقولون إنني أفتقر إلى

أبسط شعور وطني ولم أستهن بشؤوني الخاصة من أجل هذا الهدف السامي، لأن الجميع يرون في إعادة الاعتبار لبوشكين في روسيا كلها وسيلة لانعطاف جديد في المعتقدات والاتجاهات، والعقول والميول. هناك سببان يقفان حجر عثرة أمامي ويمعنان في إيلام روحي. أولهما، «البشير الروسي» والوعد الذي قطعته على نفسي قبل شهر أن أسلم مادة من «الأخوة كارامازوف» لعدد يونيو. فإذا عدت في 10 يونيو ماذا أستطيع أن أكتب في العشرة أيام المتبقية لموعد التسليم؟ فيما أجابني لوبيموف قبل أربعة أيام أن التأجيل حتى شهر يوليو يتوقف على ماركيفيتش إذا قدم فصولاً من روايته، وإلا فالتأجيل غير ممكن. جواب ماركيفيتش لن يأتي قبل العاشر من يونيو. وهكذا أنا الآن قلق في مواجهة المجهول. فكرت أن أواصل كتابة «الأخوة كارامازوف» هنا. إلا أن العمل متعذر تقريباً نظراً الزيارات والدعوات وما إلى ذلك. والسبب الثاني الذي يقضّ مضجعي هو الحنين إليكم والقلق لأني لم أستلم منك ولا سطراً واحداً حتى الآن، بينما اتفقنا أن تكتبي لي على عنوان يلينا بافلوفنا. فماذا حدث؟ خبريني، باللّه عليك، لماذا لا تكتبين؟ هل أنتِ في صحة جيدة؟ وهل الصغيران سليمان؟ كنت سأشعر بالاطمئنان لو كتبت لي عما إذا كان يتعين عليَّ أن أنتظر هنا حتى بدء الاحتفالات أم لا. أنت تعرفين من الصحف بوفاة الإمبراطورة، فكيف لا تكتبين متوقعة الصعوبات التي سأواجهها حتماً؟ كل يوم، ويوم أمس كان مطيراً، أقطع مسافة رهيبة إلى يلينا بافلوفنا في انتظار رسالة منك. أجرة الحوذي إلى هناك ذهاباً وإياباً روبل كامل. اكتبي لي، اكتبي من كل بد.

أظن أني سأبقى هنا بالتأكيد. يا ليتني أعرف الموعد الدقيق. ماذا لو أرجأوه من جديد؟ بالأمس حضرت أمسية عند لافروف بدعوة

وإلحاح منه. لافروف معجب بي ومتحمس لي جداً. وهو يتغذى على مؤلفاتي من سنين. إنه ناشر وممول «الفكر الروسي». وهو تاجر ثري لا يمارس البيع والشراء، وله شقيقان يتاجران بالحبوب، وقد انفصل عنهما ويعيش على رأس ماله. إنه شخص أريحي لطيف في الثالثة والثلاثين، متيم بالفن والشعر. حضر الأمسية عنده 15 شخصاً من العلماء والأدباء المحليين وكذلك عدد من أبناء بطرسبورغ. وأثار حضوري أمسيته أمس إعجاب الجميع. لم أكن راغباً في البقاء لتناول طعام العشاء، إلا أنني بقيت لعلمي بأن انصرافي سيخيب أمل الحاضرين. العشاء وليمة فاخرة مع الشمبانيا (...) أفاد غريغوروفيتش أن تورغينيف عاد من ليف تولستوي مريضاً، وأن تولستوي نفسه أصيب بالجنون تقريباً، ولربما جن نهائياً.[2] كما وصل آنينكوف. وسيكون لي معه لقاء عسير. ينبغي لي أن ألتقي كاتكوف ولوبيموف مجدداً لنتفق. أما يوريف فقد جاءني الآن طالباً المقالة واستعطفني أن أوافق على نشرها في «الفكر الروسي». ورد خبر بأن زولوتوريوف سيصل. ولا أخبار منكم وحدكم. اكتبي، يا آنيا، لوجه المسيح، على العنوانين اللذين ذكرتهما لك. هل استلمت كل رسائلي؟ كتبت إليك يومياً حتى الآن. أنت، يا آنيا، تحبين أن تتساءلي: هل أنا أحبك؟ وليس لديك ذرة من الحنين والشوق إليّ. بينما أنا أحن وأتشوق إليك. كيف حال الصغيرين؟ يا ليتني أسمع عنهما شيئاً. لا يزال هناك أسبوعان من الفراق، فهل هذا قليل؟ إلى اللقاء يا عزيزتي، أقبّلك بحرارة. وأقبّل الصبيّة والصبي وأبارك لهما. سأكتب لك غداً أيضاً إذا استجد ما يستحق الكتابة.

المخلص ف. دوستويفسكي

(...)

(1) حضر احتفالات إزاحة الستار عن تمثال بوشكين في موسكو أولاده الأربعة ماريا (متزوجة من هارتونغ) وألكسندر (على اسم أبيه) وغريغوري ونتاليا (على اسم أمها، متزوجة من ميرينبيرغ). أحفاد الشاعر العبقري وأبناؤهم يقيمون حالياً في روسيا (82) وفرنسا (24) وبريطانيا (20) وأمريكا (12) وبلجيكا (10) وسويسرا (6) وجزر الهاواي (6) وإيطاليا (3) والمغرب (3)، (نقلاً عن الإنترنت لعام 2016).

(2) أخفق تورغينيف في إقناع تولستوي بحضور احتفالات بوشكين.



227. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 28 مايو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

صديقتي العزيزة آنيا. استلمت منك أخيراً، مساء اليوم، خمسة أسطر بالقلم الرصاص مؤرخة في 24 من الشهر. طريق الرسالة طويل. استلمتها مساء الـ 27. وفرحت لها جداً، واكتأبت لأنها من خمسة أسطر لا أكثر، مكتوبة بلغة جافة: «العزيز فيودور ميخائيلوفيتش». سامحك اللّه! آمل أن أستلم رسالة أرقّ في المستقبل. أنت الآن تعرفين كل شيء من رسائلي. ويخيل إليَّ أنني سأبقى من كل بد حتى إزاحة الستار عن التمثال. أمس كنت عند كاتكوف. استمع إليّ، وكان قد سمع من الآخرين عن مدى انتظار «موسكو» لي، وقال مؤكداً إنني لا يجوز أن أغادر. وغداً ستصل برقية من دولغوروكي تحدد موعد الاحتفالات. إلا أن الجميع يتحدثون عن الرابع من الشهر. وإذا أزيح الستار في الرابع من يونيو فسأغادر على الأغلب في الثامن منه، بل وربما السابع. وسأكون عندكم في روسا في التاسع من الشهر. كنت قد عرّجت على كاتكوف لأتفق بخصوص تأجيل «الأخوة كارامازوف» إلى عدد يوليو. استمع إليّ بمودة،

وعموماً كان لطيف المعشر معي أفضل مما في أي وقت مضى. إلا أنه لم يذكر شيئاً محدداً عن التأجيل. كل شيء يتوقف على ما إذا كان ماركيفيتش سيبعث بقية روايته. وحدثته عن تعرفي على شخصية سامية (من أفراد عائلة القيصر) عند الكونتيسة مينغدين ثم عند (الأمير الكبير) قسطنطين قسطنطينوفيتش، فدهش مسروراً، وتفتحت أساريره. هذه المرة لم ينسكب قدح الشاي على ثيابي عنده، لكنه أكرم وفادتي بسيجار ثمين. وعندما انصرفت رافقني إلى المدخل وأثار استغراب هيئة التحرير التي رأت المشهد من نافذة الغرفة المجاورة، ذلك لأن كاتكوف لا يرافق أحداً إلى الباب. عموماً أعتقد أن لا مشكلة مع «البشير الروسي». ولم أتطرق أبداً إلى مقالتي عن بوشكين. فلعله ينساها، وعندئذٍ أسلمها إلى يوريف الذي سيدفع أكثر على ما أظن. أتمنى أن أحصل على قليل من وقت الفراغ حتى الثامن من الشهر لكي أكتب هنا شيئاً من «الأخوة كارامازوف» على سبيل الاحتياط. إلا أن ذلك مستبعد. وإذا نجح خطابي في الجلسة الاحتفالية فسأكون لاحقاً في موسكو، وفي روسيا بالتالي، معروفاً أكثر ككاتب، على مستوى القمة التي يتربع عليها تورغينيف وتولستوي. الناس هنا، على سبيل المثال، يعرفون غونتشاروف الذي لا يغادر بطرسبورغ، لكن معرفتهم به سطحية فاترة ومن بعيد لبعيد. ولكن كيف سأعيش من دونك ومن دون الطفلين كل هذه الفترة؟ اثنا عشر يوماً بلياليها. ليست هينة. أنا طول الوقت أحلم برؤية الصغيرين. والكآبة لا تفارقني. هل عادت الجدة؟ كيف تبقين وحدك؟ ألا تخشين شيئاً؟ ألست قلقة؟ باللّه عليك اكتبي لي أكثر. إذا حصل شيء، والعياذ باللّه، أبرقي لي حالاً. على فكرة، اكتبي لي مباشرة على عنوان الفندق. فلا وقت لي للذهاب يومياً إلى يلينا بافلوفنا. وأخشى أن تمل هي مني، كما أخشى أن

أضيع الوقت. فمتى أواصل «الأخوة كارامازوف»؟ اليوم ذهبت إليها، بعد كاتكوف، واستلمت رسالتك (. . .) الجو عندنا فيه مطر خفيف مع إشراقات من الشمس، والرياح شديدة نسبياً والهواء طلق عليل (. . .) إلى اللقاء، إذن. أعتقد أني كتبت كل ما يلزم. إذا استجد شيء غداً فسأكتب لك عنه، وإلا سأكتب بعد غد. بخصوص ليف تولستوي حتى كاتكوف أكد ما يشاع من أنه أصيب بالجنون.[1] وقد حثني يوريف أن أتوجه إليه في (ضيعته بضاحية) ياسنايا بوليانا. الطريق إلى هناك ذهاباً وإياباً مع الاستضافة أقل من يومين. ولكنني لن أذهب مع رغبتي الشديدة في ذلك. اليوم تناولت طعام الغداء في «مقصف موسكوفسكي»، خارج فندق «لوسكوتنايا»خصيصاً، لكي أقلل فاتورة الحساب (للبلدية) (. . .) إلى اللقاء، قبلاتي إلى «العزيزة آنّا غريغورينا»! عانقي الصغيرين بحرارة أكثر. وقولي لهما: هذا بناءً على طلب بابا.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) لم يزر دوستويفسكي الكونت ليف تولستوي من موسكو، كون تورغينيف نصحه بعدم زيارته في تلك الأيام نظراً للحالة النفسانية التي هو فيها. وفي عام 1908 كتب تولستوي أنه لم يحضر احتفالات تكريم بوشكين لأنها بدت له يومها غير طبيعية ولا تتجاوب مع مشاربه الروحية.

228. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 29 مايو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

عزيزتي آنيا. لا جديد، سوى أن برقية وصلت اليوم من دولغوروكي بخصوص إزاحة الستار في الرابع من الشهر، ما يعني أنني أستطيع أن أغادر موسكو في الـ 8 منه، بل وحتى في الـ 7. وسأستعجل السفر إليكم بالطبع. لكنني ملزم بالبقاء هنا، وقررت أن أبقى. لأن الحاجة إليّ لا تقتصر على «عشاق الأدب الروسي» وحدهم، بل الكل في حاجة إليّ، كل فريقنا ومجمل فكرتنا (السلافية) التي نناضل من أجلها منذ 30 عاماً، ذلك لأن الفريق المعادي، تورغينيف وكوفاليفسكي والجامعة بأسرها تقريباً، يسعى متعمداً إلى التقليل من أهمية بوشكين بوصفه المعبّر عن الأمة الروسية، بل وإلى إنكار وجود الأمة ذاته. ولا يقف في وجههم من جانبنا سوى إيفان سرغييفيتش أكساكوف، ولا وزن ليوريف والباقين. إلا أن أكساكوف «شاخ» وملت منه موسكو. أما أنا فهي لم تسمعني ولم ترني، لكن اهتمامها منصبّ عليّ. وسيكون لصوتي وزن، ما يعني أن جبهتنا ستتفوق. كنت طول عمري أسعى إلى ذلك، ولا أستطيع الآن الفرار

من ساحة المعركة. عندما قال كاتكوف، وهو ليس من أصحاب النزعة السلافية: «لا يجوز لك أن تغادر، ولن تستطيع أن تغادر» فليس لي بعد هذا الكلام أن أنسحب.

في الساعة الثانية عشرة هذا الصباح، وكنت لا أزال نائماً، جاءني يوريف بهذه البرقية. أخذت أرتدي ثيابي بحضوره، وأخبروني في تلك اللحظة عن مجيء سيدتين، ولم أكن قد ارتديت الثياب، فطلبت أن يستوضحوا مَن هما. فجاؤوني بقصاصة من سيدة اسمها إيلينا، تريد مني أن أسمح لها باختيار مقتطفات من جميع مؤلفاتي بخصوص الأطفال تناسب مداركهم لتنشرها في كتاب لمطالعة الصغار. يا سلام! هذه الفكرة نفسها كان علينا، أنا وإياك، أن نداريها وننفذها من زمان، ونصدر كتاباً للأطفال لا بد أن يحظى بالإقبال ويعود علينا ربما بـ 2000 روبل. أما هذه المرأة فتريدني أن أهديها 2000 روبل. يا للجرأة والوقاحة! مضى إليها يوريف في الحال، ولعله بسبب طيشه هو الذي نصحها بالمجيء إليّ، وأوضح لها أنني غير موافق ولذا لا أستطيع استقبالها. وحالما انصرف جاءت (شقيقتي) بربارة ميخائيلوفنا، على غير المتوقع، وحالما دخلت تبعها فيسكوفاتوف. انصرفت بربارة حالما عرفت بوجود ضيوف لدي. وعاد يوريف وقال إن السيدة الثانية التي لم تذكر اسمها لا علاقة لها بالأولى، وقد جاءت لتعرب عن احترامها اللامتناهي ودهشتها وامتنانها على كل ما قدمته لها من خلال مؤلفاتي وما إلى ذلك. ثم انصرفتْ ولم أرها. وجلستُ مع الضيفين نحتسي الشاي، فدخل علينا غريغوروفيتش. جلسوا عندي قرابة ساعتين. وعندما انصرف يوريف وفيسكوفاتوف بقي عندي غريغوروفيتش، ولا نية له بالانصراف. أخذ يحدثني عن

كيت وكيت، وعما حصل طوال ثلاثين عاماً متذكراً الماضي وما إلى ذلك. وكانت نصف أقواله بالطبع كذب في كذب، إلا أن فيها كثيراً من المتعة. ثم، في حوالي الخامسة، أعلن أنه لا يريد أن يفارقني وراح يقنعني بأن أتناول طعام الغداء معه. ومضينا إلى «مقصف موسكوفسكي» ذاته، وأمضينا وقتاً طويلاً على الغداء وهو يتحدث بلا انقطاع. وفجأة جاء أفيركييف مع عقيلته. التحق بنا أفيركييف، فيما أعلنت زوجته أنها ستمر عليّ فيما بعد، وكأنني بحاجة ماسة إليها! واتضح أن اثنين من أقارب بوشكين، هما (ابن أخته) بافليشيف و(ابن أخيه أناتولي لفوفيتش) بوشكين، يتناولان مع شخص آخر طعام الغداء جنبنا. وجاءني بافليشيف معلناً أنه هو أيضاً سيزورني فيما بعد. باختصار، أنا هنا، كما في بطرسبورغ، لا أعرف الهدوء. بعد الغداء ترجاني غريغوروفيتش أن أذهب معه إلى المتنزه «لتنشق الهواء الطلق». لكنني امتنعت وتفارقنا، فعدت إلى الفندق ماشياً، وبعد عشر دقائق مضيت إلى يلينا بافلوفنا لاستلام رسالتك. لكنني لم أجد لديها رسالة منك (. .) وبقيت عندهم حتى الحادية عشرة، ثم عدت إلى الفندق وشربت الشاي، وها أنا ذا أكتب إليك. هذا هو مجمل تقريري.

أكثر ما يزعجني أن رسائلنا تأخذ في الطريق ثلاثة أو أربعة أيام. وطالما أنني أبلغتك بعودتي فلن تكتبي لي بالطبع، بل تنتظرين وصولي في الـ 28 من الشهر. فمتى تصل إليك رسالة الأمس ورسالة اليوم، وفيهما القرار الجديد؟.أخشى أنك ستتحيرين وتقلقين. ولكن لا حيلة في الأمر. والشيء المؤذي أنني ربما لن أستلم منك رسالة طوال يومين، بينما يعتصرني الحنين إليكم. أنا أشعر بالكآبة هنا رغم

الضيوف والولائم. آه، يا آنيا، أسفي لأنك لم تتمكني، وما كان بوسعك طبعاً، أن ترافقيني. حتى مايكوف، كما يقال، غيّر رأيه وقرر أن يأتي. ستكون هناك مشاغل كثيرة، وينبغي الذهاب إلى المجلس البلدي بصفة مندوب، ولا أدري متى، لاستلام تذكرة حضور مراسم إزاحة الستار. نوافذ المساكن المحيطة بالساحة معروضة للإيجار مقابل 50 روبلاً للنافذة الواحدة. وتقام مدرجات خشبية للجمهور بتذاكر باهظة الثمن أيضاً. كما أخشى سوء الطقس والمطر في ذلك اليوم، يحتمل أن أصاب بالاستبراد. أنا لن ألقي كلمة في المأدبة يوم إزاحة الستار. وأعتقد أنني سأتكلم في جلسة جمعية «عشاق الأدب» في اليوم الثاني. وإلى ذلك يفكرون في استبدال العرض المسرحي بتلاوات من نتاجات بوشكين، حسب الاختيار، يؤديها أدباء معروفون، مثل تورغينيف وأنا ويوريف. طلبوا مني أن أتلو مشهد الراهب المدوِّن (من دراما «بوريس غودونوف») ومونولوج البخيل من (تراجيديا) «الفارس البخيل». وإلى ذلك سيلقي كلٌّ من يوريف وفيسكوفاتوف وأنا مراثي الشعراء بوفاة بوشكين. يوريف يلقي قصيدة غوبر («وفاة بوشكين») وفيسكوفاتوف يلقي قصيدة ليرمونتوف («مقتل الشاعر»)، وأنا ألقي قصيدة توتشيف فاجعة («العشرين من يناير 1837»).

الوقت ضيق. وثمة معوقات. لم أتمكن حتى الآن من مراجعة متجر التسويق المركزي ولا متجر موروزوف. ولم أزر تشايف، وعليّ أن أذهب إلى بربارة، كما أريد أن أتعرف على الأسقف نيكولاي يابونسكي والأسقف ألكسي، وهما من الشخصيات المهمة. نومي متقطع، ولا أرى في المنام سوى الكوابيس. أخشى أن أصاب بالرشح في يوم إزاحة الستار، كما أخشى من السعال أثناء الإلقاء.

أنتظر بفارغ الصبر رسالة منك. كيف حال الصغيرين العزيزين؟ يا إلهي، ما أشد رغبتي في رؤيتهما. كيف صحتك؟ وهل أنت مسرورة أم زعلانة؟ الأمر صعب عليَّ من دونكم. فإلى اللقاء. لن أذهب غداً إلى يلينا بافلوفنا. وعدتني أن تجلب الرسالة بنفسها فيما لو استلمتها منك. أعانقكم جميعاً بحرارة، وأبارك للصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)



229. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 30-31 مايو 1880

عزيزتي آنّا. أكتب إليك مع أن الرسالة لن تصل إلى البريد اليوم. لا شيء جديدٌ تقريباً. لا شيء سوى المشاغل الكثيرة جداً ومختلف الإجراءات الرسمية، ومنها الذهاب إلى البلدية واستلام التذاكر لمواقع الوقوف والجلوس أيام الاحتفالات وما إلى ذلك. والمهم مسألة الأكاليل. من الضروري وجود إكليلين لجمعيتنا (السلافية)، يقال إن البلدية تزودنا بهما مقابل 30 روبلاً لكليهما. تلك حماقة. زولوتاريوف لم يصل بعد. إلا أنه سيأتي، وسألقي على عاتقه كل مهام جمعيتنا أمام التمثال. يحتمل أن أستبرد في بدلة السهرة وحدها من دون قبعة. بالأمس جاءني أفيركييف وزوجته وكذلك بافليشيف ابن أخت بوشكين وأناتولي ابن أخيه لأجل التعارف. ثم ذهبت إلى يوريف بخصوص التذاكر والمراسم ولم أجده في البيت. تناولت الغداء في الفندق، ثم جاءني فيسكوفاتوف وأعرب لي عن مشاعر المودة وتساءل لماذا لا أحبه وما إلى ذلك. على أية حال كان أفضل مما في العادة. وقال لي، بالمناسبة، إن صبوروف، وزير التعليم،

وهو من أقاربه، قرأ بعض مواضع «الأخوة كارامازوف» ودموعه تسيل بالمعنى الحرفي للكلمة من شدة الإعجاب. وفي التاسعة ذهبنا إلى يوريف، ولم نجده هذه المرة أيضاً. وذكر فيسكوفاتوف أن آنّا نيكولايفنا أنغيلهاردت موجودة هنا، واقترح أن نزورها. فذهبنا إلى فندق دوسو في الساعة العاشرة، وكانت (الكاتبة) قد أوت إلى الفراش، لكنها سرت كثيراً لمقدمنا. وجلسنا عندها ساعة تحدثنا خلالها عن الجمال والكمال. وكانت قد وصلت ليس لحضور الاحتفالات، بل للقاء قريبات لها، لكنها متوعكة الآن بسبب انتفاخ في الساق. صباح اليوم عندما كنت لا أزال نائماً جاءني إيفان سرغييفيتش أكساكوف، ولم يطلب إيقاظي. ثم مضيت إلى بوليفانوف أمين سر جمعية («عشاق الأدب») ومدير الثانوية (ورئيس اللجنة التحضيرية لاحتفالات بوشكين). وأوضح لي كل الخطوات اللازمة في البلدية واستحصال التذاكر وأوعز لأحد الشباب أن يرافقني إلى هناك لتيسير الأمور. وعرّفني على عائلته. وإجتمع حشد من المعلمين والطلبة وذهبنا لنتفقد، في البناية نفسها، حاجيات بوشكين وصوره النصفية المحفوظة مؤقتاً في مبنى المدرسة. ثم عدت إلى الفندق ووجدت قصاصة من غريغوروفيتش يدعوني فيها لتناول الغداء في (مقصف) تيستوف في الساعة السادسة. ولا أدري هل سأذهب أم لا. فقد جلست لأكتب لك «تقريري». في الساعة الثامنة سأجرجر قدمي إلى يلينا بافلوفنا من أجل رسالتك. يوم أمس، الـ 29، لم أستلم شيئاً. ثم أعود إلى الفندق وأعكف على مقالتي (عن بوشكين) لتنقيحها. عموماً حياتي بائسة، الطقس رائع، والجميع بين أهلهم، وأنا الوحيد الذي أتسكع في المضائف. سأكمل الرسالة ليلاً.

30/ 31 مايو، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

لم أجد غريغوروفيتش في مقصف تيستوف، فعدت أدراجي إلى الفندق وتناولت الغداء في مطعمه. ثم مضيت إلى يلينا بافلوفنا، ولم أجدها في البيت. قال لي أولادها أن لا رسالة منك. آمل أن أستلمها ربما غداً. وفهمت الآن أنك استخلصت من رسائلي السابقة أنني سآتي إليكم في الـ 28 من الشهر. والآن، أكيد أنك استلمت الرسائل التي كنت فيها متردداً هل سأبقى هنا أم لا. وبالتالي ستردّين عليّ. والمؤسف أننا، عندما غادرتكم، لم نتفق على أن تكتبي لي في كل الأحوال، حتى عندما تتوقعين بأنني سأعود، كيلا أبقى أمام المجهول بخصوصك وبخصوص طفلينا. كما آمل بأن أستلم في الثاني من الشهر رسالة منك على عنوان الفندق مباشرة (. . .) كيلا أتحمل مشقة الذهاب كل مرة إلى يلينا بافلوفنا، لا سيما وأن المتاعب الكبيرة ستبدأ اعتباراً من 2 يونيو، حيث ينبغي أن أستيقظ مبكراً وأنشغل طول النهار فلا يبقى وقت للذهاب إليها. ثم إنني لن أكتب إليك حينئذٍ رسائل تفصيلية للسبب ذاته. في الثالث من الشهر تستقبل البلدية الضيوف، وتُلقى خطب ويتعالى تصفيق، ونرتدي بدلة السهرة مع ربطة عنق بيضاء. ثم يرفع الستار، وتقام مأدبة مجلس البلدية، وبعد ذلك، في الخامس والسادس من الشهر تعقد في الصباح جلستان، وفي المساء تلاوات أدبية. وقبل ذلك، في الثاني من يونيو تعقد جلسة مسائية لجمعية «عشاق الأدب الروسي» يتم خلالها توزيع المهمات وتحديد مواعيد التلاوات. الأرجح أن ألقي خطابي في اليوم الثاني من الاحتفالات، أي السادس من الشهر (. . .) في السابع منه عليّ أن أقوم بزيارات جوابية كثيرة، ولذا سأغادر في الثامن من الشهر وليس قبله. وسأبلغك بأي قطار. سأحاول السفر في الثامن من الشهر

بالتأكيد. عرّجت على فاريا (أختي بربارة) وحدثتني كثيراً عن أحفادها وطلبت النصح. وهي امرأة ذكية وطيبة القلب. في المساء راجعت المخطوطة. كيف حال الصغيرين؟ أحنّ إليهما بشدة. ولا أسمع صوتهما. وأفكر طول الوقت، عسى أن لا يحصل لديكم مكروه. أبرقي لي حالاً إذا حصل والعياذ باللّه. إلى اللقاء، يا عزيزتي. ليتني أستلم منك شيئاً يوم غد. أعانقك مع الصغيرين وأقبّلكم ثلاثتكم بحرارة. أما «الأخوة كارامازوف» فما أدراك ما «الأخوة كارامازوف»! آه، كيف تورطت في هذه الهموم؟ على أية حال، أنا مشغول البال الآن بإزاحة الستار: خصومنا (الفكريون) أقوياء. أعانقك مراراً وتكراراً.

المخلص ف. دوستويفسكي

أمس انفرط الإبزيم الذهبي (. . .) في ردن قميصي. بقي نصفه في الردن، والنصف الآخر ضاع في الشارع على ما يبدو.

230. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 1 يونيو 1880 الساعة الواحدة بعد منتصف ليل 31 مايو

عزيزتي آنيا، لم أكن أريد الكتابة إليك اليوم، فلا شيء تقريباً يمكن أن أكتب عنه. لكنني حينما استلمت أخيراً رسالتك المؤرخة في الـ 29 من الشهر، ولأن الأيام القادمة ستشغلني كثيراً ولن أتمكن من الكتابة إليك، أو أنني سأكتب سطرين أو ثلاثة لا أكثر، فقد قررت أن أكتب الآن. مسرور جداً لأنكم جميعاً في صحة وعافية، مسرور للصغيرين ولك. حتى لكأن الكآبة زايلت الفؤاد رغم الضجر المتبقي فيه. أزعجني أن الجدة لن تنتظر وصولي. أكساكوف وعدني بتوقيع غوغول، ولا أدري هل سيتسع الوقت لاستلامه منه (. . .) زارني اليوم غريغوروفيتش. ثرثر متشفياً وكذب كثيراً. يبدو أن ثمة بالفعل محاولات للاعتراض علينا في الجلسات والمآدب. غريغوروفيتش أيضاً مندوب عن الصندوق الأدبي مع ثلاثة آخرين، هم تورغينيف وغايفسكي وكرايفسكي. وقد منح الصندوق كل واحد منهم 150 روبلاً لتغطية النفقات. جمعيتنا السلافية هي الوحيدة التي لم تدفع لأحد، وما كان بوسعها أن تدفع. يقول غريغوروفيتش متشكياً إن

الـ 150 روبلاً قليلة. حقاً فالنقود تتبخر هنا. ومع أنني لن أدفع الكثير في الفندق، إلا أنني سأنفق كثيراً في كل الأحوال على الحوذية والتبغ والمصروفات الشخصية وشراء الإكليلين وما إلى ذلك (. . .) تناولت طعام الغداء في «مقصف موسكوفسكي»، ثم ذهبت إلى يلينا بافلوفنا واستلمت رسالتك (. . .) وبعد ذلك مضيت مع فيسكوفاتوف إلى آنّا أنغيلهاردت التي تلازم المنزل بسبب انتفاخ ساقها، فوجدنا عندها الطبيب. قال إن المرض خطير إذا أهمل. وعدنا إلى الفندق سيراً على الأقدام. في الصباح هبّت زوبعتان وهطل المطر مدراراً. أما الآن فالليل رائع. ذلك هو ملخص مغامراتي. سألقي خطابي على أية حال. أكساكوف يقول إن خطابه مماثل لخطابي. وهذا أمر سيّئ إذا كنا متقاربين في أفكارنا لهذا الحد. وسألقي في أمسيات التلاوة الأدبية فيما بعد نص مشهد بيمين ونصاً من الفارس البخيل (لبوشكين) وكذلك قصيدة توتشيف في رثاء الشاعر، وهي الأهم. يثير فضولي كيف سألتقي آنينكوف؟ هل سيمد يده لمصافحتي؟ ليس بودّي الاصطدام معه. إلى اللقاء، يا عزيزتي آنيا. قبلي الصغيرين بحرارة، وذكريهما بي (. . .) ينبغي لي أن أمر على كاتكوف. وداعاً، أعانقك بحرارة. وأبارك للصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

231. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 2 على 3 يونيو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

صديقتي العزيزة آنيتشكا. مساء أمس ذهبت إلى يلينا بافلوفنا لأستلم رسالتك، ولم أستلم شيئاً، فيما وصلت منك اليوم رسالتان على عنوان الفندق. إحداهما في الرابعة بعد الظهر والأخرى في المساء. باختصار يبدو أن الرسائل على عنوان فندق «لوسكوتنايا» تصل بأسرع مما على عنوان يلينا بافلوفنا. فما أعظم فرحتي بكونكم جميعاً في صحة جيدة وتتذكرونني. قبِّلي الطفلين بحرارة مقابل الكلمات الرائعة التي كتباها لي، واشتري لهما حلوى من كل بد، هل تسمعين يا آنيا؟ الطب يوصي بالحلوى للأطفال. وبخصوص ملاحظتك بأن حبي لك قليل أقول إنها في منتهى الغباء، فأنا لا أفكر إلا فيك وفي الطفلين. وأراك في المنام.

اختلط الحابل بالنابل عندنا من جديد. يوم أمس أرجئت الاحتفالات مرة أخرى. وبات معروفاً تماماً أن إزاحة الستار ستجري في السادس من الشهر. البلدية تعد الأكاليل بسعر 8 روبلات للإكليل. ولا بد لنا من شراء إكليلين. سأحجز عليهما غداً.

زولوتاريوف لم يصل بعد. القطار الذي يقل مختلف الوفود من بطرسبورغ سيصل بعد غد. ثم إن اجتماعاً عقد قبل ثلاثة أيام عند تورغينيف لجميع المشاركين، ما عداي، لتحديد ما ينبغي أن يُتلى، وكيف سيكون الاحتفال، وما إلى ذلك. قيل لي إنهم التقوا عند تورغينيف من دون سابق إنذار. ذلك ما أكده غريغوروفيتش ليخفف عليّ. بالطبع أنا نفسي ما كنت سأذهب إلى تورغينيف بلا دعوة رسمية منه. إلا أن يوريف بسذاجته المعهودة، ولم أكن قد رأيته من أربعة أيام، فضح لي آنذاك سر اجتماعهم عند تورغينيف. فيما قال فيسكوفاتوف صراحة إنه تلقّى قبل ثلاثة أيام دعوة لحضور الاجتماع. ما يعني أنهم استبعدوني عمداً. لا أعني يوريف بالطبع. فذلك من فعل تورغينيف وكوفاليفسكي. أما هو فقد اختبأ، وهذا هو سبب غيابه عني على الأرجح. حالما استيقظت صباح الأمس جاءني غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف ليبلغاني بأن الاجتماع عند تورغينيف صاغ البرنامج الكامل للاحتفالات وأمسيات التلاوة. وطالما سمح بالموسيقى وبعرض «الفارس البخيل»، ويلعب دوره الممثل سامارين، فقد ألغيت تلاوتي لمشهد من «الفارس البخيل» وكذلك إلقائي لمرثية مقتل بوشكين، وكنت راغباً جداً في إلقاء تلك القصيدة تحديداً. وبدلاً من ذلك تقرر أن ألقي قصيدة بوشكين «النبي». أنا بالطبع لن أرفض «النبي»، ولكن كيف يجوز أن لا يبلغوني رسمياً؟ ثم أعلن لي غريغوروفيتش أنهم يرجونني أن أحضر غداً في قاعة مجلس النبلاء، على مقربة من فندقي، حيث سيتم تدقيق كل الفعاليات. وحالما انصرف الرجلان جاء لوباتين، الشاب الذي كلفه رئيس اللجنة التحضيرية بوليفانوف بمرافقتي. وقال لي، عكس ما قاله غريغوروفيتش، من أن كل الإجراءات قد أعدت ونظمت. وأنهم

يدعونني للحضور في مجلس النبلاء لأجل التدرب على البروفة النهائية أمام الجمهور، (وخصوصاً تلاميذ المدارس...). وهكذا أحرجوني كل الإحراج. فقد قرروا من دوني، من دون موافقتي على تلاوة النصوص التي حددوها لي. في حين لا يجوز التخلف عن البروفة والامتناع عن التلاوة أمام الشباب، وإلا سيقال إن دوستويفسكي امتنع عن التلاوة من أجلهم. وإلى ذلك أنا لا أعرف ما ينبغي أن أرتديه غداً، بدلة السهرة أم السترة الطويلة؟ كنت بالأمس منزعجاً جداً. تناولت الطعام وحدي. وفي المساء عرجت على آنّا أنغيلهاردت، وكان عندها الطبيب، وهو من معارفها وأقاربها، جلست نصف ساعة ثم ودعاني إلى الفندق. وفي صباح اليوم جاءني من جديد غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، وألحّ الأول على أن نتناول ثلاثتنا طعام الغداء في (مطعم فندق) «أرميتاج» ثم نقضي الأمسية في حديقة «أرميتاج». وعندما انصرفا مضيت إلى كاتكوف ولم أكن عنده من ثلاثة أيام. وجدت لوبيموف هناك، وكان قد استلم تواً رسالة من ماركيفيتش يعده فيها بتسليم (قسم من) روايته لعدد يونيو. ولذا سأكون مطمئناً من هذه الناحية. فهذا شيء رائع. وعند كاتكوف علمت بأن يوريف، بوصفه رئيساً لجمعية «عشاق الأدب الروسي»، بعث إليه، وهو العضو القديم في الجمعية، إشعاراً بأن دعوة التمثيل في الاحتفالات أُرسلت إلى «الوقائع الموسكوبية» (جريدة كاتكوف) خطأ، وأن مجلس الجمعية يعتبرها لاغية. جاءت تلك الرسالة بصيغة خشنة جافة. وحاول غريغوروفيتش أن يقنعني بأن من أرغم يوريف على توقيع تلك الرسالة هو كوفاليفسكي، وكذلك بالطبع تورغينيف. انفعل كاتكوف على ما يبدو. وقال لي وهو يعرض عليَّ الرسالة: «أنا ما كنت سأذهب إليهم أصلاً». وهو ينوي نشرها في «الوقائع». تلك،

بالطبع، دناءة ما بعدها دناءة. لا سيما وأنهم لا يمتلكون حقاً للتصرف على هذا النحو. حقارة. ولو لم أكن قد تورطت لهذه الدرجة في الاحتفالات لربما أعلنت القطيعة معهم. سأعرب عن رأيي إلى يوريف بكل حدة. (عرجت على طبيب الأسنان...) ومنه عدت إلى الفندق، ثم توجهنا أنا وغريغوروفيتش وفيسكوفاتوف إلى «أرميتاج». تناولنا طعام الغداء بروبل للفرد الواحد. وبدأ المطر حينذاك. وحينما هدأ خرجنا من المطعم وركبنا عربة أوصلتنا إلى حديقة «أرميتاج». وفي الطريق تساقط المطر من جديد، فوصلنا إلى الحديقة مبللين. وطلبنا شاياً في المطعم. قطعنا تذاكر بقيمة روبل تخولنا أيضاً دخول مسرح «أرميتاج». والمطر مدرار. وحدثنا غريغوروفيتش مختلف القصص من أكاذيبه. ثم دخلنا المسرح على الفصل الثاني من أوبرا «بول وفرجيني». لا بأس بالمسرح نفسه والأوركسترا والمغنين، إلا أن الموسيقى رديئة. هذه الأوبرا عرضت في باريس مئات المرات. الديكورات في الفصل الثالث رائعة. وانصرفنا دون أن نستمع للعرض حتى النهاية. في الفندق وجدت رسالتك الثانية. أنا قلق جداً لبروفة يوم غد. غريغوروفيتش وعد أن يمر عليّ، لنذهب معاً. وقد تبللت قليلاً. قبل ذلك أخذت استبراداً في الطريق أدى إلى خدر طفيف في يدي اليسرى. صباح أمس عرجت على معاون الأسقف ألكسي والأسقف نيكولاي يابونسكي. وكان التعرف عليهما مبعث ارتياح كبير. أمضيت عندهما قرابة الساعة ثم انصرفت عندما جاءت إليهما إحدى السيدات من علية القوم. كلاهما تحدثا معي بمشاطرة روحية. وقالا إنني كرمتهما بزيارتي، فكانت مبعث سعادة. إنهما مطلعان على مؤلفاتي، وبالتالي فهما يقدران من يخدم الرب. وبارك لي ألكسي بحرارة. وأعطاني من خبز المناولة. إلى اللقاء يا عزيزتي. سأكتب

لك غداً أيضاً إن أمكن. أحبك حباً جماً. وأقبِّل الصبي والصبية بحرارة. تحياتي الخالصة إلى (والدتك) آنّا نيكولايفنا وقبِّلي يدها بالنيابة عني.

المخلص لك بالكامل

ف. دوستويفسكي

(. . .)

زرت إيفان أكساكوف في المنزل الريفي. تشايف أيضاً يقيم في الريف. وسأزور مورافيوف إذا اتسع الوقت. مرة أخرى محبك المخلص.



232. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 3 على 4 يونيو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

عزيزتي الغالية آنيتشكا. اليوم أيضاً استلمت رسالة ثمينة منك، وأنا شاكر لك كل الشكر لأنك لا تنسين المخلص لك فيديا (فيودور). منذ أن أخذت أستلم رسائلك المتكاثرة صرت أكثر هدوءاً وأفضل صحة. كما أنني مسرور للصغيرين. صباح اليوم جاءني لوباتين وجلب لي جدول الأيام والفعاليات. وأعطيته 17 روبلاً ليحجز لي إكليلين في مجلس البلدية. زولوتاريوف لم يصل بعد (. . .) ثم جاءني غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، ثم يوريف، فهاجمناه بشدة على الرسالة التي بعثها إلى كاتكوف، وأشبعناه تقريعاً. وبعد ذلك تناولت الغداء في «مقصف موسكوفسكي» مع غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، وهناك تعرفت على الممثل المسرحي سامارين، وهو عجوز في الرابعة والستين، أطنب في الثناء عليّ، وسيمثل دور الفارس البخيل في احتفالات تكريم بوشكين في بزة (مدنية). وكان المفروض أن أتلو أنا هذا الدور. «مقصف موسكوفسكي» مزدحم دوماً بالرواد، ونادراً ما يمر أحد دون أن يلتفت إليّ، الجميع

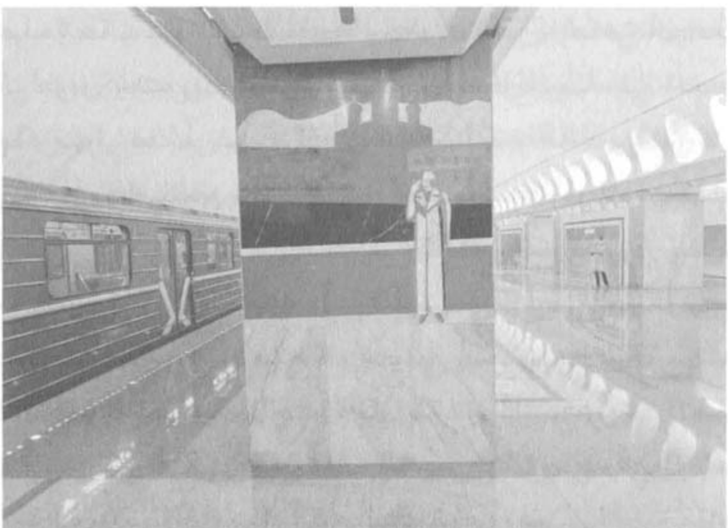
يعرفونني. حدثني سامارين الكثير من النكات عن حياة الطبقة الأرستقراطية في موسكو. وبعد ذلك مضينا فور انتهاء الغداء كي نحضر الجلسة العامة لجمعية «عشاق الأدب» وهي تصوغ البرنامج النهائي للجلسات الصباحية والاحتفالات المسائية. وكان هناك تورغينيف وكوفاليفسكي وتشايف وغروت وبارتينيف ويوريف وبوليفانوف وكالاجيف وسواهم. جرى ترتيب كل الأمور لأجل الإجماع والتوافق. تورغينيف كان لطيف المعشر معي، فيما راح كوفاليفسكي يحدق في وجهي، بجسمه البدين المترهل وعدائه السافر لاتجاهنا الفكري. أنا سأتلو النصوص المخصصة لي في اليوم الثاني من الجلسات الصباحية المصادف 8 يونيو، وفي مساء السادس من الشهر أتلو خلال الاحتفالات مشهد بيمين من (رائعة بوشكين) «بوريس غودونوف» بعد أن سمحوا بالموسيقى. الكثيرون يتلون نصوصاً، الجميع تقريباً: تورغينيف وغريغوروفيتش وبيسيمسكي وغيرهم. وفي الأمسية الثانية يوم 8 يونيو سألقي ثلاث قصائد لبوشكين، اثنتان من (المجموعة الشعرية) «أغاني السلاف الغربيين» و«حكاية الدبة». وفي ختام الجلسة الاحتفالية ألقي قصيدة بوشكين «النبي»، وهي قصيدة متعبة للغاية في الإلقاء رغم قصرها، وقد وضعوني في الختام لأترك انطباعاً عميقاً في الجمهور، ولا أدري هل سأوفق أم لا؟ في تمام العاشرة عدت إلى الفندق، فوجدت بطاقتين شخصيتين من سوفورين مع كتابة تقول إنه سيأتي في العاشرة. كانت البطاقتان متلاصقتين خطأً، فظننت أنه جاء إليّ مرتين ولم يجدني. فذهبت إلى «البازار السلافي» الذي نزل فيه، ليس بعيداً عن فندقي، فوجدته يحتسي الشاي مع زوجته. استقبلني ببالغ السرور. وهو مغضوب عليه في جمعية «عشاق الأدب الروسي» بسبب مقالاته، مثل

كاتكوف. حتى إنهم لم يعطوه تذكرة لحضور الجلسات الصباحية. وكانت عندي تذكرة بربارة التي لم ترغب في استلامها، فأعطيتها له، وتقبّلها بارتياح. وسوف يقرعهم فيما بعد أشد تقريع. وقال لي إن بورينين موجود هنا أيضاً. واتفقنا أن نلتقي في الساعة الواحدة بعد الظهر غداً عند تشايف في متحف الأسلحة (بالكرملين)، وسيعرض علينا محتويات المتحف. كما أعرب غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف عن رغبتهما في زيارة المتحف، ولا أدري هل سيأتيان أم لا. بعد الجلسة انطلقا في حوالي العاشرة إلى «أرميتاج» وألحّا عليَّ أن ألحق بهما، لكنني ذهبت إلى سوفورين. عندما عرف بأننا ذاهبون غداً إلى متحف الأسلحة طلب أن نأخذه وزوجته معنا، ثم حاول إقناعي أن نتغدى معاً، هو وزوجته وأنا وغريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، في «مقصف موسكوفسكي»، ثم نذهب إلى «أرميتاج». يبدو أنه المسكين يشعر بالملل وزوجته. وسيحضر بالطبع أمسيات التلاوة، فتذاكرها تباع بحرية. بروفة التلاوة لتلاميذ المدارس ألغيت. وبعد غد، في الخامس من الشهر، تبدأ المتاعب، حيث ينبغي حضور جميع المندوبين في مجلس البلدية ببدلات السهرة، وأخشى أن لا يتسع الوقت لأكتب إليك. غداً سيصل إلى فندقنا ركاب قطار بطرسبورغ من المندوبين. وفي الثامن من الشهر تختتم الاحتفالات، وسأقوم بزيارات (وداعية) في التاسع منه، وأغادر في اليوم التالي، وسأكتب لك فيما بعد بأية ساعة. مايكوف أرسل برقية بأنه سيحضر. وكذلك بولونسكي. هذا كل شيء يا فرحتي! فانتظريني، إذن، يوم 11 يونيو. أعتقد أن ذلك موعد أكيد. سوفورين طلب مقالتي (عن بوشكين). وأنا لا اعرف إطلاقاً لمن سأسلمها وكيف. فليستمعوا إليّ في التلاوات.

أعانقك بحرارة، يا عزيزتي آنكا. أقبّلك بكل حرارة مقابل حبك

«الأكثر من حبي بألف مرة»، كما تقولين. وأقبِّل الصغيرين وأبارك لهما. تكتبين أنك ترين في المنام أحلاماً وكأنني لا أحبك. فماذا عساي أن أقول؟ أنا أرى في المنام كوابيس فظيعة كل ليلة وكأنما أنت تخونينني مع آخرين. واللّه، أنا أتعذب أشد عذاب. أقبِّلك ألف مرة. قبِّلي الصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

233. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 5 يونيو 1880 الثامنة مساءً

عزيزتي آنيوتكا. استلمت الآن رسالتك الرقيقة المؤرخة في 3 يونيو، وأكتب لك على عجل قدر ما يتسع الوقت. كلا، يا حمامتي، لا تطالبيني برسائل مستفيضة الآن، فحتى الرسالة العادية مستبعدة حالياً. كل أوقاتي محجوزة، دقيقة بدقيقة، وهي لا تكفي حتى لمشاغلي الملحة، وليس للكتابة فقط. فلأكتب لك إذن بالترتيب: صباح أمس كنت مع سوفورين وزوجته وبورينين وغريغوروفيتش في الكرملين، بمتحف الأسلحة. تفحصنا كل التحفيات، عرضها علينا تشايف ناظر المتحف. ثم دخلنا غرفة ثياب البطاركة. وبعد أن تفقدنا كل الموجودات ذهبنا إلى مقصف تيستوف لتناول الغداء. ثم مضيت لدقائق إلى آنّا أنغيلهاردت، وتجولت لشراء بعض الحاجيات. ثم ذهبت حسب الاتفاق إلى حديقة «أرميتاج»، وكان هناك سوفورين وغريغوروفيتش والآخرون. التقينا في الحديقة معظم المندوبين الذين وصلوا في هذه الأيام من بطرسبورغ. وحيّاني أشخاص كثيرون لم أعد أتذكرهم، ومنهم غايفسكي ولينتوفسكي والمغني ميلنيكوف

وغيرهم. كنت جالساً أحتسي الشاي (. . .) عندما شاع فجأة نبأ تأجيل الاحتفالات مرة أخرى. أشاع النبأ ميلنيكوف. كان ذلك في الساعة الحادية عشرة، فمضيت إلى يوريف، ولم أجده، فأكد لي ابنه أن النبأ غير صحيح. واتضح فعلاً أنه غير صحيح. عدت إلى الفندق وأخذت أتهيأ لتلاوة مساء السادس من الشهر. وتلك مشكلة، يا آنيا. تصوري: إزاحة الستار في السادس منه، وسأكون على قدم وساق من الساعة الثامنة صباحاً. وفي الثانية بعد الظهر تنتهي مراسم إزاحة الستار وتبدأ حفلة الجامعة، والله لن أذهب إليها. ثم مأدبة الغداء في مبنى البلدية. في اليوم نفسه، وسأكون متعباً مكدوداً بعد طعام وشراب، عليّ أن أتلو مونولوج المدون في التاسعة مساءً، وهو النص الأصعب الذي يتطلب هدوءاً وتعمقاً في الحبكة والموضوع. أشعر بأنني لست مستعداً له بعد. وإلى ذلك عليَّ أن أتلوه في بداية الأمسية تقريباً، أي في الموقف الأقل ارتياحاً. بقيت حتى الرابعة بعد منتصف الليل. وفي الساعة العاشرة صباح هذا اليوم أيقظني فجأة زولوتاريوف الذي وصل أخيراً. مدة نومي خمس ساعات ونصف فقط. ثم جاء فيودور بيتروفيتش كورنيلوف، وبعده لوباتين مع الإكليلين. ثمنهما 14 روبلاً، وليس 17، ولكن من دون أشرطة. وألقيتُ مسؤولية اقتناء الأشرطة وكذلك هموم الغد على كاهل زولوتاريوف. وذلك يعني أنني سأدفع وحدي الـ 14 روبلاً مقابل الإكليلين. صحيح أن بقية الاحتياجات ستكلف زولوتاريوف لا أقل من هذا المبلغ. في الساعة الثانية بعد الظهر ذهبنا إلى مجلس البلدية. وحضر جميع المندوبين، قرابة 100 شخص. (. . .) ليس من السهل وصف المراسم والمشاغل والهرج والمرج. رأيت، بل وتكلمت مع ابنة بوشكين (الصغرى نتاليا زوجة الأمير ناساوسكي). وحياني أوستروفسكي الذي يعتبرونه بمثابة

جوبيتر موسكو. وتقدم إليّ تورغينيف متفضلاً. أما باقي الليبراليين، ومنهم بليشييف، بل وحتى الأعرج يازيكوف، فهم متحفظون وبشيء من التعالي، وأنا في اعتبارهم رجعي، وهم تقدميون. عموماً الصراعات بدأت تستعر هنا. وأخشى أن يحصل شجار بينهم في هذه الأيام بسبب اختلاف التيارات. مسألة استبعاد كاتكوف عن الاحتفالات تثير سخط الكثيرين. عدت إلى الفندق وتغديت في مطعمه على أمل أن أستلم منك رسالة وأرد عليها، ثم أراجع مشهد بيمين ومقالتي، ثم أعد قميصي وبدلة السهرة لاحتفالات الغد، ثم أنام قبل المعتاد. ولكنْ جاءني غايديبوروف، ثم جاء مايكوف على غير المتوقع، ثم فيسكوفاتوف. مايكوف وصل ليتلو أشعاره. وهو لطيف، لا بأس به. يستفسر عن كل شيء. تحدثت إليهم، ومع ذلك جعلتهم ينصرفون. وها أنا الآن أكمل كتابة هذه السطور. لم يأت إليّ زولوتاريوف، والإكليلان اللعينان غير مرتبين حتى الآن. هذا الصباح كنت عند فاريا، فغداً أنا مشغول طول اليوم حتى المساء. وبعد غد جلسة جمعية «العشاق». لكنني لن أقرأ شيئاً في هذه الجلسة، وبعد ذلك مأدبة غداء لـ 500 شخص تقريباً، وقد يحصل فيها شجار. ثم في صباح الثامن من الشهر خطابي في جلسة «عشاق الأدب الروسي»، وفي المساء خلال الحفلة الثانية للجمعية سألقي مع آخرين عدة قصائد لبوشكين وأختمها «بالنبي». تطلبين مني أن أغادر في الثامن من الشهر، بينما لا أستطيع أن أرد الزيارات إلا في التاسع منه. سأغادر إذن يوم 10 وأصل إليكم في الـ 11 منه. هذا إذا لم يحتجزوني ليوم آخر. وهو احتمال وارد تماماً. عندها سأبلغك. والأنسب لي أن أغادر بقطار الساعة الواحدة بعد الظهر، وليس بقطار الصباح. ففي قطار الظهر لا أنام ليلة واحدة، بينما في قطار الصباح

ليلتين (. . .). لا موجب للكتابة لك عن مشاركتي في الاحتفالات، لأنها ستتم في الثامن من الشهر، وفي السادس منه سأتلو فقط مشهد بيمين. فكّري: ينبغي لي أن أدبر أمر نشر المقالة. فرغم وجود ثلاثة طلبات عليها، إلا أن يوريف يتقاعس من جديد. وكاتكوف، بعد استبعاده عن المشاركة في الاحتفالات، سيبدي، على ما أعتقد، شيئاً من اللامبالاة تجاه كل ما يجري فيها. أما سوفورين فلربما لن يكرر رغبته في اقتناء المقالة. سيكون الحال سيئاً عندئذٍ. ولذا يحتمل تماماً أن أتأخر يوماً آخر (. . .) إلى اللقاء، يا عزيزتي. بالطبع لم يتسع الوقت لكتابة الكثير من الأمور. فماذا تستطيع الرسالة أن تستوعب؟ من الآن لن أتمكن من كتابة الرسائل مطلقاً. ثم إنني في هذه اللحظات منهك مستنزف القوى، بينما عليّ أن أستعد طويلاً. فمتى سأنام يا ترى؟ أعانقك بكل حرارة، وأقبِّل الطفلين بكل حرارة أيضا، وأبارك لهما.

المخلص ف. دوستويفسكي

لا أريد أن أكتب لك عن الحب، فالحب أفعال لا أقوال. وقد أقتربُ من تلك الأفعال في وقت ما. لقد حان الوقت من زمان.

ومع ذلك سأكتب لك عموماً، ولو بضعة سطور.

234. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 7 يونيو 1880 منتصف الليل

عزيزتي الغالية آنيا. أكتب إليك على عجل. أزيح الستار عن التمثال يوم أمس، فأين أصف لك ما حدث؟ عشرون صفحة لا تكفي. ولا وقت لدي. من ثلاث ليال لا أنام سوى 5 ساعات، وهذه الليلة أيضاً. ثم أقيمت مأدبة ألقيت الخطب خلالها، ثم التلاوة في الأمسيات الأدبية، في دار مجلس النبلاء بمصاحبة الموسيقى. أنا تلوت مشهد بيمين. ورغم إشكالات هذا الاختيار، بيمين لا يمكن أن يزعق لتغطية القاعة كلها، ورغم التلاوة في قاعة صماء تماماً، بل في أكثر القاعات صمماً، يقول البعض إنني قرأت المشهد بأروع صورة. لكنهم يقولون أيضاً إن الصوت كان خافتاً وما كاد يسمع. استقبلني الجمهور على أروع ما يكون، وكانوا يهتفون منادين طويلاً فتعذر عليَّ البدء. وبعد التلاوة استدعوني ثلاث مرات. إلا أنهم استدعوا تورغينيف أكثر، وقد قُرأ بشكل رائع. ووراء الكواليس الهائلة في العتمة لاحظت قرابة مئة شاب يهتفون بأعلى الأصوات عندما ظهر تورغينيف على المنصة. وفكرت الآن أنهم من المتصايحين

المأجورين بتكليف من كوفاليفسكي. وهذا ما كان. فبعد هذه الهتافات اليوم امتنع إيفان أكساكوف عن إلقاء كلمته بعد تورغينيف. لأن الأخير أهان بوشكين بتجريده من لقب أمير الشعراء. وقال لي أكساكوف إن إعداد الهتّافين تم من زمان على يد كوفاليفسكي، وكلهم من تلاميذه الغربويين، لتصوير تورغينيف بمثابة رائد اتجاههم الفكري، ولإهانتنا إذا اعترضنا عليهم. ومع ذلك كان استقبال الجمهور لي يوم أمس مدهشاً، مع أن التصفيق صدر فقط عن الجالسين على الأرائك. وإلى ذلك جاءتني جموع من الرجال والنساء وراء الكواليس ليشدوا على يدي. وفي الاستراحة سرتُ في القاعة فهرع إليّ عدد غفير من الناس بين شباب وشيوخ، نساءٍ ورجال وقالوا فيما قالوا: «أنت نبينا، جعلتنا أفضل عندما قرأنا كارامازوف». باختصار: تيقنت أن «للأخوة كارامازوف» أهمية بالغة. هذا اليوم، عندما خرجت من الجلسة الصباحية التي لم أقرأ فيها نصوصاً، حصل الشيء ذاته. على السلم وفي المشلح أوقفني رجال ونساء. وعلى الغداء أمس قدمت لي اثنتان من السيدات باقتين من الزهور. بعضهن كنت أعرفهن بالاسم. ومنهن تريتياكوفا وغولوخفاستوفا وموشنينا وغيرهن. بعد غد سأزور تريتياكوفا زوجة صاحب جاليري للوحات الفنية. هذا اليوم أقيمت مأدبة ثانية، أدبية، حضرها قرابة 200 شخص. استقبلني الشباب حالما نزلت من العربة وأكرموا وفادتي واهتموا بي وعبّروا عن آيات الثناء والإعجاب. كان ذلك قبل المأدبة. وخلالها تكلم الكثيرون ورفعوا الأنخاب، أما أنا فلم أكن أريد أن أتكلم. ولكن البعض نهضوا قبيل الختام وحملوني على الكلام. تفوّهت بضع كلمات متحمساً (في الثناء على بوشكين). وبعد ذلك، في القاعة الأخرى أحاط بي جمع غفير وتحدثوا كثيراً وبحرارة ونحن

نحتسي القهوة وندخن. وعندما نهضت متوجهاً إلى الفندق في التاسعة والنصف، وكان ثلثا الضيوف لا يزالون عند المائدة، هتفوا لي مودعين، وشاركهم في الهتاف الجماعي، رغماً عنهم، أولئك الذين لا يتعاطفون معي. ثم رافقتني تلك الجموع على السلم وخرجت إلى الشارع من دون مماطر ولا قبعات حتى ركبت العربة. وقبل أن تنطلق هرع البعض لتقبيل يديّ، لا واحد ولا اثنين، بل عشرات الأشخاص. ليس من الشباب فقط، بل ومن الذين وخط الشيب شعورهم. كلا يا آنيا، مع تورغينيف هتّافون مأجورون، ومعي مشجعون حقيقيون. كان مايكوف هنا، وكان شاهداً على الحدث. ولعله دهش لما رأى. ثم اقترب مني عدة أشخاص لا أعرفهم وهمسوا في أذني بأن داهية ستستهدفني أنا وأكساكوف في جلسة غد الصباحية. غداً، الثامن من يونيو، يوم مصيري بالنسبة لي. في الصباح ألقي خطابي، وفي المساء ألقي (شعر بوشكين) مرتين، مرة قصيدة «الدبة» والمرة الثانية قصيدة «النبي». وأنوي إلقاء «النبي» جيداً. فتمنّي لي النجاح. الحركة هنا مزدحمة والانفعالات متقدة. يوم أمس، في مأدبة البلدية، جازف كاتكوف بإلقاء خطاب مطول، كان له مع ذلك تأثيره في قسم من الجمهور على الأقل. كوفاليفسكي جاملني بغير مودة، وذكر في أحد الأنخاب اسمي إلى جانب أسماء أخرى. كذلك كان موقف تورغينيف. آنينكوف حاول أن يميل إليّ، لكنني أشحت بوجهي عنه. لاحظي، يا آنيا، أكتب إليك ولم أكن قد راجعت خطابي بالكامل. في التاسع من الشهر سأقوم بالزيارات، ولا بد أن أقرر نهائياً لمن أعطي الخطاب (كي ينشره). كل شيء يتوقف على الانطباع الذي سيتركه. أقمت هنا طويلاً، وأنفقت الكثير، لكنني أرسيت أساس المستقبل. وعليَّ أن أنقح الخطاب وأعد

ليوم غدٍ الثياب. ففي الغد ظهوري الرئيسي على الساحة. وأخشى أن لا أخذ قسطاً كافياً من النوم. أخشى نوبة الصرع. المتجر الرئيسي لتوزيع (مؤلفاتي) لا يدفع مهما حاولت معه. إلى اللقاء، يا عزيزتي، أعانقك، وأقبِّل طفلينا. في العاشر من الشهر سأغادر، أغلب الظن، وأصلكم في الحادي عشر منه ليلاً. تهيئي واستعدي. أعانقكم بحرارة وأبارك لكم جميعاً.

المخلص دائماً وأبداً ف. دوستويفسكي

ملاحظة: هذه آخر رسالة من هنا على الأرجح.



235. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 8 يونيو 1880 الساعة الثامنة مساءً

عزيزتي آنيا. بعثت إليك اليوم رسالة الأمس، السابع من الشهر. ولا يسعني الآن إلا أن أرسل إليك هذه السطور القليلة، مع أنني مرهق جداً، معنوياً وبدنياً. ولذا قد تستلمين هذه الرسالة مع رسالة الأمس. صباح اليوم ألقيت خطابي في جلسة «عشاق الأدب»، والقاعة مكتظة عن آخرها. كلا، يا آنيا، لا يمكنك أن تتصوري الأثر الذي تركه الخطاب في النفوس. لا قيمة لنجاحاتي في بطرسبورغ بالمقارنة معه. إنها صفر إلى اليسار. عندما ظهرتُ على المنصة هدرت القاعة بالتصفيق، ولم أتمكن من الكلام طويلاً. كنت أنحني للحاضرين ملوحاً بيديّ، راجياً أن يتيحوا لي فرصة الكلام، من دون جدوى. ما أشد تلك الحماسة المدهشة، إعجاباً «بالأخوة كارامازوف» (على ما أظن). وعندما شرعت بالإلقاء أخيراً، أخذوا يقاطعونني بعاصفة من التصفيق في كل صفحة، وأحياناً بعد كل عبارة. ألقيت بصوت مرتفع وبحماسة ملتهبة. وقوبل بمنتهى الحماس

كل ما كتبته عن تاتيانا (بطلة ملحمة بوشكين «يفغيني أونيغين» الرافضة لبناء سعادتها على تعاسة الآخر). وكان ذلك نصراً مبيناً لأفكارنا بعد 25 عاماً من الضلال. وعندما أعلنتُ في الأخير عن الوحدة العالمية للبشر قامت القاعة وكأنها في هستيريا جائحة. وعندما ختمت لا أستطيع أن أصف لك صيحات الإعجاب التي اختلطت بالنحيب. كان بين الجمهور أناس لا يعرفون بعضهم بعضاً، إلا أنهم تعانقوا باكين منتحبين يعاهدون أحدهم الآخر بأن يكونوا أفضل مما هم عليه، وأن يحبوا بعضهم بعضاً ويبتعدوا عن الكراهية والبغضاء. واختل انضباط الجلسة، وهرع إليّ الجميع على المنصة: سيدات مبجلات وطالبات ومسؤولون حكوميون وطلاب، كل هذا الجمع الخليط يعانقني ويقبّلني. كل أعضاء جمعيتنا الذين كانوا على المنصة عانقوني وقبّلوني، والجميع، فرداً فرداً، يبكون من الإعجاب. واستمرت المناداة عليّ والتلويح بالمناديل نصف ساعة. وفجأة أوقفني شيخان لا أعرفهما: «كنا متخاصمَين 20 عاماً، لا يكلم أحدنا الآخر، والآن تصالحنا وتعانقنا. أنت أصلحت ما بيننا. أنت قديسنا، أنت نبينا!». وصاحت الجموع: «نبي، نبي!». وهرع إليّ تورغينيف الذي ضمنت خطابي عبارة طيبة عنه يعانقني ودموعه تسيل. كما أسرع آنينكوف وشد على يدي وقبّل كتفي. وقال كلاهما: «أنت عبقري، أكثر من عبقري!». وسارع إيفان أكساكوف إلى المنصة راكضاً وأعلن للجمهور أن خطابي حدث تاريخي، وليس مجرد خطاب. وأضاف: الغيوم حجبت الآفاق وجاءت كلمة دوستويفسكي لتبددها وتنير كل شيء كإشراقة الشمس. من الآن فصاعداً تحل الأخوة، ولا يبقى مجال لسوء التفاهم. وتصايح الجميع: «نعم، نعم!». وراحوا يتعانقون من

جديد. وتسيل الدموع ثانية. واختُتمت الجلسة، فأردتُ أن ألوذ بالفرار وراء الكواليس. إلا أن من في القاعة اقتحموا الكواليس، وفي مقدمهم النساء. راحوا يقبّلون يديّ ويثقلون عليّ لحد الألم. كما هرع إليّ الطلبة باكين، وهوى أحدهم أمامي مغمياً عليه. ذلك هو النصر المبين. إنه نجاح ما بعده نجاح. قرع الرئيس يوريف الجرس الصغير وأعلن أن جمعية «عشاق الأدب الروسي» انتخبتني بالإجماع عضواً فخرياً فيها. وتعالت الهتافات والصيحات من جديد. وبعد استراحة لمدة ساعة تقريباً استمرت الجلسة. لم يعد الجميع راغبين في إلقاء كلمات. دخل أكساكوف وأعلن أنه لن يلقي خطابه لأن كلمة عبقرينا دوستويفسكي العظيمة وضعت كل النقاط على كل الحروف. إلا أننا جميعاً دفعنا أكساكوف إلى إلقاء خطابه. واستمر إلقاء الخطب. في حين أن «مؤامرة» حيكت ضدي آنذاك. شعرت بالإرهاق وأردت أن أنصرف، إلا أنهم أبقوني عنوة. وفي فترة الاستراحة تمكنوا من شراء إكليل هائل من الغار قطره أكثر من مترين. وفي ختام الجلسة صعدت نساء كثيرات، أكثر من مئة سيدة، إلى المنصة وكلّلنني بذلك الإكليل على مرأى من القاعة كلها: «تكريماً للمرأة الروسية التي امتدحتَها». وبكى الجميع في موجة جديدة من الهياج والحماس. وشكرني رئيس البلدية تريتياكوف نيابة عن مدينة موسكو. ألا توافقينني، يا آنيا، أن ذلك يستحق البقاء. إنه ضمانة المستقبل، ضمانة كل شيء، حتى وإن قضيت نحبي. عندما عدت إلى الفندق وجدت رسالتك عن (شراء) المهر (الصغير). إلا أنك تقولين بخشونة إنني تأخرت كثيراً (في موسكو). بعد ساعة سأذهب للتلاوة في الأمسية الأدبية الثانية. سألقي (قصيدة) «النبي». وغداً أقوم بالزيارات، وبعد غد، العاشر من الشهر

أغادر، وأصل في الـ 11 منه إذا لم يؤخرني شيء هام جداً. ينبغي أن أنشر المقالة، ولا أدري عند من؟ الجميع يطلبونها بإلحاح شديد، بل وفظيع! إلى اللقاء يا عزيزتي. يا حبيبتي الغالية. أقبِّل قدميك... أعانق الصغيرين وأقبِّلهما وأبارك لهما. كما أقبِّل المهر الصغير. أبارك لكم جميعاً. دماغي ليس على ما يرام. والرجفة في الساقين واليدين. إلى اللقاء القريب.

المخلص لك جملة وتفصيلاً دوستويفسكي



236. إلى صوفيا تولستايا

ستارايا روسا، 13 يونيو 1880

حضرة الكونتيسة صوفيا أندرييفنا[1] الموقرة

بالأمس فقط عدت من موسكو إلى ستارايا روسا ووجدت برقيتكم الجماعية الرائعة[2]. فما أطيب ما فعلتم عندما تذكرتموني جميعاً. الصدر ينشرح لشعوري بوجود أصدقاء طيبين مثلكم.

تعرفون من الصحف طبعاً بما لقيته في موسكو. إلا أن الجرائد لا تستطيع، حتى وإن أرادت، أن تنشر كل الوقائع، لأن مراسليها لم يكونوا شهوداً على الكثير من الأحداث. فهل تصدقون، يا أصدقائي الأعزاء، أن الكثيرين بين الجمهور أخذوا، بعد خطابي، يعانقون بعضهم بعضاً باكين واعدين بأنهم سيكونون أفضل في المستقبل؟ وأن تلك ليست الواقعة الوحيدة، فقد سمعت الكثير من الأحاديث من أشخاص لا أعرفهم تحلّقوا حولي متدافعين وكلّموني بتأثر شديد عن الانطباع الذي خلّفه خطابي في نفوسهم. واقترب مني شيخان وخط الشيب شعرهما وقال لي أحدهما «كنا عدوين من عشرين عاماً يسيء أحدنا للآخر، وبعد خطابك تصالحنا وجئنا لنعلن لك ذلك». لم أكن

على معرفة بهما. وكانت هذه التصريحات كثيرة، فدهشتُ وتعجبت حتى كدت أن يغمى عليّ مثل ذلك الطالب الذي جاء به إليّ زملاؤه في تلك اللحظة، وهوى أمامي على الأرض مغمياً عليه من شدة الإعجاب. تلك واقعة ربما لا تصدق. إلا أنه (أدلى بشهادته فيما بعد) إلى «الإزفيستيا المعاصرة»، جريدة غيلياروف - بلاتونوف الذي كان بنفسه شاهداً على الحادث. أما السيدات فقد تحلقن حولي جميعاً، وليس الطالبات فقط، وأمسكن بيديّ بشدة كيلا أفلت منهن وأخذن يقبّلنهما. كان الجميع يبكون. حتى تورغينيف ذرف دمعة. صاح بي تورغينيف وآنينكوف الذي هو خصمي (الفكري) وقالا معجبيَن إن خطابي عبقري، أقرب إلى النبوءة. وأضاف تورغينيف: «أقول لك ذلك ليس لأنك امتدحت بطلتي ليزا»(3). لا مؤاخذة، يا أصدقائي الأعزاء، لا تسخروا مني لأنني أذكر لكم كل هذه التفاصيل وأتحدث عن نفسي كثيراً. أقسم باللّه ليس ذلك زهواً ولا تباهياً. فأنا أعيش هذه اللحظات بحذافيرها. ومن أجلها يولد الإنسان. الفؤاد مفعم بالمشاعر، فكيف لا أنقلها إلى الأصدقاء؟ أنا لا أزال مشدوهاً لحد الآن. لا تقلقوا، سأسمع قريباً «الرعاع يقهقهون ببرود أعصاب»(4) فلن تسامحني على ذلك مختلف الأزقة والعطفات والتوجهات الأدبية. خطابي سينشر قريباً. أظن أنه نشر يوم أمس الثاني عشر من الشهر في «الوقائع الموسكوفية». وسيبدأ أولئك بانتقاده، وخاصة في بطرسبورغ. من خلال كتابات الصحف أرى أنها تجاهلت، في عرض مضمون خطابي، كل ما هو أساسي فيه. وأقصد النقطتين المفصليتين: 1) أريحية بوشكين العالمية وقدرته على التحول تماماً إلى عبقري للأمم الأخرى، وهي قدرة لم يشهدها بعد أعظم الشعراء العالميين، و2) كون هذه القدرة انطلقت تماماً من روح

شعبنا، ما يعني أن بوشكين هو الشاعر الأكثر شعبية. علماً بأن تورغينيف، في خطابه الذي ألقاه قبل خطابي، جرد بوشكين من صفته شاعراً للشعب كله. ولم يلاحظ أحد حتى الآن خاصية بوشكين العظيمة تلك في التحول إلى عبقري للأمم الأخرى.(5) والمهم أنني قدمت في ختام خطابي صيغة وكلمة مصالحة لجميع أحزابنا وأشرت إلى الطريق المؤدي إلى عصر جديد. هذا تحديداً ما تلمَّسه الجميع، أما مراسلو الصحف فلم يفهموه أو لم يرغبوا في فهمه.

فلنترك هذه المسألة. خطابي نشر أمس أو اليوم في «الوقائع الموسكوفية»، وللأسف الشديد على عجل، من دون مراجعتي. في الأول من يوليو سأصدر العدد الجديد من «يوميات الكاتب»، أعني العدد الوحيد لعام 1880. وفيه سأنشر خطابي كاملاً، دفعة واحدة، بعد مراجعة دقيقة. آنذاك سأرسله لكم، يا حضرة صوفيا أندرييفنا الموقرة. راجياً أن أتلقى نقداً دقيقاً وصارماً، لا أخشاه، بل أحبه دوماً حتى وإن كان مؤذياً بالنسبة لي.

في موسكو تعرفت على عدد من الشخصيات، فهل تعرفون أو سمعتم بالسيدة فيرا نيكولايفنا تريتياكوفا؟ ما أروعها من امرأة!

وما أكثر النساء اللواتي جئن إليَّ في فندق «لوسكوتنايا»، وبعضهن لم يذكرن أسماءهن، لكي يعبّرن عن الاحترام ويقبّلن يديّ بعد الخطاب. فيما تحدثت عن نفسي كثيراً وتباهيت لدرجة جعلتني أشعر الآن بالخجل. العزيزة الطيبة القلب صوفيا أندريفنا، بودّي أن أستلم رسالة بخطكم الرائع العريض، ولو في صفحة واحدة. والله ستكون مبعثاً لفرحي وسروري. خلال اللقاء الشخصي سأحدثكم عن الكثير الكثير. يوليا فيودوروفنا (أباظة) كانت في ضيافتكم. أعمق تحياتي وأجمل تمنياتي إليها، فأنا أحبها حباً جماً.

كما أقبّل فلاديمير سيرغييفيتش (سولوفيوف) بحرارة. حصلت في موسكو على ثلاث صور فوتوغرافية له، إحداها في فتوته، والأخرى في شبابه والثالثة في شيخوخته![6]. فما كان أجمله في الشباب!

وصلت وسأعكف على كتابة «الأخوة كارامازوف» ليل نهار حتى شهر أكتوبر. ولن أسافر إلى أيمس. تقبّلوا أيتها الكونتيسة الموقرة أعمق التحيات القلبية وأنا أقدر رفيع التقدير موقفكم الودي تجاهي، ولذا سأبقى المخلص لكم دوماً

(ف. دوستويفسكي)

---

(1) صاحبة صالون أدبي في بطرسبورغ. زوجة الأديب الكونت ألكسي قسطنطينوفيتش تولستوي (1817-1875) وليس عقيلة الكونت ليف تولستوي (1828-1910) التي تحمل الاسم الثلاثي نفسه.

(2) البرقية بتوقيع صوفيا تولستايا ويوليا إباظة وفلاديمير سولوفيوف.

(3) رواية «عش النبلاء».

(4) من قصيدة لبوشكين بعنوان «إلى شاعر».

(5) نكرر هنا هامش الرسالة رقم 222: للشاعر العبقري أكثر من 400 تمثال في روسيا و40 دولة أخرى، بما فيها مصر (الإسكندرية).

(6) كان الفيلسوف فلاديمير. سولوفيوف آنذاك في الثلاثين من عمره!

237. إلى يلينا شتاكينشنيدر

ستارايا روسا، 17 يوليو 1880

الفاضلة يلينا أندرييفنا المحترمة

أنا بأمسّ الحاجة إلى حبك للبشر وتسامحك العقلاني في معاملتك للناس كي تصفحي عني لتأخري الطويل في الرد على رسالتك الودية الرائعة المؤرخة في 19 يونيو. تمعني في الوقائع على أية حال، وقد تجدين في نفسك القوة الكافية لمسامحتي أنا أيضاً. في الـ 11 من الشهر عدت من موسكو إلى ستارايا روسا في أشد حالات الإرهاق. لكنني واصلت كتابة «الأخوة كارامازوف» فوراً، فحبّرت ثلاث ملازم دفعة واحدة. وبعد أن أرسلتها (إلى المجلة) قرأت كل ما كتبته الصحف عني وعن الخطاب الذي ألقيته في موسكو، ولم أكن قد قرأت تلك الصحف في حينه لانشغالي بالرواية. ورأيت أن أرد على (انتقادات) غرادوفسكي (لخطابي)، ولا أعنيه هو شخصياً، قدر ما أقصد الكتابة عن معتقدنا وإيماننا بخصوص روسيا كلها. ذلك لأن الجانب الرائع المشهود والجديد تماماً في حياة مجتمعنا والذي ظهر على الساحة في مهرجان بوشكين بموسكو قد تعرَّض عمداً للتشويه

والمحو والتزوير. صحافتنا، وخصوصاً في بطرسبورغ، ارتعبت بكل معنى الكلمة من الجديد الذي شهدته موسكو ولم تكن قد شهدت له مثيلاً من قبل. ما يعني أن المجتمع لا يريد المسخرة والتهكم على روسيا وازدرائها، لا يريد البصاق عليها، كما هو الحال حتى الآن. أي أنه يريد بإلحاح وإصرار شيئاً مغايراً. أولئك يسعون إلى شطب ذلك الجديد وإتلافه والسخرية منه وتزويره وإقناع الجميع بأن أي جديد لم يحصل، وكل ما حصل هو سماحة القلوب بعد ولائم موسكو، بمعنى أن المدعوين تناولوا الكثير من الطعام والشراب. وأنا منذ أن كنت في موسكو قررت بعد نشر خطابي في «الوقائع الموسكوبية» أن أصدر حالاً في بطرسبورغ عدداً من «يوميات الكاتب»، وهو العدد الوحيد من المجلة لهذا العام، يتضمن الخطاب مع توطئة تبادرت إلى ذهني على المنصة حينما هرع إليّ تورغينيف وآنينكوف، مع أكساكوف والآخرين، وراحا يقبّلانني ويشدان على يدي بإلحاح قائلين إنني كتبت خطاباً عبقرياً. فهل يفكران الآن أن الخطاب هو كذلك حقاً؟ لا أظن، للأسف الشديد. وسيتناول موضوع التوطئة موقفهما الآن، بعد أن تخلصا من دهشتهما. لقد بعثت التوطئة مع الخطاب إلى المطبعة في بطرسبورغ واستلمت البروفة. إلا أنني قررت أن أكتب فصلاً جديداً في «اليوميات» موجهاً هذه المرة إلى غرادوفسكي. فجاء في ملزمتين، صببت فيهما كل خلجات الروح، وأرسلت الفصل هذا اليوم إلى المطبعة. يوم أمس كان عيد ميلاد ابني فيديا[1]. حل علينا ضيوف، فيما انزويت جانباً لأنهي ما بدأته من الكتابة. (بمعنى أنهم سامحوني). ولذا أرجوك أنت أيضاً، يا يلينا أندرييفنا، أن تسامحيني ولا تزعلي مني لتلكؤي في الرد. أنا أحبك، وأنت تعرفين ذلك.

لا أستطيع أن أعرض في رسالة انطباعي عن موسكو وما إلى ذلك، وأيضاً مزاجي الحالي تقريباً. أنا غارق في العمل، كما في الأشغال الشاقة. أريد وأنا مصمم أن أنهي في سبتمبر الجزء الرابع والأخير من «كارامازوف»، وعندما أعود في الخريف إلى بطرسبورغ سأكون لبعض الوقت متفرغاً نسبياً، فأستعد «اليوميات الكاتب» التي سأستأنف إصدارها على الأرجح في العام القادم 1881[2]. أنتِ في المنزل الريفي؟ من أين تصلكم أخبار موسكو؟ لا أدري كيف نقل لكم غايفسكي قضية كاتكوف. فهي لم تكن على هذه الصورة. كاتكوف تعرَّض لإهانة من جمعية «عشاق الأدب الروسي» التي نظمت الاحتفالات عندما سحبت منه دعوة كانت قد وجهتها إليه قبل ذلك. أما الخطاب الذي ألقاه في مأدبة مجلس البلدية فقد كان بطلب من المجلس وبصفة ممثل له. وما كان تورغينيف يخشى أبداً أن يتعرض شخصه للإهانة من قبل كاتكوف، إلا أنه تظاهر بالخوف من تلك الإهانة، أما كاتكوف فبالعكس هو الذي كان يخشى الأذى. كان لدى تورغينيف فريق هائل جنَّده ودرَّبه كوفاليفسكي مع الجامعة، ولذا ما كان هناك شيء يمكن أن يخشاه. تورغينيف هو أول من أهان كاتكوف. وبعد أن فرغ كاتكوف من إلقاء خطابه وهرع إليه أناس مثل إيفان أكساكوف لتهنئته بقرع الكؤوس، حتى خصومه قرعوا كؤوسهم معه، ومد كاتكوف بنفسه يده ليقرع كأس تورغينيف سحب هذا الأخير كأسه ولم يهنئ الرجل. هذا ما ذكره لي تورغينيف نفسه.

كتبت تطلبين مني أن أرسل إليك خطابي. ولكنني لا أمتلك نسخة منه. النسخة الوحيدة التي كانت لدي موجودة في المطبعة التي تطبع «اليوميات». سيصدر عدد «اليوميات» في الخامس من أغسطس على الأغلب، فانتبهي إليه وبلّغي الزميل العزيز أندريه أندريفيتش[3]، لأنني

أريد رأيه. وانقلي تحياتي القلبية إلى ماريا فيودوروفنا وصوفيا إيفانوفنا (شتاكينشنيدر) وأولغا أندرييفنا (أيسلر)، وذكّري جميع ذويك بي. أنا لا أقول شيئاً عن الخريف، غير أنني أتمنى لك موفور الصحة لفصل الشتاء. زوجتي تبعث إليك وإلى الجميع تحياتها القلبية. اكتبي لي، رجاءً، مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) فيودور فيودوروفيتش دوستويفسكي (1871-1922) اختصاصيّ في تربية الخيول، تعرض للتنكيل بعد ثورة أكتوبر 1917 وكاد يعدم رمياً بالرصاص في القرم. نظم الشعر وخابت آماله في مضمار الأدب. ظلت محفوظتين رسالتان فقط من فيودور دوستويفسكي الأب إلى ابنه فيودور (تجدونهما في موضع آخر من الكتاب. رسالة رقم 165(أ.ب.ج) ورسالة رقم 215 (ب).

(2) فرغ المؤلف من رواية «الأخوة كارامازوف» في بداية نوفمبر 1880 وأصدر العدد الوحيد من «يوميات الكاتب» لعام 1881 في شهر يناير.

(3) أندريه شتاكينشنيدر حقوقي استشاره دوستويفسكي عندما استعصت عليه بعض المرافعات الجنائية أثناء تأليف «الأخوة كارامازوف».

238. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 10 أغسطس 1880

السيد الكريم

نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

مع هذه الرسالة بعثت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» ما هو مخصص لعدد أغسطس من مجلتكم، وأعني خاتمة الكتاب الحادي عشر من «الأخوة كارامازوف» في 72 صفحة نصفية من صفحات البريد، أي ثلاث ملازم طباعية ونصف تماماً.

أرجوك كل الرجاء أن تبعث لي البروفة في وقتها. من دون إبطاء. الكتابان الثاني عشر والأخير سيصلان هيئة التحرير تباعاً في الـ 10 أو الـ 12 من سبتمبر القادم على وجه التقريب. وهما أيضاً بحجم ثلاث ملازم أو ثلاث ونصف لا أكثر. وبعد ذلك تبقى «نهاية» الرواية في ملزمة طباعية ونصف.

والآن أتناول ما أرسلته لكم.

أنا نفسي أعتبر الفصول 6 و7 و8 موفقة. لكنني لا أدري كيف ستنظر أنت، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، إلى الفصل التاسع. قد

تعتبره نموذجياً جداً من حيث الطباع. لكنني، واللّه، ما أردت أن أبدو متحذلقاً. وأرى من واجبي أن أحيطك علماً بأنني أخذت من زمان رأي الطبيب، وأكثر من طبيب. وهم يؤكدون أن هذه الكوابيس، بل وحتى الهلوسة ممكنة قبيل الهذيان الرعاشي (عند السكارى). بطل روايتي يواجه الهلوسة طبعاً، لكنه لا يخلطها بكوابيسه. وتلك ليست فقط خاصية بدنية مرضية، حيث يفقد المرء في بعض الأحيان القدرة على التفريق بين الواقعي والوهمي، وهو أمر يحصل لكل إنسان تقريباً ولو مرة في العمر. بل هي أيضاً خاصية نفسانية تتوافق مع طباع البطل. فهو إذ ينكر واقعية الشبح الوهمي إنما يعترف بوجوده عندما يختفي. إنه يتعذب لغياب الإيمان ويرغب لاشعورياً في الوقت ذاته أن يكون الشبح واقعاً لا خيالاً.

على أية حال، ما من موجب لكلامي هذا. فسترى كل شيء بنفسك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، عندما تقرأ النص. ولكن، لا مؤاخذة على شيطاني، إنه مجرد شيطان صغير (متواضع) وليس إبليس كبيراً «بجناحين ملتهبين». ولا أظن أن هذا الفصل سيكون مملاً جداً رغم طوله. كما لا أظن أن فيه مفردات بذيئة سوى «زعيق الملائكة الهستيري». أرجوك أن تمرر النص في هذا الموضع كما هو، فالشيطان يقول إنه لا يستطيع الكلام على نحو آخر. وإذا تعذر ذلك فاكتب «تهاليل الفرح» بدلاً من «الزعيق». ولكن أرجو إبقاء «الزعيق»، لأن النص سيكون والحال هذه سردياً لا شاعرية فيه خلافاً للجو العام.

لا أظن أن شيئاً مما يهذر به الشيطان هنا مخالف للآداب (. . .) فما أكثر أكاذيب مفستوفيلس في كلا جزئي «فاوست».

أعتقد أن الفصلين العاشر والأخير تضمّنا توضيحاً وافياً لحالة

إيفان النفسية، وبالتالي يكون الكابوس في الفصل التاسع واضحاً أيضاً. وأكرر أنني تأكدت من تلك الحالة بعد استشارة الأطباء.

ومع أنني نفسي أرى أن هذا الفصل التاسع كان يمكن أن لا يوجد، إلا أنني كتبته بارتياح لسبب ما، ولا أتخلى عنه بالمرة.

الهذيان الرعاشي ينتاب بطلي في نوبة شديدة في اللحظة التي يدلي فيها بإفادته في المحكمة، في الكتاب الثاني عشر المرتقب.

وهكذا أعربت لك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، عن كل شكوكي. وأنتظر البروفة بفارغ الصبر.

كيف أحوالك؟ ألا تزال تقيم في المنزل الريفي؟ هل أنعم عليكم اللّه بطقس جيد؟ الطقس عندنا لا أروع منه. عين الحسود فيها عود. بينما في بطرسبورغ مطر مع أنها لا تبدو بعيدة. هنا (في ستارايا روسا) تتحسن صحتي، رغم انكبابي على العمل. وسيكون من دواعي سروري أن أبعث إليك عدد «يوميات الكاتب» الذي سيصدر في بطرسبورغ في 12 أغسطس، وهو العدد الوحيد لهذا العام.

تحياتي الخالصة لعقيلتك.

أرجو التكرم بنقل احتراماتي العميقة إلى ميخائيل نيكيفيروفيتش (كاتكوف).

طياً إيصال بتسلمي ألف روبل منكم. وأنا شاكر لكم كل الشكر على تلبية طلبي في حينه.

أرجوكم أن ترسلوا لي عدد أغسطس من «البشير الروسي» إلى ستارايا روسا. عدد يوليو استلمته مع الشكر والامتنان.

وتقبَّل فائق الاحترام والتقدير من خادمك المخلص دوماً

ف. دوستويفسكي

239. إلى آنّا دوستويفسكايا

ستارايا روسا، 11 أغسطس 1880 منتصف الليل

صديقتي العزيزة آنيا، كيف وصلت (إلى بطرسبورغ)؟ بودّي أن أستلم منك ولو سطراً واحداً على جناح السرعة. كيف أمورك المعيشية؟ أين تنامين؟ أين تقتاتين؟ كيف (يجري إصدار) «اليوميات»؟ عندما مضينا لتوديعك أنا وفيديا ذهبت لوبا مع صونيا وأنفيسا وماريا إلى الأب (رومیانتسوف). وعلمنا منه بشأن النزهة العامة في حديقة المدينة على ضفة نهر كراسنايا جنب متنزه القصر، فركبنا، أنا وفيديا، العربة إلى هناك. كان ثمة جمهور غفير و(ألعاب) ومنشدون عسكريون. فيديا استمع جيداً. ولما كان الجو رطباً فقد عدنا وعرجنا (على القسيس) لنأخذ لوبا، ثم مضى الصغيران للنوم. بينما عملت أنا طول الليل. استيقظت في الـ 12. وكان فيديا ولوبا قد ذهبا لإرسال الرسالة إليك. تصرفهما على العموم جيد جداً. فيديا همَّ بالذهاب لصيد السمك على شاطئ النهر، لكنني وجدته على منحدر الضفة فأمرته بالعودة إلى البيت، فعاد فوراً من دون اعتراض. صباحاً جلست أنفيسا عند لوبا طول الوقت، ثم ذهب الجميع إلى الأب، فيما مضيت

أنا للتمشي. يبدو أن القس مهتم بالأطفال، فهو غالباً ما يدعوهم إليه. ليسهّل الأمر عليّ بالطبع. فيديا لا يفترق الآن عن سيرغوشا، فقد ظهرت لدى هذا الأخير بندقية تطلق كريات كالبازلاء. بعد التمشي أخذت الصغيرين وتغدينا معاً، وتحدثنا عنك «وعما أنت فيه هناك». بعد الغداء مضى الصغيران إلى القسيس من جديد. ثم، وبعد التمشي، أخذتهما ثانية. وفي الطريق سأل فيديا عنك: «بابا، متى سافرت ماما؟ يوم أمس، أليس كذلك؟ فهل ستعود غداً؟ أو بعد غد؟». وحينما وصلنا إلى البيت شربنا الشاي وانطلق الاثنان، فيما جلست لأكتب إليك. تلك هي كل مغامراتنا. باختصار، كل شيء تمام وفي هدوء. تصرف الصغيرين محمود، وهما يريدان التصرف بشكل محمود. إنهما ملتزمان بالوعد الذي قطعاه لك. الطقس عندنا رائع. فيديا من دون قبعة. طاقيته الصيفية تهرأت. وقد رقعتها ليليا. وهي غير مناسبة للموسم، لا سيما وأن حافتها انفصلت عنها بعد أن اكتست بطبقة دهنية. حبذا لو جلبتِ له واحدة جديدة. في «غوستيني دفور» قرب الكنيسة حانوت للعب الأطفال عند ركن الشارع كانت فيه طاقيات ضباط للأطفال مزينة بشعار الجيش وتباع بسعر روبل واحد.

حبذا لو عدت سريعاً. فقد تتعبين هناك. وأخشى أن تمرضي. هل ستصدر «اليوميات» هذا اليوم؟ أعلنت «العصر الجديد» اليوم للمرة الثانية عن موعد صدور العدد الجديد من «يوميات» دوستويفسكي. ولا كلمة في أي صحيفة أخرى، حتى في شريط الأخبار. في حين لو حزق غونتشاروف لصاحت جميع الصحف أن أديبنا البارع قد حزق. أما أنا فهي تتجاهلني وكأنما أجمعت على ذلك. أكيد أن (مطبعة الأخوين) بانتيلييف متلكئة (في طبع «اليوميات»). حبذا لو أسرعتْ. لتعودي أنت إلينا من دون تأخير. بلّغي تحياتي إلى ماريا نيكولايفنا

(سنيتكينا) واطلبي منها أن تخبرنا أكثر بسير إصدار «اليوميات» لحد الـ 25 من أغسطس على الأقل. أنا لا أعتقد بأن الأمر على ما يرام. إلا أن العدد سينفد في الأخير. إلى اللقاء إذن، إلى اللقاء القريب. ربما سأكتب لك مرة أخرى غداً، على أية حال. المهم أن لا يحصل لك مكروه. فقد أخذتِ على عاتقك مهمات كبيرة (في إصدار وتوزيع «اليوميات»). غداً ستكتب ليليا إضافة شخصية منها لك على هذه الرسالة. وحتى فيديا يريد أن يخربش عليها بضع كلمات. وسيحملان الرسالة إلى البريد. الآن يغطان في النوم. ماريا تنام في الغرفة التي فيها الغسال. والجرسون ينام في الباحة. إلى اللقاء، أعانقك.

المخلص ف. دوستويفسكي



240. إلى ماريا بوليفانوفا

ستارايا روسا، 16 أغسطس 1880

الفاضلة ماريا ألكساندروفنا[1] الموقرة

اعذريني، بسماحة روحك وقلبك الكبير، لأني لم أرد عليك في الحال. إذا كنتُ في زمن ما، في حياتي كلها، غارقاً في عمل يفوق طاقتي ومرهقاً لهذا الحد، فذلك هو ما حصل هذا الصيف. وإضافة إلى انكبابي على خاتمة الرواية فقد أصدرت في بطرسبورغ تواً العدد الكبير من «اليوميات» بعد أن كتبته طوال الآونة الأخيرة بحماس وبجهد جهيد. وأظن أن هذا التراكم غير الطبيعي للعمل سيترك أثره كذلك في صحتي. وسيرسل إليك هذا العدد من «اليوميات» غداً. فاقرأيه واكتبي لي شيئاً عنه. فأنا دوماً، ومن أجل الدعم المعنوي، بحاجة ماسّة إلى آراء الذين أحترمهم وأثق بعقولهم وقلوبهم. فما أكثر ما كتبتِه لي من أمور جيدة وطيبة حول الانطباعات التي تركها في نفسك العدد السابق من «اليوميات». ولا يسعني، وأنا أتذكر لقاءنا في بطرسبورغ، إلا أن أثق بفطنتك وبمشاعرك الطيبة الصائبة. في ذلك اللقاء وحده تعلمت تقديرك واحترامك، بل وتصديقك، علماً بأنني إذا

صدقت بأحد فإلى الأبد. تقولين إنك تريدين كتابة المزيد لي. فاكتبي من كل بد. وأكرر أن القلوب البصيرة الصادقة كقلبك هي وحدها القادرة على إسناد الإنسان.

في رسالتك تطرحين عليّ سؤالاً عصياً على الحل، وهو للأسف عمومي تماماً. فهل هناك كائن بشري في زماننا لم يحزن لمثل هذا السؤال؟ الإنسان بالطبع يمكن أن يتعرض لانفصام الشخصية طول الوقت. ويعاني من ذلك دون ريب. إذا لم يكن هناك أمل في مخرج طيب ومقبول فينبغي العثور على مخرج باطني جديد دون إجهاد الذات على قدر الإمكان، ينبغي ممارسة نشاط ثانوي قادر على تغذية الروح وإرواء تعطشها. أظن أن ذلك هو الأفضل. لا سيما وأن سؤالك عمومي تماماً وأنت تطرحينه بصورة عمومية. لا بد من معرفة الكثير فيما يخص التفاصيل والمبطنات. فهل تعلمين أنني أقل الناس قدرة وأهلية للبت في مثل هذه المسائل؟ ذلك لأن موقفي، ككاتب، خصوصي جداً بشأن هذه المسائل. فلدي دوماً نشاط تأليفي متواصل أنهمك فيه بارتياح وأبذل فيه كل جهودي، كل أفراحي وآمالي وأوفر لها المخرج والمنطلق بهذا النشاط. ولذا فلو واجهني هذا السؤال شخصياً لوجدت في الحال نشاطاً روحياً يبعدني رأساً عن الواقع العصيب وينقلني إلى عالم آخر. وبسبب توفر مثل هذا المخرج من المسائل الحياتية العصيبة أبدو وكأنني متحيز مأجور، لأنني مؤمّن ويمكنني حتى أن أحكم على الأمور بتحيز انطلاقاً من وضعي الشخصي. ولكن ما أصعب الأمر على أولئك الذين لا يمتلكون هذا المخرج وذلك النشاط الجاهز الذي ينجدهم دوماً ويبعدهم عن المشكلات التي لا مخرج منها، والتي تغدو أحياناً في منتهى الإيلام

بالنسبة للوعي والفؤاد، وتتطلب حلاً بإلحاح، وإلا تظل تعاكسهما وتؤذيهما.

سأبقى في ستارايا روسا على الأرجح حتى منتصف سبتمبر. ثم أنتقل إلى بطرسبورغ. ولا أدري هل سأتمكن من المكوث في موسكو خلال الخريف أو في بداية الشتاء؟ حتى ولو كان بمقتضى الأعمال وحدها. لا أدري. اعتباراً من يناير القادم ربما سأستأنف إصدار «يوميات الكاتب».

أشد على يدك بحرارة، مع فائق الاحترام والتقدير

المخلص تماماً ف. دوستويفسكي

---

(1) زوجة الكاتب ليف بوليفانوف، رئيس اللجنة التحضيرية لاحتفالات إزاحة الستار عن تمثال بوشكين في موسكو.



241. إلى نيكولاي أوزميدوف

ستارايا روسا، 18 أغسطس 1880

السيد الكريم نيكولاي لوكيتش

قرأت رسالتك بكل اهتمام، وماذا عساي أن أرد عليها؟ أنت نفسك ذكرت، بحق، أن الرسالة تعجز عن احتواء كل شيء. وأنا أظن أن من المتعذر كتابة أي شيء فيها بشكل مقبول، ما عدا الصيغ العمومية. ثم إن مجيئك إليّ من أجل النصيحة مضيعة للوقت بالنسبة لك، لأنني لا أعتبر نفسي على الإطلاق مرجعية مؤهلة لحل مشكلاتك. تقول إنك لم تعط ابنتك لحد الآن نتاجاً أدبياً لتقرأه، خشية أن تتطور تخيلاتها. أظن أن ذلك ليس صحيحاً تماماً. فالتخيل قابلية طبيعية في الإنسان، لا سيما عند الطفل أياً كان. وهي على الأغلب القابلية الأكثر تطوراً بالمقارنة مع جميع قابليات الطفل الأخرى منذ نعومة أظفاره، وتتطلب تطميناً وإشباعاً. وإذا جرى قمعها وتمويتها وعدم إشباعها، أو، على العكس، المبالغة في تطويرها بالجهود الشخصية المفرطة، ففي ذلك ضرر، لأنه يقود إلى استنزاف الجانب الروحي قبل الأوان. الانطباعات الجمالية ضرورية في

الطفولة تحديداً. عندما كنتُ في العاشرة من عمري شاهدت في موسكو مسرحية شيلر «قطاع الطرق»، بطولة موتشالوف. وأؤكد لك أن الانطباع العميق الذي تركته في نفسي آنذاك أثَّر على الجانب الروحي لدي بشكل مثمر للغاية. وفي الثانية عشرة قرأت، وأنا في الريف أيام العطل، كل مؤلفات والتر سكوت، وتطورت لدي القدرة على التخيل الفنتازي والتأثر بالانطباعات، إلا أنني وجهتها إلى الجانب الخيّر وليس الشرير، لا سيما وأنني احتفظت من هذه المطالعة بأروع الانطباعات السامية التي شكلت في نفسي بالطبع قوة كبيرة للتصدي لانطباعات الغواية والتهتك والتفسخ. وأنصحك أنت أيضاً أن تعطي والتر سكوت لابنتك، لا سيما وأنه بات منسياً تماماً عندنا نحن الروس. عندما تعيش ابنتك فيما بعد بصورة مستقلة لن تجد الإمكانية ولا الحاجة للتعرف على هذا الكاتب العظيم. ولذا انتهز الفرصة لتعريفها عليه طالما هي لا تزال في منزل الأبوين. لنتاج والتر سكوت أهمية تربوية كبيرة. ولتقرأ ابنتك كل مؤلفات ديكنز بلا استثناء. عرّفها على آداب القرون الخوالي (. . .) والأفضل أن تبدأ بالشعر. ينبغي لها أن تقرأ بوشكين كاملاً. شعره ونثره. وكذلك غوغول وتورغينيف وغونتشاروف إذا أردت. ولا أعتقد أن جميع مؤلفاتي تصلح لها. حبذا لو قرأت تاريخ شلوسر بكامله، وتاريخ روسيا (تأليف سرغي) سولوفيوف. حبذا لو لم تتجاهل كارامزين. ولكنْ، لا تعطها (مؤلفات) كوستوماروف. كتابا بريسكوت «غزو بيرو» و«غزو المكسيك» ضروريان. عموماً، للمدونات التاريخية أهمية تربوية بالغة. وينبغي (لابنتك) أن تقرأ كل مؤلفات ليف تولستوي. مؤلفات شكسبير وشيلر وغوته موجودة في ترجمة روسية جيدة جداً. هذا يكفي للمرحلة الراهنة. وسترى بنفسك أن بالإمكان الإضافة إلى

القائمة بمرور الزمن. ويفضل استبعاد الكتابات الصحافية، في المرحلة الحالية على الأقل. لا أدري هل سترضيك نصائحي أم لا؟ كتبتها إليك انطلاقاً من بعض الاعتبارات ومن التجربة الشخصية. وسأكون مسروراً لو رضيتَ بما أنصح. وأعتقد أن اللقاء الشخصي الآن لا حاجة إليه، لا سيما وأنني حالياً مشغول جداً. وأكرر من جديد أنني لا أعتبر نفسي مرجعية متضلعة في هذه المسائل. عدد «اليوميات» أرسلناه لك، سعره مع البريد 3، 5 روبلاً، وأبقى مديناً لك بـ 65 كوبيكاً. ودمتم

للمخلص ف. دوستويفسكي



242. إلى إيفان أكساكوف

ستارايا روسا، 28 أغسطس 1880

العزيز إيفان سيرغييفيتش المحترم. كنت أريد أن أجيب على رسالتك الأولى في الحال، والآن وقد استلمت الرسالة الغالية الثانية منك أرى أن أكتب الكثير وبالتفصيل.

لم أشهد في حياتي أبداً ناقداً صادقاً صدوقاً يتعاطف تماماً مع نشاطي مثلك. بل إنني نسيت ولم أعد أفكر في وجود، وإمكان وجود، نقاد مثلك. ذلك لا يعني أنني متفق معك في كل شيء من دون قيد أو شرط، إلا أن الحقيقة تقول إن لدي نفسي، على العموم، شكوكاً كبيرة مع أنه كانت لدي تجربة عامين (متواليين) في إصدار «اليوميات». وهي شكوك تدور تحديداً حول كيفية الكلام ولهجته، وما لا يجوز الكلام فيه أصلاً. رسالتك وصلتني وأنا أغوص في هذه الشكوك، ذلك لأنني عزمت جاداً على مواصلة إصدار «اليوميات» في العام القادم، ولذا يخامرني القلق، وأبتهِل إلى من يُبتهَل إليه أن يمنحني الطاقة والقدرة على الكتابة. ولذا شعرت بالفرحة العارمة لوجودك، لأنني أرى الآن أنني أستطيع أن أعرض عليك ولو بعض

شكوكي، في حين أنك تقول لي دوماً كلمتك الصادقة العميقة التي تدل على بُعد نظر. أرى ذلك وأفهمه من رسالتيك. إلا أن مصيبتي هي أن أكتب لك الكثير، في حين أنني لست حراً طليقاً ولا أستطيع الآن أن أكتب كل ما أريد. قد لا تصدق إلى أي مدى أنا مشغول، أعمل ليل نهار كما في الأشغال الشاقة. ذلك لأنني أختتم «الأخوة كارامازوف»، وبالتالي أستعرض حصيلة نتاج أعتز به في أقل تقدير لأن فيه الكثير مني ومن كياني. ثم إنني عموماً أعمل بعصبية وعذاب وهموم. وعندما أعمل بإجهاد أمرض بدنياً أيضاً. فيما أستعرض الآن حصيلة ما فكرت فيه وخططت له وسجلته طوال ثلاثة أعوام. ولا بد أن أقوم بذلك على أحسن وجه، بقدر المستطاع على الأقل. أنا لا أفهم العمل بتسرع من أجل المال. ولكن حان الوقت لإنهاء الرواية من دون تسويف. فهل تصدق بأنني، رغم التسجيلات التي واظبت عليها 3 أعوام، أكتب أحياناً فصلاً ثم أرميه وأكتبه من جديد، وأعيد الكرّة مراراً؟ ولا تأتي دفعة واحدة وبالتوالي إلا المواضع والمقاطع الوليدة التي يتمخض عنها الإلهام. وكل ما عداها ثمرة جهد جهيد. ولذا، ورغم رغبتي الشديدة، لا أستطيع الآن أن أكتب إليك. معنوياتي غير مناسبة، وإلى ذلك لا أريد أن أتوزع (على عدة جبهات). سأكتب إليك عندما أتفرغ في حدود العاشر من سبتمبر القادم. وسأفكر في الأمر ملياً حتى ذلك الحين. فالمسائل صعبة، على أية حال، ويجب عرضها بوضوح. فلا تزعل، ولا تعتبر ذلك استهانة مني، وإلا ستكون على خطأ. والآن أعانقك وأشكرك من صميم القلب. أنا بحاجة إليك وهذا يكفي لكي أحبك.

المخلص ف. دوستويفسكي

243. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 8 سبتمبر 1880

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

مهما حاولتُ أن أنهي الكتاب الثاني عشر والأخير من «الأخوة كارامازوف» وأرسله إليكم لتنشروه دفعة واحدة أرى أخيراً أنني لن أستطيع. توقفت في موضع يمكن للسرد أن يشكل فيه وحدة متكاملة حقاً، رغم قلة تأثيرها، وإلى ذلك يتوقف الحدث نفسه وقتياً في هذا الموضع بالذات. وأعني «المحكمة». لا أظن أنني أخطأت في السرد من الناحية التقنية، فقد استشرت مسبقاً اثنين من المدعين العامين في بطرسبورغ. توقفت عن السرد لفترة استراحة قبيل «المرافعات». وبقيتْ كلمة المدعي العام وكلمة محامي الدفاع. هنا لا بد من العمل بشكل أفضل على قدر الإمكان، لا سيما وأن المحامي والمدعي العام يمثلان عندي، فيما يمثلان، نموذجاً لمحاكمنا الراهنة بكل ما يلازمها من أخلاقيات وليبرالية ونظرة إلى مهماتها، مع أنني لم أستنسخهما من شخصيات واقعية. وسأعمل الآن على هذين الخطابين. وبهما، إلى جانب قرار «الحكم»، أنهي الكتاب الثاني عشر والأخير من الرواية.

وتبقى «الخاتمة» بملزمة ونصف. ولكنني أنوي وأرغب مصمماً في إتمام ونشر نهاية الجزء الرابع مع «الخاتمة». وسيكون ذلك من أجل عدد أكتوبر من «البشير الروسي». أما الآن فأرسل إليكم، لعدد سبتمبر، قسماً من الكتاب الثاني عشر، وهو كبير في 5 فصول وحجمه في حدود ثلاث ملازم. وأرجوك كل الرجاء أن ترسل لي البروفة في حينها الآن أيضاً، كما في المرة السابقة. وسأبقى هنا، في ستارايا روسا، إلى الـ 25 من سبتمبر في أقل تقدير. فالصيف رائع. بلّغ احتراماتي العميقة لعقيلتك. زوجتي تبعث لكما تحياتها القلبية وأفضل التمنيات. احتراماتي العميقة وتحياتي إلى ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف).

وتقبَّل مني، يا عزيزي نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، فائق الاحترام والتقدير

خادمك الدائم ف. دوستويفسكي

(. . .)

244. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 8 نوفمبر 1880

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أبعث إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» طياً «خاتمة» «الأخوة كارامازوف» التي أنهي بها الرواية، في 31 ورقة نصفية بريدية، بما لا يزيد عن ملزمة وثلاثة أرباع الملزمة من قياس «البشير».

وأرجوك كل الرجاء خصيصاً أن تبعث لي البروفة بنسختين، وليس بنسخة واحدة. فالنسخة الثانية تلزمني هنا للتلاوات المرتقبة بعد العشرين من نوفمبر. ذلك لأنني تلوت كل ما عندي، بينما في هذه البروفة جديد. سأتلو الفصل الأخير: تشييع إيليوشيتشكا وخطاب أليوشا. أنا أعرف من تجربتي الخاصة أن مثل هذه المواضع في التلاوة تترك انطباعاً معيناً.

ها هي الرواية قد تمت. اشتغلت عليها ثلاث سنوات، واستغرق نشرها عامين. تلك فترة مشهودة بالنسبة لي. كما أنني أنوي إصدارها في طبعة مستقلة قبيل أعياد الميلاد[1]. الطلب عليها كثير هنا. وموزعو الكتب في روسيا أخذوا يبعثون إلينا حوالات مالية.

اسمح لي أن لا أودعك. فأنا أنوي العيش والكتابة 20 عاماً أخرى. فلا تُسئ الظن بي.

كان بودّي أن أزور موسكو الآن، بعد الفراغ من «الأخوة كارامازوف»، إلا أنني لن أتمكن على ما يبدو. أشد على يدك بحرارة، وأشكرك على المشاطرة، بل وعلى «معقمات» المراجعة التي هي ضرورية للنص أحياناً.

العدد الأخير من مجلتكم جاء في حلة رائعة. ولكن هل هناك بقية (لمقالاتك) المعنونة «بعكس التيار»؟ فهي ذات حضور مشهود. حبذا لو نشرتموها في نوفمبر وفي ديسمير. إذ إنها ضرورية، صدقني. كونها تؤمن النجاح الأكيد.

احتراماتي العميقة لعقيلتك الموقرة. وتكرم بتبليغ تحياتي الخالصة إلى ميخائيل نيكيفوروفيتش المحترم.

زوجتي تبعث إليكم خالص تحياتها.

وتقبَّل فائق الاحترام والتقدير من

المخلص دوماً ف. دوستويفسكي

سانت بطرسبورغ

زقاق كوزنيتشني، دار رقم 5، شقة رقم 10. قرب كنيسة فلاديميرسكايا.

ليد ف. م. دوستويفسكي

---

(1) في بداية ديسمبر 1880 صدرت «الأخوة كارامازوف» في أول طبعة مستقلة بمجلدين عليهما تاريخ عام 1881 وبثلاثة آلاف نسخة بيع نصفها في أيام معدودات.

سابعاً:
رسائل الأيام الأخيرة



قبر دوستويفسكي في بطرسبورغ

245. إلى ألكساندرا تولستايا

بطرسبورغ، 5 يناير 1881

الآنسة الفاضلة الكونتيسة ألكساندرا أندرييفنا[1]

الأحد القادم يشرفني أن أزور حضرتكم ما بين الـ 3 والـ 4 (بعد الظهر)[2].

مع فائق الاحترام والتقدير

خادمكم الدائم ف. دوستويفسكي

---

(1) عمة ليف تولستوي، (ابنة أخ جده)، تكبره بـ 11 عاماً. وصيفة ومربية في البلاط القيصري.

(2) حصل اللقاء فعلاً، ولكن ليس في ذلك الموعد، بل قبيل وفاة الكاتب بخمسة أيام. سلمت الكونتيسة دوستويفسكي نسخة من رسالة ليف تولستوي إليها، مؤرخة في 2- 3 فبراير 1880، وفيها يرفض تولستوي المعتقدات الكنسية.

246. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 26 يناير 1881

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

طالما كنتَ دوماً تلبي جميع طلباتي الكثيرة فهل يمكنني أن أعوّل مرة ثانية على حسن رعايتك وآمل في مساعدتي لتلبية طلبي الحالي وربما الأخير؟[1]. بموجب فاتورة الحساب التي بعثتها لي هيئة تحرير «البشير الروسي» لا تزال في ذمتها 4000 روبل أو يزيد من مستحقاتي. أنا الآن بحاجة ماسّة إلى النقود. فتكرم بإبلاغ ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر بذلك. ألا يمكن الإيعاز بتحويل المبلغ إليّ كاملاً؟ وسأكون مديناً لك بكل الشكر والامتنان. أريد أن أنفق على أمر قد يفلت من أيدينا، ولذا فأنا في أمسّ الحاجة إلى المال.

معذرة لأنني لم أنتظر إيعاز مكتب «البشير الروسي» من تلقاء ذاته بدفع المبلغ، وأستعجلكم في التحويل. ولو لم تكن هناك ضرورة قصوى لما طلبت.

أتقدم بآيات الاحترام العميق لعقيلتك الموقرة، كما أرجوك أن تنقل احترامات مماثلة مني إلى ميخائيل نيكيفوروفيتش.

وتقبَّل فائق الاحترام والتقدير من

المخلص حقاً وصدقاً

ف. دوستويفسكي

---

(1) هذه آخر رسالة بخط دوستويفسكي. قالت له زوجته مازحة آنذاك: «ستكتب «كارامازوف» أخرى وستطلب منهم مقدماً مبالغ أخرى». وبعد أيام كتب ميخائيل كاتكوف في نعي دوستويفسكي أن كلمة «الأخير» هذه كانت نذير شؤم بالنسبة لنا جميعاً. كانت هاجساً بقرب الرحيل.



247. إلى يليزابيتا غيدين

مسودة

بطرسبورغ، 28 يناير 1881

(رداً على رسالة قلقة من الشخصية الاجتماعية المعروفة الكونتيسة يليزابيتا نيكولايفنا غيدين إلى آنّا غريغوريفنا. أملاها دوستويفسكي على زوجته في يومه الأخير وأجرت هي تعديلات عليها).

في الـ 26 من الشهر انفجر الشريان الرئوي وغمر الرئتين بالدم. وفي المساء تكرر النزيف غزيراً جداً مع عسر في التنفس. في الثانية عشرة والربع كان فيودور ميخائيلوفيتش على يقين بأنه سيموت. ثم تحسن التنفس شيئاً فشيئاً، وخف النزيف وتوقف. إلا أن الشريان الممزق لم يلتئم، ولذا يمكن للدم أن ينزف مجدداً. ساعتها يكون الموت محققاً بالطبع. وهو الآن في كامل ذاكرته وقواه، إلا أنه يخشى انفجار الشريان الرئوي من جديد.

...

من مذكرات آنّا غريغوريفنا:

«طلب مني أن أُحضِر الإنجيل وأُشعِل شمعة وقال: «سأموت اليوم». فتح



كنيسة القديس نيفسكي في بطرسبورغ

الإنجيل لا على التعيين وأعطاني إياه، فقرأت: «وإذا السماء قد انفتحت له فرأى روح اللّه نازلاً عليه مثل حمامة وآتياً عليه» - «متى»، الإصحاح. 3 : 13. فكرر مما قرأت «وإذا السماء قد انفتحت له» وأضاف: «ألم أقل لك يا حبيبتي إنني سأموت اليوم؟»... وفي مساء 28 يناير انتفض فجأة من دون سبب واضح ورفع رأسه، فشخب الدم على وجهه من جديد. ولم تسعفه مكعبات الجليد. أغمي عليه وشعرت أن النبض يكاد يضيع... وفي الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين أسلم الروح».

«في الأول من فبراير 1881 شيع جثمان فيودور دوستويفسكي إلى مثواه الأخير بمقبرة كنيسة نيفسكي في موكب عفوي مهيب لم تشهد بطرسبورغ مثله إلا في مقتل الإمبراطور ألكسندر الثاني بعد شهر من ذلك التاريخ!»

جداريات «دوستويفسكي»

في محاولة غير مسبوقة في الإصدارات العربية تنشر دار سؤال بين دفتي الكتاب بانوراما مكتملة للجداريات المستوحاة من مؤلفات الكاتب، 16 جدارية نفيسة تزين بهو محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو.

فيودور دوستويفسكي

الرسائل II

أخشى أن تكون على علم بحكم الإعدام علينا. رأيت من نافذة العربة التي نقلونا فيها إلى ساحة الاستعراضات جمهوراً غفيراً. ولربما وصلك النبأ أنت أيضاً. فكنتَ متألماً عليَّ. الآن سيكون الأمر بشأني أهون عليك. أنا لم أكتئب، يا أخي ولم تضعف معنوياتي. فالحياة هي الحياة أينما كانت. الحياة في داخلنا، في الباطن وليس في الظاهر.

سيكون على مقربة مني أناس، وأن يكون الشخص إنساناً بين البشر ويبقى إنساناً أبداً، مهما كانت المصائب، ولا يكتئب ولا يسقط، ذلك هو مغزى الحياة ومهمتها. لقد أدركت ذلك. هذه الفكرة تسربت في مسامات كياني، في دمي. نعم، تلك هي الحقيقة. فالدماغ الذي كان يبدع ويحيا حياة الفن الراقية، والذي أبدع وتعوّد على احتياجات الروح السامية، دماغي ذاك قطع من العنق. وبقيت الذاكرة والصور المرسومة وغير المتجسدة من قبلي في واقع الحال. صحيح أنها قروح في داخلي، لكن القلب باق لدي ونفس الدم ونفس النطفة التي تستطيع أن تحب وتتألم وتتوق وتتذكر. وهذا كله حياة على أي حال. السجين أيضاً يرى الشمس. وداعاً، إذن، يا أخي. ولا تحزن عليَّ.

فيودور دوستويفسكي، الرسائل II
ISBN: 978-614-8020-36-0
9786148020360
دار سؤال؟

www.darsoual.com
dar_soual@outlook.com
@darsoual2014
Dar Soual